İSTANBUL KALKINMA AJANSI

TÜRKİYE CUMHURİYETİ KALKINMA BAKANLIĞI

Bu eserin;

kataloglanması, dijital ortama aktarılması ve

elektronik ortamda kullanıma sunulması

İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA)'nın desteğiyle

İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı

Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü (Atatürk Kitaplığı)

tarafından gerçekleştirilmiştir.

Proje No	:	İSTKA/2012/BIL/233
Destek Programı	:	Bilgi Odaklı Ekonomik Kalkınma Mali Destek Programı
Projeyi Destekleyen	:	İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA)
Proje Adı	:	Osmanlı Dönemi Nadir Eserlerin Kataloglanması, Dijital Ortama Aktarılması ve Elektronik Ortamda Kullanıma Sunulması
Proje Sahibi Kuruluş	:	İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı
Proje Yüklenicisi	:	Yordam BT Ltd. Şti.
Proje Uygulama Yeri	:	Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü - Atatürk Kitaplığı İSTANBUL – Beyoğlu

İSTANBUL BÜYÜKŞEHİR BELEDİYESİ




İ.B.B
ATATÜRK KİTAPLIĞI
51
1924
Belediye Arapça Kitaplar Koleksiyonu

دار الكتب المصرية

احياء الآداب العربية

مسالك الأبصار
فى
ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمرى

بتحقيق

الأستاذ أحمد زكى باشا

الجزء الأول

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٢ هـ – ١٩٢٤ م





كلمة صغيرة

عن

موسوعات كبيرة



كلمة صغيرة

عن

موســوعات كبيرة

هذا كتاب "مســالك الأبصــار" لابن فضل الله العمرى !

وهو قد لا يحتاج الى التعريف به ولا بمؤلفه . فقد استفاد منه فى القرون الوسطى كل أكابر العلماء فى الشرق : من عرب وفُرس وتُرك .

حتى إذا ما رحل العلم عن بلادنا واستقرّ بأرض أوروبة ، تنبه المستشرقون اليه فاستقوا من بحره الطامى ، مثل "كاترمير" الفرنسى ، و"أمارى" الطليانى . فكان لهما القدح المعلّى والراية البيضاء فى استخراج كنوز المعارف من هــذا المعدن الغنىّ السخىّ الكريم . وأما غيرهم من المستشرقين الذين حذوْا حذوهم فهم كثيرون .

مع كل ذلك ، بقى المصريون — الى هــذا اليوم — محرومين وحدهم من بضاعة أجدادهم ، إلى أن وفقنى الله لردّها اليهم بعد أن بذلتُ ما بذلتُ فى هذا السبيل من التعب والعناء فيما لا يقلّ عن ربع قرن من الزمان .

اهتديت الى مكامنه فى دور الكتب بأمهات العواصم فى ديار أوروبة وفى خزائن المخطوطات بالقسطنطينية العظمى .

لكن الجزء الأوّل منه بقى فى حكم المفقود . فان نسخته التى بخزانة آيا صوفيا ليست بذاك .

ولقد تداركتنى العناية ، فعثرت بطريق الصدفة على كتاب مدشوت فى الأضابير المبعثرة بين الأوراق المنتثرة فى أسافل الخزانات بسراى طوپ قپو بالقسطنطينية .

وكان هذا الكتاب بعنوان "مرآة الكائنات" .

تصفحته قليلا ، وإذا به هو الضالة المنشودة !

ومما جعلنى أغتبط كل الاغتباط بهذه اللقية أن رجلا من أهل العلم قرأ هــذا الجزء على المؤلف ، وأن المؤلف كتب بخطه عليه بعض التصحيحات وأضاف اليه زيادات كتبها بيده فى ورقات "طيارات" .

نبهتُ رشاد بك أمين تلك الخزانة فى سنة ١٩١٠ الى هذه الدرة اليتيمة ، وطلبت إليه إعادة العنوان الى أصله ، وإضافة الولد المفقود الى أهله . ففعل .

وحينئذ أسرعتُ فأخذتُ بالفتوغرافية صورة الكتاب بأكمله (مع النسخة الأخرى من الجزء الأوّل التى بآيا صوفيا) وأحضرتُ الكل الى القاهرة . وهو محفوظ بدار الكتب المصرية . وليس يوجد فى أى قطر آخر بالمشارق والمغارب نسخة كاملة مثل التى أعدتُها لمصر . وقد كان عند أجدادنا من هذا الكتاب ما لا يقل عن العشرين نسخة كاملة ، طوّحت بها أيدى الزمان الى هنا والى هنا . وبقى وادى النيل محروما من هذه الثمرة المصرية التى كانت تتناولها الأيدى وتؤتى أكلها فى كل حين .

وقد عُنيتُ كل العناية ، وبذلتُ غاية الجهد فى تحقيق هذا الجزء الأوّل ، وسافرت الى فلسطين فى صيف العام الماضى لتطبيق ما أورده المؤلف عن "المسجد الأقصى" من البيانات الفنية المعمارية والاصطلاحات الهندسية البنائية التى لم يجر بها قلم كاتب قط ، لا من العرب ولا من العجم ، لا قديما ولا حديثا .

أبرزتُه على هذا المثال الذى أرجو أن ينال قبولا عند العارفين من أهل العلم .

وأملى فى الله كبير أن يمدّنى بالتيسير لإكماله على هذا النحو من الخدمة التى أخذتها على عاتقى ، للقيام بالعمل الجليل الذى أبتهل اليه تعالى فى تكليله بالنجاح ، وهو :

"إحياء الآداب العربية"

وسأتولى فى أحد الأجزاء التالية التعريف بهذه الموسوعات الاسلامية المصرية الكبرى ، بعد أن أنتهى من آستخبار المؤلف نفسه عن نفسه ، ومن آستكمال المواد التى ما زلت أجمعها من بطون الدفاتر ومختلف المصادر .

وسأضيف اليه رواميز فتوغرافيه يتمثل فيها خط المؤلف ، وخطوط الناسخين لكتابه الذى كان أكبر ينبوع للقلقشندى فى "صبح الأعشى" .

وأتمم ذلك كله بمعجم لغوى للألفاظ الاصطلاحية ونحوها مما أصبح فى حيز المجهول عندنا ، وأضحينا فى أشدّ الحاجة لتجديده للتعبير عما لا نجد له مقابلا فيما تدعو اليه أسباب الحضارة الحاضرة وما ظهر فيها من مبتكرات القرائح والعقول ؞

أحمد زكى باشا

الجيزة ، فى ربيع سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م

فهرس

الجزء الأوّل ، من كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار

فهرست المضامين

الباب الأوّل

فى مقدار الأرض وحالها ، وفيه [ستة] فصول

الفصل الأوّل — فى كيفية الأرض ومقدارها :

صفحة

صفحة

الاثار البينة فى أقطار الأرض

صفحة

صفحة

(وصف الحرم المقدسى ومزاراته الى سنة ٧٤٣ هـ — تصنيف خاص به لأحمد بن أمين الملك)

وصف فنىّ عربىّ للبناء على الطراز العربىّ :

صفحة

صفحة

ديارات الحيرة :

ديارات الشام وفلسطين :



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الأرض ومَن عليها ، ومُبدئ الخلق منها ومُعيدهم إليها . وأشهد أنْ لا إله إلّا الله وحدَه لاشريكَ له ، شهادةً تحفظ مالديْها . وأشهد أن محمّدا سيدنا عبدُه ورسولُه الذى فُتِحَ به لأُمّته من خلفها و بين يدَيْها . صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه ، صلاةً تفيض علىٰ المشارق والمغارب من جانبَيْها . وسلَّم تسليما كثيرا !

أما بعدُ ، فلمّا كانت النفوس لا يُصلحها إلا التنقُّل من حال إلىٰ حال ، والتوقُّل علىٰ شُرُفات الشـد والارتحـال ، للاطّلاع علىٰ الغرائب ، والاستطلاع للعجائب ، وقد قال تعالىٰ : ”أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ“ ، وقال : ”هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا“ ، وقال تعالىٰ : ”أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ“ ، وقال تعـالىٰ : ”الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ“ . ولقـد ذكر النبيّ ، صلى الله عليه وسـلم ، خطبة قُسّ بن ساعدة بعُكاظ ، وفيها قوله : ”إنّ فى السماء لخبرًا ، وإنّ فى الأرض لعِبرًا“ .

ولقد طالعتُ الكتب الموضوعة فى أحوال الأقاليم وما فيها ، فلم أجد مَن قنّن (٣) أحوالها ، ومَثّل فى الأفهام صُوَرَها ، لأنّ غالب تلك الكتب لا تتضمّن سوىٰ الأخبار القديمة ، وأحوال الملوك السالفة ، والأمم البائدة ، و بعض مُصطلحات ذَهَبَتْ بذَهاب أهلها ، ولم يبق فى مجرّد ذكرها عظيم فائدة ، ولا كبير أمر . وخير القول أصدقه ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم .

خطة المؤلف

فٱستخرتُ الله تعالىٰ فى إثبات نُبذة دالّة علىٰ المقصود فى ذكر الأرض وما فيها ومَن فيها : الأظهرَ فالأظهر ، والأشهرَ فالأشهر ؛ وما لم أجد بُدّا من ذكره فى ذلك ومثله ، وحالة كل مملكة ، وما هى عليه ، هى وأهلها فى وقتنا هذا ، مما ضمّه نِطاق تلك المملكة ، وٱجتمع عليه طرفا تلك الدائرة . لأُقرّب إلىٰ الأفهام البعيدة غالبَ ما هى عليه أُمّ كلّ مملكة من المُصْطَلَح والمعاملات ، وما يوجد فيها غالبا : ليُبصر أهل كلّ قطرٍ القطرَ الآخر . و بيَّنته بالتصوير : ليُعرَف كيف هو ، كأنه قُدّام عيونهم بالمشاهدة والعِيان . مما ٱعتمدتُ فى ذلك علىٰ تحقيق معرفتى له ، فيما رأيتُه بالمشاهدة ؛ وفيما لم أره بالنقل مِمّن يعرِف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها ، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأُذُنه .

تدقيق المؤلف فى النقل

ولم أنقل إلا عن أعيان الثقات ، من ذوى التدقيق فى النظر ، والتحقيق للرواية .

وٱستكثرت ما أمكننى من السؤال عن كلّ مملكة ، لِآمَنَ من تغفُّل الغفلاء ، وتخيُّل الجهالات الضالّة ، وتحريف الأفهام الفاسدة .

الإشارة إلىٰ مضمون الكتاب

فإن نقلتُ عن بعض الكتب المصنَّفة فى هذا الشأن ، فهو من الموثوق به فيما لا بدّ منه : كتقسيم الأقاليم ، وما فيها من أقوال القدماء ، وٱختلاف آراء الحكماء ، إلىٰ غير

ذلك من غرائب وعجائب ، وأخبار ملل ودول ، وذكر مشاهير أعلام ، وتاريخ سنين وشهور وأيام . مما هو مَسْرَح أمل ، ومَطْمَح ذى عمل ، لأُجَمِّلَ به كلامى ، وأُكَمِّل به نقصى ، وأُتمِّم به بهجة النظر ، ورونق الصفحات : كالطراز فى الثوب ، والخال فى الخد . لا لأُكثِّر به سواد السطور ، وأُكبِّر به حجم الكتاب . ولم أقتصر بذكر الأقاليم ، عند ذكرى الممالك ، مقصدَ الجغرافيا ، كالأول والثانى والثالث ؛ ولا بما تطلق عليه (٤) المُسَمَّيات ، كالعِراق وخُراسان وأَذَرْبِيجان[1] .

بل أذكر ما ٱشتملت عليه مملكة كلّ سلطانٍ ، جملةً لا تفصيلا ، علىٰ ما هى عليه المدينة التى هى قاعدة المُلك : كقرشى والسَّراىْ من قسمَىْ تُوْران وتَوْريز[2] من إيران ؛ أو ما لا بدّ من ذكره معها ، والغالب فى تلك المملكة من أوضاعها ، والأكثر من مصطلح أهلها .

ولا أعنِى ذوى الممالك الصِّغار ، إذا كانوا فى مملكة سلطان قاهرٍ عليهم ، آمرٍ فيهم : إذ هم جزء من كلٍّ . بل الذكر لكلِّ سلطان يستحقّ ٱسم السلطنة : لٱتساع ممالك وأعمال ، وكثرة جنود وأموال ؛ و يتغطّى بذيله مَن لعلّه يكون فى مملكته من ذوى الممالك الصِّغار : كصاحب حَمَاة مع صاحب مصر ، وصاحب مارِدِين مع صاحب إيران . اللّهُمَّ إلا أن تكون تلك المملكة مُفرَدة لملك أو ملوك ، وليس عليهم سلطان يجمعهم حكمه ، و يمضى فيهم أمره : كملوك الجِيل ، وملوك جبال البربر ، وما يجرى هذا المَجْرىٰ ، و يسرى كوكبه هذا المَسْرىٰ .

(١) هكذا ضبطه البكرى فى "معجم ما ٱستعجم" . والنسبة إليها أذربىّ .

(٢) هى المدينة المسماة فى الأشهر باسم تبريز . (بفتح التاء و بكسرها) وهى قاعدة أذربيجان . (قاموس) .

ولم آلُ جُهدًا فى تصحيح ما كتبتُه بحسب الطاقة، من غير آستيعاب ولا تطويل. ولم أَعَرِّج إلىٰ ملوك الكفّار ركابى، ولا أرسيتُ بجزائر البحر سفنى، ولا أسهرتُ فى الظلمات عينى، ولا أتعبتُ فى المحفورة يدى. إلا ما أَلمتُ منه إلْمامةَ الطيْف المُنَفّر، ونغبتُ منه نُغْبة الطائر الحَذِر.[(1)] لأنّ غالب ما يقال (والله أعلم) أسماءٌ لا يُعرف لها حقيقة، ومجاهل لا تُوصِّل إليها طريق.

اقتصاره على ممالك الإسلام.

ولم أقصد فى المعمورة سوىٰ الممالك العظيمة، ولا خرجتُ فى جهاتها عن الطريق المستقيمة: اِكتفاءً بالحقّ الواضح، والصدق الظاهر، مما آتّصلتْ بنا حقيقة أخباره، وصحّت عندنا جليّة أحواله.

(٥)

وقنِعت بما بلّغه مُلك هذه الأُمّة، وتمّت بكلمة الإسلام علىٰ أهله النعمة. ولم أتجاوز حدّها، ولا مشيتُ خَطوة بعدها، إلا ماجَرّه سياق الكلام، أو طارح به شُجون الحديث: مما آندرج فى أثناء ذلك، أو آضْطَرّت إليه تعريجاتُ السالك، أو آقتضاه سبب، أو دخل مع غيره فى ذمّة حَسَب.

وإن كان فى العمر فُسحة، وفى الجسم صِحّة، وللهِمّة نشاط، وللنفس آنبساط، (وما ذلك علىٰ الله بعزيز، ولا من عوائد ألطافه الخفية بعجيب)، لأُذَيِّلَنّ بممالك الكفّار هذا التصنيف، وأجيءُ بفارسه المُعْلَم وخلفه من سبيِّهم رديف.

لٰكنّى لم آتِ فى هذا الكتاب بذكر ممالكهم (علىٰ آتساع بلادها) إلا عرضا، ولا سطّرتُ من تفصيلها إلا جُملا: توفيرا للمادّه، وتيسيرا للجادّه، ولأ تمتع برونق الأنوار، ولا أشُوبَ بسواد الليل بياض النهار.

(١) النّغب حَسْوُ الطائر للماء، ولا يقال شربه.

علىٰ أنّنى ربما ذكرتُ فى مكانٍ ماقاربه من بلاد الكفّار، وذكرته للمجاورة رجاءَ أن يؤخذ بشفعة الجِوَار.

شدّة آحتراسه فى نقل العجائب

ولم أذكر عجيبة حتّى فحصت عنها، ولا غريبة حتّى ذكرتُ الناقل، لتكون عهدتها عليه، وتبرّأتُ منها. وقد يقع الإنكار لأكثر الحقائق من الناس: لنقصان العقول. لأن الذى يعرف الجائز والمستحيل، يعلم أن كل مقدور بالإضافة إلىٰ قدرة الله تعالىٰ قليل. وقد وصف الله تعالىٰ الجُهّال بعدم العقل، فقال: "أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ". وقد أودع الله من عجائب المصنوعات، فى الأرض والسّماوات، كما قال تعالىٰ: "وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ". وقد أرانا من عظيم قدرته، وبدائع صنعه، ماجلا الشك، وأوضح الحقّ. فما ذا بعد الحقّ إلا الضلال؟

سبب آبتدائه بالمشرق

(٦)

وأوّل ماأبدأُ بالمشرق، لأن منه يتفتح نُوّار الأنوار، وتجرى أنهار النهار. إلىٰ أن أَختمه بنهاية المغرب، إلىٰ البحر المحيط. لأنه الغايه، وإليه النهايه. إلا فيما لم أجد بُدًّا من الآبتداء به من المغرب إلىٰ المشرق: كتخريج الأقاليم، لآبتداء الأطوال من الجزائر الخالدات بالبحر الغربىّ، أو ما هذا حكمه، أو وقع عليه قَسمه.

تعبه فى خدمة الكتاب

وقطعتُ فيه عمر الأيّام والليالى، وأثبتُّ فيه بالأقلام أخبار العوالى. وشُغِلتُ به الحينَ بعد الحين، وآشتغلت ولم أسمع قول اللّاحِين. وحَرَصت عليه حِرْص الضّنين، وخلَصتُ إليه بعد أن أجريتُ ورائى السنين.

التنويه بسلطان العصر

وشرعتُ فيه فى أيام مَن مَانَنَا بإحسانه، وأمّننا فى سلطانه: سيّدنا ومولانا، ومالك رقابنا، السلطان آبن السلطان، السيّد الكبير الملك **النّاصر**، العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر، المؤيّد المظفّر المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام

والمسلمين، سيِّد الملوك والسلاطين، وارث المُلك، ملك العرب والعجم والترك، نائب الله فى أرضه، القائم بسنّته وفرضه، ملك البحْرَين، خادم الحرَمَيْن، حامى القبلتَيْن، مبايع الخليفتَيْن، بهلوان جهان، إسكندر الزمان، ناشر عَلَم العدل والإحسان، مُمَلَّك أصحاب المنابر والأسرّة والتخوت والتيجان، جامع ذيول الأقطار، مُبيد البُغاة والطُّغاة والكفّار، هازم الروم والفِرنج(1) والكُرج(2) والأرمن والتتار، سلطان البسيطه، مثبِّت أركان المحيطه، إمام المتّقين، ولىّ أمور المؤمنين، متعهِّد حجّ بيت الله الحرام وزيارة سيِّد المرسَلين، أبى المعالى **محمد** بن مولانا السلطان الكبير الشهيد أبى المظفر **قلاوون**، سيِّد ملوك الأرض على الإجماع، المخصوص بمُلك أشرف البقاع.

سل عنْه وٱنطِق بِهِ وٱنْظُرْ إلَيْهِ تَجد * مِلْءَ المَسامِعِ والْأفْواهِ والمُقَلِ!

فأدام الله أيامه، وأدار على مَفارق النجوم أعلامه!

وسمّيتـــه :

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار

(٧)

وعلى الله أعتمد، ومنه أستمدّ، وإياه أسأل التوفيق والإعانة، وأبرأ من الحوْل والقوة إلّا به. وهو حسبي ونعم الوكيل!

وفهرست ماتضمّنه وجُملتُه قسمان:

القسم الأول ـ فى الأرض.

القسم الثانى ـ فى سكان الأرض.

---

(١) نقل العرب إلى لغتهم آسم الجيل المعروف بـ Francs بقولهم الإفرنجة بزيادة ألف فى أوّله لتسهيل النطق بالساكن وبفتح الراء والجيم. ونبه صاحب القاموس على أنه معرّب إفرنك، ونبه على أن القياس كسر الراء. ثم حذف الكُتّاب حرف الألف من الأوّل وقالوا: فرنج بكسر الفاء والراء. وأصلـه للدلالة على أهـل فرنسا التى يسميها العرب فرنجة وإفرنجة. ثم شاع آستعماله للدلالة على أهل أوربّة قاطبة، ماعدا الروم.

(٢) هم أهل البلاد المعروفة عند الإفرنج بآسم Géorgie.

القسم الأوّل من الكتاب

فى ذكر الأرض وما آشتملت عليه برًّا وبحـرًا.

وهو نوعان :

النوع الأوّل ــ فى ذكر المسالك.

النوع الثانى ــ فى ذكر الممالك.

أمّا النــــوع الأوّل المشتمل على المسالك ففيه أبواب:

الباب الأوّل ــ فى مقدار الأرض وحالها.

وفيـه فصول:

الفصل الأوّل ــ فى كيفيّة الأرض ومقدارها.

الفصل الثانى ــ فى أسمائها وصفاتها.

الفصل الثالث ــ فى أسماء التراب وصفاته.

الفصل الرابع ــ فى الغُبار وصفاته.

الفصل الخامس ــ فى أسماء الرمال وصفاتها.

الفصل السادس ــ فى أحوال الأرض.

(ويستطرد فى ذلك ذكر الجبال، والأنهار، والبُحَيْرات، والمساجد الثلاثة، وما يندرج معها، وذكر جُمَل من الآثار القديمة).

الباب الثانى — فى ذكر الأقاليم السبعة.

وفيه فصول:

الفصل الأوّل — فى تقسيم الأقاليم.

الفصل الثانى — فيما وقع فى الأقاليم من المدن، والجزائر العامرة، برًّا وبحرا، وتصويرها بأشكالها.

(ويتّصل بذلك كلام جُمَلِىٌّ فى أمر مشاهير ممالك عُبّاد الصليب، فى البرّ دون البحر.)

الفصل الثالث — فى ذكر أطوال النهار فى كل إقليم.

الباب الثالث — فى البحار وما يتعلّق بها.

وفيه فصول:

الفصل الأوّل — فى ذكر البحار. (٨)

الفصل الثانى — فى ذكر الرياح، وصورة القُنْبَاص.(١)

الفصل الثالث — فى ذكر نبذة من العجائب، برًّا وبحرًا.

الباب الرابع — فى القبلة والأدلّة عليها.

وفيه فصول:

الفصل الأوّل — فى أقوال الفقهاء.

الفصل الثانى — فى الاستدلال عليها بالنجوم.

الفصل الثالث — فى الاستدلال عليها بالرياح.

الفصل الرابع — فى الاستدلال عليها بالجبال.

الفصل الخامس — فى الاستدلال عليها بالأنهار.

الفصل السادس — فى قبلة كلّ أرض.

---

(١) هذه الكلمة معرّبة عن لفظة Compas الإفرنجية. وشرح المؤلف لها واف وافر فى أوّل الجزء الثانى. فراجعه هناك.

وخاتمة الباب فصلٌ جامع يشتمل على ذكر تداخل الشهور، والكواكب الثابتة، والسيّارة، وصورة الأفلاك، والقول فى الخسوف والكسوف، وما يستطرد فى ذلك، ويندرج معه: لاستخراج القبلة، وما اندرج فى ذلك. وتسميته استطرادًا لتعلق بعضه ببعض.

الباب الخامس — فى ذكر الطرق.

وفيه فصلان:

الفصل الأوّل — فى تعاريج الطريق.

الفصل الثانى — فى سواء الطريق.

النوع الثانى — فى ذكر الممالك.

وهو خمسة عشر بابا:

الباب الأوّل — فى مملكة الهند والسند.

الباب الثانى — فى ممالك بيت جنكزخان.

وفيه فصول:

الفصل الأوّل — فى الكلام عليها جُمَليًّا.

الفصل الثانى — فى مملكة القان الكبير، صاحب التخت. وهو صاحب الصين والخَطا.(١)

الفصل الثالث — فى التُّورانيّين. وهم فرقتان:

الفرقة الأولى — فيما وراء النهر؛

الفرقة الثانية — فى خُوارَزم والقَبْجَاق.

الفصل الرابع — فى الإيرانيّين.

---

(١) الخطا (بفتح الخاء) هى بلاد الصين الشمالية.

الباب الثالث ــ فى مملكة الجيل.

وفيه فصول :

الفصل الاول ــ فى يومن .

الفصل الثانى ــ فى تُولِيم.(١)

الفصل الثالث ــ فى كَسْكَر. (٩)

الفصل الرابع ــ فى رَشَفْت .

الباب الرابع ــ فى مملكة الجبال.

وفيه فصول :

الفصل الاول ــ فى الأكراد .

الفصل الثانى ــ فى اللُّـرّ.(٢)

الفصل الثالث ــ فى الشُول.

الفصل الرابع ــ فى شنكارة.

الباب الخامس ــ فى مملكة الأتراك بالروم.

وفيه ستة عشر فصلا :

الفصل الأول ــ فى مملكة كرميان .

الفصل الثانى ــ فى مملكة طنغرلو .

الفصل الثالث ــ فى مملكة توازا .

الفصل الرابع ــ فى مملكة عِيدلى .

الفصل الخامس ــ فى مملكة كصطمونيّة .

(١) الذى فى أبى الفدا أنها بفتح اللام وبغير ياء.

(٢) أورد أبو الفدا هذا الأسم فى تقويمه بالاشباع هكذا : اللُّور .



الفصل السادس ــ فى مملكة قاويا .

الفصل السابع ــ فى مملكة بُرْسا .

الفصل الثامن ــ فى مملكة اكيرا .

الفصل التاسع ــ فى مملكة مَرْمَرا .

الفصل العاشر ــ فى مملكة مغنيسيا .

الفصل الحادى عشر ــ فى مملكة نِيف .

الفصل الثانى عشر ــ فى مملكة بركى .

الفصل الثالث عشر ــ فى مملكة فولة .

الفصل الرابع عشر ــ فى مملكة أنطاليا .

الفصل الخامس عشر ــ فى مملكة قراصار .

الفصل السادس عشر ــ فى مملكة أَرْمِناك .

الباب السادس ــ فى مملكة مصر والشام والحجاز .

الباب السابع ــ فى مملكة ايمن .

وفيه فصلان :

الفصل الاول ــ فيما هو بيد أولاد رسول .

الفصل الثانى ــ فيما هو بيد الأشراف .

الباب الثامن ــ فى ممالك المسلمين بالحبشة . (١٠)

وفيه سبعة فصول :

الفصل الأول ــ فى مملكة أوفات .

الفصل الثانى ــ فى مملكة دَوَارُو .

الفصل الثالث — فى مملكة أرابنى .

الفصل الرابع — فى مملكة هَدِيَة .

الفصل الخامس — فى مملكة شرخا.

الفصل السادس — فى مملكة بالى.

الفصل السابع — فى مملكة داره.

الباب التاسع — فى ممالك مسلمى السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر.

وفيه فصلان :

الفصل الأول — فى مملكة الكانِم.

الفصل الثانى — فى النُّوبة.

الباب العاشر — فى مملكة مالِّى.

الباب الحادى عشر — فى مملكة جبال البربر.

الباب الثانى عشر — فى مملكة إفريقيَّة.

الباب الثالث عشر — فى مملكة برّ العُدْوَة.

الباب الرابع عشر — فى مملكة الأندلس.

الباب الخامس عشر — فى ذكر العرب الموجودين فى زماننا وأما كنهم، ومضارب أخبيتهم ومساكنهم.

القسم الثانى من الكتاب

فى سكان الأرض من طوائف الأُمم .

وهو أنواع :

النوع الأول — فى الإنصاف بين المشرق والمغرب.

وهذا النوع له شَبَهان : شَبَهٌ بالقسم الأول بحسب موضوعه، وما اندرج معه، وتعلق بذيل المفاخرة بين الجانبين من النبات والمعدن؛ وله شَبَهٌ بهذا القسم بحسب ما اندرج فيه من ذكر طوائف العلماء، الذين هم أعيان الناس، وذكر سائر الحيوان. إلا أن هذا الشَّبَه أقوى؛ لأن المقصود من المكان ساكنه. فألحقناه بهذا القسم.

النوع الثانى — فى الكلام على الديانات : وهى ست نحل، وأربع ملل.

النوع الثالث — فى الكلام على طوائف المتدينِّين.

النوع الرابع — فى ذكر التاريخ.

وفيه بابان :

الباب الأول — فى ذكر الدُّوَل التى كانت قبل الإسلام.

الباب الثانى — فى ذكر الدُّوَل الكائنة فى الإسلام.

ومن حيثُ عَيَّنا التبويب، وبَيَّنا الترتيب، نشرع فى ذكرها بابًا بابًا إلىٰ آنتهاء الأبواب، ونوعًا نوعًا إلىٰ آنقضاء الكتاب.

ابتهال المؤلف إلىٰ الله

والله المؤمَّل فى عمرٍ يُوَفِّى بتمامه، ويُوَفِّر الموادّ علىٰ مَدَد أقسامه، مع ما هو أبقىٰ من الآبتهال إلىٰ الله فيما هو أهمّ: من التفويض إليه، والآبتهاج بما لديه، مما يُوَقِّى المُهَجَات، ويُرَقِّى الدرجات، فى الدنيا والآخرة. إنه ولىُّ ذلك والقادر عليه، والمُقَدِّر له والهادى إليه!

رجاء إلىٰ القراء

والرغبة إلىٰ من وقف علىٰ هذا الكتاب، ووقع منه نظره علىٰ خطإٍ أو صواب، أن يصفح عما جنح فيه القَلَم إلىٰ الزَّلَل، وتخطّى إليه الفكر من الخَطَل؛ ويَبْسُطَ العذر لمن لم يَجُب البلاد، ولم يَجُل فى الآفاق، ولم يُتْهِم فى تِهامة ولا أعرق فى عِراق؛ ولا خطب الدَّأْماء، ولا خبط الظَّلماء؛ ولا آقتحم لُجَج البرّ والبحر، ولا تعدّى مصر والشام والحجاز، ولا فارق ممالكَ كان هو وأسلافه فيها تحت قَيْد العُلَق والشواغل، لِمَا كان يتقلّده منهم آبنٌ عن أبيه، وأخٌ عن أخيه، من أعباء الدول وأُمور الممالك، [١٣] وأثقال الفكر والمهمات، وشَغْل الأسماع والأبصار، مما يستغرق بعضه الأوقات، ويقطع عن الأسباب، حتّى عن لفظة سؤالٍ، ولحظة كتاب، إلىٰ أن وهبنى الله فراغا أَلَّفت فيه هذا الكتاب.

وهذا أوانُ سرد ما آشتمل عليه كل قسم من الأبواب.

ولا حولَ ولاقوّةَ إلا بالله العلىّ العظيم، وأستغفر الله إن الله غفور رحيم!

القسم الأول من الكتاب

في ذكر الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً

وهو نوعان

النوع الأوّل

فى ذكر المسالك وفيه أبواب

الباب الأوّل

فى مقدار الأرض وحالها وفيه [ستة] فصول

الفصل الأوّل

فى كيفية الأرض ومقدارها

كرّية الارض والبرهان عليها

الذى نبدأ به، بعون الله وقدرته، فى القول فى هذا الفصل، ما قام عليه البرهان، وهو أن العالَمَ كُرِىٌّ . ويدلّ عليه المشاهدة بالعِيان، لمن رعى الشمس من مطلعها إلىٰ مغيبها، وكذلك النجومَ من مشارقها إلىٰ مغاربها: لأنها تطلع حتّى تتوسّط السماء تقويسًا، ثم تنحطّ حتّى تغيب عن العين كذلك. فتقطع نصف دائرة. فعُلم بالضرورة أنها تقطع فى الغيبوبة عن العين نصفَ دائرةٍ، نظيرَ ما قطعت فى الظهور، ليكمُل تمامُ الدائرة.



والذى تلخّص من أقوال أهل العلم والنظر فى الهيئة: أن العالَمَ كُرَةٌ، والأرض مركزها، والماء محيطٌ بها لا يفارقها، إلا ما انكشف.

(١٣) استقرار الأرض

فالأرض فى جوف الماء، والماء فى جوف الهواء، والهواء فى جوف الفَلَك: كالمُحّة فى جوف البيضة فى القشر.

ووضعُها وضعٌ متوسِّط . والهواء إما جاذبٌ لها إلىٰ جهة الفلك أو دافعٌ عنه .

وذهب بعضهم إلىٰ أنها مستقرّةٌ بالوضع : فالأرض فى فلك المـاء، وفلك المـاء فى فلك الهواء، وفلك الهواء فى فلك النار (وهو الأثير) ، وفلك النار فى فلك القمر، وفلك القمر فى فلك عُطارِد ، وفلك عُطارِد فى فلك الزُّهَرَة ، وفلك الزُّهَرَة فى فلك الشمس ، وفلك الشمس فى فلك المرّيخ ، وفلك المرّيخ فى فلك المُشـتـرِى، وفلك المُشترِى فى فلك زُحَل ، وفلك زُحَل فى فلك البروج (وهو المُكَوْكَب) ، وفلك البروج فى الفلك الأطلَس.

ماهو العرش والكرسىّ فى رأى فلاسفة الإسلام

والمكوكب فى رأى فلاسفة الإسلام أنه المعبَّر عنه عند أهل الشريعة الشريفة بالكرسىّ، وأن الأطلس هو المعبَّر عنه عندهم بالعرش.

حركات الافلاك وتقسيم الأقاليم

وحركات الأفلاك الثمانيـة من فلك القمر إلىٰ الفلك المكوكب ، من الغرب إلىٰ الشرق . ويُرىٰ هذا بالمشاهدة فى طلوع القمر .

ولهذا كان تخريج الأقاليم من الغرب إلىٰ الشرق بالمتابعة.

الفلك الأطلس وحركته ، وعنده ينتهى الإدراك البشرىّ

فاما التاسع ،الأطلس، فحركته من الشرق إلىٰ الغرب . وبحركته تتحرك . كما يتحرك راكب السفينة بحركة السفينة.

وقد تكلّمت الفلاسفة علىٰ مُقعَّر الأطلس ، ولم يتكلموا علىٰ محدَّبه . وغاية ما قالوا : إنّ بَعد التاسع ، لاخلا ولا ملا . و إلىٰ هنا آنتهىٰ علمهم وآنقطع نظرهم . والله أعلم بغيبه !

نظرية فى الكواكب الثابتة والمتحرّكة والبرهنة عليها

قلت : وزعموا أن فى الثـامن كلَّ الكواكب إلّا السبعة.

قالوا : والبرهان علىٰ أنها فى الثامن ، أن حركاتِ هـذه الكواكب الستة أسرعُ من حركات سائر الكواكب . والكوكب لا يتحرك إلا بحركة فلكه . ولا يمكن أن

يكون فى التاسع لأنه سريع الحركة ،يدور فى كل يوم وليلة بالتقريب دورة واحدة . فإذ لم يكن فى أحد السبعة ولا فى التاسع ،لم يبق إلا أن يكون فى الثامن .

تشكك آبن سينا فى محل وجود الثوابت

علىٰ أن آبن سينا قد قال فى الشفاء : ”لم يَبِنْ لنا بيانا واضحا أن الكواكب الثابتـة فى كُرَة واحدة أو كُرَات منطوٍ بعضُها علىٰ بعضٍ ، إلا بإقناعات . وعسىٰ أن يكون ذلك واضحا لغيرى“.

تشبيه العالَم، لتقريبه إلى الأذهام

وقد شبّه بعضهم العالَمَ ، فقال : ”بطيخة فى بِرْكة ماء . فالبِزْرُ المُدُنُ ، و بيوتُ البزر العمرانُ ، والخـاءُ مجموعُ الأرض ، والمـاءُ البحرُ المحيط ، ومقعَّرُ البركة الهواءُ ، ودائرُها الخارج الفلكُ“.

اعتراض المؤلف علىٰ هذا التشبيه

قلت : وهذا التشبيه ليس بشئ .

نظرية الشريف الإدريسىّ فى آستقرار الأرض فى جوف الفلك

وقال الشريف الإدريسى فى كتاب رُجَّار[1] (وآسم هذا الكتاب : ”نزهة المشتاق فى آختراق الآفاق“ صنّفه للملك رُجَّار صاحب صَقَلِّيَة ، وكان فرنجيا مُحِبًّا للعلم وأهله من كل ملّة) . والذى قاله : ”الأرض مستقرّةٌ فى جوف الفلك ، وذلك لسرعة حركة الفلك . وجميع المخلوقات علىٰ ظهرها . والنسيمُ جاذبٌ لمـا فى أبدانهم من الخفّة ، والأرضُ جاذبةٌ لمـا فى أبدانهم من الثِّقَـل ، بمنزلة المغنيطس الذى يجذب الحديدَ إليه . فالأرض مقسومة بقسمين ، بينهما خط الآستواء . وهو من المشرق إلىٰ المغرب . وهـذا هو طول الأرض . وهو أكبر خط فى الأرض ، كما أن مِنْطَقَة فلك البروج أكبرُ خطٍّ فى الفلك“.

(١٤)

(١) هو Roger وآسمه الطليانى المنقول عنه اللفظ العربى Ruggiero .

تقديره لأبعاد الأرض على رأى الهنود، وعلى رأى هرمس

قال: "وآستدارة الفلك فى موضع خطّ الآستواء ثلثمائة وستون درجة. والدرجة خمسة وعشرون فرسخا. والفرسخ آثنا عشر ألف ذراع. والذراع أربعةٌ وعشرون إصبعا. والإصبع ستُّ حبّاتِ شعيرٍ، مصفوفة، ملصَقةٌ بطونُ بعضها لظهور بعض". تكون بهذه النسبة إحاطة الأرض مائةَ ألف ألف ذراع وآثنين وثلاثين ألف ألف ذراع. وهى من الفراسخ أحد عشر ألف فرسخ. قال الشريف: "وهذا بحساب أهل الهند. وأما هرمس فإنه قدّر إحاطة الأرض، وجعل لكل جزءٍ مائة ميل. فتكون ستّةً وثلاثين ألف ميل. وتكون من الفراسخ آثنى عشر ألف فرسخ".

مناقشة المؤلف لهذين التقديرين

قلتُ: فالتفاوت بين الحسابين ألف فرسخ، زائدة فى حساب هرمس على حساب أهل الهند. وذلك نصف السُّدس.

تقدير الحكيم إردُسْتناس

وقد زعم مَرْحبان الفيلسوف أن إردُسْناس[1] الحكيم قال إنها مائتا ألف وخمسون

(١) الظاهر أن هذين الأسمين محرّفان.

فالغالب أن الأوّل هو مرقيان (Marcianus). وربما يكون بعض المترجمين الاولين كتبوه "مرخيان" تبعا لقاعدة التعريب التى تقضى بنقل حرف Q أو C أو K إلى (ق، ك، خ) كما قالوا أخندروس فى Alexandrus (وآنظر فهارس الطبرى)؛ ثم حرّف النساخون "مرخيان" إلى "مرحبان".

أما الأسم الثانى فكان الخطب فيه أسهل، لأنه محرف عن "إرتُسْتَناس" [Eratosthène] ثم "إردُسْتناس" ثم "إردُسْناس". ولا غرابة فى ذلك، فإن العرب كثيرا ما يقلبون التاء دالًا كما قالوا "بدّ" عند تعريبهم لفظة "بُت" بمعنى الصنم (وآنظر تاج العروس). وكما قالوا "زردق" و "زردك" فى تعريب لفظة فارسية هى "زرتك" ومعناها عصير العصفر. (أُنظر آبن البيطار، وآنظر تكلة المعجمات العربية للعلامة دوزى)

هذا و"مرقيان" هو من جغرافيّي الروم فى القرن الرابع بعد الميلاد. وقد كتب سياحة بحرية حول الأرض (Périple du monde).

وأما الثانى وهو إرتُسْتَان أو إرتُسْتَناس فقد وُلد سنة ٢٧٦ وتوفى سنة ١٩٦ قبل الميلاد. أصله من المستعمرة اليونانية التى كانت ببلاد برقة [Cyrénaïque] ثم آشتهر فى بلاط الملك بطلميوس الثالث المعروف =

ألفا أشتياديوات. وأشتياديو[1] هو ثُمن ميل، عنه أربعمائة ذراع عندهم. فذلك احد وثلاثون ألف ميل ومائتا ميل وخمسون[2] ميلا.

تقدير بطلميوس

وقد ذكر صاحب المَجَسْطِى أنّ دَوْرَ كرة الأرض أربعةٌ وعشرون ألف ميل وثلاثون ميلا، وأن قطرها وعمقها سبعة آلاف ميل وسبعمائة ميل وثلاثون ميلا.

تقدير آبن الشاطر الدمشقى

قال فريد زمانه، علاء الدين أبو الحسن علىّ بن إبراهيم بن محمد الأنصارىّ، عُرف بآبن الشاطِر: "الأَوْلى أن يُقسم دور كرة الأرض على ثلاثة وسُبْعٍ لأنه نسبة قطر كل دائرة إلى محيطها. وهو أصحّ. وعلى هذا فيكون الدور أربعةً وعشرين ألف ميل، ويكون القُطْرُ سبعةَ آلاف وسبعمائة وستا وثلاثين ميلا وثلث خمس مجبورا.

تقدير صاحب الكمائم

(١٥)

قلتُ: وذكر صاحب كتاب الكمائم أن طول الأرض ظاهرا وباطنا، وبرًّا وبحرا، معمورا وغير معمور، أربعةٌ وعشرون ألف ميل. قال: "وهى التى تقطعها الشمس بين نهارها وليلها".

ماصنعه المأمون العباسىّ لتحقيق أبعاد الأرض

وذكر أبو عُبَيْد البكرىّ فى كتاب المسالك والممالك أن حُبَيْشًا المنجّم ذكر عن خالد بن عبد الله أنه أخذ آرتفاع القطب لعبد الله المأمون ببريّة ديار ربيعة وهى

= بآسم إفرجيت [Ptolomée Evergète] بمدينة الإسكندرية، لأن هذا الملك دعاه منذ سنة ٢٢٦ ق م لتولّى إدارة المكتبة النفيسة التى كانت بالاسكندرية. وبقى الرجل فى هذه الوظيفة إلى أن كُفّ بصره فى آخر عمره، فانقطع عن الطعام حتّى وافاه الحِمام. كان عالما بالفلك والهندسة، ينظم القريض ويتعاطى الفلسفة. وهو الذى قاس بمدينة أسوان محيط الأرض، برصده للشمس فى بئر هناك. وقد قال إنه ٢٥٢٫٠٠٠ إستادة [Stade]. فيكون آبن فضل الله قد جبر الكسور.

(١) فى الأصل: "اشتيادبو". وواضح أنها محرّفة عن "اشتاديو" تعريبا لكلمة Stadion اليونانية التى نقلها الفرنسيون إلى Stade. ونحن فى هذه الايام نقلنا عنهم اللفظ اليونانى فنقول "إستاده". "والإشتاديو" يساوى ثُمن ميل؛ والميل يساوى ٤٠٠ ذراع، كما قاله آبن فضل الله.

(٢) فى الأصل: "وثلاثون". [وقد صححتُ الرقم على ما يقتضيه الحساب].

برية شِيحان المقاربة لسَنجار. فوجد مقدار درجةٍ مِن الفلك ستةً وخمسين ميلا من الأرض. فضرب العدد فى ثلثمائة وستين، التى هى جملة درج الفلك بمجموعه، فانتهىٰ ذلك إلىٰ أربعة وعشرين ألف ميل ومائة ميل وستين ميلا. قال: "فهو دور كرة الأرض المحيطة بالبرّ والبحر".

إستنتاج المؤلف

فقطرُها علىٰ هذا ستّةُ آلاف ميل وأربعمائة ميل وأربعة وعشرون ميلا ونصف ميل ونصف عُشر ميل، بالتقريب.

قال: "والمعمورُ نصفُ هذا المحيط، من خط الاستواء إلىٰ الشمال. ومنها العمران فى الشمال يؤول فى بِرطانية (١). فيكون ذلك تقدير الربع".

استدلال ابن الشاطر الدمشقى

قال ابن الشاطر: "إنّ واجبَ الحساب، علىٰ ماذُكر، عشرون الف ميل ومائة وستون ميلا؛ وإنّ القطر يكون ستة آلاف وأربعمائة ميل وأربعة عشر ميلا ونصف ميل مجبورا".

مقدار الدرجة بحساب المأمون وغيره

قلتُ: والذى حُرر فى زمن المأمون، لكل درجة، ستةٌ وخمسون ميلا وثُلثا ميل. وبعض الذين حرروا (٢) ذلك رأوا أنه ستةٌ وخمسون ميلا، لاغير.

ترجيح المؤلف لنتيجة المأمون واعتماده عليها فى هذا الكتاب

ولعل الأوّلَ أقربُ: لأنّه قد يكون هذا الكسر أُهمِل فى القياس. وعلىٰ الأوّل الأكثرُ، وعليه عملُنا فى هذا الكتاب. وسيأتى فى ذكر سواء الطريق إيضاحه، إن شاء الله! فى مكانه. ولم نعمَل علىٰ ماحُرر للمأمون دون ما حرّره القدماء، إلّا لأنّه أقربُ إلينا وأشبهُ بنا.

(١) أى بريطانيا العظمى La Grande Bretagne.

(٢) فى الاصل: الذى.

الفرسخ والميل والذراع علىٰ حساب المأمون وهو المعتمد عليه فى هذا الكتاب

وكلُّ فرسخ ثلاثةُ أميال، والميل أربعةُ آلاف ذراع مأمونىّ. فالدرجة تسعة عشر فرسخا إلا تُسع فرسخ. وهو الذى عليه عَمَل هذا الكتاب.

(١٦)

طول الفرسخ القديم وطول البريد

وأمّا علىٰ رأى القدماء، فتكون كلُّ درجة اثنين وعشرين فرسخا وتُسعَىْ فرسخ.

وأمّا البريد، فكلُّ أربعة فراسخَ بريدٌ.

إختلاف الآراء فى تقدير العمران

وأمّا العمران من الأرض، فقال البكرىّ: تقديرُ الرُّبع. وقد ذكرنا ماقاله آنفا. وقال آخرون: الرُّبع. وقال آخرون: الثُّلث. وقال بعضهم: إن العمران من الأرض ما بين الثُّلث إلىٰ الرُّبع، أقلّ من الثُّلث وأكثر من الرُّبع.

تحرير قطب الدين الشيرازىّ لمقدار العمران

وقال شيخنا، فريد الدهر، ووارث العلم والحكمة، شمس الدين، أبو الثناء محمود ابن أبى القاسم الأصفهانىّ، أطال الله مدّته! إنّ العلّامة قطب الدين الشيرازىّ قال له إنه حرّر دور المعمورة من الأرض. فكان اثنى عشر ألف ميل مجبورةً، قطرُها أربعة آلاف ميل مجبورةً، فتكون ألف فرسخ وثلثمائة فرسخ مجبورةً.

نقد ابن الشاطر لنظرية الشيرازىّ

قال ابن الشاطر: "وفى الذى ذكره الشيرازىّ ما لم يُفهم معناه. فإن كان أراد به مابين أول المعمور وآخره، فهو غير موافقٍ ولا يُطلق عليه محيطٌ؛ وإن كان أراد بالقُطر مابين خط الاستواء ونهاية المعمور فى جهة الشمال، فهذا لايقال له قُطرٌ ولا يفى المعمور بمقدار ماذكره. ولا نسبة لما ذكر أنّه ذَرْعُ القُطر إلىٰ ماذكر أنّه دور المعمورة نسبة قطر الدائرة إلىٰ محيطها". وقال: "وإذا فرضنا مبدأ العمارة خط الاستواء بخمسة عشر جزءًا إلىٰ حدود خمسين جزءًا وثلث فى الجهة الشمالية كان نسبة المعمور

إلىٰ باقى بسط كرة الأرض تقارب الثُّمن ونصفَ السُّـدس . وإذا نسب ......[1] إلىٰ حدود ستة وستين جزءا كان نسـبة المعمور إلىٰ باقى ......[1] يقارب الربع . لأن ماوراء......[1] من الخراب يقارب ماقبل ......[1] من المعمور . ولا يكون أكثر ......[1]"

رأى الإدريسى فى أسباب العمارة فيما بين القطبين

وقال الشريف : إن بين خط الآستواء وبين كل واحد من القطبين ، الجنوبىّ والشمالىّ ، تسعين درجة . وآستدارتُها عرضا مثـلُ ذلك . إلّا أنّ العمارة فى الأرض بعد خط الآستواء أربعٌ وستون درجة ، والباقى من الأرض خلاء ، لاعمـارة فيه ، لشـدّة البرد والجمود . والخَلْق بجملته علىٰ الرُّبع الشمالىّ من الأرض . والرُّبع الجنوبىّ الذى هو فوق خط الآستواء غير مسكون ولا معمور ، لشدّة الحرّ به ، وممرِّ الشمس (وهى أسفل فلكها) علىٰ سَمْته . فجفّت مياهه وعُدم حيوانه ونباته ، لعدم الرطوبة".

نقد المؤلف لهذه النظرية وبرهنته

قلتُ : وفيما ذكره الشريف فى الآنتهاء إلىٰ أربع وستين درجة فقط ، وإن كان الصحيحَ ، نظرٌ . فإنها فى صورة لوح الرسم[2] تتناهىٰ إلىٰ أكثر من ذلك ، وتستكمل من خط الأستواء إلىٰ نهاية الشمال سبعين درجة ، سوىٰ ماهو خارج عن خط الأقاليم ، جنوبا وشمالا ، علىٰ مانذكره فى مكانه . وإنمـا غالب الجنوب والشمال لاعمارة فيه : إذ لا يمكن سَكَنه .

(١٧)

ومن تأمّل وضع العالَم فى لوح الرسم ، رأى ذلك بالعيان : خُلُوّ ما تحت القُطبين ، الجنوبىّ والشمالىّ . والخالى تحت الجنوبىّ أكثرُ بمـا لا يقاس . وهكذا فى الجغرافيا وَضَعهُ .

(١) اِنمحت الكتابة فى هذا الموضع من الأصل ، بسطو المجلد على الهامش .

(٢) هو المعروف الآن بالخريطة الجغرافية .

وقد ذكر ابو عُبيد مبلَغ طول النهار فى الأقاليم السـبعة ، حتّٰى آنتهىٰ إلىٰ الإقليم السابع . ثم قال : "وأما ما وراء هـذا إلىٰ آخر المعمور ، فإنه يبتدئ من المشرق من بلاد البُرْغَر وأرض الترك إلىٰ اللان ، ثم يمرّ على البُرْجان والصَّقالِبة ، وينتهى إلىٰ بحر المغرب ، وهو خارج عن الأقاليم السبعة". إنتهىٰ كلام البكرىّ . وسيأتى (إنْ شاء الله تعالىٰ) مبسوطا فى موضعه .

الشمال أكثر عمارة من الجنوب

وإنّمـا ذكرناه هنا للآسـتدلال علىٰ أنّ الشمال أكثرُ عمـارة من الجنوب . لأنّنا وجدْنا وراء الإقليم السابع عمـارةً ممتدّة . وليس كذلك فيما وراء الإقليم الأوّل . اللهُمّ إلّا ما هو فى قسم المشرق ، وراء خط الآستواء ، من الجزائر الممتدّة فى البحر ، آخذةً إلىٰ المحيط ، أو ما هو فى حكمها بالصين .

فأمّا قسم المغرب ، فإنّا لم نجد وراء الأوّل فيما يأخذ إلىٰ جهة الجنوب عَرضًا ، وإلىٰ البحر المحيط فى نهاية المغرب طولًا ، عمارةً ، بل ولا علىٰ خطه المستقيم ، بل ولا وجدْنا العمارة به إلّا ماهو داخلُ خطَّ الإقليم الأوّل إلىٰ الإقليم الثانى .

وسنذكر ماوجدْناه من العمارة فى كلّ منهما علىٰ مانبيّنه .

العمارة فى الجنوب بقسم المشرق (جزائر البحر الهندى وبلاد الصين)

(١٨)

فأمّا ماوقع من العمارة فى قسم المشرق ، من وراء خط الآسـتواء الذى هو أوّل الإقليم الأوّل ، فنقول : إنّ صـاحب الجغرافيا صوّر ، فيما هو خارج عن خط الآستواء من مركز دائرة الأرض المسماة عند أهل هذا الشأن قبّةأرِينَ ، جُزُرا عامرة مسكونة فى البحر الهندىّ ، من وراء سَرَنْديب فى الجنوب ، وهى متصلة بها . وتقدير هذه الجُزُر فى العرض ، عرضُ إقليم واحد ونصف إقليم تقريبا ، خلف الإقليم الأوّل ، زائدا علىٰ الأقاليم السبعة فى جنوب القسم الشرقىّ . وعرضُ هـذا المقدّر بإقليم واحد

ونصف إقليم من حيثُ يأخذ من قبّة أَرِينَ علىٰ خط الآستواء العرضىّ جنوبا محضا، ثلاثةُ أقسام: كل قسم مقدّر بنصف إقليم.

عرضُ أوّلها، وهو المارّ مع خط الآستواء فى خارجه ممتدّا علىٰ جانب الإقليم الأوّل فى غالب النصف الشرقىّ من قُبّة أَرِينَ إلىٰ جزيرة الجوهر فى البحر المحيط، خمسُ درجات. وقد علّم عليه فى لوح الرسم ﻫ .

وعرض ثانيها، وهو الذى يليه، عشرُ درجات، لآرتفاع رأس الحَمَل والميزان. وقد علّم عليه فى لوح الرسم ى .

وعرض ثالثها، وهو الذى يليه، خمسَ عشرةَ درجة. وقد علّم عليه فى لوح الرسم يه.

وذَكَر بها من الجُزُر العامرة: فلاى؛ وجزيرة القَمَر، وذكر أنّ طولها أربعة أشهر؛ ومنها سَرَنْدِيب، داخلَ خط الآستواء فى الإقليم الأوّل مماسَّةً له حيث هو من الطول من قُبّة أَرِينَ مائةٌ وخمس وستون درجة. وقد علّم عليه فى لوح الرسم قسه[1] .

كلُّ ذلك بحساب الجُمَّل.

وذَكَر فى هذه الجزيرة، ممّا هو وراء خط الآستواء، مدنا. منها: حمران؛ ودهمى؛ ودافور؛ وديمى؛ وعما؛ ونخزلاتى؛ وتمكاد؛ ومريانا؛ وتياو؛ وموضع قدم آدم، عليه السلام (جنوبىّ سَرَنْدِيب، من وراء خط الآستواء)؛ وفزدرا؛ وسونيه؛ (١٩) وكياما؛ وعيمى؛ ومحلاى؛ وملاى؛ وسمردى؛ يليهما جبل الذهب والحديد، قال إنهما به كير؛ وأتونا؛ ومعلا؛ وقنصورا؛ واسفيل. ثم جزيرة تعرف بالموجة، أمّ جزائر الصين. ثم جزيرة القشمير. ثم جزائر الواق واق؛ وجزيرة الدجّال إلىٰ جزيرة الجوهر، فى البحر المحيط.

(١) فى الأصل فكه والحساب يأباه.

وصوّر، فى البرّ المتّصل من جهة الصين، برزخًا بين البحرين الهندىّ، حيث آنعطف شرقىّ جزيرة الموجة أمّ جزائر الصين إلىٰ الشمال، وبين البحر المحيط. وذلك البرزخ من ثلاثة أبحر: فى الشرق، المحيط؛ وفى الجوف البحر الهندىُّ حيث خرج؛ وفى الغرب، حيث آنعطف. وبقى الشمال مكشوفا، متّصلٌ به هذا البرزخ بالصين. وذَكَر فيه عدّةً من المدن.

وأوّل مانبدأ بما تغلغل إلىٰ الجنوب، بعيدا عن خط الآستواء، حيث هو من الطول فى الجغرافيا مائةٌ وخمس وستون درجة وقد علّم عليه فى لوح الرسم قسه ومائةٌ وسبعون درجة وقد علّم عليه فى لوح الرسم قع .

وأوّلها مدينة حميسه، ومدينة قيطغون، ومدينة شرما، ومدينة سرسه، ومدينة قلا، ومدينة خانَفُو (وهى الخنسا على فُرْضة من البحر الهندىّ خرجت هناك فى الصين ولم تمتدّ) مسامتة لجزيرة الياقوت فى المحيط. وقد سمّاها الشريف بجزيرة بسياره. وليست فى لوح الرسم بجزيرة، ولكن كالجزيرة.

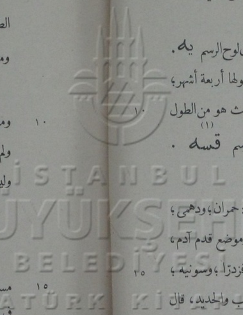
كلُّ هذا خارج عن خط الآستواء.

(٢٠) عدم العمارة فى الجنوب من جهة الغرب

وما وراء خط الآستواء (فى القسم الغربىّ من قُبّة أَرِينَ إلىٰ البحر المحيط الغربىّ، مسامتُ الجزائرَ الخالدات، فى جميع العرض إلىٰ منتهىٰ الجنوب) لا حظّ له فى العمارة.

العمارة وراء الإقليم السابع

وأما ماوقع من العمارة وراء الإقليم السابع (ممّا ليس فى حساب السبعة الأقاليم، وهو الذى أشار إليه أبو عُبَيْد، حين ذكر مبلغ طول النهار فى الأقاليم السبعة، وقد نبهنا عليه، وسيأتى إن شاء الله تعالىٰ مبسوطا فى موضعه، وتقديره فى العرض نصف



إقليم ، ممتدًا على جانب الإقليم السابع من اول المشرق إلى نهاية المغرب ، وسكانه على ما نبيّنه) فأوله من جهة الشرق قطعةٌ معمورة بيأجوج ومأجوج ، فيما هو داخلُ السدّ ، وبلاد سيسبان (وهى آخذةٌ عرضا من هذا الجزء المقدّر بنصف إقليم وراء الإقليم السابع حتّى تقطعه ، ثم تقطع الإقليم السابع جميعه ، ثم بعض السادس) ؛ وبلاد الروسيّة الثانيـة (وكلُّها خارجة عن الإقليم السابع فى الجزء الذى يليه) ، وبلاد أنكرية فى هذا الجزء ، داخلةٌ إلى الإقليم السابع .

بلاد الروسية والمجر

وعرض هذا الجزء خمسٌ وسبعون درجة . وقد عُلِّم عليه فى لوح الرسم عه .

وفى بلوغ العمارة هذا الحدّ وتجاوز اربع وستين درجةً ، نظرٌ .

قالوا : فأمّا الروسيّة ، فعامرة آهلة . وكذلك الأنكرية . وأما بلاد سيسبان ، فقد كانت عامرة آهلة مسكونة ، ثم خَربت من قديم ، لإغارات يأجوج ومأجوج عليهم .

نيل السودان المعروف الآن بنهر النيجر

نيل مصر

(٣١)

ومن تأمّل لوح الرسم ، رأى ذلك مُمثّلا لعينه فى الإقليم السابع ، ورأى خط الإقليم الأوّل خاليا فى القسم الغربىّ ، والمعمورَ من داخله على فرقتَى النيل : الفِرقة الآخذة على بلاد السودان من الشرق إلى الغرب حتّى يصب فى البحر المحيط ، والفِرقة الآخذة على غربىّ الحَبَشة إلى شرقىّ النُّوبَة إلى مصر حتّى يصبَّ فى البحر الشامىّ .

السبب فى عمارة ماوراء خط الاستواء من القسم الشرقىّ ، وعدمها فى القسم الغربىّ

فعلِمنا أن سبب عمارة ماوراء خط الاستواء من الجُزُر فى القسم الشرقىّ ، وما هو فى حكمها ، لاكتناف البحر الهندىّ لها ، فرطّب هواءها ، وأنبط ماءها ، وأزال جفاف أرضها . فنبت بها النبات ، وسكن الحيوان . ولم يقع فى قسم القِسم الغربىّ ، وراء خط الاستواء ، بحرٌ يؤثّر فيه هذا التأثير . فبقى على كيفيّة طبعه من اليُبْس والجفاف ، لا يُمكن به نباتُ نباتٍ ولا حياة حيوان .



سبب العمارة فيما وراء الإقليم السابع

ووجدنا ما هو وراء خط الإقليم السابع ، قد أمكنت عمارته بالنبات والحيوان بكيفيّة طبعه ، لابسبب آخر من خارج .

لماذا كان الشمال أعمر من الجنوب

فظهر حينئذ أنّ الشمالَ أوفقُ لِمزاج الحيوان . فكان أعمرَ من الجنوب ، لشدّة حر الجنوب على ما بيّنّاه . وهو موافق لرأى الشريف .

رأى الإدريسى فى ذلك

قال الشريف : " لا يكون الحيوان والنبات أبدا ، إلّا حيث تكون المياه والرطوبات ".

رأى البكرى الاندلسى

وقال البكرىّ : " وركّب الله على الأرض جِرمَ الشمس . لعلمه بالحكمة التى ينبغى أن يكون عليها تركيبُ العالَم فى فلك أخرَج مركزَه عن مركز الأرض بدرجتين ونصف من درَج فلك البروج . فلذلك اختلفت حركة الشمس . فمحا مِزاجُ جوهرِ الهواءِ المحيط بالناحية الجنوبيّـة ، فكان الجزءُ المعمورُ فى الناحية الشماليّـة . إذ كان كلّ حيوان ، بطبعه ، أحمل للبرد منه للحر . ألا ترى أنه يتولّد فى الماء من الحيوان ما لا يُحصَى كثرةً ، وكذلك من النبات ، ولا يكون فى النار منه شئٌ ، إلّا الشاذّ النادر ، إن صحّ ذلك فيه . كما زعموا أنه يتكوّن فى أفران الزجّاجين ضربٌ من سام أبرص ، وقد سمّاه أرسطو بالسُّرْفُوت وهى حُمر الألوان ، إذا خرجت عن النار ، هلكت ".

(٣٢)

فوجب لهذه العلّة أنْ يكون اسم الأقاليم السبعة وتحديدها فى الجزء الشمالىّ من الأرض ، كما ترى فى لوح الدائرة[1] .

جملة المعمور على رأى بطليموس والشيرازىّ ، وتوفيق المؤلف بينهما

وقد ذكر صاحب جغرافيا أنّ جملة المعمورة أربعة آلاف ميل وخمسمائة ميل وثلاثون ميلا . وهذا أزيد مما حرّره الشيرازىّ بخمسمائة ميل وثلاثين ميلا . ولعلّ

(١) لوح الدائرة هو الخريطة الجامعة التى نسميها الآن مابموند تعريبا للفظة فرنسية Mappemonde .

هذه الزيادة هى بمعمور ما هو وراء خط الآستواء فى القسم الشرقىّ ؛ وماهو خارج الإقليم السابع مارٌّ معه . فإنّ الشيرازىّ، والله أعلم، لم يحرّر إلّا معمور الأقاليم السبعة خاصّةً، وصاحبُ جغرافيا ذكر المعمور كلّه . فكان هذا التفاوت كلُّه.

احتراز المؤلف

قلتُ : ولا أدّعى أنّ ما هو خارج عن الإقليم السابع متوغِّلٌ فى الشمال، خارجٌ خروجا مباينا كلّيًّا . ولكنّه خروجٌ مماسٌّ مجاورٌ، حكمُه حكمُ ماهو على الخط . إذ لوكان خروجا مباينا، لكان إقليما ثامنا، وليس كذلك . إذ لا يمكن وجود نبات ولا حيوان لإفراط البرد والجمود، كما لايمكن لإفراط الحرّ واليُبْس.

تشبيه الأرض بجسد آدمىّ

والحكماء تشبِّهُ الأرض بجسدِ آدمىٍّ : الترابُ لحمُه، والمياهُ دمُه، والحجارةُ عظمُه، والرياحُ أنفاسُه، والبخاراتُ فَضَلاتُه ؛ رأسُه الصينُ، ووجهُه الهندُ، وجيدُه ما وراءَ النهرِ، وصدرُه خُراسانُ ومايليها، وقلبُه العِراقُ، ويداه الجنوبُ والشمالُ، وبطنُه الشامُ، وسُرَّتُه جزيرةُ العرب، وعَجُزاه مِصرُ والقُسطنطينيّةُ، ونخِذاه إفريقيّةٌ وروميّةٌ، ورِجْلاه برُّ العِدْوَة والأندلُسُ.

عدم رضا المؤلف بهذا التشبيه

وليس هذا التشبيه بشئ.

الأرض غير صادقة الآستدارة

قال الشريف : „ومع كون الأرض كرةً، هى غير صادقة الآستدارة . منها منخفض ومرتفع . ولهذا قيل فيما آنكشف إنّه تضاريس . والبحر محيط بنصف الأرض إحاطةً متّصلة، دائرُها كالمِنطَقة . لايظهر منها إلّا نصفها، وهو ما دارت عليه الشمس فى قوس النهار . مثل بيضة مُغَرَّقة فى ماءٍ آنكشف منها ما آنكشف، وآنغمر ما آنغمر.“ (٣٣)
وقد تقدّم هـذا التمثيل.

تخيل علماء الاسلام لوجود أمريكا قبل اكتشافها بقرن ونصف

وقال شيخنا، فريد الدهر، أبو الثناء محمود بن أبى القاسم الأَصفهانىّ، أمتع الله به ! „لا أمنعُ أن يكون ما آنكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا، منكشفا من الجهة الأخرى . وإذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة، لا أمنعُ أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ماعندنا، أو من أنواع وأجناس أخرى[1]“.

والذى ظهر لنا من ذلك عقلًا ونقلًا، ذكرناه . وبالله التوفيق !

(١) للاصفهانىّ (وهو بمصر) فضل السبق على كرستوف كولومب (وهو بالأندلس) لأنه قال بهذه النظرية قبله بقرن ونصف قرن . وللاصفهانىّ فضلٌ أكبر على مكتشف أمريكا : لأنه تخيّل وجودها بقوّة الفطنة والآستدلال، وأمّا كولومب فتخيّل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . توفى أبو الثناء فى سنة ٧٤٩ ﻫ (١٣٤٨م) . وأما كولومب فقد آجتهد فى إقناع فرديناند و إيزابلّا صاحبي الأندلس بصدق نظريته فى سنة ١٤٩٢ ميلادية (الموافقة لسنة ٨٩٨ ﻫ).

الفصل الثانى

فى أسماء الأرض وصفاتها

أسماء الأرض وصفاتها من حيث اللغة

قال الثعالبىّ، فى فقه اللغة :

" إذا اتسعت الأرض، ولم يتخلّلها شجرٌ أو خمر، فهى الفضاء، والبَراز، والبَراح، ثم الصحْراء، والعَرَاء، ثم الرَّهاء والجَهْراء.

فإذا كانت مستوية مع الاتّساع، فهى : الخَبْت، والجَدَد، ثم الصَّحْصَح، والصَّرْدَح، ثم القاع، والقَرْقَر، ثم القَرِق[1]، والصَّفْصَف.

فإذا كانت مع الاستواء والاتّساع، بعيدة الأكناف والأطراف، فهى، السَهْب والخَرْق[2]، ثم السَّبْسَب والسَّمْلَق[3].

فإذا كانت مع الاتّساع والاستواء، والبُعد، لا ماءَ فيها، فهى : الفَلاةُ والمَهْمَه، ثم التَّنُوفة والفَيفاء، ثم النَّفْنَف والصَّرْماء.

فإذا كانت مع هذه الصفات، لا يُهتدى فيها لطريق، فهى : اليَهْماء.

فإذا كانت تُضلُّ سالكها، فهى : المُضِلَّة، والمَتِيهَة[4].

(١) أورد اليسوعيون هذا اللفظ بالفاء فى آخره فى طبعتهم هذا الكتاب (ص ٢٩١) وعبارة القاموس (فى مادة قرق) تؤيد رواية ابن فضل الله . وهو بفتح الراء وكسرها .

(٢) أورد ابن فضل الله هذه اللفظة بالحاء المهملة . وصوابها بالخاء المعجمة كما فى طبعة اليسوعيين وكما يشهد به القاموس .

(٣) فى طبعة اليسوعيين : والمَلَق بعد السملق .

(٤) المتيهة كسفينة وتضم الميم مع كسر التاء، وتفتح الميم مع فتح الياء . وقد اختار المؤلف القول الاول واختار اليسوعيون القول الثانى .

فإذا لم يكن بها أعلامٌ ولا معالمُ[1]، فهى : المَجْهَل، والهَوْجَل.

فإذا لم يكن بها أثرٌ، فهى : الغُفْل.

فإذا كانت قفْراء، فهى : الوَىُّ.

فإذا كانت تُبيد سالكها، فهى : البَيْداء. (والمفازة كناية عنها).

فإذا لم يكن بها شئٌ من النبْت، فهى : المَرْت والمَليع.

فإذا لم يكن فيها شئٌ، فهى : المَرَات[2] والسُّبْرُوت والبَلْقع.

فإذا كانت الأرض غليظة صُلْبة، فهى : الجَبُوب، ثم الجَلَد، ثم العَزاز، ثم الصَّيداء، ثم الجُدْجُد[3].

فإذا كانت صَلْبة[4] يابسة من غير حصًى، فهى : الكَلَد، ثم الجَعْجاع.

فإذا كانت غليظة ذات حجارة و رمل، فهى : البُرقة، والأبْرَق.

فإذا كانت ذات حصًى، فهى : المَحْصَاة[5] والمَحْصِيَة[6].

(١) فى طبعة اليسوعيين لها أعلام ومعالم .

(٢) هكذا فى الأصل . والذى فى طبعة اليسوعيين : "المَرَوْرَاة" . وهى الصحيحة وقد أوردها فى القاموس : فى مادة (م ر و).

(٣) فى الأصل : الجدحد (بمهملتين) . ولعل الإهمال إهمال من الناسخ .

(٤) فى طبعة اليسوعيين بفتح الصاد . وهو غلط مطبعىّ .

(٥) فى طبعة اليسوعيين : "المُحَصَّاة" والقاموس يؤيّد الضبط الذى اختاره ابن فضل الله .

(٦) فى طبعة اليسوعيين : "المُحَصَّبة" . والأوجه أن تكون الكلمة بالياء لأن الاشتقاق من الحصىْ . واذا اخترنا الباء بدل الياء وجب أن نقول المَحْصَبة كما فى القاموس .

فإذا كانت كثيرة الحصىٰ، فهى : الأمْعز والمَعْزاء.

فإذا آشتملت عليها كلّها حجارة سُودٌ، فهى : آلحَرَّة واللَّابَة.

فإذا كانت ذات حجارة كأنّها السكاكين، فهى : الجَزيز.(١)

فإذا كانت الأرض مطمئِنَّةً، فهى : الجَوْف، والغائط، ثم الهَجْل، والهِضْم.(٢)

فإذا كانت مرتفعة، فهى : النَّجْد والنَّشْزُ.

فإذا جمعت الأرض الآرتفاع والصلابة والغِلَظ، فهى : المَتْن، والصَّمْد، ثم القُفّ، والقَدْقَد، والقَرْقَر.(٣)

فإذا كان آرتفاعها مع آتّساع،(٤) فهى : اليَفَاع.

فإذا كان طولها فى السماء مثلَ البيت وعرضُ ظهرها نحو عشرة أذرع، فهى : التل؛ وأطول وأعرض منها : الرَّبْوة، والرابية، والأكَمة؛ ثم الزُّبْيَة وهى التى

(١) لم أجد فى القاموس معنًى للجزيز ولعل آشتقاقه من الجزأى القطع. بدلالة وجود الحجارة التى كالسكاكين. وقد وردت هذه اللفظة فى طبعة اليسوعيين بالحاء المهملة. ومعنىٰ الحزيز كما فى القاموس، المكان الغليظ المنقاد. وهو لايدلّ علىٰ المراد هنا. فليحرر.

(٢) فى الأصل بالصاد المهملة. وصوابه بالضاد المعجمة كما فى القاموس. وقد ورد علىٰ صحته فى طبعة اليسوعيين.

(٣) فى طبعة اليسوعيين : القَرْدَد. وكلا اللفظين لايدلُّ بطريق الحصر علىٰ المعنىٰ الذى أراده الثعالبى. قال فى القاموس : "القردد ما آرتفع من الأرض". وقال : "القرقر الأرض المطمئنة اللّيّنة .... والقاع الأملس".

(٤) فى الاصل من.

لا يعلوها الماء. (وبها ضرب المثل،(١) فى قولهم : بلغ السيل الزُّبىٰ)؛ ثم النَّجْوَة (وهى المكان الذى تظنُّ أنّه نجا بك)؛(٢) ثم الصَّمَّان، (وهى الأرض الغليظة دون الجبل).

فإذا آرتفعت عن موضع السيل وآنحدرت عن غِلَظ الجبل، فهى : الخَيْف.

فإذا كانت الأرض ليِّنة، سَهْلة، من غير رمل، فهى : الرَّقاق (والبَرْث)؛(٣) ثم المَيْثاء والدَّمِثَة.(٤)

٣٥ فإذا كانت طيِّبة التُّربة، كريمة المنبِت، بعيدةَ الأحساء(٥) والنزوز، فهى : العَذاة.

فإذا كانت مَخِيلَةَ النبت(٦) والخير، فهى : الأرِيضة.

فإذا كانت ظاهرةً، لاشجرَ فيها ولا شئ يختلط بها، فهى : القَراح، والقِرْواح.

فإذا كانت مهيَّأة للزراعة، فهى : الحَقْل، والمَشارَة، والدَّبْرَة.

[فإذا لم تُهَيَّأْ للزراعة، فهى : بورٌ].(٧)

(١) جملة وبها ضرب الخ وردت هنا. ولم ترد فى طبعة اليسوعيين.

(٢) فى طبعة اليسوعيين : نجاؤك. ونجا مقصور لامهموز. فرواية آبن فضل الله أوجه.

(٣) وردت فى طبعة اليسوعيين بالتاء المثناة. ورواية آبن فضل الله أفضل ويؤيدها القاموس. وإذا كان اللفظ بالتاء. فالذى ورد منه هو البريت علىٰ وزن سكيت بمعنىٰ المستوى من الأرض. ولم يرد بلفظ البرت فى القاموس. وعلىٰ كل حال فمادة ب ر ت لاتعلق لها بالمعنىٰ الذى قصده الثعالبى.

(٤) فى طبعة اليسوعيين : الدَّمْثة.

(٥) « « : بعيدة عن الإحساء.

(٦) « « : مخيلة للنبت.

(٧) الزيادة من طبعة اليسوعيين.

فإذا لم يكن يصيبها المطر[(١)] فهى : القَـلّ والجُرُز[(٢)].

فإذا كانت غير ممطورة، وهى بين أرضَيْن ممطورتين، فهى : الخَطِيطَة .

فإذا كانت ذات ندًى ووَخامة، فهى : الغَمِقَةُ .

فإذا كانت ذات سباخ، فهى : السَّبَخَة[(٣)].

فإذا كانت ذات وباء، فهى : الوَبِيئة والوبِئَـة [علىٰ مثال فَعِيلة وفَعِلة][(٤)].

فإذا كانت كثيرة الشَّجَر، فهى : الشَّجْراء والشَّجِرة .

فإذا كانت ذات حَيّات، فهى : المُحْوَاة[(٥)].

فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب، فهى : المُسبِعة والمُذئِبة[(٦)].

---

(١) فى طبعة اليسوعيين : فإذا لم يصبها المطر.

(٢) فى الأصل : الجراز. ولم يرد فى القاموس سوىٰ : جُرُز وجُرْز وجَرْز وجَرَز ومجروزة للأرض لم يصبها مطر والجمع أجراز . ولو قال ابن فضل الله أجراز لصح .

(٣) فى الاصل : السلخة .

(٤) الزيادة فى طبعة اليسوعيين.

(٥) هكذا ضبطه فى طبعة اليسوعيين.

(٦) وضبطه فى طبعة اليسوعيين : المَسْبَعَة والمَذْأَبَة. والذى ضبطه ابن فضل الله أوجه .



الفصل الثالث

فى أسماء التراب وصفاته

أسماء التراب وصفاته من حيث اللغة

تراب وجه الأرض يقال له البَوْغاء.

والدَّقْعاء، التراب الرِخْو الرقيق الذى كأنه ذَرِيرة.

الثرىٰ، التراب النَّدِى [وهو كل تراب لا يصير طينا لازبا إذا بُلّ][(١)].

المور، التراب الذى تمور به الريح.

الهَباء، التراب الذى تُطيِّره الريح، فتراه علىٰ وجوه الناس وجلودهم وثيابهم [يلزق لزوقا (عن ابن شُمَيْل)][(١)].

[الهابى، الذى دقّ وارتفع (عن الكسائى)][(١)].

السافِياء، التراب الذى يذهب فى الأرض مع الريح.

النَّبِيثَة، التراب الذى يخرج من البئر عند حفرها.

الراهِطاء والدَّأْماء، التراب الذى يُخرجه اليَربوع من جحره ويَجْمَعه.

الجُرثومة، التراب الذى تجمعه النمل عند قريتها.

العَفاءُ، التراب الذى يُعفِّى الآثار. وكذلك العفر.

الرَّغام[(٢)]، التراب المختلط بالرمل.

---

(١) الزيادة من طبعة اليسوعيين.

(٢) من أول الفصل إلىٰ هنا منقول عن الفصل الرابع من الباب ٤٦ من فقه اللغة .

السِّماد، التراب الذى يُسَمَّد به النبات . فإذا كان مع السِّرقين، فهو الدَّمال.

وإذا كان الطين حُرًّا يابسا، فهو : الصَّلْصال.

(٣٦) فإذا كان مطبوخا، فهو: الفَخَّار.

فإذا كان عَلِكا لاصقًا، فهو: اللَّازِبُ.

فإذا غيَّره الماء وأفسده، فهو: الحَمَأ.

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة.)

فإذا كان رَطْبا، فهو: الثَّأطة والثُّرْمُطَة [والطَّثْرَة] (١).

فإذا كان رقيقا، فهو: الرَّدَاغ.

فإذا كان تَرْتَطِم فيه الدوابّ، فهو: الوَحْل. وأشد منه، الرَّدَغة والرَّزَغة (٢) وأشد منهما الوَرْطة (٣): تقع فيها الغَنَم فلا تَقْدِر علىٰ التخلُّص منها. (ثم صارت مثلا لكل شدّة يقع فيها الإنسان).

فإذا كان حُرًّا طَيِّبا عَلِكا، وفيه خُضرة، فهو (٤): العَضْراء.

فإذا كان مخلوطا بالتبن، فهو: السَّيَاع.

فإذا جعل بين اللَّبِن، فهو: المِلَاط (٥).

(١) الزيادة من طبعة اليسوعيين.

(٢) أورد اليسوعيون هاتين الكلمتين بسكون الدال فى الأولىٰ (وهو جائز) وبسكون الزاى فى الثانية ولم يقل به القاموس فإنه نص فقط علىٰ الفتحتين فى (رزغ).

(٣) فى الأصل: منها. وقد آخترنا رواية اليسوعيين لأنها أصوب.

(٤) فى طبعة اليسوعيين: "وهى". ولعلها سبق قلم.

(٥) من أوّل هذه الصفحة إلىٰ هنا منقول عن الفصل السادس من الباب ٢٦ من فقه اللغة.

الفصل الرابع (١)

فى اسماء الغبار وصفاته

أسماء الغبار وصفاته من حيث اللغة

النَّقع والعَكُوب، الغبار الذى يثور من حوافر الخَيْل وأخفاف الإبل.

العَجاجَة (٢)، الغُبار الذى تثيره الريح.

الرَّهَج والقَسْطَل، غُبار الحرب.

الخَيْضَعَة، غبار المعركَة.

العِثْيَر، غبار الأقدام.

المَنِين، ما تقطّع منه.

(١) هذا الفصل منقول عن الفصل الخامس من الباب ٢٦ من فقه اللغة.

(٢) فى طبعة اليسوعيين العجاج.

الفصل الخامس

فى أسماء الرمال وصفاتها

(ما آسترقّ)[١] من الرمل، يقال له : العداب[٢].

الحَبْل، ما آستطال[٣] منه.

اللَّبَب، ما آنحدر منه.

الحِقْف، ما آعوجّ منه.

الدِّعص، ما آستدار منه.

العَقِدَة، ما تعقّد منه.

العَقَنْقَل، ما تراكم [وتراكب][٤] منه.

السِّقْط، ما جَعَل ينقطع ويتّصل منه.

النُّهْبُورَة، ما أشرف منه.

التَّيهُور[٥]، ما آطمأنّ منه.

الشَّقِيقة، ما آنقطع وغَلُظَ منه.

(١) فى الأصل : ما آستطال. والذى نقلناه عن فقه اللغة يؤيده القاموس.

(٢) فى الأصل : العذاب. وهو غلط.

(٣) فى طبعة اليسوعيين : آستدقّ. والقاموس يؤيد رواية آبن فضل الله.

(٤) الزيادة من طبعة اليسوعيين.

(٥) جارينا طبعة اليسوعيين وإن كان التيهور معناه ما آنهار من الرمل وما آطمأن من الارض والذى فى الأصل التّهيورة.

الكَثِيب[١] والنَّقا، ما آحدَوْدَب وانهال منه.

العاقِر، ما لا يُنبت شيئًا منه.

الهَدَمْلَة[٢]، ما كثر شجره منه.

الأَوْعس، ما سَهُل ولَانَ منه.

الرَّغام، ما لان منه، وليس بالذى يسيل من اليَدِ.

الهَيام، ما لا يُتمالك أن يُمسك منه باليد، للينه[٣].

الدَّكادك[٤]، ما آلتبد بالأرض منه.

العانِك، ما تعقّد منه، حتى لا يقدر البعير على المسير فيه[٥].

والكثير من الرمل، يقال له : العَقَنْقَل؛

فإذا نقص، فهو : كثيب؛

٢٧

فإذا نقص منه[٦]، فهو : عَوْكل؛

فإذا نقص منه[٦]، فهو : سِقْط؛

(١) فى الاصل : الكثيف. وهى سبق قلم.

(٢) فى طبعة اليسوعيين : الهَرَمْلَة. وهو غلط.

(٣) فى طبعة اليسوعيين أى يسيل من اليد للينه. وهو تحريف ظاهر، ورواية آبن فضل الله متماسكة مع كل ماقبلها، ولذلك كانت أحسن سبكا.

(٤) إختار آبن فضل الله صيغة الجمع. والذى فى طبعة اليسوعيين : الدكداك بصيغة المفرد (أُنظر القاموس).

(٥) إلى هنا منقول عن الفصل التاسع من الباب ٢٦ من فقه اللغة.

(٦) فى طبعة اليسوعيين : عنه.

فإذا نقص منه[1]، فهو: عَدَاب[2]؛

فإذا نقص منه[1]، فهو: لَبَب[3].

وقال صاحب الغريب: "إذا كانت الرملة مجتمعة، فهى: العَوْكَلَة؛ فإذا آنبسطت وطالت، فهى: الكثيب؛ فإذا آنتقل الكثيب من موضع إلىٰ آخر بالرياح، وبقى منه شئ رقيق، فهو: اللَّبَب؛ فإن نقص، فهو: العَدَاب[2]."

والله أعلم.

(١) فى طبعة اليسوعيين: عنه.

(٢) فى الأصل بالذال المعجمة وهو خطأ.

(٣) الىٰ هنا منقول عن الفصل العاشر من الباب المذكور.

الفصل السادس

فى أحوال الأرض

هذا فصل قصدنا إفراده، لنزيده وضوحا، وسنذكره جملة وتفصيلا، ونستطرد فى ذلك ذكر الجبال، والأنهار، والبحيرات، والمساجد الثلاثة، وما يندرج معها، وذكر جُمَل من الآثار القديمة.

فنقول، وبالله التوفيق:

الأرتباط بين الكائنات الحية وبين الأرض

إنه لمّا كانت الأرض وما عليها من المركبات مِن الطبائع الأربع، وهى: التراب، والماء، والنار، والهواء، نظرنا إلىٰ تلك المركبات، فوجدنا ما غلب عليه عنصر الهواء (كالطير) فكان فى الهواء مقرّه؛ وما غلب عليه عنصر الماء (كالسمك) فكان فى الماء مقرُّه. ووجدنا الطير، وإنْ طلب مركزه المركَّب منه أكثرُ أجزائه وهو الهواء، والسمَكَ وإنْ طلب مركزه المركَّب منه أكثر أجزائه وهو الماء، لم نجد واحدًا منهما ولا شيئًا من الحيوان مطلقا يطلب النار ويُماسُّها[1]، إلَّا السَّمَنْدَر وهو نادر. ووجدناه يطلب الأرض ويُمَاسُّها كالطير إذا حطَّ إلىٰ الأرض، والحوتِ إذا أوىٰ بيتَه. فعلمْنا حينئذ أنَّهما من لوازم الأرض.

تمام آرتباط الإنسان بالارض

فبالأَوْلىٰ أن يكون من لوازمها، ما غلب علىٰ عنصره الترابُ، كالإنسان. ويدلّ علىٰ هذا قوله تعالىٰ: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ". (٣٨)

(١) فى الاصل: ولا يماسها. والظاهر أن زيادة (لا) سبق قلم.

فغلّب حكمها علىٰ بقيّـة العناصر، فى خلق الإنسـان، فقال: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ" إشارة إلىٰ التراب؛ وجعلها البداية والنهاية، قال: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفِيهَا نُعِيدُكُمْ". ثُمَّ أكّد لهـا التغليب علىٰ بقيّة العناصر الثـلاثة التى لاتقوم المركّبات إلّا بها، بقوله: "وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى". فجعـل منها النشأة الأُولىٰ فى أوّل الخلق؛ والثانيـة فى المعاد؛ وما بينهما، وهو: الموت.

السمندر والنار

فإن آعترض معترضٌ بالسمندر وأنه يأوِى النـار، قلنا: هذا شاذٌ نادر. والشاذّ النادر لا حُكْمَ له.

الأرض أمّ البشر

وإذ قد تبيّن أنّ التراب فى تركيب الإنسان أكثر، علِمنا أنها مركزه: منها الميلاد، وإليها المَعَاد.

فعلِمنا ضرورةً أنّ الأرض أمُّ البشر. اخرجهم من بطونها، فكانوا كالولدان لهـا. وقوتُ المولود، ثدىُ الأمّ، وهو: ما أخرجَتْ لنا من نباتها.

فعُلِم حينئذٍ أنّ نوع الإنسان من لوازمها، يطلب مركزه منها: لمـا فيه من ثِقَل التركيب بها. ألا ترىٰ أن النـار ولو عُكِست، أبَتْ إلّا طلب العُلُوّ: تطلب مركزها؛ والقربةَ المنفوخة التى قُسِرتْ بقاسِرٍ إذا أُطلِقت، طَلَبَ الهواءُ المملوءة به العـلوّ: يطلب مركزه؛ والمـاءَ لايجرى إلّا من العـالى إلىٰ المنخفض من الأرض. يطلب مركزه. وكذلك التراب، حيثُ رميتَ به الجو، ينحطُّ إلىٰ الأرض: يطلب مركزه.

فهٰكذا الإنسان: لا يطلب إلّا مركزه، وهو التراب: إذ كان أكثر أجزائه من التراب: وإلىٰ هذا أشار الشريف بقوله: "والنسيم جاذبٌ لِمَا فى أبدانهم من الخفّة، والارض جاذبةٌ لِمَا فى أبدانهم من الثِّقَل". وقد ذكرناه آنفا.

ولهٰذا لم يُقدِّروا فى المركّبات وجودَ الاعتدال الكامل المتساوى فى أجزاء التركيب: إذ لو كانت كذلك، لجذبَتْها العناصرُ الأربعة، جذبا متساويا. فلم يكن له مركزٌ خاصٌّ. وذلك محالٌ. (٣٩)

قلة النار فى الحيوان، ولماذا كانت العذاب الموعود به

وأقلُّ أجزاء العناصر فى الحيوان غالبا، النار. ثم يتفاوت الحيوان فى ذلك. ولهـذا لا تقوىٰ [الحيوانات] علىٰ النار قُوَّتَها علىٰ المـاء والتراب والهواء. ثُمَّ بتفاوتِ الحيوان فى ذلك، مَالَ كُلٌّ إلىٰ ماغلب علىٰ تركيبه. ولا يَهاب الحيوان شيئًا يقتحمه، كما يَهاب آقتحام النار. ولهذا كانت النارُ العذابَ الموعودَ به: لمنافرة ما بينها وبين الحيوان، لقِلَّة موجودها به فى جزء التركيب، كما أشرنا إليـه. والله يفعل ما يشاء لارادّ لأمره، ولا مُعَقِّب لحكمه.

الإنسان أرضىٌ ترابىٌ، وأسباب معاشه من الأرض

فلمّا كان الإنسان، بمـا غلب علىٰ تركيبه، أرضيا ترابيا، من الأرض مبدؤه، وإليها معاده؛ ثُمَّ منها عوده، كما قال تعالىٰ: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى" آضْطُرَّ إلىٰ مركزه، وآحتاج إلىٰ الاضطراب فى ارجاء الأرض، للكسب: إمّا للصيد، وهو أوّل رُتَب المعاش؛ أو الزراعة، وهى ثانى رتب المعاش؛ أو التجارة، وهى ثالث رتب المعاش، علىٰ مايأتى بيـانه. فلم يكن له غنًى عن معرفة جهات الأرض، ليمتدّ فيها لأسباب معاشه، فيماذكرناه أو غير ذلك، ممـا يتفرّع منه أو يترتَّب عليـه.

الإنسان مفطور على طلب البقاء

زعموا أنه لو وقع إنسان إلىٰ بَرّية يَهْماء[1]، لاساكنَ بها، لم يكن له دأبٌ إلّا طلب سبب البقاء، بمـا يصيد منـه ليأكل؛ فإذا أكل، طلب ما هو أزيَد سببا، فزرع؛

(١) الفلاة لا يُهتدىٰ فيها.

فإذا زرع، طلب ما هو أزيد سببا، فتاجر. ثم تفرع معاشه، وتشعّبت أسبابه، فاحتاج حينئذٍ إلى معرفة أجزاء الأرض وعوالمها، ليعرف أين كسبه، ومن أين معاشه. (٣٠) ولا يمكنه أن يقصد أرضا فى برٍّ ولا بحر، إلا بأعلام دالّة عليها، كالنجوم اللائحة، والجبال المائلة، والأنهار الجارية، والأهوية الهابّة. وليس هذا موضع ذكرها. لكنا نذكرها، إن شاء الله تعالى، عند ذكر معرفة القبلة فى كل أرض.

أحوال الارض على الإجمال

وإنما نذكر هٰهنا ما هو لائق به. وهو ما هو جُمْلِيٌّ من أحوال فى الأرض لازمة لها، من بعضيّاتها المشهورة فى جميع الأقطار: كالجبال العظيمة، والأنهار المتبحّرة. لأن بمواقع تلك الجبال الشهيرة، والأنهار المعروفة، يُعرف موقع كل جهة من الأرض.

البحار والسبب فى إفراد الكلام عليها

فأما البحار، فإننا قد أفردناها بذاتها. وسيأتى ذكرها فى موضعه. ولمْ نذكرها هنا مع الأرض، كما نذكر الجبال والأنهار، لأن الجبال والأنهار من عالَم الأرض. وأما البحار، فإنها عالَمٌ آخرُ، أكبر من عالَم الأرض، بما لا نسبةَ بينهما. فوجب إفرادها بذاتها، إذ كانت كشئ آخر.

كلمة عن الجبال

ونحن نُقدّم الجبال على الأنهار، لأنها أعلى أعلاما، وأثبت فى مواضعها مُقاما، وأكثرها على حالها، لا تتغيّر دواما.

نظرية فى اتصالها ظاهرا أو باطنا

والذى نقول الآن: إن الجبال كلّها متشعّبةٌ من الجبل المستدير بغالب معمور الأرض. وهو المسمىّ بجبل قاف، وهو أُمّ الجبال. كلُّها تتشعب منه. فتتصل فى موضع، وتنقطع فى آخر. وهو كالدائرة، لا يعرف له أول على التحقيق. إذ كانت الحلقة المستديرة، لا يُعْرَف طرَفاها. وإن لم تكن استدارته استدارةً كُرِيَة، ولكنها استدارةُ إحاطة، أو كالإحاطة.

فلمّا لمْ نقف له على أول على التحقيق، قدّرنا له أوّلاً، وهو: كَتِف السدّ الجنوبى. ونُديرُهُ بالمعمور. يتّصل فى موضع اتّصاله، وينقطع فى موضع انقطاعه، إلى كَتِف السدّ الشمالى: حيث الفُرْجة التى ساوى الإسكندر ذو القرنين فيها، كما قال تعالى "بين الصَّدَفَيْن" وأقام السدّ وعمل الباب، على ماهو مرسوم فى لوح الرسم. (٣١)

ماهو جبل قاف عند جغرافيي المسلمين، هو أم الجبال

ومجموع هذا الجبل ـ متصله ومنقطعه فى كل مكان، شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ـ هو جبل قاف. وهذا هو المستفيض على الألسنة، الطائر بين العالم، بما يعبر به عند كلّ منهم، على ما يقتضيه اختلاف الألسنة واللغات.

وقد زعم بعضهم أن أُمّهات الجبال جبلان: خَرَجَ أحدهما من لَدُنِ البحر المحيط فى المغرب، وأخذ جنوبا، وخرج الآخر من لَدُنِ البحر الرومىّ، وأخذ شمالا، حتّى تلاقيا عند السدّ. وسَمَّوُا الجنوبىَّ قاف، وسَمَّوُا الشمالىَّ جبل قَاقُونَا. والأظهر ـ والله أعلم ـ أنّه جبل واحد محيط بغالب بسيط المعمور، لا كما هو البحر، محيط بجميع كرة الأرض، وأنّه هو الذى تصدق عليه التسمية بجبل قاف فى كل قطر ومكان، ولا يُعرف فى الجنوب إلّا بهذه التسمية، ويُعرف فى الشمال بجبل قاقونا. وبهذا تزول شبهة من ظنّ أن كلًّا منهما غير الآخر. والله أعلم.

ماهو الجبل المحيط وكيف سيره

والذى نقول، وبالله التوفيق! إنّ هذا الجبل المحيط بغالب المعمور مبدؤه من كتف السدّ آخذاً من وراء صنم الخطا المحجوج إليه، إلى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين، آخذًا على غربىّ صين الصين، ثُمّ ينعطف على جنوبيّه مستقيمًا فى نهاية الشرق، على جانب البحر المحيط، مع الفُرْجة المنفرجة بينه وبين البحر الهندىّ الداخلة، ثم ينقطع عند مُخْرَج البحر الهندىّ المحيط مع خطّ الاستواء، حيثُ الطول مائة

وسبعون درجة (علّم عليها فى لوح الرسم قع بحساب الجُمّل)، ثم يتّصل من شُعبة البحر الهندىّ المُلاقى لشُعبة المحيط الخارجة على بحر الظلمات من المشرق، بجنوب كثير من وراء مُخرَج البحر الهندىّ فى الجنوب؛ وتبقى الظلمات بين هاتين الشُّعبتين: شُعبة ٣٢ المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا بغرب، وشُعبة(1) البحر الهندىّ الجائية على الظلمات شرقا بغرب، حتى تتلاقى الشُعبتان عند مُخرَج هذا الجبل، كتفصيل السراويل. ثم ينفرج رأس البحرين المتلاقيين شُعبتَين على مبدإ الجبل، ويبقى الجبل بينهما كأنّه خارج من نفس الماء. ومبدأ هذا الجبل قه هنا ووراء قبّة أرين، عن شرقها. وبُعده منها خمس عشرة درجة. وقد علّم صاحب جغرافيا قُبالة مبدإ هذا الجبل فى القسم الشرقىّ طولا. وذلك بعد أن انتهت درجات القسم الغربىّ عند قبّة أرين إلى تسعين درجة، علّم عليها فى لوح الرسم ص فكان هذا المقدار يه. وهو تفاوت مابين العددين.

ويقال لهذا الجبل فى أوله: المُجرَّد. ثُمّ يمتدّ حتّى ينتهى فى القسم الغربىّ إلى طول خمس وستين درجة من أول المغرب. وقد علّم عليها فى لوح الرسم سه.

جبل القمر

وهناك يتشعّب من الجبل المذكور جبل القمر(2)، وينصبُّ منه النيل. ويقال إنّ به أحجارا برّاقة كالفضة البيضاء، تتلألأ، تسمّى ضَحِكة الباهت: كلُّ من نظرها، ضحك والتصق بها، حتّى يموت. وتسمى مغناطيس الناس. قال صاحب جغرافيا، وقد ذكره أرسطو فى كتاب الأحجار.

(1) فى الأصل: ومخرج.

(2) ضبطه بعض أهل الجغرافيا بفتح القاف والميم. والثقات منهم على أنه بضم القاف وسكون الميم (أنظر تقويم البلدان طبع باريس صفحة ٦٤).

وتتشعّب منه شُعَب تسمّى آسيفى. يقال إنه مسكون، وإن اهله كالوحش. والله أعلم بصحة ذلك.

ثُمّ ينفرج منه فُرجة، ويمرّ منه شُعَب إلى نهاية المغرب فى البحر المحيط، تسمّى جبل وحشيّة: به سباعٌ لها قرونٌ طوال، لا تُطاق.

٣٣ الجبلان المكتنفان نهر النيل عند منبعه

وينعطف دون تلك الفُرجة من جبل قاف شُعَبٌ، منها شُعبتان إلى خط الأستواء يكتنفان مجرى النيل، من الشرق والغرب.

فالشرقىّ، يُعرف بجبل قاقولى، وينقطع عند خط الأستواء.

والغربىّ، يُعرف بأدمدمة. يجرى عليه نيل السودان، المسمّى فى جغرافيا بحر الدمادم. وينقطع تلقاء مجالات الحبشة مابين مدينتى سمغرة وجيمى.

ووراء هذه الشُعبة، تمتدّ شُعبة منه، هى الأُمّ من الموضع المعروف فيه الجبل بآسيفى المتقدّم الذكر إلى خط الأستواء، حيثُ هو الطول هناك عشرون درجة. وقد علّم عليها فى لوح الرسم ك.

ويُعرف هناك بجبل كرسقانة. وبه هناك وحوش ضارية. ثم ينتهى إلى البحر المحيط وينقطع دونه بفرجة مفروجة. وذلك وراء التكرور، عند مدينة قلتبو. ووراء هذا الجبل هناك سودان، يقال لهم تمتم(1)، يأكلون الناس. وستأتى جملة من أخبارهم فى موضعها، إن شاء الله!

ثُمّ تتّصل الأُمّ من شاطئ البحر الشامىّ فى شماله، شرقىّ رومة الكبرى، مسامتا للشُعبة المسماة أدمدمة المنقطعة بين سمغرة وجيمى لاتكاد تخطيها، حيثُ الطول خمس

(1) هكذا فى الأصل. ولعلها نمنم. (وأعتبر لفظة Niam Niam الافرنكية).

وثلاثون درجة علامتها فى لوح الرسم له . ويقع منشأ اتّصال هـذه الأمّ فى رسم خط العروض على ن . رَسْمها فى لوح الرسم . وكذلك تقع شُعبتها آخذا فى الجنوب إلى الخط المُعَـلّم عليه الأطوال فى لوح الرسم ، عند أخذها ما بين سردانية وبلنسية على ن .

وتناهى وصلة هـذه الأمّ إلى البحر المحيط فى نهاية الشمال ، قُبالة جزيرة بِرطانية .
(٣٤) وتبقى سوسـية داخل الجبل . ثم تمتدّ هذه الأمّ بعد انقطاع لطيف وتنعطف مع
انعطاف خرجة البحر المحيط فى الغرب بشمال على الصقلب المسماة ببحر الأنقليشين(١) ممتدًا إلى غاية المشرق . ويسمّى هناك بجبل قاقونا . وتبقى وراءه البحرة الجامدة لشدّة البرد . ثم ينعطف من الشمال المُشرّق جنوبا بتغريب إلى كَتِف السد الشمالى . فيتلاقى هناك الطرفان . وبينهما فى الفُرجة المنفرجة ، ساوى الإسكندرُ بين الصَّدَفَيْن .

ونحن نذكرها ما فى لوح الرسم من الجبال ، ونقسمه على أربعة أقسام ، تتجزأ بها المعمورة طولا وعرضا .

ففى العرض ممّا وراء خط الاستواء من المعمور المقدّر عرضه بإقليم ونصف إقليم ممّا أُخِذ له عرضٌ لارتفاع الحَمَل والميزان وهو جزء مقدّر بنصف إقليم فيكون ذلك تتمّة لقدر إقليمين من وراء خط الاستواء حيثُ انتهى أخذُ العرض هناك ممّا ابتُدئ من قبّة أرِين جنوبا بعشرين درجة ، وقد عَلّم عليها فى لوح الرسم ك إلى حيث نهاية المعمور وراء الروسيّة الثانية ، خارج الإقليم السابع فى الجزء المقدّر بنصف إقليم مارًا مع الإقليم السابع من أول المشرق إلى آخر المغرب حيث انتهى

(١) الانقليشين تعريب لفظة English بصيغة الجمع العربى ومعناه : بحر الانكليز .

أخذُ العرض هناك إلى خمس وسبعين درجة على ماقدّمنا ذكره ، وقد عَلّم عليه فى لوح الرسم عه قاطعا فى الطول على خطٍّ مستقيم من المشرق إلى المغرب يقع وسطه على خط العروض فى جزء أخذ عرضه على خمس وثلاثين درجة وهو ما بين خُوز وعبّادان . وقد عَلّم عليـه فى لوح الرسم له . ووقع هذا الخط فى المشرق آخذا على
جنوب السـدّ(١) ، مارًا على جنوب كرمان إلى أن ينتهى إلى البحر الشامى حيث مُخرَج (٣٥)
الخليج القُسطنطينى منه ما بين قبرس ورودس إلى آخر المغرب . وموقع هـذا الخط على وسط الأقاليم السـبعة المقسّمة . فيكون على خط نصف الإقليم الرابع مقسومة عليه الأقاليم السبعة نصفين على جانبين . وموقع هذا الخط الوسط منها .

(وأما جبال مكة والمدينـة ، فإنّا نذكرها بعد الأرباع ، مفردة بذاتها ، لتتوفر عليها المادة بإفرادها .)

(١) فى الأصل السند .

فالربـع الأوّل

جبال الربع الا ول

من هذه الأرباع المقسومة الآن،هو الربع الشرقىّ الآخذ إلىٰ الجنوب.

جزيرة القمر

وبه من الجبال فى جزيرة القُمْر العُظمىٰ من المعمور الخارج عن خط الاستواء:

جبل قدم آدم

جبـــلٌ يعرف بجبـل قدم آدم. يقال إنّ آدم (عليه السلام) أُهبِط عليه. وهو جنوبىّ جزيرة سَرَنْدِيب.

ووراءه جبلٌ كأنّه باء محـذوفة الذيل (بـ). ذكر صاحب جغرافيا فى لوح الرسم أنّ أهله سود يأكلون الناس. تقع حذفة ذيله علىٰ خط الاســتواء، علىٰ جزء بلغ طوله مائة درجة وخمس درجات. وقد علّم عليــه فى لوح الرسم مه[1] من حساب الجُمَّل.

ووراءه ثلاثة جبـالٍ منقطعة،صـغارا. يتلو بعضها بعضا. أوّلها جبلٌ،شرقىّ هـذا الجبل عنـد قائمته الأولىٰ المشـبهة برأس ياء متلوٍّ[2] كتلوّى الأرقم [ى]. فى سفحه مدينة عَلمـا؛ويليه من شرقيّه الثانى وهو جبلٌ آخذ علىٰ مدينتى ملاى وسمردى. ذكر صاحب جغرافيا أن الذهب والحديد به كثيران؛ويليه من شرقيّه، الثالثُ،وهو: جبلٌ هو أصغر الثلاثة،غربىّ مدينة مَعْلا.

جبل الديلم

ثُمّ ما هو داخل تحت خط الاستواء جبلٌ كثير الشهرة،وهو المشهور فى أواخره بجبل الديلَم. ومنشؤه من البحر الهنـدىّ غربىّ المنيبار. يأخذ ممتـدًّا إلىٰ الشمال



(١) العدد يدل على أنها : قه

(٢) فى الأصل : باء.

علىٰ وِرابٍ. فى ذيله الغربىّ كابُلُ. ثُمّ يخرج إلىٰ قسم هذا الربع الآخذ إلىٰ الشمال، ويقع هناك علىٰ أصفهان،وتنتهى شُـعبته علىٰ منبع نهر مكران، المـادّ إلىٰ السـند. وعليه من ذلك الميل فى شرقيه،المُحمَّديّة. ذكرناها هنا علامةً لهذا الجبل. وإذ قد ذكرنا هذا الجبل بمجموعه هنا،لم يبق حاجة إلىٰ ذكره فى قسم هذا الربع.

ومن ذلك جبلٌ آخذ علىٰ مسـتقيمِ هـذا الخط الواقع وَسْط الأقاليم السبعة المُخْرَجة هذه الأرباع عليه. ويمتدُّ هـذا الجبل مُشرّقا علىٰ تَلَوٍّ فى أوّله،مارًّا،إلىٰ مسامتة باب الصـين علىٰ جنوبيّه. وهناك يتّصل بالأُمّ. وتمتدُّ منه شعبة آخذة فى الجنوب إلىٰ البحر الهندىّ ممّا وراء المعبر،مدينة ازهونة. وذلك جميعه خارج عن الأمّ،منقولا من لوح الرسم.



والربع الثانى

جبال الربع الثانى

من هذه الأرباع المقسومة الآن هو الربع الغربىّ الآخذ إلىٰ الجنوب .

به من الجبال تحت الأُمِّ الخارجة من شعبتَىِ البحر المشبهة بتفصيل السراويل المقدمة الذكر، ثلاثةُ جبالٍ :

(الأول) منها وهو الشرقىّ جبلٌ آخذ عن الأُمّ علىٰ جانب فرجة بينهما، ممتدًا إلىٰ خط الاستواء حتىّٰ وقع عليه وينقطع عنده. وتقع مدينة لقمرانه فى ذيله علىٰ شرقيه، وبوشة فى ذيله علىٰ غربيه .

ويليه (الثانى) علىٰ غربيه وهو جبلٌ آخذ إلىٰ مدينة نسويه. وينقطع هناك.

ويليه (الثالث) علىٰ غربيه وهو جبلٌ يعرف بجبل حاقولى . ذكر صاحب جغرافيا فى لوح الرسم أنه معروف عند المسافرين . يأخذ علىٰ شرقىّ النيل حتى ينتهى إلىٰ مدينة فرقوة حيث آخر خرجة البحر الهندىّ . وقد نبهنا علىٰ ذكر هذا الجبل ، عند وصفنا للأُمّ المذكورة، وأشرنا إلىٰ أن مخرج الأُمّ يقع قبالته من شمالىّ البحر الشامىّ، علىٰ ما تقدم ذكره . ٣٧

وعن يسرته جبلٌ آخذ علىٰ شرقىّ النوبة .

ومن ذلك جبلٌ يقع منه جنوبا مع تغريب كثير كأنه "لا" معلقة بالخط المغربى [لا] .

ومن ذلك جبلٌ آخر منقطع ما بين خاخة وجيمى .

ومن ذلك دونهما جبلان آخران أحدهما يأخذ علىٰ الواحات والآخر يأخذ وراءه غربىّ بحيرة نافرن، وشرقىّ بحيرة كوكورة .



ومن ذلك وراءه فى غربيه جبلٌ كأنه رأس صاد بالخط المغربىّ [ص] وسطه بطحاء سهلة، لا وصول إليها من كل جهة، إلا بعد صعود الجبل والنزول إليها جانبه الداخل . يجرى منه النهر الواصل إلىٰ القيروان المنتهى إلىٰ البحر الشامىّ .

الجبل اللماع

ويليه جبلٌ يعرف باللمّاع كأنه فردة صولجان . عليه حصن الملح وجَزُولةُ . وتنصبُّ منه أنهارٌ إلىٰ المحيط .

ومن ذلك جبلٌ يأخذ بين فاس وسجلماسة وينصبّ منه نهر بين أَسَفِى والمزمّة حتى يصب فى البحر المحيط، شرقىّ طنجة .

ومن ذلك جبلٌ منقطع ينشأ فى أواخر خط الاستواء غربا، حيث الطول من الغرب خمس عشرة درجة، عَلَّم عليها فى لوح الرسم يه من حساب الجُمَّل . ويأخذ جنوبا إلىٰ البحر المحيط .

ومن ذلك جبلانِ يعرفان بجبل كرسقانة وجبل وحشية. وقد تقدم ذكرهما. وذلك كله خارج عن الأُمّ، منقول من لوح الرسم .

والربع الثالث

الغربىّ الآخذ إلى الشمال

(٣٨) جبال الربع الثالث، وهى جبال الأندلس

به من الجبال جبلٌ آخر فى جزيرة الأندلس، فى جنوبيّها من البحر الشامىّ من إشبيليّة إلى بَطَلْيُوس، وآنصبَّ منه نهران : أخذ أحدهما على إشبيليّة مارًّا بينها وبين مالقة حتّى صبَّ فى البحر الشامىّ ، والثانى منهما أخذ على إلبيرة وصبّ فى البحر المحيط .

وفى شرقيّه جبلٌ آخذ من قورة إلى وادى آش، عليه هيكل الزُّهَرَة، وآنصبّ منه نهر مرّ على وادى آش وأخذ شرقىّ غَرْناطة إلى قُرْطُبة، وصبّ فى البحر الشامىّ .

وفى شرقيه جبلٌ خرج من البحر المحيط، من شمالٍ مغرّبا وأخذ مارًّا فى الأندلس إلى بَلَنْسِيَة وآنتهى إلى البحر الشامىّ .

وهذه الجبال كلها وراء وصلة الأُمّ الخارجة على شرقىّ رومة الكبرى.

ولولا مُخرَج الأمّ هنا، لمَا آمتنع سبيل الأندلس فى البرّ إلى بلاد القُسطنطينية الكبرى واللان والأص والصقلب، ولوصل منه إلى جميع الأرض، شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، من غير بحر حائل ولالجّ مانع . فلمّا لم يبق للأندلس سبيل الّا من البحر، بقيت كأنّها داخلة هذا الجبل المحيط بالمعمور، وإن كان موقعه وراءه من غربيّه .

ذكرنا هذا هنا لمقتضيه، إذ لم يمكن السكوت عنه .



ثم نعود إلى تتمّة الجبال الواقعة فى هذا الربع الثالث .

فمن ذلك جبلٌ يأخذ على بحر بُنْطس(١) المتصل بالبحر الشامىّ، من شرقىّ هِرَقْلة ويمتدّ إلى أنطاكيَة وحَلَب ويمتدّ فى الشام على شمالىّ بعلبك ودمشق . ويحصر هذا الجبلُ البحر الشامىّ آخذًا معه إلى الجنوب، على فرجة بينهما تلك الفُرجة هى موقع مدائن الروم وهى المسماة الآن ببلاد الروم، مثل: قُونية وقيصرية وأنطاكية.

(٣٩) ومن ذلك جبلٌ يمتدّ على ماردين وشَهْرَزُور وأخلاط. ينقطع ويتصل بجبل أَذْرَبيجان . وتنصبّ منه أنهار كبيرة : منها مايصبّ فى البحر الشامىّ، ومنها مايصبّ فى بحر بنطس(١)، ومنها مايصبّ فى البحر الهندىّ، ومنها مايصبّ فى البحيرة البلّاعة المقاربة للسدّ. ويتصل هذا عن فرجات بجبل طبرستان المارّ بين أذربيجان وغزنة. وكذلك يتّصل به جبل طوس الآخذ بينها وبين جرجان، حيث يخرج خطُّ أخذِ العروض .

ومن ذلك جبلان منقطعان، وراء بحر بنطس(١)، من شماله بشرق . آخذان على بحيرة الجارس عن شرقها وغربيّها .

وذلك كله خارج عن الأمّ، منقولا من لوح الرسم .

(١) فى الأصل "بطش" وكذا هو فى تقويم البلدان لأبى الفداء . ولكنا اعتمدنا ضبط ياقوت.

والربع الرابع

جبال الربع الرابع

من هذه الأرباع المقسومة ، وهو الربع الآخذ إلى الشمال ، وبه تمامها .

به من الجبال ، جبلٌ منقطع ما بين بلاد السند وبين بوار . وشمالىّ القموج[1] يجرى نهر مُكْرَان[2] حيث يقطع مدى الصحراء على ذيله ويخرج هناك .

ومن ذلك جبلٌ ينزل به غُزْغُز النار[3] . به باب الصين .

ومن ذلك جبالُ الخَطا المحيطة بها على باش بالق ، وآل بالق ، وخان بالق .

ومن ذلك جبلٌ منقطع ، كأنه صليبٌ ذَهَبَ أحدُ شُعَبه . ومدينة ظَفَارِ فى ذيله المغرّب . وشعبته الخارجة تقع بلاد الياش[4] فى ذيلها .

ومن ذلك جبلٌ منقطع مُتَلَوّ كالأرقم ، من غربىّ بلاد أسحرت إلى نهاية العمارة فى الشمال . ومنه ينصب فرع نهر جيحون .

ومن ذلك جبلٌ فى صحراء القبجاق ، آخذ على منعطف النهر المتّصل بالبحيرة الجامدة من شدّة البرد .

---

(١) أظن كثيرا أن الميم وقعت فى هذا الأسم بدلا من النون بطريق السهو . فهذا المكان مشهور باسم قِنَّوج ويسمى عند الفرنسيين Canoge .

(٢) سماه أبو الفداء نهر مهران وكذلك المؤلف فيما يأتى من هذا الجزء وهو المشهور بنهر السند وعند الفرنسيين Indus .

(٣) لعلها : التتار .

(٤) لعلها : الشاش .

ومن ذلك جبلٌ منقطع ينصبُّ منه فرعٌ إلى نهر إَتيل[1] فى شرقىّ صحارى القبجاق آخذا بشرق مدينة أوتنا . ووراءها عبدة الشياطين ، على ما رسم صاحب جغرافيا فى لوح الرسم .

ومن ذلك شعبة آخذة من الأمّ إلى جنوبٍ مُغَرّب ، ينصبُّ منه ماءٌ إلى النهر المنتهى إلى البحيرة الجامدة .

ثم إنا نذكر هنا ما رأينا إفراده فى هذا المكان ، ليكون أوضح لبيانه ، وأدلّ على مكانه . وهو الجبل الممتد على الشام ، وجبالُ شهيرة بجزيرة العرب .

---

(١) هو المعروف الآن فى الجغرافيا الحديثة بنهر فولجا Volga . ومعنى اتيل بفتح الالف أو بكسرها النهر فى لغة الأتراك . وهو ببلاد الروسيا ، وأكبر أنهار أوربة .

جبال الشام واتصالاتها

فأما الجبل الممتد على الشام

فإن أوله بالمشرق من الصين من البحر المحيط . فيقطع بلاد التتر على معادنها إلى أن يأتى فرغانة إلى جبال البُتَم الممتد بها نهر السُّغْد إلى أن يصل الجبلُ إلى جيحون فينقطع ، ويمضى فى وسطه بين شعبتين منه ، وكأنه قُطِع ثم [وصل] فى وسطه . ويستمر الجبل إلى الجُوزجان ويأخذ على الطَّالَقان إلى أعمال مَرْو الرُّوذ إلى طُوس . فتكون جميع مدن طوس فيه . ويتصل به جبال أصبهان وشيراز إلى أن يصل إلى البحر الهندىّ . وينعطف هـذا الجبل ويمتد إلى شَهْرَزُور وإلى سُهْرَوَرْد . فيمرُّ على جباله بسائر دِجْلَة . ثم يتصل بجبل الجُودىّ ، مَوْقِف سفينة نوح (عليه السلام) . ولا يزال هذا الجبل مستمراً من أعمال آمِد وميّا فارقين حتى يمر بثغور حَلَب . ويُسمّى هناك جبل اللُّكَام . ويستمر جبل اللُّكام إلى أن يَعدّى الثغور فيُسمّى بهذا حتى يجاوز حِمْص فيُسمّى لُبْنان . ثم يمتد على الشام حتى ينتهى إلى بحر القُلْزُم من جهة ، ويتصل من الجهة الأخرى ويُسمّى المُقطَّم . ثم يتشعب وتتصل أواخر شعبه بنهاية المغرب .

ونحن وإن كنا قد ذكرنا هذا الجبل ، كليَّهُ وجزئيَّهُ ، مما تقدم على ما اقتضاه الإيضاح فى مَوضعه على ما صُوِّرَ فى لوح الرسم فى أماكنه ولكنا أردنا هنا اتصال لُحمته ليعرف كيف هو بأسمائه فيما يمر عليه فى الأرض من شرقها إلى مغربها .

فأما جبال مكة

جبل عرفات

فأعظمها وأحقها بالتقديم وإن بَعُدَ عن مكة مكانا جبل عرفات ، موقف الحجيج الأعظم ، وركن الحج الأكبر .

جبل أبى قبيس

ومنها جبل أبى قُبَيْس ولونه أدكن إلى البياض قليلا وإنما قيل له أبو قُبَيْس لأن الحجر الأسود اقتُبس منه وقيل هو اسم رجل من مذحج كان يُكنى أبا قبيس عُرِف به لأنه أوّلُ مَن بَنَى فيه . كذا قال الزمخشرىّ : وقال أبو القاسم السُّهَيْلىّ : عرف برجل من جُرْهُم كان قد وَشَى بين عمرو بن مُضاض ، وبين ابنة عمه مَيَّة فنذرت أن لاتكلمه ، وكان شديد الكَلَف بها ، فحلف ليقتلن قُبَيْسًا ، فهرب منه فى الجبل المعروف به ، وانقطع خبره ، فإما مات ، وإما تردّى ، فسُمِّىَ الجبل أبا قبيس . وقال ابن عباس : هو أول جبلٍ وُضع على الأرض . رواه أبو عروبة وأبو بكر بن أبى شيبة . وقال الزمخشرىّ : كان يسمّى فى الجاهلية الأمينَ ، لأن الركن كان مستودعا فيه ، عام الطوفان . وفى أعلاه منار إبراهيم عليه السلام . وقد جاء فى بعض الآثار أن ذلك المنار على الموضع الذى نادى منه إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلام بحجّ بيت الله الحرام . والأكثرُ أنه نادى من أعلى المقام ، وفى أصله الصفا ، ومنه يُصعد إليه من ناحية المسجد . ويُصعد إليه أيضا من شِعْب أجياد الصغير . وأبو قبيس أحد الأخشبين . وهو أقرب الجبال إلى المسجد الحرام ، وهو بإزاء الركن الأسود من الكعبة .

جبل الخندمة

وجبـل الخندمة [1] وهو على أبى قبيس من ناحية المشرق . وهو جبـل أحمر محجّر . فيه صخرة كبيرة شديدة البياض كأنها معلقة ، تشبه الإنسان إذا نظرت إليها

(١) فى الأصل "الحندمة" بالمهملة ، ولكن ياقوت والقاموس ذكراه فى باب الخاء المعجمة .

من بعيد. تبدو من المسجد من باب السَّهميّين الصغير. وفى هذا الجبل تحصَّن اهل مكة، إذ أحاط بهم القرامطة وقلعوا الحجر الأسود وأخذوا الشمسة وجميع ما كان فى الكعبة، إلىٰ أن ردّه الله إلىٰ موضعه، علىٰ يد ولد الذى قلعه. وتحت هذا الجبل شِعب علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه).

الجبل الابيض

والجبل الأبيض. الذى علىٰ الأبطح إلىٰ باب المعلى يسمى عاضرة.

٤٢

والجبل الآخر. علىٰ الحجون ووجهه إلىٰ قُعَيقِعان، علىٰ قبر عبد الله بن الزبير.

الأخاشب والجباجب

والأخاشب والجباجب. جبال مكة. وفيه الثَّنِية، وهى العقبة. وعند أصله بقيع مكة. ومن هذا الجبل إلىٰ الجبل الأبيض بنىٰ المقتدرُ السورَ، وجعل له بابا من حديد وهو المعروف بباب مِنًى، وشِعب المُحَصّب.

جبل قعيقعان

وجبل قُعَيْقِعَان. وهو يقابل أبا قُبَيْس من ناحية الشمال. وهو جبل أخضر يقابل من الكعبة ما بين الركن العراقىّ والميزاب. وهو حدّ أخشبَىْ مكة.

جبل أجياد

وجبل أجياد. إنما سمى بأجياد لأن الله تعالىٰ لما أذن لإبراهيم وإسماعيل برفع القواعد من البيت، أعطىٰ كل واحد منهما كنزا من كنوزه. فأوحىٰ الله إلىٰ إسماعيل: "إنى معطيك كنزا من كنوزى، لم أُعطه لأحد قبلك. فٱخرج فنادِ بالكنز، يأْتِك". قال فخرج إسماعيل — وما يدرى ذلك الكنزَ ولا يدرى كيف الدعاءُ به — حتّىٰ أتىٰ أجياد. فألهم الله إسماعيل الدعاء بالخيل: "يا خيل الله، أجيبى!" فلم يبق فى بلاد العرب كلها فرس إلا أتاه وذلّله الله له، وأمكنه من نواصيها. قال ٱبن عباس: فلذلك سمِّى ذلك الموضع بأجياد. وكانت الخيل قبل ذلك كسائر الوحوش. فقال شاعر قصير يرتجز[1] بذلك:

(١) لعله: يفتخر.

أبونا الذى لم تُركبِ الخيلُ قبله، * ولم يَدْرِ خلقٌ قبلَه كيف تُرْكَبُ!

جبل ٱبن عمران

وجبل ٱبن عمران. وهو الجبل الأسود الذى بين أبى قُبَيْس وأجياد. وهو خلفها. يظهر علىٰ بعدٍ كأنه بينهما. يقابل من الكعبة الشقّ اليمانىّ.

فهذه الجبال المحيطة بالمسجد الحرام.

جبل البكاء

٤٣

ثم فى العطف فى آخر ذى طوىٰ فى طريق التنعيم جبل البُكاء. وقربَه علىٰ يسار المارّ إلىٰ التنعيم، الحِجرُ الذى قعد عنده رسول الله، (صلى الله عليه وسلم) مستريحا عند إقباله من العُمرة. فَلَانَ فيه موضعُ رأْسه، حتى[1] ٱستند إليه. وهو مشهور يقعد الناس عنده، عند ٱنصرافهم من العُمرة، وعند جبل البكاء تحته مما يلى الغرب.

سقايات مكة

قال الفاكهىّ: وبمكة فى فجاجها وشعابها من باب المسجد إلىٰ منار مسجد التنعيم وجميعه نحو من مائة سقاية[2]. وفى أصله مما يلى الشمال مياهٌ، وكانت قديما بساتين. والوادى أسفل منها فى المحجّة. كل ذلك علىٰ يمين المارّ إلىٰ التنعيم.

جبلا شامة وطفيل

وشامة وطُفَيْل. تحت الثَّنِيَّة السفلىٰ غربىّ ذى طُوىٰ.

جبل ثبير

ومن ناحية الشرق فى طريق مِنًى جبل ثبير. وهو جبل عظيم مرتفع أسود كثير الحجارة فى عَطف وادى إبراهيم (عليه السلام) من يسار المارّ إلىٰ مِنى.

قال السهيلىّ: "عرف برجل من هُذَيْل. مات فدفن به فعرف به الجبل". وقال الزمخشرىّ: "ثبيران جبلان مفترقان تصب بينهما أُفاعِيَةُ، وهى واد يصب من مِنى، يقال لأحدهما ثبير غَيْنَا وللآخر ثبير الأعرج".

جبل حراء

ثم جبل حِرَاء. وهو علىٰ يسار المارّ إلىٰ مِنى أيضا. وهو الجبل الذى كان

(١) لعله حين.

(٢) هكذا فى الأصل.

حُبّب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم الخلوةُ فيه، حتى أتاه الوحيُ. وليس فيه غارٌ، إنما كان فيه موضع منهل شبيه بالحوض فى أصل صخرة عظيمة فى أعلى الجبل.

جبل ثور

وجبل ثور ليس فى جبال مكة أعلى منه ولا أوعر. وهو خلف مكة على طريق مكة. يسمّى ثور أطحل. والغار فى جانب منه، فى أعلاه دون الثنية قليلا. وفيه نزل جبريل على النبيّ، صلى الله عليه وسلم والغار الذى آختفى فيه عليه السلام مع أبى بكر صخرة واحدة مقبية، ومدخلها ضيق طوله خمسة أشبار إلا ثلثا

غار حراء

وعرضه فى أوسع مكان فيه، شبرٌ وأربع أصابع. وصفة الغار أنه مستطيل من ناحية الغرب إلى الشرق، وليس بغائص إلى أسفل. طوله ثلاثة وعشرون شبرا،



وعرضه تسعة أشبار إلا ثلثا. وله بابٌ ثان فى آخره، من ناحية الشرق. وهو الذى فتحه جبريل عليه السلام حين ضربه بجناحه إلى الصخرة، فآنفتح هنالك باب طوله ستة أشبار وعرضه أربعة. ومنه خرج عليه السلام، يوم خرج إلى المدينة.

جبال المدينة المنورة

وأما جبالُ المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فأشهرها

جبل أُحُد

جبل أُحُد وهو جبل أحمر أعلاه دَكْدَكٌ. بينه و بين المدينة ميل وأفسح قليلا. فى شمالى المدينة. وفيه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أُحُدٌ جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه". وفى الحديث أنه يكون يوم القيامة أحدَ ركنى باب الجنة. ويعضده قولُه صلى الله

جبل سلع

عليه وسلم: "المرء مع من أحب". كذا قال السُّهَيْلِيّ. وجبل سَلْع. وهما

جبل ثور وجبل عير

أشهر الجبال هناك. وجبل ثور وغلط فيه بعضهم. وجبل عير والحرم ما بينه وبين أُحُد.



فهذه هى جميع الجبال الشهيرة، والأعلام الظاهرة فى جميع المعمورة وما قاربها. لم نخلّ منها إلا بما لعلّ صاحب جغرافيا لم يُصَوِّره فى لوح الرسم؛ وإن كان، فهو القليل. وفيما ذكرناه كفاية.



الأنهار المعروفة

وأما الأنهار المعروفة فنحن نذكر هنا ما فى لوح الرسم من الأنهار ونقسمه على اربعة أقسام تُجزّى بها المعمورة طولا وعرضا، كما ذكرناه فيما تقدم قبل ذكر الجبال. وبالله التوفيق!

فالربع الأول

أنهار الربع الأول

من هذه الأرباع المقسومة الآن هو الربع الشرقىّ الآخذ إلى الجنوب. وبه من الأنهار ما يُذكر.

فمن ذلك فى جزيرة القمر العظمى ثلاثة أنهار :

شرقيُّها آخذٌ من قنطورا ومعلا.

ويليه ثانيها فى غربيّه ينصبّ من جبل قدم آدم على مدينة سيابا، ويأخذ مارّا إلى مدينة قزدرا . ويجرى هناك بحيرة فى جنوبيها مدينة كيما حيث محل السودان الذين يأكلون الناس.

ويليها ثالثها فى غربيّه، ويخرج من الجبل المشبه بياء محذوفة الذيل [ى] . (٤٥) يُطَوِّق بمدينة دَهْمَى، فتبقى مدينة دهمى بينه وبين البحر الهندىّ فى جزيرة بينهما. يكون هو محيطا بها شرقا وجنوبا وغربا. فتكون لذلك كالجزيرة ويتصل شمالها بالبحر الهندى. وتقع مدينة فورانة فى غربيه حين(1) يصب فى البحر الهندىّ.

ومن ذلك نهر ينصب من جبل قاف عند وصلة الأُمّ فى شعبتى البحر المشبه بتفصيل السراويل. وينصب فى الشعبة الجنوبية من تلك الشعبتين على مَدًى غير بعيد. وذلك جميعه غير منقول من لوح الرسم.

---

(1) لعله: "حيث". [والكلمة التى فى الاصل ربما يصح التعبير بها.]

والربع الثانى

أنهار الربع الثانى

من هذه الأرباع المقسومة، وهو الغربىّ الآخذ إلى الجنوب.

وبه نهر ينصب من جبل قاف، مارّا فى الشمال إلى خط الاستواء حتى ينصب فى البحر الهندىّ شرقىّ قبة أَرِين.

ومن ذلك نهر ينصب من الجبل المارّ على غربىّ مدينة لقمرانية حتى ينصب عند خط الاستواء فى البحر الهندىّ.

وصف نهر النيل

ومن ذلك نهر النيل. وهو النهر الأعظم الذى لا يعدله فى عظيم نفعه شئٌ: لعظم ما عليه من البلاد وطوله فى الأمم. وهو ينصبّ من جبل القُمر. وقد قدّمنا عند ذكر الجبال طرفا فيه، وإن كان لا مقال يوفّيه؛ لأنه إحدى الكُبَر، وأُولى العبر، آية من آيات الله فى أرضه، وعجيبة لمن تأمل من خلقه. ساقه الله تعالى إلى مصر وأحيا به بلدةً ميتا وسقاه أمة عظمى(1). وإن لم تكن هى المتفردة بنفعه، فإنها كالمتفردة به: لعظيم منفعتها منه وعميم مصلحتها به. يجىء إليها أحوجَ ما كانت إلى مجيئه، وينصرف أحوج ما كانت إلى انصرافه. وذلك تقدير العزيز العليم. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾.

كلمتان للقاضى الفاضل

وفيه يقول القاضى الفاضل: "النيل المصرىّ الذى يكسو الفضاءَ ثوبا فضّيًّا، ويُذْكِى فى الأرض ماؤه سراجا من النور مُضِيًّا، ويتدافع تيّاره دافعا فى صدر الجَدْب بيد الخِصْب، وتُرضع أُمّهات خلجانه المزارعَ، فتأتى أبناؤها بالعصف والأبّ". وفيه

---

(1) لعل الاوجه: أحيا به بلدا ميتا وسقى به أمة عطشى.

يقول أيضا : ”وأما النيل فقد آمتدّت أصابعه، وتكسرت بالموج أضالعه، ولا يُعرَفُ الآن بمصر قاطبة نهر سواه، ولا مَن يُرجىٰ ويُخاف إلا إياه“ .

أصول النيل

ونحن نذكر كيف هو، فنقول والله أعلم : إن النيل ينصبُّ عشرة أنهار من جبل القُمر المتقدّم الذكر . كل خمسة أنهار من شُعبة . ثم تتبحّر تلك العشرة الأنهار (٤٦) في بحيرتين : كل خمسة أنهار تبحر بحيرةً بذاتها . ثم يخرج من البحيرة الشرقية منها بحرٌ لطيف يأخذ شرقا علىٰ جبل قاقولى، ويمتدّ إلىٰ مدن هناك، ثم يصب فى البحر الهندى . ثم يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار، من كل بحيرة ثلاثة أنهار . ثم تجتمع تلك الستة الأنهار فى بحيرة متشعبة .

وصول آخر سلاطين بنى عبد المؤمن إلىٰ منبع النيل

حدّثنى أقضىٰ القضاة شرف الدين أبو الروح عيسىٰ الزواوى، أن الأمير أبا دبوس آبن أبى العلىٰ أبى دبوس ووالده آخر سلاطين برّ العدوة من بنى عبد المؤمن حدّثه أنه وصل إلىٰ هذه البحيرة، فى أيام هربه من بنى عبد الحق، ملوك بنى مرين القائمين الآن .

وصف البحيرة التى يخرج منها النيل

رجعنا الىٰ ذكر مجتمع تلك الأنهار الستة فى تلك البحيرة و بعضهم يسميها : البطيحة . فنقول .

وفى تلك البطيحة تضريسةُ جبلٍ : يُفْرَق بها الماء نصفين .

ذراعا النيل عند منبعه

يخرج النصف الواحد من غربىّ البحيرة . وهذا النصف هو المعروف بنيل السودان[(١)] . ويستقلّ نهرا يسمّى بحر الدمادم . يأخذ مُغَرّبا ما بين سمغرة وغانة، علىٰ جنوبىّ سمغرة وشمالىّ غانة . ثم ينعطف هناك منه فرقةٌ ترجع جنوبا إلىٰ غانة، ثم تمرّ علىٰ مدينة برنسة، ويأخذ تحت جبل فى جنوبيها خارجٍ عن خط الأستواء إلىٰ رُقيلة .

(١) هو المعروف فى الجغرافية الحديثة بنهر النيجر Le Niger .

ثم يتبحر فى بحيرة هناك . وتستمر الفرقة الثانية مغرّبة إلىٰ بلاد مالّى والتكرور حتّى تنصب فى البحر المحيط، شمالىّ مدينة قَلَنْبُو .

ويخرج النصف الآخر متشاملا آخذا علىٰ الشمال إلىٰ شرقىّ مدينة جِيمِى . ثم يتشعب منه هناك شُعبة تأخذ شرقا إلىٰ مدينة سَحَرْتَة . ثم ترجع جنوبا . ثم تعطف شرقا بجنوب إلىٰ مدينة سَحَرْتَة . ثم إلىٰ مدينة مركة، منتهيا فى العود هناك إلىٰ خط الأستواء حيث الطول خمسٌ وستون درجة عَلَّم عليها فى لوح الرسم سه . ويبحّر بحيرة هناك . (٤٧)

مرور النيل فى بلاد السودان

ويستمر عمود النيل من قُبالة تلك الشُعبة شرقىَّ مدينة شيمى متشاملا آخذا علىٰ أطراف بلاد الحبش . ثم يتشامل علىٰ بلاد السودان إلىٰ دُنْقُلة ، حتّى يرمى علىٰ الجنادل إلىٰ أسوان إلىٰ قُوص، منحدرا يشقّ بلاد الصعيد شقًّا ، حتى يقابل قرية تعرف بدَرْوة سَربام[(١)] . وقد تعرف الآن بدروة الشريف : نسبةً إلىٰ الشريف آبن ثعلب، الثائر فى الأيام الظاهرية الركنية بالصعيد، لمُقامه بها .

بحر يوسف بمصر

ويتشعب منه فى غربيه شُعبة تسمّى المَنْهىٰ . تستقل نهرا يصل إلىٰ الفَيُّوم . يقال إن يوسف (عليه السلام) آحتفره أيام تولّيه لأمور ملك مصر . وهو يعرف إلىٰ الآنَ ببحر يوسف . وهو نهر لا ينقطع جريانه فى وقتٍ من أوقات السنة، بخلاف بقية ما يتشعب بالديار المصرية من خُلْجان النيل . فيسقى الفيوم عامة، سقيا دائما لا ينقطع . ثم يُبَحِّر فاضل مائه فى بحيرة هناك .

مشاهدة للؤلف فى بحر يوسف

ومن العجب — وهو مما رأيته بعينى — أنه ينقطع ماؤه من فُوَّهَتِه أوانَ آنقطاع المياه من خُلْجان الديار المصرية ، وينـدّى دون فُوَّهَتِه ، ثم يكون له بلل دون المكان

(١) هى بهذا الضبط فى معجم البلدان لياقوت وتسمى الآن دروط الشريف (أو بياء قبل الراء) . وهو تصحيف جرىٰ علىٰ ألسنة العامة وآستفاض .

المندّى، ثم يجرى جريا ضعيفا دون مكان البلل، ثم يستقل نهرا جاريا لا ينقطع إلا بالسفن . و يتشعب منه أنهارٌ، وتنقسم قسما تعمّ الفيوم لسقى قُرَاه ومزارعه وبساتينه وعامّة أماكنه .

عمود النيل فى الصعيد

ثم نعود إلى ذكر عمود النيل الممتد : فنقول .

إنه من ذروة سَرْبام حيث يتشعب المَنْهَى يستمر فى بقية الصعيد، يشقه شقا إلى مدينة الفسطاط (وهى التى يسميها الآن عامة أهل مصر بمصر)(1) حتى يتعداها .

(٤٨) ثم يتفرق فرقتين : تأخذ إحداهما على دمياط، والأخرى على رشيد . وعندهما انتهاء النيل، ويصب فى البحر الشامىّ .

ومن مبدإ هبوطه من أسوان مارّا فى الصعيد إلى أن تصب فرقتاه فى البحر الشامىّ، تقسم منه البحار والأنهار، وتتشعب منه الخُلُجُ والمساقى . تجرى فى زيادته، وتنقطع فى نقصه .

عالم مغربى أقام بالسودان ٣٥ سنة وأخبر المؤلف عن أصل النيل

وحدثنى الشيخ الثبت سعيد الدُّكّالىّ (وهو ممن أقام بمالّى خمسا وثلاثين سنة، مضطربا فى بلادها، مجتمعا بأهلها)، قال : "المستفيضُ ببلاد السودان أن النيل فى أصله ينحدر من جبالٍ سودٍ تَبِينُ على بُعدٍ كأن عليها الغمائم . ثم يتفرق نهرين : يصب أحدهما فى البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة(2) الجنوبى، والآخر يصل إلى مصر حتى يصب فى البحر الشامى".

توغل هذا العالم فى الأسفار لمعرفة منبع النيل

قال الشيخ سعيد الدُّكّالىّ : "ولقد توغّلتُ فى أسفارى فى الجنوب مع النيل . فرأيتُه متفرقا على سبعة أنهر، تدخل فى صحراء منقطعة، ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة،

(1) واسمها الآن مصر القديمة، ومصر العتيقة .
(2) هو نهر النيجر الذى سبق الكلام عليه فى صفحة ٦٨ وحاشيتها .

وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا مجتمعا . كلا الروِّيتين فى بلاد السودان . ولم أره لما اجتمع بالصحراء لأننا لم ندخلها، إذ لم يكن بنا حاجة إلى الدخول إليها".

اختلاف الأقوال فى أصل النيل

قلتُ : والأقوال فى أول مَجْرَى النيل كثيرة . ذكر فيها المسعودىّ وغيره مالا فائدة فيه . والشائع على ألسنة الناس أنّ أحدًا ماوقف على أوله بالمشاهدة . وجعل كل واحد منهم سببا لعدم الوقوف على حقيقة أوله .

فقال بعضهم : إنه انتهى أُناسٌ وصعدوا الجبل فرأوا وراءه بحرا عجّاجا، ماؤه أسود كالليل، يشقه نهر أبيض كالنهار، يدخل الجبل من جنوبه ويخرج من شماله، (٤٩) ويتشعب على قبة هرمس المبنية هناك . وزعموا أنه(1) هرمس الهرامسة، وهو المسمى بالمثلث بالحكمة(2) . وزعم بعضهم أنه إدريس عليه السلام . بلغ ذلك الموضع وبنى به قبة . قالوا : وسمى بالمثلث، لاجتماع الثلاثة له : النبوة، والحكمة، والمُلك .

وقال بعضهم : إن أناسا صعدوا الجبل، وبقى كلما تقدّم منهم واحدٌ، ضحك وصفّق بيديه وألقى روحه إلى ماوراء الجبل . فخاف البقية أن يصيبهم مثل ذلك، فرجعوا .

وزعم بعضهم : أن أولئك إنما رأوا حجر الباهت . فبقى كل من رآه منهم، ضحك وتقدم إليه والتصق به، حتّى مات .

روايات عن بحث ملوك مصر الأقدمين عن أصل النيل

وسيأتى إن شاء الله ماذكره صاحب الجغرافيا عن أرسطو فى خاصيّة هذا الحجر .

وقال بعضهم : إن مِلِكا من ملوك مصر الأُوَل جهّز أناسا للوقوف على أوله .

(1) فى الأصل : أن .
(2) Triomegiste

فانتهوا إلى جبال من نحاس، لما طلعت عليها الشمس وانعكست عليهم أشعتها، أحرقت غالبهم فرجع البقية .

وقال بعضهم : إنهم انتهوا إلى جبال براقة لماعة كالبلور . فلما انعكست عليهم أشعة الشمس الواقعة عليها، أحرقتهم .

وقال بعضهم ـ وهو الصحيح ـ والله أعلم : إنه لتوغل منبعه فى الخراب المنقطع من وراء خط الاستواء، تعذر السلوك إليه : لبعد المسافة وشدة الحر .

فان قال قائل : فما منع قدماء الملوك، مع ولعهم بمعرفة أحوال البلاد وحقائق ماهى عليه، أن يجهزوا من يقف على حقيقة أوله ؟ قلنا له : وأى فائدة تفى بركوب هذا المهلك فى أرض لاينبت بها نبات ولا يعيش حيوان، ولا يعرف مقدار مايستعد له المسافر، ولا مايستظهر به الظهر[1] .

رأى المؤلف فى أن هذه الاقوال مبنية على النظريات العلمية لا على المشاهدة

وإنما غالب مايقال فى هذا (والله أعلم) مما أظهره نظر العلم لا نظر العيان . والله من ورائهم محيط .

بقية أنهار الربع الثانى

وإذ فرغنا من الكلام فى النيل، فلنذكر بقية الأنهار الشهيرة الواقعة فى هذا الربع الثانى . فنقول :

(١) مما يجب ذكره فى هذا المقام أن سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين الأيوبى كان يشتهى أن يعرف أصل النيل . فرسم بشراء عبيد صغار زنوج وما شاكلهم، جلب لم يستعربوا . وسلمهم لصيادى السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وأن يكون قوتهم من السمك لاغير . فاذا مهروا فى ذلك تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها و يأتوه بخبر النيل . (انظر مطالع البدور فى منازل السرور، ج ٢ ص ٧٤ و٧٥) [والظاهر أن هذا المشروع لم يتم نظرا للاضطرابات التى كانت حاصلة فى مصر فى ذلك الوقت أولا بهجوم الصليبيين وثانيا بانقراض السلالة الأيوبية . وهذا المشروع قد تم بفضل اسماعيل خديو مصر الكبير فى هذا العهد الجديد .]

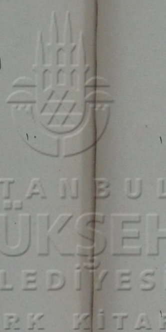
ومن ذلك نهران ينصبان من الجبل المشبه برأس صاد بالخط المغربى [ص] .

يأخذ أحدهما مشرقا ويستدير فى بحيرة بين كوكورة المذكورة وبين محالان جاى، شمالى كوكورة وجنوبى محالان جاى . ثم يخرج مشرقا إلى بحيرة أخرى يتبحر بها غربى مدينة زافون . ثم يخرج متشاملا شمالا بغرب، على غربى أرض الملح السواخة . ثم تتشعب منه شعبة تأخذ جنوبا إلى مدينة أوذغست[1] وتستمر سائرة نهرا مارا إلى مدينة فاس . فيصب فى البحر الشامى .

وثانيهما ينصب آخذا إلى الشمال على مدينة القيروان إلى أن ينصب فى البحر الشامى .

ومن ذلك نهر يخرج من الجبل الفاصل بين فاس وسجلماسة مارا بين أسفى والمزمة حتى يصب فى البحر الشامى، شرقى طنجة .

ومن ذلك أنهار ثلاثة تنصب من الجبل المشبه بفردة صولجان : تجرى من جنوب سجلماسة، واحدا بعد واحد . وتصب[2] الثلاثة مفرقة فى البحر المحيط .



ومن ذلك نهر ينصب من الجبل المشبه بتعنيقة لا معلقة بالخط المغربى [لا] وراء خط الاستواء . يصب فى المحيط . وقد تقدم ذكر بعض هذه الأنهار، فى ضمن ذكر الجبال . وذلك جميعه منقول من خط الرسم .

(١) كذا فى ياقوت أوذغست مضبوطا بالعبارة، وكذا فى تقويم البلدان الا أنه نص على إهمال الدال . وفى الأصل اودغش ولعله تصحيف من الناسخ .

(٢) فى الأصل . "وتصير"»

والربع الثالث

أنهار الربع الثالث

من هذه الأرباع المقسومة وهو الغربىّ الآخذ إلى الشمال، به مايذكر من الأنهار:

نهر إشبيلية أو الوادى الكبير

فمن ذلك، مما هو بجزيرة الأندلس نهر إشبيليّة، ينصبّ من الجبل الفاصل بينها وبين قُرْطُبَة، وينصب فى البحر الشامىّ. وهو من أحسن الأنهار وأجلّها، محفوف بالبساتين والدور والقصور. ومضت فيه ـ ايامَ مُلك المسلمين لها ـ أوقاتُ مسرّة ولهْوٍ.

وحكى الفتح بن خاقان، قال: "ركب عبدالجليل بن وَهْبون، وأبو الحسن غلام البكرىّ من إشبيليّة فى ليلة أظلَمَ من قلب الكافر، وأشدّ سوادا من طرف الظبْى النافر؛ ومعهما غلامٌ وضيءٌ قد أطلعَ وجهُهُ البدرَ ليلة تَمامه، على غصن بانٍ من قَوَامه؛ وبين أيديهم شمعتان قد أزْرَتا بنجوم السماء، ومزّقتا رداء الظلماء، وموّهتا بذهب نورهما لُجَين الماء[1]. فقال عبد الجليل ارتجالا:

كأنّما الشمعتان إذْ سمتا * خدّا غلامٍ محسّن الغَيَد.
وفى حَشا النهر من شُعاعهما * طريق نار الهوى إلى كبدى.

وقال غلام البكرى[2]:

أَحْبِبْ بمنظر ليلة ليلاءِ * تُجْنَى[3] بها اللذاتُ فوق الماءِ.
فى زورق يُزهى بغرّة اغيدٍ * يختال مثلَ البانة الغَيْناءِ

(١) هذه السجعات يظهر أنها من صنعة ابن فضل الله. و إلا فالذى فى "قلائد العقيان" (ص٢٤٢و٢٤٣) وفى "نفح الطيب" (ج ١ ص ٤٣٥ من طبعة أوربّة) يخالفها، وهما متخالفان أيضا فى بعض الألفاظ.

(٢) هنا سجعات أغفلها مؤلفنا.

(٣) فى النفح: تَجنى.

قَرَنَتْ يداه الشمعتين بوجهه * كالبدر بين النَّسر والجَوْزاءِ.
والْتَاحَ فوق الماء[1] ضوءٌ منهما * كالبرق يخفق فى غمام سماءِ.

قلتُ: ومن هذا النهر أُخِذت إشبيليّة، فقال بعضهم "لَسَبَ[2] إشبيليّة عقربُها، وساورها أرقمها". يريد بالعقرب شَرَفَها[3] المطلّ، وهو عقربىّ الشكل، وبالأرقم نهرها. قالوا: وهو من العجائب.

وحكى ابن ظافر[4]، قال: "ركب [الأُستاذ][5] أبو محمد بن صارة [مع أصحاب له][6] فى نهر إشبيليّة فى عَشِيّة سال أصيلها[7] على لُجَيْن الماء عِقيانا، وطارت زواريقها[8] فى سماء اللهو عِقْبانا[9][10]؛ وأبدى نسيمها من الأمواج [والدارات سُرَرا وأعكانا؛ فى زورق يجول جَوَلان الطِرف، ويسودُّ اسوداد الطَرف][11]. فقال بديها:

تأمّلْ حالنا والجوُّ طلقٌ * محياه، وقد طَفِل المساءُ.
وقد جالت بنا عَذراء حُبْلى * تجاذَبَ مِرطَها ريح رُخاءُ.
بنهر كالسَّجَنْجل كوثرىّ * تُعبِّس وجهها فيه السماءُ.

(١) فى القلائد و فى النفح: تحت.

(٢) لسب: بمعنى لدغ.

(٣) هو المعروف الآن عند أهل اسبانيا باسم Aljarafe.

(٤) أوردها صاحب نفح الطيب عن البدائع برواية قريبة جدّا من رواية ابن فضل الله (ج ٢ ص٢١٥)

(٥ و ٦) الزيادة من "بدائع البدائه".

(٧) فى البدائع: سال أصلها. وهو غلط مطبعىّ. [وو ردت بالصحيح فى نفح الطيب].

(٨) فى ابن فضل الله: جواريها [وقد استحسنتُ رواية نفح الطيب].

(٩) فى النفح: النهر. [وقد استحسنتُ هنا رواية البدائع وابن فضل الله].

(١٠) فى البدائع: وطارت زوارقها فى سماء الماء عقبانا. و رواية ابن فضل الله أفضل.

(١١) الزيادة عن البدائع والنفح.

ولما وقف عليها ٱبن خفاجة، ٱستحسنها وٱستظرفها وٱستطابها. فقال يعارضها، على وزنها ورويّها وطريقها:

ألَا يا حبّذا ضَحِكُ الحُمَيَّا * بحانتها، وقد عَبَس المَساءُ!
وأدهمُ من جياد الماء نهد[1] * تنازع حَبْلَهُ ريحٌ رُخَاءُ!
إذا بدتِ الكواكبُ فيه غَرْقىٰ[2] * رأيتَ الأرض تجذبها السماءُ.

نهر سرقسطة

ونهر سَرَقُسْطة. وهو نهر جليل كبير متسع الجوانب.

وذكر ٱبن خاقان[3] أنّ المستعين بن هود ركب هذا النهر يوما لتفقد بعض معاقله، المنتظمة بجِيد ساحله. وهو نهر غزر[4] ماؤه وراق، وأزرىٰ[5] علىٰ نيل مصر[6] ودِجلةِ العراق.[7] قد ٱكتنفته البساتين من جانِبَيْه، وألقت ظلالها عليه، فما تكاد عين الشمس تنظر إليه[8]. هذا علىٰ ٱتّساع عرضه، وبُعْد سطح مائه وأرضه[9]. وقد توسّط زورقُه

(١) فى البدائع وٱبن فضل الله: الليل. [وقد ٱستحسنتُ رواية نفح الطيب].

(٢) فى النفح: تحسدها.

(٣) يشير إلىٰ قلائد العقيان (ص ١٨٥، ١٨٦). والحكاية بنصها وبفصها فى بدائع البدائه (ص ٢١٤). وٱنظر نفح الطيب طبع بولاق (ج ١ ص ٤٢٥، ج ٢ ص ١٨١). ولكن السجعات التى فى القلائد هى مخالفة بالكلية للتى أوردها ٱبن فضل الله عن البدائع، والتى نقلها أيضا صاحب نفح الطيب. وٱنظر نفح الطيب، طبع أوروبة (ج ١ ص ٣٠٥، ج ٢ ص ٨١٨).

(٤) فى البدائع وفى النفح: رق. [وهى أرق].

(٥) فى النفح: وزرىٰ.

(٦) فى الأصل: على نهر نيل مصر.

(٧) فى البدائع: ودجلة والعراق. [والواو الثانية زائدة بالطبع فى أثناء الطبع].

(٨) فى البدائع: أن تنظر. [ورواية ٱبن فضل الله أفضل، ومثلها فى النفح].

(٩) فى البدائع: وبعد سطح الماء من أرضه. [وهذه الرواية أحسن وأمتن. وفى النفح: وبعد سطح مائه من أرضه].

زوارقَ حاشيته توسط البدر للهاله، وأحاطت به إحاطة الطُفاوة بالغزاله. وقد أعدّوا من مكايد الصيد ما ٱستخرج ذخائر الماء، وأخاف [حتّى] حوت السماء. وأهلّةُ الهالات طالعة من الموج[1] فى سحاب، وقانصة من بنات الماء كلّ طائرة كالشهاب. فلا ترىٰ إلا صيودا كصيد[2] الصوارم، وقدود اللهاذم، ومعاصم الأبكار النواعم. فقال الوزير أبو الفضل بن حسداى[3]، والطرب قد ٱستهواه، وبديع ذلك المرأىٰ قد ٱسترق هواه، وٱرتجل:

لله يوم أنيقُ واضحُ الغُرَرِ * مُفَضّضُ مُذْهَبُ الآصال والبُكَرِ!
كأنّما الدهر لمّا ساء، أعتَبنا * فيه بعُتْبىٰ وأبدىٰ صفح معتذِرِ.
نسير فى زورق حفّ السَّفينُ به * من جانبيه بمنظوم ومنتثرِ.
مدّ الشراع به نشرًا علىٰ مَلِكٍ * بذّ الأوائل فى أيامه الأخَرِ.
هو الإمام الهمام المستعين حوىٰ * علياء مُؤْتَمَنٍ فى هَدْيِ مقتدِرِ.
تحوى السفينة منه آيةً عجبا * بحرٌ تجمّع حتّى صار فى نَهَرِ.
تُثار من قعره النينان مُضْعَدَةً[4] * صيدا كما ظفر الغوّاص بالدررِ.
وللندامىٰ به عَبٌّ ومُرْتَشَفٌ * كالراح[5] تعذب فى وِرد وفى صَدَر.
والشرب فى ودّ مولًى خُلقه زَهَرٌ * يذكو، وغرته[6] أبهىٰ من القمرِ.

(١) فى ٱبن فضل الله وفى النفح: الموج.

(٢) فى النفح: كقصد.

(٣) فى البدائع: حداى. وهو غلط مطبعى.

(٤) فى نفح الطيب شرح لطيف واف علىٰ هذا الجمع (ج ٢ ص ١٨١، ١٨٢).

(٥) فى الأصل: كالريق، وكذلك فى النفح، وفى القلائد. [وٱعتمدت رواية البدائع].

(٦) فى البدائع وفى ٱبن فضل الله: وبهجته. [وٱعتمدت رواية القلائد والنفح].



بقية أنهار الأندلس

ومن ذلك نهرٌ ثان ينصبّ من ذلك الجبل أيضا . ينزل على مدينة إلبيرة ، وينصبُّ إلى المحيط.

(٥١) ومن ذلك نهران ينصبان من الجبل الفاصل بين طُلَيْطِلَة وَوادى آش ، المبنىّ بسفحه الجنوبىّ قبة الزُّهَرَة . يأخذ الأول منهما جنوبا إلى قُرطبة ، وينصب فى البحر الرومىّ . ويأخذ الثانى شمالا بين بَطَلْيُوس وقُورَة ، ويصب فى البحر المحيط.

أنهار أخرى

ومن ذلك نهر ينصبّ وراء خليج البنادقة ، من وصلة الأُمّ الخارجة من البحر الشامىّ ، شرقىّ رومية الكبرى . يأخذ من هذا النهر غربا بشمال على مدينة لَبطيرة شمالىّ فَرَنْسِيَة . ويصبُّ فى البحر المحيط.

ومن ذلك نهر يصبُّ من الجبل المحيط ، حيث يسمّى بجبل قاقونا آخذا شرقىّ مدينة سوسية إلى مدينة قسطنطينية العظمى . ويصب فى البحر الرومىّ عندها .

ومن ذلك نهر ينصبّ من الجبل المحيط المذكور ، شرقىّ هذا المصبّ ، آخذا على بلاد الصقلب ، مارّا شرقىّ بلاد الجركس والماجار إلى أن ينتهى إلى مدينة قِرِم وينصب فى بحر بُنْطُس(١)

أنهار آسيا

ومن ذلك نهر ينصبّ من جبال هَمَذان وخلاط من شمالىّ ماردين ، آخذا على شمالىّ مَلَطْيَة ، حتى يشق بين مدينتى شهر وقَرمى . ويصبّ فى البحر الشامىّ .

ومن ذلك نهر جيحان . يخرج من بلاد الروم تحت حصن المُنَقَّب . يأخذ مابين عين زَربا وكَفَربيّا . ثم يَمُدّ إلى المَصِّيصَة ويصبّ فى البحر الشامىّ .

(١) فى ياقوت ضبطه بضم الطاء بالعبارة ونص على إهمال السين . وفى الأصل : نيطش . وهو تحريف من النساخ شاع فى كثير من كتب العرب . وقد سبق التنبيه على ذلك فى حاشية صفحة ٥٧ . وسنجرى على التسمية المعتمدة فى بقية الكتاب . لأن هذا الاسم مأخوذ عن اللغات الافرنكية وهو المعروف عندهم باسم Pontus واسمه الجغرافى عند الفرنسيين Pont-Eusein .

ومن ذلك نهر سَيْحَان . يخرج من شماليّه ويمر على أَذَنَة(١) . ثم يصب فى البحر الشامىّ .

ومن ذلك فى نهاية الشمال عشرة أنهار : منها اثنان ينصبّان من الجبل الأمّ المذكورة ، وثمانية تنصب من الجبلين المكتنفين شرقا وغربا لبحيرة جارَس ، ينزل من كل واحد منهما أربعة أنهار . تنصب هذه العشرة الأنهار فى هذه البحيرة المذكورة. (٥٣)

ومن ذلك أربعة أنهار تنصبّ من جبال الديلم : ينزل الأول غربىّ أَرَّجان ، ويليه الثانى ينزل من شرقيّه ، ويليه الثالث ينزل من شرقىّ المسن ، ويليه الرابع ينزل من سابور . وتصب الأربعة فى البحر الهندىّ .

نهر دجلة

ومن ذلك نهر دِجْلَة . يصبّ من جبال شهرزور وآمد . ويمتدّ بين آمد ومَيَّافارقين إلى الموصل . ثم يمدها الزابان : الزاب الأكبر والزاب الأصغر . وهما نهران كبيران . ثم يأخذ إلى تكريت غربىّ ديار بنى شَيْبَان (تامَرّى وعُكْبَرا والدادان) إلى بغداذ . ثم يتشعب مابين بغداذ والمداين ، جنوبىّ بغداذ وشمالىّ المداين شعبةٌ منه ، تأخذ منه شرقا محضا . هو المسمّى بالنهروان . ثم يَمُدّ عمود دجلة مستقيما على الجنوب ، ثم يتشعب منه بين النعمانية وجبل جَرْجَرَايَا جنوبىّ النعمانية ، وشرقىّ جبل جرجرايا شعبةٌ أخرى تأخذ شرقا محضا ، تمر بين حُلوان وبَعْقُوبا . ثم يَمُدّ عمود دجلة إلى واسط . فإذا عدّاها إلى سوادها ، لاقاه الفُرات(٢) هناك . ويجتمع الكلّ إليه نهرا واحدا ، يمد إلى المَفتح . ويتشعب منه نهر مَعْقِل(٣) ، وهو النهر المشهور . وينصب بعضه إلى بطائح البَصرة .

(١) هى المدينة التى يسميها الترك الآن : أَطَنَة ، منعا للاختلاط فى الكتابة بينها وبين أدرنه .
(٢) فى الاصل : لاقته .
(٣) الذى يقال فيه : إذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل .

ويستدير باقيه بالمِرْبَد والأُبُلَّة شرقىّ البصرة. ثم يمدّ عمود دجلة مستقيما على الجنوب. ثم تتشعب منه شعبة أخرى صغيرة، تجىءُ على جنب الأُبُلَّة فتشق أرضها عرضًا، وتلاقى الشعبة المستديرة بها . ثم يمدّ عمود دجلة آخذا جنوبا إلى عَبَّادانَ . ويصب هناك فى البحر الهندىّ.

(٥٣) نهر الفرات

ومن ذلك نهر الفرات . يصبّ من جبال الروم ويأخذ على ملطيَّة، إلى سُمَيْساط، إلى الرَّقّة، إلى قرقيسيا، إلى الرحبة، إلى الداليـة، إلى عانَةَ، إلى هيت، إلى الأنبار. ثم تتشعب منه أنهار: منها نهر عيسٰى، ونهر صرصر، ونهر المَلِك، ونهر صورا، ونهر الصَّراة، وهو المشهور، وإياه عنى الشاعر فى شعره. بقوله :

أَوَما وجدتم فى الصَّراة ملوحةً * مما أُرقرق فى الفُرات دموعى ؟

ثم يمتدّ عمود الفرات ويمرّ ما بين القصر وبين الكوفة على بابل . ويستدير منه شِعْبٌ بخانِقين، وتكون هى جزيرة بوسطه. ويصب ذلك الشعب من تحت خانِقين فى بطائح الكوفة. ثم يأخذ عمود الفرات فوق خانِقينَ من حيث آستدار ذلك الشعب عليها مائلا على الجنوب مشرّقا. ثم يتشعب منه شُعَب أُخر إلى بطائح البصرة. وينعطف عمود الفرات آخذا شرقا بشمال على وِرابٍ قليل إلى سواد واسط. ويلاقى هناك دجلة. ويجتمع عمودهما هناك نهرا واحدا، حتى يصبّ غربىّ عَبَّادان، فى البحر الهندىّ.

نهر الساجور

ومن ذلك نهر الساجور. يصبُّ من جبال الروم آخذا شرقا حتّٰى يُحاذى مَنْبِج. ثم يصب فى الفرات. ويتشعب منه شعبٌ، لولاها لم يُذْكر الساجور. وهو نهر يسمّٰى

نهر قويق

قُوَيْق، يمدّ من مغار به إلى أن ينزل حلب . ويسق الأرض والمزارع. ويتناهى إلى شرقىّ قِنَّسرين. ويبحِّر هناك بحيرات لطيفة. وإنما ذكرناه لشهرة نهر قُوَيْق . ولهذا علمناه بالأحمر.

النهر العاصى

ومن ذلك نهر يعرف بالعاصى. يصبُّ من وراء نهر بعلبك، من منابع شتّٰى فى وطاءة أرض . قلتُ من قرية تعرف باللبوة ومغارة الراهب . ثم يأخذ شمالا مارّا حتّٰى يقارب غربىّ حِمص. فيصبّ هناك فى بحيرة متوسطة فى الآتساع. ثم يخرج منها ويمرّ غربىّ حمص إلى حماه إلى شيزر إلى أَفَامِيَة. فيصب فى بحيرة بها. ثم يخرج فيشق فى جبال تعرف هناك الآن بجبال الغرب، إلى ديركوش، إلى بلد يعرف بالإقليم. ثم ينزل العَمْقا إلى أنطاكية إلى السويدية. ويصب فى البحر الشامىّ، حيث ينعطف هناك . وقد سمينا بعض هذه الأسماء بما يعرف بها الآن.

(٥٤)

ومن ذلك نهر ينصب من الجبل الممتدّ على الشام شرقىّ طرابلس المستجدّة (١) البناء، حيث يسمّٰى الجبل هناك بلُبنان. يجرى من قرية تعرف الآن برشعين، فيدخل تحت قناطر معقودة جدّدها الابرنس (٢) حين غلبت الفرنج على طرابلس، فعُرفت به. فيشق المدينة المستجدّة (١) ويصب فى البحر الشامىّ.

نهر بردى

ومن ذلك نهر بردا (٣). ويخرج من عين فى صحراء الزَّبَدانىّ بين بعلبك وبين دمشق. ثم يمدّه نهر يخرج من الجبل الممتـدّ على الشام من مكان يعرف الآن بالفِيجة (٤) تحت حصن عزّتا ويمدّ إلى دمشق . وينقسِمُ قبلها وبعدها أنهارا، يعمُّ دورها وبساتينها، ويسق بعض قراها ومزارعها، ثم يبحر فاضل مائه شمالىّ الغوطة فى بحيرة هناك.

(١) إشارة الى مافعله السلطان قلاوون حين أخذها من الفرنج فانه هدمها. ثم بنى المدينة الجديدة الباقية الى الآن بعيدة عن مكان الأولى التى كانت واقعة على البحر مباشرة.

(٢) Le Prince.

(٣) المشهور كتابته بالياء: بردى. وهو نهر دمشق المشهور

(٤) وهذا الاسم باق الى الآن. ويعرف المكان فى عصرنا بعين الفيجة. وقد جرّوا منه الماء فى أنابيب الى مدينة دمشق

الأردن

ومن ذلك نهر الأُرْدُنّ[1] .

ولا يسمّى بهذا الأسم إلا حيث خرج من بحيرة طَبَرِيَّة. ويسمّى الآن الشريعة. ويشق وادى كنعان شقًّا فى الطول حتّى ينتهى إلىٰ بحيرة زُغَر (وهى سَدُوم ، دار قوم لوط ، وتعرف الآن بالمُنْتِنة)، والوادى بالغور . وله فى كل مكان آسمٌ بحسب مايضاف إليه من مشاهير القرىٰ التى فيه .

وأصل هذا النهر من مرج عيون والهرماس . وكلاهما تحت الشقيف وتل القاضى والملاّحة ، وهى عين بعيدة العمق جدّا ، ونهر بانياس .

وتسمّى هذه الأمواه كلها : الشريعة الشمالية. وترمى تحت جسر يعقوب وتجتمع فى بحيرة طبرية. ثم تمدّ فتتلاقىٰ هى والشريعة القبلية بقرية تعرف بالبقارية ، ويأتيان جسر الصنّيرة إلىٰ الجسر العادلىّ ، وهو تحت عَقَبة فِيق ، قربَ الدير الأسود ، ثم تأتى جسر شامة المقارب لقرية المجامع . وتمدّ فيلاقيها نهر الزرقاء ، دون دامية. ثم تمدّ فترمى فى البحيرة المنتنة .

وسنذكر أصل الشريعة الشمالية . وهو من دير الهُرَيْر والجولان واليرموك ووادى الأشعرى والفوّار والمدّان ، مع ما ينضاف الىٰ ذلك من ينابيع . ويتحصّل من البلاد المرتفعة ، ويجتمع تحت حمّة جَدَن . وهى تحت فِيق ، وعليها قبوٌ معقود ببناء خشن طويل. وبه أحواض. يقال إن كل حوض لعلة من العلل يبرئها ، بإذن الله ، إذا آستحمّ منه العليل بها . قالوا : ولم تزل علىٰ هذا حتّى أتىٰ بعض قدماء الحكماء فهدم القبوَ والأحواض وجمع الماء كله إلىٰ مجرًى واحد ، إلا فرعين تركهما : أحدهما لمن به ريحٌ ، والثانى لمن به جَرَبٌ. والماء الغَمْر لسائر الأسقام . وماء هذه الحمّة عذبٌ. وآثار الأبنية باقية .

(١) فى الأصل بياض مقدار خمسة سطور . وضع المؤلف بدلها تخريجة مضافة علىٰ صحائف الكتاب وهى عبارة عن الكلام التالى .

(٥٥)

الربع الرابع

أنهار الربع الرابع

من هذه الارباع المقسومة ، وهو الشرقىّ الآخذ إلىٰ الشمال ، وبه مايذكر من الأنهار:

فمن ذلك نهران يصبان من الجبل المشبّه بصليبٍ ذَهَبَ أحدُ شعبه .

ينصبّ أحدهما من جنوبىّ هذا الجبل واقعا شرقىّ مدينة طغان الواقعة فى شمال هذا الجبل بغرب . يمرّ بين طغان وتركستان مغرّبا ، حتّى يصب فى بحيرة خِلاَط .

والنهر الثانى منهما ينصبّ من شرقىّ هذا النهر الأول وعلىٰ سمته . يمتدّ بنهر ، ثم يتشعّب علىٰ شُعبتين : الشعبة الجنوبية منهما تأخذ شمالىّ مدينة طغورا مشرّقا علىٰ قصر الدّهّال المقارب لبلاد كنغد ، ثم ينعطف آخذا إلىٰ الجنوب يشق بلاد الهند حتّى يصب فى البحر الهندىّ ، شرقىّ كوام . والشعبة الثانية منهما تأتى جنوبىّ الأرض المحفورة ، علىٰ ماقيل ، حتّى تصب فى البحيرة البلاّعة .

نهر أثيل

ومن ذلك نهر أَثِيل[1] . وهو المركب عليه مدينة السراى . ومخرجه من عين تنبع فى ذيل جبل قاقُونَا ، ثم يقتبل الجنوب آخذا بغرب فى صحارىٰ القبجاق علىٰ شمالىّ معادن الفضة ، حتّى يصبّ فى بحر طبرستان .

ومن ذلك نهران ببلاد الخَطا ، نازلان من الجبل الغربىّ من جبال المحيط بها . يأخذ الشمالىّ منهما مشرّقا ويُبحّر جنوبىّ خان بالق . ثم يمتدّ مشرّقا بجنوب حتّى ينتهى إلىٰ المالق[2] والآخر ينتهى إلىٰ باش بالق . وينتهى عندها .

(١) أُنظر حاشية ١ ص ٥٩ .
(٢) سبق ورود هذا الاسم : ال مالق ، بغير وصل

ومن ذلك نهرٌ ينصب من الجبل الواقع فيه باب الصين . ينزل على قراقرم ويأخذ مشرّقا على بلاد الهياطلة(١) حتّى يصبّ فى بحيرة السودان هناك .

ومن ذلك نهر ينصبّ من الجبل الممتدّ من وراء العوج . ينزل من شرقيه على مدينة قلنبر . ويبحر فى بحيرة هناك . (٥٦)

نهر الطيب

ومن ذلك نهر يسمّى نهر الطيب . يخرج من قشمير السفلى .

ومن ذلك نهر ينزل من الجبل ، شمالىّ السُّد حتّى يصبّ فى بلاد عبدة الشياطين ، فى بحيرة هناك ، تسمّى بحيرة الشياطين .

نهر جيحون

ومن ذلك نهر جيحون . ينزل من جبل قاقونا . وتمدّه أنهار من جبال تمدّه فيمتدّ حتّى يخرج من هذا الربع إلى الربع الغربىّ القسيم له . فيصب فى بحر طبرستان .

نهر سيحون

ومن ذلك نهر سيحون . الآخذ على بلاد فرغانة و يمدّه نهر الشاش و يخرج إلى حائط عبد الله بن حميد(٢) حتّى يصب فى بحر طبرستان .

نهر السغد

ومن ذلك نهر السُّغد . ينصب من جبال البُتم ، و ينتهى إلى بُخارا ، و يبحر فى بحيرة هناك .

نهر مكران

ومن ذلك نهر مكْران . ينصبّ من جبل الدَّيلم فيمتدّ آخذا على مدينة المحمّديّة . على كرمان إلى بلاد السند .

نهر عماس

ومن ذلك نهر عماس . فى بلاد الترك .

(١) Les Huns.

(٢) أى بستان .

ومن ذلك الأنهار العشرة . الآخذة منها خمسة تجرى من شعبة منقطعة من الجبل المحيط متصلة بالبحر المحيط ، وتمدّه أنهار من جبال النوشادر الواقعة شرقىّ الصين حتّى يصب فى نهر حمدان ، ثم يمتدّ الجميع نهرا واحدا حتّى يصب فى المحيط .

نهر حمدان الأعظم بالصين

ومن ذلك نهر حمدان الأعظم . وهو ينزل من جبال أرمويه ونانوس على مدينة اطراغا ، ويبحّر هناك . ثم يمدّ مشرقا إلى مدينة لوقر . وينعطف فى الصين حتّى تلاقيه هناك الأنهار العشرة ، أعنى المتقدمة الذكر ، دون خط الاستواء فى أوائل الإقليم الأول . يقال إنه يصبّ به نهر كل المنصب من الصين الداخل . ويمتدّ الجميع نهرا واحدا موغلا فى الفرجة الداخلة فى الصين من البحر المحيط والبحر الهندىّ ، إلى وراء (٥٧) خط الاستواء . ثم يصبّ هناك فى البحر المحيط .

نهر الكر ونهر الرس

ومن ذلك نهران : أحدهما نهر(١) الكُر والآخر نهر الرَّس . يصبان من جبل الديلم يسمّى جبل قالبولا . ويجىء الكر على تفليس . ويلاقى الرَّس نهر ينزل من سبلان بين ترزند و وزنان ، ثم يصب الكر جنوبىّ شروان . و يصب الرس غربيّه . كلاهما يصبان فى بحيرة طبرستان .

نهر قره صو

ومن ذلك نهر يسمّى الآن قراصو(٢) . وهو اسم باللغة التركية أى الماء الأسود يأتى من شروان وشَماخى و يسكب فى بحر طبرستان .

نهر أرس

ومن ذلك نهر آخر يسمى أرس . يأتى على شرقىّ المكان المسمى الآن صحراء بيلسوان . و يصب فى بحر طبرستان .

(١) فى الاصل : أحدهما على نهر .

(٢) فى الاصل : قراتوا [وهو تحريف ظاهر] .

ومن ذلك – على ماقيل – نهران ينزلان من الجبل المحيط ويسقيان بلاد يأجوج ومأجوج. ينزل أحدهما جنوبى السد، والآخر من شماليه. وهكذا صوّره صاحب جغرافيا فى لوح الرسم.

فهذه هى جميع الأنهار المشتهرة فى جميع المعمورة وما قاربها. ولم نُخلّ منها إلا بما لعلّ صاحب جغرافيا لم يصوّره فى لوح الرسم. وإن كان، فهو القليل. وفيما ذكرناه كفاية.



البحيرات المشهورة

البحيرات المشهورة

ثم نحن نذكر ما فى معمورة الأرض من البحيرات المشهورة. ونحن نقسمها على نصفين: نصفا شرقيا ونصفا غربيا.

فالنصف الأول هو الشرقىّ فيه ما يذكر من البحيرات:

فمن ذلك بحيرة كيماما. بجزيرة القُمر الخارجة عن خط الاستواء. وهى عذبة.

ومن ذلك بحيرة اطراغا بالصين. وهى عذبة.

ومن ذلك بحيرة سَرَنْك بالهند. وهى عذبة.

ومن ذلك بحيرة السوكران ببلاد الهياطلة، شرقى قراقرم بشمال. وهى عذبة.

ومن ذلك بحيرة بخارا. وهى عذبة.

(٥٨) ومن ذلك بحيرة خوارزم. وهى ملح.

ومن ذلك بحيرة تهامة. يصب بها نهر اتكش فى بلاد الترك.

ومن ذلك بحيرة زَرَه ببلاد سجستان. وهى ملح.

وذلك على ما نقل فى لوح الرسم.

والنصف الثانى وهو الغربىّ، به من البحيرات مايذكر:

فمن ذلك بحيرات النيل الثلاثة.

البحيرتان اللتان يخرج منهما النيل

اعلاها بحيرتان، حيث تنصب فى أوله، ثم البحيرة الكبرى التى دونهما ونسميها البطيحة.

بحيرة الفيوم وهى غير التى فى أرض مصر

ثم بحيرة الفيوم[(١)] ذكرناها هنا لأنها من النيل من الفرع الآخذ من نيل السودان خلف بلاد غانة. وهى عذبة.

بحيرة الفيوم بمصر

ثم بحيرة الفيوم ذكرناها هنا لأنها من النيل أيضا . وهى عذبة. ولم ننبه على أن هاتين البحيرتين عذبتان مع كونهما من النيل إلا لنُعلِم أن أرضهما لم تغير ماءهما ولا أفسدت طعمهما .

بحيرات أخرى

ومن ذلك بحيرة زاقون. يجرى بها النهر المنصب من الجبل المشبه بتعنيقة[(٢)] لا بالخط المغربى.

ومن ذلك بحيرة بين قصر عيسى و بين كوكورة، و بحيرة بين كوكورة ومجالات جاى.

ومن ذلك بحيرتان عند بنزرت من بلاد إفريقية : إحداهما ملح، والأخرى عذبة. تجرى العذبة فى الشتاء ستة أشهر، وتسكب فى البحيرة الملح فلا يعذب ماؤها ثم تنقطع . وتجرى البحيرة الملح ستة أشهر أخرى تمام السنة، وتسكب فى العذبة فلا تملح . وبها أنواع من الحيتان يخرج كل شهر من الشهور العربية نوعٌ منها. فإذا فرغ الشهر، ذهب ذلك وجاء غيره، ثم لا يوجد من نوع الحوت الذى كان فى الشهر الماضى شئ ألبتة إلى مدّة ذلك الشهر من السنة الآتية. وحكى لى ذلك المغاربة. فسبحان من بيده الأمر كله!

(٥٩) ومن ذلك بحيرتان بأقصى المغرب : إحداهما على مقربة من قصر ابن عبد الكريم فى غاية الاتساع . بوسطها جزيرة دورها مقدار ثمانية عشر ميلا وتسمى بأبى

(١) يشير إلى بحيرة فى نيل السودان المعروف الآن بنهر النيجر . ويكون الفيوم حينئذ اسما لموضع غير المشهور بديار مصر .

(٢) فى الأصل هنا : بتعريقة لام . وقد اخترتُ الاصطلاح الذى كرره المؤلف فيما سبق .

سُلهام. تمدّها أودية تنحدر من جبال غمارة . وفى تلك الجزيرة يأوِى عرب ذلك الموضع بذخائرهم ورِعْيِ بهائمهم.

والأخرى بأزغان شمالىّ مكاسة . تمدّها أنهار تنحدر من جبال أزرو جنوبىّ مكاسة . وليس لمياههما منفذ.

ومن ذلك بحيرة ابزو. وهى ملح.

ومن ذلك بحيرة الإسكندرية . وهى ملح.

ومن ذلك بحيرة تنس[(١)] . وهى ملح.

ومن ذلك بحيرة جارش . بالشمال وهى عذبة.

بحيرة طبرية وحماماتها

ومن ذلك بحيرة طبرية . وهى عذبة.

(وبها الحَمّة المعروفة بحمام طبرية . وللناس فيها أكاذيب . وهى صورة تنور مثل تنور الكلس تكون سعته نحو عشرة أذرع تقريبا . يخرج منه ماء يدير مجرى رحىّ . مهما وضع فيه احترق لإفراط حرارته . قد استخرج منه جدول فى عرض الجبل يمتدّ نحو ألف ذراع تقريبا ، لتقلَّ ببُعد المدى حرارتُه . ثم يأتى بيتين مسقوفين ـ وسقوفهما بالحجر ـ أحدهما لاستحمام الرجال والآخر لاستحمام النساء. والحمة ماؤها مملوح مكبرت) .

بحيرات أخرى

ومن ذلك بحيرة زُغَر . وهى المخسوف بها، وهى المنتنة.

ومن ذلك بحيرة دمشق. وهى عذبة.

ومن ذلك بحيرة حِمص. وهى عذبة.

ومن ذلك بحيرة أفامية. وهى عذبة.

ومن ذلك بحيرة أنطاكية. وهى عذبة، وتعرف ببحيرة يَغْرا، وهى متوسطة المقدار.

ومن ذلك بطائح العراق : اثنتان بالبصرة، وواحدة بالكوفة. الجملة ثلاث بحيرات عذبة.

(١) لعله يريد : تنيس، التى كانت بها المدينة المشهورة بالقرب من دمياط.

ومن ذلك بحيرة خلاط . وهى ملح .

ومن ذلك بحيرة أيودان . وهى ملح .

وذلك منقول من لوح الرسم، أو محقق بالسؤال، وإن حصل فى بعضه إخلال. وفيما أتينا به غنًى عما سواه . وبعض الشئ فى هذا الباب آستدراك، إذ المراد بذلك مايستدلّ على الأرض بأعلامها الظاهرة. وفى الدليل الواحد كفاية.

رمل الهبير

وإذ آنتهينا إلى هنا نذكر رمل الهبير، لأنه مما هو ممتدّ فى الأرض. فكان من أعلامها المشهورة المشهودة فى الآفاق.

قال صاحب كتاب "معرفة أشكال الأرض": "وأما الرمل الهبير، فطوله من وراء جبلى طيّئ إلى أن يتصل مشرقا بالبحر. ويمضى من وراء جبلى طيّئ إلى أرض (٦٠) مصر، ثم إلى بلد النوبة. ويمتدّ إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر. ومنه عرق يضرب من القادسية إلى البحرين. فيعبر البحرين، فيمرّ على مشارق خوزستان وفارس إلى أن يرد إلى سجستان. ويمرّ مشرّقا إلى مرو آخذا على جيحون فى برية خوارزم. ويأخذ فى بلاد الخرخيّة[1] إلى بلد الصين والبحر المحيط فى جهة المشرق. وهو على ما وصفتُه وسقتُه من المحيط بالمشرق إلى المحيط بالمغرب. وفيه منه جبالٌ عظام لا تُتوقّل ولا تُرتقى. وبعضه فى أرض سهلة ينتقل من مكان إلى مكان. ومنه أصفر لين اللمس، وأحمر قانئ، وأزرق سماوىّ، وأسود حالك، وأكحل مُشبّع كالنيل[2]، وابيض كالثلج. وبعضه يحكى الغبار نعومةً، وبعضه خشن جريش اللمس.

ونحن نبيّن كلّ شئ بحسب مايمكننا من الطاقة والآجتهاد. وفوق كل ذى علم عليم!

---

(١) نسبة الى الخرخ صنف من الترك وقد يتصحف هذا الاسم الى الخزلجية والخرلجية وغير ذلك والصواب ما هنا .

(٢) أى نبات النيلج المعروف فى مصر بآسم النيلة . [Indigo] .

الآثار البينة فى أقطار الأرض

الآثار المعظمة

ثم إنا نحن نعقب ذلك بذكر جمل من الآثار البيّنة فى أقطار الأرض ماجرت مجرى الأعلام، وقامت فى الآستدلال مقام ماقدمنا ذكره من الجبال والأنهار والرمل والبحيرات. وسنذكرها مبيّنة. وبالله التوفيق[1]!

(٦١) المساجد الثلاثة

فنبدأ بذكر المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم، والمسجد الأقصى.

وهى التى تُشدّ إليها الرحال، وتَجِدُّ إليها الركائبُ الرُّحال، تَسرى إليها سُرى السحائب فى المحال، وتسمو والكواكب غرقى سُمُوَّ حَباب الماء حالا على حال.

روى ابو سعيد الخُدرىّ عن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام[2]، ومسجدى، ومسجد بيت المقدس. رواه الإمام أحمد.

ويُتبع كلّ مسجد منها بما تعلق بذيل أستاره، وتألّق بإشراق نوره وإسفاره، ومما ضمه نطاق سوره، وأُفيض عليه بركة سوره، إلى غير ذلك من آثار، ومواطن تُجد الدموعُ فيها النثار.

وأوّل ماتبدأ به:

---

(١) ترك المؤلف هنا بياضا قدره خمسة سطور.

(٢) هكذا فى الأصل على الإضافة لا على الوصفية، كما هى العادة وما هو الأشهر.

ذكر الكعبة

البيت الحرام وفضائله ومدلولاته

البيت الحرام. أول بيت وُضع للناس، ورُفع على قديم الأساس. بُنى مثالا للبيت المعمور، ودُعى إليه كل مأمور. وأذّن إبراهيم (صلوات الله عليه) إليه بالحجّ؛ ودعا إليه الناس فأتوه من كل فجّ. حجّته الملائكة قبل آدم، وجاءته وعهدُه ماتقادم. ويقال إنه لم يبق نبىّ حتى حجّه. ويعدّ عدة أنبياء دُفنوا فى الحِجر منه. ولم تزل شعائره مكرّمه، ومشاعره محرّمه. عُظّم فى الجاهلية والإسلام، وحُرّم من حيثُ بُنيتْ الأعلام. ﴿ومَن يعظّمْ شعائرَ الله فإنّها من تقوى القلوب﴾. وهو البيت المحجوج المحجوب، والمقصود بالزيارة قصدَ الوجوب. وبه الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى أرضه، والشاهد لمن حجّ وقبّله بأداء فرضه. سماءُ الدعاء، وحَرَمُ تحريم الدماء. يأمن به الحَمَام ساكنًا، ومَنْ دخله كان آمنا.

قال الله تعالى: ﴿إنّ أوّل بيتٍ وُضع للناس للّذى ببكّة مباركًا وهدًى للعالمين. فيه آياتٌ بيّناتٌ مقامُ إبراهيم ومَن دخله كان آمنًا﴾.

وعن أبى ذرّ الغفارىّ. قال: قلتُ يارسول الله: أىّ مسجد وضع فى الأرض؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أىّ؟ قال: المسجد الأقصى. قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة. رواه البخارىّ، وأبو عروبة وزاد: وأينما أدركتك الصلاة فهو مسجد.

(٦٣) قال ابن جرير الطبرىّ: اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى: ﴿إنّ أوّل بيتٍ وُضع للناس﴾ فقال بعضهم: تأويله "إن أول بيت وُضع للناس يُعبَد الله فيه مباركا وهدًى للعالمين للّذى ببكّة". قالوا: وليس هو أول بيت وضع فى الأرض. لأنه

قد كان قبله بيوت كثيرة. ثم أسندَ هذا القول عن علىّ بن أبى طالب والحسن ومطر وسعيد (وأظنه ابن جُبير) ثم قال: وقال آخرون بل هو أول بيت وضع للناس. واختلف هؤلاء فى صفة وضعه أوّلَ. فقال بعضهم: خلقه قبل الأرض، ثم دُحيت الأرض من تحته. وأُسند هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص. قال: خلق الله البيت قبل الأرض بألفَى سنة، وكان عرشه على الماء على زَبَدة بيضاء، فدُحيت الأرض من تحته. ونحوه عن مجاهد وقتادة والسُّدّىّ. وقال آخرون: موضع الكعبة موضع أول بيت وضعه الله فى الأرض. وأُسند عن قتادة، قال: ذُكر لنا أن البيت هبط مع آدم. وحين أُهبِطَ قال الله: أُهبِطُ معك بيتى يُطاف به كما يُطاف حول عرشى. فطاف حوله آدم ومَن كان بعده من المؤمنين. حتّى إذا كان زمن الطوفان، رفعه الله وطهّره من أن تصيبه عقوبة أهل الأرض. فصار معمورا فى السماء. ثم إن إبراهيم تتبع منه أثرا بعد ذلك، فبناه على أساس قديم كان قبله. وقوله تعالى ﴿للّذى ببكّة﴾ يعنى للبيتُ الذى ببكّة. قال الزمخشرىّ: وهو علَم للبلد الحرام. ومكّة وبكّة لغتان. وقيل: مكّة البلدُ، وبكّة موضعُ المسجد. وقيل: بكّة موضعُ البيت، ومكّة ماحوله. وقيل: بكّة البيتُ والمسجدُ، ومكّة الحرمُ كلّه.

وقال عطاء بن أبى رباح: وُجّه آدم إلى بكّة حين استوحش. فشكى ذلك إلى الله (عز وجل) فى دعائه. فلما انتهى إلى بكّة، أنزل الله تعالى ياقوتة من ياقوت الجنة. فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتّى أنزل الله الطوفان، فرُفعت تلك الياقوتة. حتّى بعث الله عزّ وجلّ إبراهيم فبناه. فذلك قوله تعالى ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكانَ البيت﴾ رواه أبو عروبة. (٦٣)

وروى أبو الوليد الأزرقىّ بسنده عن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب،

قال : إن الله (تبارك وتعالىٰ) بعث ملائكة، فقال ٱبنوا لى بناءً فى الأرض تِمثالَ البيت وقدْرَه. وأمر الله مَن فى الأرض من خلقه أن يطوفوا به، كما يطوف اهل السماء بالبيت المعمور. قال: وكان هذا قبل خلق آدم، عليه السلام. والله أعلم!

وقيل إن آدم أوّل مَن بناها. وقيل شيث بن آدم. وكانت قبل بنائه خيمةً من ياقوتة حمراء، يطوف بها آدم.

وروىٰ سعيد بن أبى عَرُوبة عن قَتَادة، قال : ذُكر لنا أن قواعد البيت من حِراء؛ وذُكر لنا أن البيت من خمسة أجبل : حِراء ولُبنان والجُودىّ وطور سينا وطور زَيْتا.

وقال ٱبن جُرَيْج : بُنى أساس البيت من خمسة أجبل. (فذكر مثله).

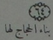
وحكىٰ السُّهَيْلىّ أن الملائكة كانت تأتى إبراهيم عليه السلام بالحجارة. وقيل رُفعت الكعبة فى الطوفان وأَودع الحجر الأسود أبا قُبَيس. وبقى موضعها ربوةً، حجها هود وصالح. فيقال إن يَعرُب قال لهود: ألا تبنيه؟ قال إنما يبنيه نبىٌّ يتخذه الله خليلا. ولما بناه إبراهيم دلّته عليه السكينة. وكانت تنزل عليه كالحَجَفة.

بناء إبراهيم الكعبة

وقال الأزرقىّ : لما بنىٰ إبراهيم عليه السلام الكعبة، جَعل طُولَ بنائها فى السماء تسعة أذرع، وطولها فى الأرض ثلاثين ذراعا، وعرضها فى الأرض ٱثنين وعشرين ذراعا. وكانت غير مسقوفة. ثم بنتها قريش فى الجاهلية. فزادت فى طولها فى السماء تسعة أذرع. فصار ٱرتفاعها فى الهواء ثمانية عشر ذراعا. ونقصوا من طولها فى الأرض ستة أذرع وشبرا، تركوها فى الحِجْر.

هدمها وتجديدها أيام ٱبن الزبير

ولم تزل كذلك حتّى كان زمن عبد الله بن الزبير. فهدمها وبناها علىٰ قواعد إبراهيم، وزاد ٱرتفاعها فى الهواء تسعة أذرع. فصار ٱرتفاعها سبعة وعشرين ذراعا.



بناء الحجاج لها

ثم بناها الحجّاج بن يوسف الثَّقفىّ، فلم يغير ٱرتفاعها. ونقض الحِجر وأعاده كما كان فى الجاهلية.

تواريخ بنائها

وٱعلم أن الكعبة بُنيت فى الدهر خمس مرات:

على يد الملائكة

إحداهنّ، بناء الملائكة أو آدم أو شيث، علىٰ ماتقدّم.

على يد إبراهيم

الثانية بناء إبراهيم.

على يد قريش

الثالثة بناء قريش. والسبب فى ذلك أن الكعبة ٱستهدَمت، فكانت فوق القامة. فأرادوا تعليتها. وكان بابها لاصقا بالأرض فى عهد إبراهيم وعهد جُرْهُم إلىٰ أن بنتها قريش. فقال أبو حذيفة بن المغيرة : ياقوم! ٱرفعوا باب الكعبة، حتّى لايدخلها أحد إلا بسُلَّم! فإنه لايدخلها حينئذ إلا من أردتم. فإن جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه. فَرفعتْ بابها، وجَعلتْ لها سقفا، ولم يكن لها سقف. وزادت ٱرتفاعها، كما تقدّم. وكان عمر النبىّ (صلى الله عليه وسلم) إذ ذاك خمسا وعشرين سنة، وقيل خمسا وثلاثين. فحضر البناء وكان ينقل الحجارة معهم، كما ثبت فى الصحيح. وتنافست قريش فيمن يضع الحجر الأسود موضعه من الركن. ثم رضوا بأن يضعه النبىّ، صلى الله عليه وسلم.

على يد ٱبن الزبير

الرابعة بناء عبدالله بن الزبير. والسبب فى ذلك، علىٰ ماذكر السهيلىّ، أن ٱمرأة أرادت أن تُجمّر الكعبة، فطارت شررة من المجمرة فى أستارها. فٱحترقت. وقيل طارت شررة من أبى قبيس، فوقعت فى أستار الكعبة، فٱحترقت. فشاور ٱبن الزبير مَن حضره فى هدمها. فهابوا ذلك، وقالوا : نرىٰ أن يُصلَح ما وهىٰ منها ولا تُهدَم. فقال: لو أن

بيت أحدكم آحترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح، ولا يكمُلُ إصلاحُها إلا بهدمها. فهدمها حتّى أفضى إلىٰ قواعد إبراهيم. فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر. فحرّكوا حجرا منها. فرأوْا تحته نارا وهَوْلًا أفزعهم. فبنَوْا علىٰ القواعد.

وفى الخبر أنه سترها وقت حفر القواعد. فطاف الناس بتلك الستارة. ولم تخل من طائفٍ. حتى لقد ذُكر أن يومَ قتل آبن الزبير، آشتدّ الحرب وشُغِل الناس حينئذ، فلم يُرَ طائف يطوف بها إلا الجَمَلُ. وتمّ بناءها وألصق بابها بالأرض. وعمل لها خَلْفًا أى بابا من ورائها وأدخل الحِجْر فيها. وذلك لأن خالته عائشة (رضى الله عنها) حدّثته أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: ألم تَرَىْ أن قومَكِ قصرت بهم النفقة حين بَنَوُا الكعبة، فآقتصروا علىٰ قواعد إبراهيم. ثم قالَ: لولا حدْثان قومك بالجاهلية، لهدمتُها وجعلتُ لها خَلْفًا وألصقتُ بابها بالأرض وأدخلتُ فيها الحِجْر. فقال آبن الزبير: فليس بنا عجز عن النفقة. فبناها علىٰ مقتضىٰ حديث عائشة. (٦٥)

وحكىٰ أبو الوليد الأزرقىّ أنه لما عزم علىٰ هدمها، خرج أهل مكة إلىٰ مِنًى. فأقاموا بها ثلاثا. خوفا أن ينزل عليهم عذابٌ لهدمها. فأمر آبن الزبير بهدمها. فما اجترأ علىٰ ذلك أحدٌ. فعلاها بنفسه وأخذ المِعْوَل وجعل يهدمها و يرمى أحجارها. فلما رأَوْا أنه لا يصيبه شئ، صعدوا وهدموا. فلما تمّ بناؤها، خلّقها من داخلها وخارجها، من أعلاها إلىٰ أسفلها، وكساها القَبَاطِىّ. وقال: مَن كانت لى عليه طاعة، فلْيخرجْ فلْيعتمرْ من التنعيم، ومَن قدر أن ينحر بَدَنَةً فلْيفعلْ، ومَن لم يقدر فليذبح شاة، ومَن لم يقدر عليها فليتصدّق بوسعه. وخرج آبن الزبير ماشيا، وخرج الناس مشاة. فآعتمروا من التنعيم، شكرًا لله تعالىٰ. فلم يُرَ يومٌ أكثر عتيقا وبَدَنَةً منحورة وشاةً مذبوحة وصدقةً من ذلك اليوم. ونحر آبن الزبير مائة بَدَنة.

قال السُّهَيْلىّ: ولما قام عبدالملك بن مرْوان فى الخلافة، قال: لسنا من تخليط أبى خُبَيب بشئ (يعنى عبد الله بن الزبير). فهدمها وأعادها علىٰ ما كانت عليه فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا فى آرتفاعها. ثم جاءه الحارث بن أبى ربيعة المخزومىّ ومعه رجل آخر، فحدّثاه عن عائشة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالحديث المتقدّم، فندم وجعل ينكت بِمخْصَرَة فى يده الأرضَ، ويقول: "وَدَدْتُ أَنى تركت أبا خُبَيْب، وما تحمّل من ذلك". (٦٦)

على يد الحجاج

وتولّى البناء ـ فى زمن عبدالملك بن مروان ـ الحجاجُ بن يوسف الثقفىّ. وهو البناء الخامس الموجود الآن.

والذى هدمه الحجاج هو الزيادة وحدها. وأعاد الركنين، وسدّ الباب الذى فتحه آبن الزبير. وسدُّه بيّنٌ إلىٰ الآن. وجعل فى الحِجْر من البيت دون سبعة أذرع. وعلامة ذلك فى داخل الحجر لَوْحانِ من مرمرٍ منقوشان متقابلان فى الجانبين. وصار عرض وجهها، وهو الذى فيه الباب، أربعة وعشرين ذراعا.

وقيل إن الكعبة بنيت مرتين أخريين، غير الخمس.

بناء العمالقة

إحداهما بناء العمالقة بعد إبراهيم،

بناء جرهم

والثانية بناء جُرْهم بعد العمالقة.

ترميم الكعبة

قال السهيلىّ: إنما كان ذلك إصلاحا لما وَهىٰ منه. لأن السيل كان قد صدعَ حائطه. وكانت الكعبة بعد إبراهيم (عليه السلام) مع العمالقة وجُرْهُم إلىٰ أن آنقرضوا. وخلفتهم فيها قريش بعد آستيلائهم علىٰ الحرم: لكثرتهم بعد القِلّة، وعزهم بعد الذِّلة. وكان أوّلَ من جدّد بناءها، بعد إبراهيم، قُصَىُّ بن كلاب. وسقَفها بخشب الدَّوْم وجريد النخل.

وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى – مرفوعا – أن أول من جدد الكعبة بعد كلاب بن مرة، قصى.

أغلاق الكعبة وتحليتها بالذهب فى الجاهلية

وحكى السهيلى أن أول من اتخذ للكعبة غلقا تبع. ثم ضرب لها عبد المطلب بابا من حديد، وهى الأسياف القلعية التى كانت مع الغزالين الذهب. وهو ما استخرجه عبد المطلب من بئر زمزم، لما احتفرها بعد ماطمها الحارث بن مضاض، لما أخرج الله جرهم من مكة بسبب إحداثهم فى الحرم واستخفافهم بالحرم وبغى بعضهم على بعض. فتغور ماء زمزم. وعمد الحارث إلى ما كان عنده من مال الكعبة وفيه غزالان من ذهب وأسياف قلعية، كان ساسان أهداها إلى الكعبة، وقيل سابور. وجاء تحت الليل ودفن ذلك فى زمزم، وعفى عليها. ولم تزل دارسة حتى حفرها عبد المطلب واستخرج ذلك كما هو مذكور فى موضعه.

واتخذ عبد المطلب من الغزالين المذكورين حلية للكعبة. فهو أول ذهب حليت به الكعبة.

تحلية الكعبة بالذهب فى الإسلام



فلما جاء الإسلام وآلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك، بعث إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار. فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب، وعلى الميزاب، وعلى الأساطين التى فى جوفها، وعلى الأركان.

وهو أول من ذهب البيت فى الإسلام.

وذكر السهيلى أن الذى عمله الوليد هو ما كان من مائدة سليمان بن داود (عليهما السلام) من ذهب وفضة، حمل إليه من طليطلة، من جزيرة الأندلس. وكانت لها أطواق من زبرجد وياقوت. وكانت قد احتملت على بغل قوى، فتفسخ تحتها.

ثم لما آلت الخلافة إلى الأمين، رفع إليه أن الذهب الذى عمله الوليد قد رق. فأرسل إلى عامله على ضواحى مكة، سالم بن الجراح، بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح على باب الكعبة. فقلع ما كان على الباب من الصفائح وزيد عليها ثمانية عشر ألف دينار. وضرب الصفائح والمسامير وحلقتى الباب والعتبة. فالذى كان عليه من الذهب ثلاثة وثلاثون ألف مثقال.

تجديد باب الكعبة فى زمن الناصر محمد ابن قلاوون

قلت: ثم جدد الباب الشريف فى الأيام الزاهرة الملكية الناصرية سقى الله عهدها. عمل بمصر مصفحا بالفضة. وأنا كتبت نسخة ما كتب عليه. وجهز به برس بغا الناصرى.

ترخيم الكعبة فى أيام الوليد

قال الأزرقى: وعمل الوليد بن عبد الملك الرخام الأبيض والأخضر والأحمر فى جوفها. فوزر به جدرانها، وفرشها بالرخام. فجميع ما فى الكعبة من الرخام هو من عمل الوليد. وهو أول من فرشها بالرخام وأزر به جدرانها.

ترخيم المظفر يوسف بن رسول

قلت: ثم تقلع غالب ذلك. وغالب ترخيمها وما فيها الآن من آثار المظفر يوسف بن عمر بن رسول، صاحب اليمن. واسمه فى الرخام داخل الكعبة، حيث يصلى المصلى، بين العمودين تجاه وجهه فى الجدار المتصل بالركن اليمانى.

واختلف أهل السير فى أول من كسا الكعبة الديباج.

كسوة الكعبة فى الجاهلية والإسلام



فقال ابن إسحق: هو الحجاج بن يوسف. وقال ابن بكار: هو عبد الله بن الزبير. وقال الماوردى: أول من كساها الديباج خالد بن جعفر بن كلاب. أخذ لطيمة تحمل البز وأخذ فيها أنماطا، فعلقها على الكعبة. وذكر جماعة – منهم الدارقطنى – أن نتيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب كانت قد أضلت العباس صغيرا. فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج.

وحكى الأزرقىّ أن معاوية كسا الكعبةَ الديباجَ. قال: وكانت تُكسى يوم عاشوراء. ثم إن معاوية كساها مرتين.

ما فعله المأمون

ثم كساها المأمون ثلاث مرات. فكان يكسوها الديباجَ الأحمر يوم التروية، والقَباطىَّ يوم هلال رجب، والديباجَ الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان.

وهذا الأبيض ابتدأه المأمون سنة ست ومائتين حين قالوا له: الديباج الأحمر يتخرّق قبل الكسوة الثانية. فسأل عن أحسن ماتكون فيه الكعبة. فقالوا: الديباج الأبيض. ففعله.

كسوتها فى أيام المؤلف

قلتُ: وهى الآن تُكسَى فى العام مرةً واحدةً فى وقت الموسم. وتحمل إليها الكسوة من الخزانة السلطانية بالديار المصرية، صحبةَ الركب. فيتولّى ذلك أُمراءُ الركب. ويحضرون بأنفسهم فتكسَى، ويأخذ الأشراف وبنو شيبة الكسوةَ العتيقة ويقتسمونها. ويأخذون فى كل قطعة منها أوفر الأعواض. وتحمل إلى سائر البلاد للبركة.

كسوة اليمن فى أيام المؤلف

وعهدى بصاحب اليمن يبعث إليها كسوة، فتلبس تحت الكسوة المصرية. وهما سوداوان من الحرير الأسود، بكتابة بيضاء، فيها آيات جاءت فى القرآن فى ذكر الكعبة.

ما رآه المؤلف على سطح الكعبة ومباشرته لكسوتها بيده

ولما حججتُ سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، صعدتُ أنا وأمراء الركب المصرىّ لتلبيس الكعبة الشريفة، حتى كنّا على سطحها. فرأيتُه مبلّطا بالمرمر والرخام الأبيض. ومن جوانبه جُدُرٌ قصارٌ فيها حِلَقٌ لمرابط الستور، تُجَرّ فيها الكسوة بحبال، ثم تُربط فى تلك الحِلَق.

وأنا أحمدُ الله، إذ بيدى توليت خلع الكسوة العتيقة عنها وتلبيسها الكسوة الجديدة.

(٦٩)

هدية سلطان مصر لملك الغرب

وحُمِلَت الكسوة العتيقة فى تلك السنة إلى السلطان بمصر، لتُجَهَّز إلى السلطان أبى الحسن المَرِينىّ مع مايُجهَّز عوضَ هدية بعثها فى هذه السنة، صحبة مريمَ زوجة أبيه وعريف السُّوَيْدىّ وجماعة من أكابر دولته. وعُوِّض بنو شيبة والأشراف عنها من بيت المال بمصر.

غسل الكعبة

والعادة جارية أن تغسل الكعبة المعظمة بماء زمزم فى السابع والعشرين من ذى القعدة، وتُشمَّر ستورها، وتُلبَس يومَ الأضحى، وتغسل بماء الورد عند عود الركب من مِنًى، أوانَ مُنصَرَفهم.

غسل المؤلف للكعبة

وكلُّ ذلك حضرتُه فى هذه السنة وتوليتُه بيدى. ولله الحمد!

وأما أوّل مَن كسا الكعبة مطلقا

التبابعة وكسوة الكعبة

فحكى الأزرقىّ عن ابن جُرَيج أن تُبَّعًا أوّلُ مَن كسا الكعبة كسوة كاملة. أُرِىَ فى المنام أنْ يكسوها. فكساها الأنطاع. ثم أُرِىَ أن يكسوها الوصائلَ. فكساها. وهى ثيابٌ حِبَرة من عَصْب.

ثم كساها الناس بعده فى الجاهلية.

قال السهيلىّ: ويُروَى أن تُبَّعًا لما كساها المُسُوح والأنطاع، انتفض البيتُ. فزال ذلك عنه حين كساها الخَصَف، وهى ثياب غلاظ. فلما كساها المُلاءَ والوصائلَ (وهى ثياب موصلة من ثياب اليمن واحدتها وصيلة)، قبلته. ذكره قاسم فى "الدلائل".

كسوة النبىّ والراشدين

وروى الأزرقىّ بأسانيد متفرقة، أن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) كسا الكعبة. ثم كساها أبو بكر. وكساها عمر من بيت المال القَباطىّ. وكساها عثمان، ومعاوية، وعبدالله بن الزبير، ومَن بعدهم.

قول تبع عند كسوة الكعبة

وقال تُبّع لما كسا البيتَ.

وكَسَوْنا البيتَ الذى حرّم اللـــهُ مُلاءً مُعَضَّـدا وبُرُودا.
فأقمْنا به من الشهر عَشْرًا * وجعلنا لِبابِه إقْليـدا.
ونَحَرْنا بالشِّعبِ سِتَّةَ ألفٍ * فترى الناس نحوَهن وُرُودا.
ثمّ سِرْنا عنـه نؤمّ سُهَيْلا * فرفَعْنا لواءَنا معْـقُودا.

وأما صفة الكعبة

(٧٠) وصف الكعبة وذرعها

فاعلم أن الكعبةَ، البيتَ الحرامَ، مُرَبَّعةُ البنيان فى وسط المسجد. آرتفاعها من الأرض سبعة وعشرون ذراعا؛ وعرض الجدار، وِجْهتُها الآن، أربعة وعشرون ذراعا، وهو الذى فيه بابها؛ وعرض مؤخرها مثل ذلك؛ وعرض جدارها الذى يلى اليمن ـ وهو فيما بين الركن اليمانىّ والركن العراقىّ، وهو الذى فيه الحجر الأسود ـ عشرون ذراعا. وإلى وسط هذا الجدار كان يصلى النبىّ (صلى الله عليه وسلم) قبل هجرته إلى المدينة. وعرض جدارها الذى يلى الشام، وهو الذى فيما بين الركن الشامىّ والركن الغربىّ، أحد وعشرون ذراعا؛ وميزاب الكعبة على وسطه يسكب فى الحِجر. ومن أصل هذا الجدار الى أقصى الجدار ستة عشر ذراعا.

وعرض باب الحِجر الشامىّ خمسة أذرع إلا شئ يسير(1)؛ وعرض بابه الغربىّ ستة أذرع إلا شئ يسير(1)؛ وجدار الحِجر مدوّر من بابه الشامىّ إلى بابه الغربىّ، كالطيلسان. وعرضه ذراع؛ وآرتفاعه من الأرض أربعة أشبار.

(1) كذا فى الأصل.



الحجر الأسود

والحجر الأسود، فى الركن العراقىّ المقابل لزمزم. وهو [على] سبعة أشبار من الأرض.

باب الكعبة

وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض؛ وعلوه ستة أذرع؛ وعرضه أربعة أذرع.

الملتزم

وما بين الباب والحجَر الأسود أربعة أذرع. ويسمى ذلك الموضع المُلْتَزَم: لأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين فَرَغ من طوافه آلتزمه ودعا فيه، ثم آلتفت فرأى عمر، فقال: "هاهنا تُسكب العبَرات".

موضع الخلوق ومقام إبراهيم

ومن الباب إلى مُصَلَّى آدم (عليه السلام) حين فرغ من طوافه وأنزل الله عليه التوبة، وهو موضع الخلوق، ومن إزار الكعبة، أرجح من سبعة أذرع. وكان هناك موضع مقام إبراهيم (صلى الله عليه وسلم).

(٧١)

وصلى النبىّ (صلى الله عليه وسلم) عنده حين فرغ من طوافه ركعتين، وأنزل الله تعالى عليه: "واتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبْراهِيمَ مُصَلًّى". ثم نقله (صلى الله عليه وسلم) إلى الموضع الذى هو فيه الآن. وذلك على عشرين ذراعا من الكعبة: لئلا ينقطع الطواف بالمصلين خلفه، أو يترك الناس الصلاة خلفه لأجل الطواف حين كثر الناس، وليدور الصف حول الكعبة، ويُرى الإمام من وجهه. ثم حمله السيل فى أيام عمر وأخرجه من المسجد. فأمر عمر بردّه إلى موضعه الذى وضعه فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وبَيْن موضع الخلوق ـ وهو مصلى آدم عليه السلام ـ وبين الركن الشامىّ ثمانية أذرع.

ومن الركن الشامىّ إلىٰ اللوح المرمر المنقوش فى الحِجر الذى بنىٰ هناك آبنُ الزبير ركنَ البيت (وهو علىٰ قواعد إبراهيم عليه السلام) تسعةُ أذرع.

الحطيم

وفيما بين الحِجْر إلىٰ مقام إبراهيم خمسة وعشرون ذراعا ويسمّىٰ ذلك الحطيم. لأنه يحطم الذنوب أى يسقطها؛ وقيل لأنه حُطِم من البيت؛ وقيل لأن من حلف هناك كاذبا آنحطم دينه ودنياه.

وما بين الركن العراقىّ (وهو الذى فيه الحَجَر الأسود) إلىٰ مصلى النبىّ (صلى الله عليه وسلم) قبل هجرته إلىٰ المدينة، عشرة أذرع. وكان يستقبل بيت المقدس، ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس. ولهذا لم يَبِنْ توجُّهه إلىٰ بيت المقدس إلا لما هاجر إلىٰ المدينة.

المستجار

وبين الركن اليمانىّ وبين الباب المسدود فى ظهر الكعبة أربعة أذرع. ويسمّىٰ ذلك الموضع المستجار من الذنوب. وعَرْض الباب خمسة أذرع، وآرتفاعه سبعة أذرع. وبينه وبين الركن الغربىّ ثلاثة عشر ذراعا.

وبين الركن الغربىّ وآخر قواعد إبراهيم ـ وهناك اللوح المرمر المنقوش ـ أزيدُ من سبعة أذرع. وإلىٰ هناك بنىٰ آبن الزبير.

وقد قدّمنا أن آرتفاع الكعبة فى الهوآء سبعة وعشرون ذراعا.

واما صفة المسجد الحرام المحيط بالكعبة (٧٢)

فنقول: قد ذكر الأزرقىّ والماوردىّ والسُّهَيْلىّ وغيرهم، وفى كلام بعضهم زيادة علىٰ بعض:

وصف المسجد الحرام

كان المسجد الحرام، أعنى المحيط بالكعبة فِناءً لها وفضاء للطائفين. ولم يكن له علىٰ عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبى بكر جدارٌ يحيط به. فضيق الناس علىٰ الكعبة وألصقوا دورهم بها. وكانت الدور مُحْدِقة بالكعبة. وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية.

عمر بن الخطاب ينزع الملكية لتوسيع المسجد

فلما آستُخلف عمر، وكثر الناس، قال: "لابدَّ لبيت الله من فِناء! وإنكم دخلتم عليه ولم يدخل عليكم". فوسع المسجد وآشترىٰ تلك الدور وهدمها وزادها فى المسجد.

وآتخذ للمسجد جدارا قصيرا، دون القامة. وكانت القناديل توضع عليه. وكان عمر أوّل من آتخذ الجدار للمسجد الحرام.

عثمان بن عفان يقتدى به

ثم لما آستُخْلِف عثمان، آبتاع منازل ووسعه بها. وبنىٰ الأروقة للمسجد، فيما ذكر الأزرقىّ والماوَرْدِىّ وغيرهما.

آبن الزبير يقتدى بهما

ثم إن آبن الزبير زاد فى المسجد زيادة كثيرة. وآشترىٰ دورا، من جملتها بعض دار الأزرق، اشترىٰ ذلك البعض ببضعة عشر ألف دينار. وجعل فيها عُمُدا من الرُّخام.

تعمير عبد الملك آبن مروان للمسجد

ثم عمره عبدالملك بن مروان؛ ولم يزد فيه، لكن رفع جداره، وجلب إليه السوارى فى البحر إلىٰ جُدَّة؛ وسقفه بالساج. وعمَّره عمارة حسنة.

توسيع الوليد له

ثم وسع آبنه الوليد وحمل إليه أعمدة الحجارة والرُّخام.



زيادة المنصور العباسىّ، وأعمدة الرخام

ثم زاد فيه المنصور، وجعل فيه أعمدة الرخام.

زيادتا المهدىّ

وزاد فيه المهدىّ مرتين : إحداهما سنة ستين ومائة، والثانية سنة سبع وستين ومائة وفيها تُوُفِّى المهدىّ.

وآستقر بناؤه إلى الآن.

رواق المسجد الحرام وسقفاه

وأما الرواق فنقول : إن له سقفين، أحدهما فوق الآخر، و بينهما فرجةٌ قدر الذراعين، أو نحوهما.

فأما الأعلى منه[1]، فسطوحه فرش مسقف بالدَّوْم اليانى.

وأما الأسفل منهما، فهو مسقوفٌ بالساج، مزخرفٌ بالذهب.

(٧٣)

أساطينه

وعدد أساطينه (وذلك من الرخام والحجر الأبيض، سوى ماجُدِّد فى دار النَّدْوة وسوق الحنطة) أربعُمائةٍ وأربعٌ وثمانون أسطوانة. بين كل أسطوانتين ستة أذرع : منها فى الجانب الشرقىّ الذى يلى المسعى مائة أسطوانة وثلاث أساطين، وفى الجانب الشمالىّ مما يلى الصفا مائة أُسطوانة و إحدى واربعون أسطوانة، وفى الجانب الغربىّ مائة أُسطوانة وخمس أساطينَ، وفى الجانب الشامىّ الذى فيه دار الندوة مائة وخمس وثلاثون أُسطوانة.

شراء النبىّ لأسطوانة بوزنها ذهبا

وفى وسط هذا الشّق أو نحوه الذى يلى المسجد ساريةٌ خمسُ أساطين: ذُكر أنها كانت ليهوديّة فسامها النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فيها، فأبتْ بيعها إلا بوزنها ذهبا، ففعل النبىّ (صلى الله عليه وسلم) ذلك، فوُضعت فى ميزانٍ، ووضع مثقال واحد فرجح المثقال ببركة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

(1) كذا بالاصل. ولعله منهما.

ومنها على باب المسجد آثنتان وعشرون، ومن ناحية المسجد ستٌّ، ومن ناحية الوادى والصفا عشرٌ، ومن ناحية بنى جُمَح أربعٌ، ومن ناحية دار الندوة آثنتان.

وفى دار الندوة سوى ما ذكرناه سبع وستون أُسطوانة بالحجارة مبيَّضة، وطول كلّ أسطوانة منها عشرة أذرع، وتدويرها ثلاثة أذرع، وذَرْع مابين كلّ أُسطوانتين ستةُ أذرع ونصفٌ.

حنايا المسجد الحرام

وعدد طاقاته وهى الحنَايا المعقودة على الأساطين أربعمائة طاق وثمان وتسعون طاقا، سوى مافى دار الندوة.

مساحته

وذَرْع المسجد الحرام من باب بنى جُمَح إلى باب العباس، الذى عند العَلَم الأخضر، و يعرف بباب بنى هاشم، أربعمائة ذراع وأربعة أذرع، وعَرْضه مابين دار الندوة إلى باب الصفا ثلثمائة ذراع وأربعة أذرع.

(٧٤)

وذَرْع مابين وسط جدار الكعبة الشرقىّ[1] الذى يلى المسعى مائتا ذراع وثلاثة عشر ذراعا، ومن وسط جدار الكعبة الغربىّ إلى جدار المسجد الغربىّ الذى يلى بنى جُمَح مائة ذراع وتسعة وتسعون ذراعا، ومن وسط جدار الكعبة الجنوبىّ إلى جدار المسجد الذى يلى الوادى مائة ذراع وأحد وأربعون ذراعا، ومن وسط جدار الكعبة الشمالىّ الذى يلى الحِجر إلى جدار المسجد الذى يلى دار الندوة مائة ذراع وتسعة وثلاثون ذراعا، ومن ركن الكعبة العراقىّ و يقال له الشامىّ إلى المَنارة التى تلى المَرْوة مائتا ذراع وأربعة وستون ذراعا، ومن ركن الكعبة الشامىّ و يقال له الغربىّ إلى المنارة التى تلى باب بنى سهم (وهو باب العُمْرة) مائتا ذراع وثمانية عشر ذراعا، ومن الركن

(1) يظهر أن هنا سقطا. وأصل الكلام "وذرع مابين وسط جدار الكعبة الشرقى إلى جدار المسجد الشرقى" الخ كما يتضح ذلك من نظائره بعد.

اليمانى إلى المنارة التى تلى أجيادَ الكبرى و بين الحزْوَرة مائتا ذراع وثمانية أذرع ؛ ومن الركن الأسود إلى المنارة مستمرةً تلى المسعى والوادى من ناحية الصفا مائتا ذراع وثمانية وعشرون ذراعا .

ارتفاعه فى السماء

وآرتفاع جداره فى السماء مما يلى المسعى ثمانية عشر ذراعا ، ومما يلى الوادى والصفا آثنان وعشرون ذراعا ، ومما يلى بنى جُمح آثنان وعشرون ذراعا ، ومما يلى دار الندوة سبعة عشر ذراعا ونصف .

شرفاته

وعدد شُرفاته من داخله وخارجه ، أربعمائة وخمس وتسعون شُرّافة . هذا من خارجه .

وعددها من داخله اربعمائة وثمان وتسعون شُرّافة .

فجميعها ألف شُرّافة إلا سبع شُرّافات .

المسجد قد يراد به الكعبة كلها

وآعلم أن المسجد الحرام يطلق و يراد به عينُ الكعبة ، كما فى قوله تعالى : " فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " . إذ لم يقل أحد من المسلمين بالآكتفاء بالتوجه إلى استقبال المسجد المحيط بالكعبة . وهذا هو أصل حقيقة اللفظ ، وهو المعنى بقوله تعالى : " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ " وبقوله (صلى الله عليه وسلم) لما سأله ابو ذر عن أول مسجدٍ وُضع أوّل ، قال : المَسجدُ الحرامُ . ٧٥

المسجد الحرام قد يراد به المسجد المحيط بالكعبة فقط

وقد يُطلق المسجد الحرام و يراد به المسجد المحيط بالكعبة . وهو الغالب فى الآستعمال على وجه التغليب المجازى ، كما فى قوله (صلى الله عليه وسلم) : " صلاةٌ فى مسجدى هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه ، إلا المسجدَ الحرامَ . " وقوله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . " على قول مَن روى انه كان نائما فى المسجد المحيط بالكعبة .



المسجد الحرام قد يراد به مكة أو الحرم بأكمله

وقد يُطلق المسجدُ الحرامُ ويراد به مكةُ أو الحرم بكماله ، على قول مَن يقول إن المراد بالمسجد الحرام مكةُ . لأنه (صلى الله عليه وسلم) كان نائما فى بيت أمّ هانئ لما أُسْرِى به ، وكما فى قوله تعالى " ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . " على قول مَن يقول إن المراد الحرم الخارج عن مكة بكماله .

وهذا كله على وجه التغليب المجازى . ولا ريب فيه . و إلا يلزم الآشتراكُ فى موضوع المسجد الحرام . والمجاز أولى منه . والله أعلم .

بئر زمزم

ومما يشتمل عليه المسجد الحرام بئر زمزم وهى سُقْيا إسماعيل ، وهَزْمةُ رُوح القدس جبريلَ ، طعامُ طُعْم ، وشفاء سقم ، لاتنزف ولا تُذَم ، ولا يتوجه إليها ذَم ، لقية عبد المطلب ، ودليل سُودَده ولا كذب . وفى الحديث : " ماءُ زمزمَ لِما شُرِبَ له " .

قال السُّهَيْلى : كانت زمزم سُقْيا إسماعيل بن إبراهيم . فجَرَها له رُوح القدس بعقبه . وفى ذلك إشارة إلى أنها لعقب إسماعيل وتراثه وهو محمد وأمّته (صلى الله عليه وسلم) . والقصة فى ذلك معروفة .

وتلخيصها أن إبراهيم (عليه السلام) لما آحتمل إسماعيل وأمّه هاجَرَ إلى مكة ، آحتمل معه لهما قربةَ ماء ومِزْود تمر . وتركهما بمكة وعاد . فلما فرغ التمر والماء عطش إسماعيل ، وهو صغير ، وجعل ينشغ (١) للموت ، جعلت هاجَرُ تسعى من الصفا إلى المروة ، ومن المروة إلى الصفا ، لترى أحدا . حتى سمعت صوتا عند الصبى . فقالت : ٧٦ قد أسمعتَ ، إن كان عندك غوث . ثم جاءت الصبى . فإذا الماء ينبع من تحت خدّه . فجعلت تغرف بيديها ، وتجعل فى القربة . وسيأتى بعد ذلك له خبر . قال النبى (صلى الله عليه وسلم) لو تركَته لكان عينا (أو قال : نهرا معينا) .

(١) هو بالغين المعجمة ومعناه يشهق [أنظر اللسان فى مادة ن ش غ] .

أصل التسمية بزمزم

قال الحربيّ : سميتْ زمزم بزمزمة الماء، وهى صوته. وقال المسعوديّ : سميتْ زمزم لأن الفُرس كانت تحجّ إليها فى الزمن الأول، فتُزمزم عندها. والزمزمة صوت تُخرِجه الفُرس من خياشيمها، عند شرب الماء. وأنشد المسعودى :

زمزمت الفُرس علىٰ زمزم * وذاك فى سالفها الأقدم.

وذكر البرقيّ عن ابن عباس : أنها سميتْ زمزم، لأنها زُمّت بالتراب، لئلا يسيح الماء يمينا وشمالا، ولو تركت لساحت علىٰ الأرض، حتى تملأ كل شئ.

طمّ الحارث بن مضاض لها وتجديد عبد المطلب حفرها

وقد ذكرنا طمّ الحارث بن مُضاض إيّاها. ولم تزل دارسة، حتّى أُرِىَ عبد المطلب أنِ احفُرْ طِيبَةَ. فسُمّيتْ طيبة، لأنها للطيبين والطيبات، من ولد إبراهيم وإسماعيل وقيل له : احفُرْ بَرّةَ. وقيل : احفر المضنونة، ضَنَنْتُ بها علىٰ الناس إلا عليك. ودُلّ عليها بعلامات ثلاث : بنقرة الغراب الأعصم، وأنها بين الفرث والدم، وعند قرية النمل.

ورُوى أنه لما قام ليحفُرها، رأىٰ مارُسِم له من قرية النمل ونقرة الغراب، ولم ير الفرث والدم. فبينا هو كذلك، ندّتْ بقرةٌ لجازرها، فلم يدركها حتّى دخلت المسجد الحرام، فنحرها فى الموضع الذى رُسِم له. فسال هناك الفرث والدم. فحفر عبد المطلب حيث رُسِم له.

وقيل لعبد المطلب فى صفتها : إنها لاتنزف أبدا. وهذا برهانٌ عظيم، لأنها لم تنزف من ذلك الحين إلىٰ اليوم قط. وقد وقع فيها حبشىٌّ فنُزِحتْ من أجله. فوجدوا ماءها يثور من ثلاث أعين : أقواها وأكثرها ماءً عينٌ من ناحية الحجر الأسود. رواه الدارقطنيّ. وروىٰ الدارقطنيّ أيضا مسندا عن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) : "من شرب من ماء زمزم، فليتضلّعْ، فإنه فرقُ مابيننا و بين المنافقين. لايستطيعون أن يتضلّعوا

منها". أوكما قال. ورُوى عن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "ماءُ زمزمَ لما شُرِب له". ورُوى أن أبا ذر تقوّت من مائها ثلاثين، بين يوم وليلة. فسمن حتّى تكسّرت عُكَنُه.

وذكر الزُّهرىّ فى سِيَره أن عبد المطلب اتّخذ حوضا لزمزم يَستقى منه. وكان يُخرَّب بالليل، حسدًا له. فلما غمّه ذلك، قيل له فى النوم: "قل: لا أُحِلُّها لمغتسل، وهى لشارب حِلٌّ وبِلٌّ. وقد كُفِيتَهم". فلما أصبح، قال: نعم. وكان بعدُ من أرادها بمكروه، رُمِىَ بداء فى جسده، حتّى انتهَوْا عنه.(١)

(١) بياض بالاصل هنا مقداره عشرة سطور.



الصفا والمروة

الصفا والمروة

قال الله تعالىٰ : "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا".

فَرْقَدَا الأرضِ، وجارَا البيتِ الحرام، وطُوبىٰ لمن وقف عليهما، وسعىٰ بينهما أو إليهما . وسنذكر ماهما، فنقول :

وصف الصفا

أما الصفا فحجرٌ أزرقُ عظيمٌ فى أصل جبل أبى قُبَيْس، قد كُسر درج إلىٰ آخر موضع الوقوف. وأكثر ماينتهى الناس منها إلىٰ اثنتى عشرة درجة أو نحوها.

وصف المروة

وأما المروة فحجر عظيم إلىٰ أصل جبل متصل بجبل قُعَيْقِعَانَ . كأنه قد انقسم علىٰ جزأين، وبقيت بينهما فرجة، يبين منها دَرَج عليها إلىٰ آخر الوقوف.

المسعىٰ

"وذَرْع مابين الصفا والمروة، وهو المسعىٰ، سبعمائة ذراع وثمانون ذراعا".

من الصفا إلىٰ الميل الأخضر المائل فى ركن المسجد علىٰ الوادى مائة وثمانون ذراعا.

"وذَرْع مابين الحجر الأسود والصفا مائتا ذراع واثنان وستون ذراعا".

ومن الميل الأصفر إلىٰ الميل الأخضر الذى بإزاء دار جعفر بن العباس، وهو موضع الهرولة، مائة وخمس وعشرون ذراعا.

موضع الهرولة

ومن المِيل الثانى إلىٰ المروة أربعمائة وخمس وسبعون ذراعا.

فجميع ما بين الصفا والمروة سبعمائة وثمانون ذراعا(١) .

---

(١) فى هذا الحساب اضطراب . ولذلك وضعنا بين شولتين مزدوجتين " " المسافة الكائنة بين الحجر الأسود والصفا، لتكون النتيجة موافقة للقدّمة وليصحّ الحساب.

دار النَّدْوة

مبدأ ظهور قريش بمكة

قال الماوردىّ : لم تكن مكة ذات منازل. وكانت قريش، بعد جُرْهُم والعمالقة، ينتجعون جبالها وأوديتها . ولا يخرجون من حَرَمها انتسابا إلىٰ الكعبة لاستيلائهم عليها، وتخصيصها بالحرم لحلولهم فيه . ويرون أن ذلك يكون لهم بسببه شأنٌ. وكان كلما كثر فيهم العدد ونشأت فيهم الرياسة، قوىَ أملهم وعلموا انهم سيُقدَّمون على العرب . وكان فضلاؤهم يتخيلون(١) أن ذلك لرياسةٍ فى الدين وتأسيسًا لنبوّة ستكون. فأول من أُلْهِم ذلك منهم كعبُ بن لُؤَىّ بن غالب. وكانت قريش تجتمع إليه فى كل جمعة. وكان يخطبهم فيه، ويذكر لهم أمر نبيّنا (صلى الله عليه وسلم.)

(٧٩) دار الندوة

ثم انتقلت الرياسة إلىٰ قُصَىّ بن كلاب، فبنىٰ بمكة دار الندوة ليحكم فيها بين قريش؛ ثم صارت لتَشَاوُرِهم وعَقْدِ الألوية فى حروبهم. وكانت هذه الدار، لاينكح رجل من قريش ولا امرأة إلا فيها؛ ولا يُعقَد لواء الحرب لهم ولا لغيرهم إلا فيها، ولا يُعذَر غلام إلا فيها، ولا تُدَرَّع جارية من قريش إلا فيها : يُشَق عليها دِرعها ثم تُدرّع ويُنطلَق بها إلىٰ أهلها؛ ولا تخرج عِيرٌ من قريش ويرحلون إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها.

قال الكلبىّ : "وكانت أوّلَ دار بنِيت بمكة، ثم تتابع الناس فبَنَوا الدور. كلما قربوا من الإسلام ازدادوا قوّة وكثرة عدد، حتى دانت لهم العرب".

قال الماوردىّ : صارت بعد قُصىّ لابنه عبدالدار. فابتاعها معاوية فى الإسلام من عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار بن قُصَىّ، وجعلها دار الإمارة .

---

(١) فى الأصل : يتخيلون .

وروى الأزرقىّ أن معاوية آشتراها لما حجّ، وهو خليفة، بمائة ألف درهم.

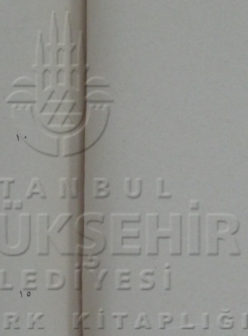
وذكر السُّهَيلىّ أن هذه الدار صارت إلى حكيم بن حزام بن أسد بن عبد العزّى ابن قُصَىّ فباعها فى الإسلام بمائة ألف. وذلك فى زمن معاوية. فلامه معاوية فى ذلك، وقال: "بعت مَكْرُمة آبائك وشرفَهم". فقال حكيم: "ذهبت المكارم إلا التقوى. والله لقد آشتريتها فى الجاهلية بزِقّ خمر، وقد بعتها بمائة ألف، وأشهدكم أنى جعلتُ ثمنها فى سبيل الله! فأيُّنا المغبون؟"

دخولها فى المسجد الحرام وموضعها منه

قال الحارثىّ: هى اليوم (يعنى دار الندوة) فى المسجد الحرام.

قال الأزرقىّ: وهى جانبه الشمالىّ. وقد تقدم ذكرها.[1]

(١) بياض بالاصل فى آخر الصحيفة مقداره خمسة سطور.



(٨٠)

مِـنًى

منى

حيث تُرمى الجَمرات، وتُهمى العَبَرات، ذوات الليالى المُقمرات، والأيام التى سُلخ من الكافور ثياب عشاياها المعنبرات، يُحلّى بها من كل تِربٍ عاطِلُه، ويلتقى فى كل سِرْب كل ذى دَينٍ وماطِلُه.

وهى بطحاء بين جبلين، مهدَّفة الجوانب، فيها مجتمع الحجيج. والمُحَصَّب منها موضع الجمرات. وهى على مدرجة السوق الأعظم. حيث يُنْصَب كلَّ سنة، أيامَ الموسم. يجتمع فيه الخليطان من شام ويَمَن، وتنزل الركوب به فى منازلهم: من شَرَف الوادى إلى حيث تُنحر البَدَنات تحت العقبة الأولى، حيث تُنْصَب سقايات الحاجّ.

وكانت فى قديم الإسلام موسم لقاء الحبائب، ومكان موعد كل مفارق.

وثلاث ليالى منًى معروفةٌ موصوفةٌ، قد أكثر فيها الشعراء وترنم بها المتيّمون.

وبمنًى بيوتٌ هى كالقرية. منها ماهو مسكون ومنها ماهو برسم بضائع الكارم، أيام الموسم، تُكرَى بأجرة طائلة.

وبها آبار متخذة لخزن ماء الأسنية، يباع على الحجيج. وهو ماء ثقيلٌ وبِىءٌ: لما يحمل من أوساخ الذبائح، وبقايا الأضاحى، ودماء القرابين.

مسجد الخيف

وفيها مسجد الخَيْف، وهو على يمين المتوجه من مكة إلى عرفات. والخَيْف هو البستان. وجدّد بناؤه فى الأيام الزاهرة الناصرية، سقى الله عهدها!

مسجد الكبش

وفيها مسجد إسماعيل، ويسمى بمسجد الكبش. وهو على يسار المتوجّه من منًى إلى عرفات. يقال إن الفداء لإسماعيل نزل به. وينزل المصريون منه إلى منًى، وينزل

المكّيون منه إلىٰ مُعَرَّف، ويقع تُجاه مسجد الخَيْف منحرفا عنه علىٰ ذروة من الجبل. يحيل بينهما مجرىٰ ماء من ماء الشتاء. ينزل فيما يليه إلىٰ الطريق العظمىٰ رُكْبانُ العرب.

جمع (أى المزدلفة)

جَمْعٌ – هى المزدلفة. وكلها مَشْعَرٌ إلا بطن مُحَسِّر. ومنها تؤخذ حَصىٰ الجمرات. وبذلك فسّر علىٌّ وآبن مسعود قوله تعالىٰ: "فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا". قالا: يعنى المزدلفة.

المزدلفة

ومسجد المُزْدَلِفة عن يسارك إذا مضيت إلىٰ عرفات. وفيه يجمع بين المغرب والعشاء، إذا نفر الحاجّ من عرفات. وهى التى عنىٰ الشريف الرضىّ بقوله:

عارضًا بى رَكْبَ الحجاز نسائلْـ * ـهُ: متىٰ عهْـدُهُ بأيّام سَلْعِ؟
وآستملّا حديث مَن سكن الخَيْـ * ـفَ ولا تكتباه إلا بدمعى.
فاتنى أن أرىٰ الديار بطرْفى، * فلعلّى أرىٰ الديار بسمعى!
لَهْفَ نفسى علىٰ ليالٍ تقضّت * لى بجَمع! وأين أيّام جَمْع؟

٨١

المشعر الحرام

قال الزمخشرىّ فى قوله تعالىٰ: "فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ": المشعرُ الحرامُ قُزَحُ، وهو الجبل الذى يقف عليه الإمام وعليه المِيقَدة.

وقيل: المشعر الحرام مابين جبلى المزدلفة إلىٰ مأْزِمَىْ عرفة إلىٰ وادى مُحَسِّر. وليس المأْزمان ولاوادى محسر من المشعر الحرام.

والصحيح أنه الجبل. لما روىٰ جابر أن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) لما صلّىٰ الفجر – يعنى بالمزدلفة – ركب ناقته حتّىٰ أتىٰ المشعر الحرام، فدعا وكبر وهلل. ولم يزل واقفا حتّىٰ أسفر.

وقوله "عند المشعر الحرام" معناه مما يلى المشعر الحرام، قريبا منه. وذلك للفضل، كالقرب من جبل الرحمة. وإلا فالمزدلفة كلها موقفٌ، إلاوادى مُحَسِّر. وجُعلت أعقابُ المزدلفة لكونها فى حكم المشعر ومتصلة به، عند المشعر.

وقيل سميت "المزدلفة" و"جَمْعًا" لأن آدم آجتمع فيها مع حوّاءَ وآزدلف إليها، أى دنا منها. وقال قَتادة: لأنه يُجمع فيها بين الصلاتين. ويجوز أن تكون وُصفت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون إلىٰ الله تعالىٰ، أى يتقرّبون بالوقوف فيها. وعن علىّ: "لما أصبح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقف علىٰ قُزَحَ، فقال: هذا قُزَحُ! وهو الموقف". وجَمْعٌ كلُّها موقفٌ.

أَنصاب الحَرَم

هى العلامات المبنية علىٰ حدود الحرم.

أول من بناها

وأول مَن بناها إبراهيم (صلوات الله عليه). وأشار له جبريل إلىٰ مواضعها. هكذا ذكره أبو عَرُوبة والأزرقىّ وغيرهما.

تجديد النبى لها، ثم الصحابة

وروىٰ الأزرقىّ أن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) أمر بتجديد العلامات التى علىٰ الحَرَم، التى عملها إبراهيم، وجبريلُ يريه مواضعها، ثم عمر، ثم عثمان، ثم معاوية.

بقاؤها لزمن المؤلف

وهذه العلامات بيّنة إلىٰ الآن، بحمد الله تعالىٰ.

حد الحرم

وحدُّ الحَرَم، من طريق مدينة النبىّ (صلى الله عليه وسلم) – دون التنعيم عند بيوت نِفَار – علىٰ ثلاثة أميال من مكة؛

ومن طريق اليَمَن، طرفُ أضاة لِبْنٍ فى ثنيّة لِبن، علىٰ سبعة أميال؛

ومن طريق العراق، علىٰ ثنية جبل بالمقطع، علىٰ سبعة أميال؛

٨٢

ومن طريق الجِعْرَانَةِ فى شعب آل عبد الله بن خالد، علىٰ تسعة أميال؛

ومن طريق الطائف علىٰ عرفات، من بطن نَمِرَةَ، علىٰ سبعة أميال؛

ومن طريق جُدَّةَ، منقطَع الأعشاش، علىٰ عشرة أميال.

فهـذه حدُّ ما جعله الله تعالىٰ حَرَمًا، لما ٱخْتُصَّ به من التحريم، وبَايَنَ بحكمه سائر البلاد.

تعظيمه وتحريمه

وصحّ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "إن هذا البلد (يعنى مكة) حرّمه الله يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ". وفى رواية: "قبل أن يخلق السماوات والأرض". فيكون تحريمُها قبـل خلق السماواتِ والأرض كتَابةَ تحريمها فى اللوح المحفوظ، أو تقديرَ حُرمتها. ورُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن إبراهيم حَرّم مكّة. ومعناه أظهر حُرمتها. قال السُّهيلىّ: رُوى فى التفسير أن الله تعالىٰ لما قال للسماوات والأرض: "ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ" لم يُجبه بهذه المقالة من الأرض إلا أرض الحرم. فلذلك حرّمها. فصارت حرمتها كحرمة المؤْمن: إنما حُرِّم دمُه وعرضه وماله، بطاعتـه لربه. وأرض الحرم لما قالت "أَتَيْنَا طَائِعِينَ" حُرِم صيدُها وشجرُها وخَلَاها، إلَّا الإذْخِرَ؛ فلا حرمة إلا لذى طاعة. جعلنا الله من أهل طاعته!

وصحّ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "إن هذا البلد حرّمه الله يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ، فهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة. لا يُعْضَدُ شجرُه ولا يُنَفَّرُ صَيْدُه ولا يُخْتَلىٰ خَلَاه".

حفظ شجره

وما زال الناس فى الجاهلية والإسلام يعظّمون هذا الحرم ويجتنبون قطع شجره. قال الواقدىّ: لما أن أرادت قريش البنيان، قالتْ لِقُصىّ: "كيف نصنع فى شجر

الحرم؟ فحذّرهم قطعها وخوّفهم العقوبة فى ذلك. فكان أحدهم يُحَرِّف بالبنيان حول الشجرة، حتّى تكون فى منزله".

٨٣

قطع شجره ومقدار دية كل شجرة ببقرة

قال: وأوّل من ترخص فى قطع شجر الحرم، عبد الله بن الزبير.

قال السُّهيلىّ: ٱبتنىٰ ٱبن الزبير دُورا بقُعَيقِعانَ وترخّص فى قطع شجر الحرم، وجعل دية كل شجرة بقرة. وكذلك رُوِىَ عن عمر أنه قطع دَوْحة كانت فى دار أسـد بن عبد العُزّىٰ، وكانت أطرافها تنال ثياب الطائفين بالكعبة. وذلك قبل أن يُوَسَّعَ المسجد. فقطعها ووداها ببقرة.

عَـــرَفات

عرفات

مُلْتَقَى الخَليطيْن من شامٍ ويَمَن، ومجمع البحرين من الزعقة إلىٰ عَدَن. به يتجلّى الله علىٰ عباده، ويهبهم المغفرة. وبها الصخرات، موقف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث تقف المحامل.

قبة آدم

وعلىٰ قُنّة هذا الجبل قبّة آدم. هكذا تُسمّى.

ويقال إنّ هناك تعارفَ آدمُ وحوّاء، بعد أن أُهبطا.

تسمية عرفات

وعرفات علم للوقف، سُمّيَ بجمعٍ، كأذرعاتٍ.

واختُلف فى تسميتها بذلك. فقيل: لأنها وُصفت لإبراهيم، فلما أبصرها عرفها؛ وقيل إن جبريل (عليه السلام) كان يدور به فى المَشَاعر، يريه إيّاها، فقال: قد عرفتُ؛ وقيل التقىٰ فيها آدم وحوّاء فتعارفا، كما تقدّم. وقيل لأن الناس يتعارفون فيها. وهى من الأسماء المرتجلة. لان عرفة لاتعرف فى أسماء الأجناس. (١)



مسجد نَمِـرة

مسجد نمرة (المعروف خطأ بمسجد إبراهيم)

ويسمّى مسجد إبراهيم. يقال إن إبراهيم الخليل (عليه السلام) بناه. ولا يصحّ هذا.

وهو علىٰ يمين السالك من مكة إلىٰ عرفات، قريب الطريق، مدانيا لعرفة.

وعادة الخطابة به فى وقتنا لإمام الطائفة المالكية بمكة المعظمة.

وجُدُره قائمة، وكذلك منبره. ولا سقف له.

(١) بياض فى آخر الصفحة بالأصل مقداره سبعة سطور.



مسجد عائشة

رضى الله عنها

مسجد عائشة بالتنعيم

هو بالتنعيم فى الحِلّ، عند أول الحرم. ولا يحضرنى مَن بناه. وكل مسجد هناك يسمّى بهذا. وأشهرها المُصاقِب للطريق علىٰ يسار الداخل إلىٰ مكة. وإنما نُسب إلىٰ عائشة لكونها اعتمرتْ من التنعيم. ولعلّها أحرمتْ فى البقعة التى بُنى بها المسجد. وعمرتها معروفة علىٰ ماتضمنته الأحاديث.

مسجد ميمونة

رضى الله عنها

مسجد ميمونة، حيث دفن المنصور

وسمى بذلك لمكان قبرها. وهناك مات أبو جعفر المنصور، ودُفن مُحْرِما، علىٰ ماهو مذكور فى موضعه.

وميمونة هى بنت الحارث، إحد[ىٰ] أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وكانت أُختها أمّ عبد الله بن العبّاس.

المـــواقيت

المواقيت أى مواضع الإحرام

روىٰ ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقّت لأهل المدينة ذا الحُلَيْفة، ولأهل الشام الجُحْفَة، ولأهل نجد قرنَ المَنَازل، ولأهل اليمن يلملم. وقال: "هنّ لهنّ ولمن أتى عليهنّ من غير أهلهنّ، ممن أراد الحج والعمرة. ومن كان دون ذلك، فمن حيث أنشأ، حتّى أهل مكة من مكة." أخرجاه فى الصحيحين.

فهذه المواقيت التى وقّتها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لايجوز لأحد يريد الحجّ والعمرة أن يتجاوزها إلا مُحرِما. وأما مَن لم يرد الحجّ أو العمرة، فكذلك عند فقهاء الأمصار، وقولان عند الشافعى. وموضع ذلك كتب الفقه.

٨٥

ذو الحليفة، ميقات أهل الشام فى عصر المؤلف

فأما ذو الحُليفة فهو أبعد المواقيت، على عشر مراحل من مكة، أو سبع منها. (وهو بضم الحاء المهملة وفتح اللام). ومنها يُحرِم الآن الركبُ الشاميُّ .

آبار هذا الطريق

وبها آبار تسمّى آبار علىّ . وبعض الناس يقول بئر المحرم .

الجحفة

والجُحفة موضع على ثلاث مراحل من مكة . (وهى بضم الجيم وسكون الحاء المهملة بعد الجيم) .

(اسمها القديم مهيعة)

وذكر ابن الكلبى أن العماليق أخرجوا بنى عَبِيلٍ (وهم إخوة عاد) من يثرب. فنزلوا الجحفة، وكان اسمها مَهْيَعة ، (بفتح الميم وسكون الهاء على وزن مقتلة وقيل بكسر الهاء على وزن قبيلة) . فجاءهم سيل فاجتحفهم، فسميت الجحفة.

ولما هاجر النبىّ (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة أصابهم حُمّى . فدعا النبىّ (صلى الله عليه وسلم) الله تعالى أن ينقل حُمّاها إلى الجُحفة .

رابغ موضع إحرام الركب المصرى فى عهد المؤلف

وهى شرقىّ رابغ ممر الركب المصرىّ . ومن رابغ يُحرم الآن .

قرن المنازل

وقَرْن المنازل (بفتح القاف وسكون الراء)، موضع على مرحلتين من مكة، وقد

(تغليط المؤلف للجوهرى)

غلط الجوهرىّ فى قوله بفتح الراء، وقوله إن أويسا القرنىّ منسوب إليها . بل هو منسوب إلى قرن بفتح القاف والراء بطن من مراد .

يلملم

ويلملم (ويقال ألملم بالهمزة عوضا عن الياء)، موضع معروف على مرحلتين من مكة . وهو بفتح الياء واللام وسكون الميم بعد اللام .

ذات عرق

ومن المواقيت مالم يذكره النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فى الحديث . وهو ميقات العراقيين، وهوذات عِرْقٍ. و بينه و بين مكة خمس مراحل .[1]

(١) بياض بآخر الصفحة بالأصل مقداره أربعة أسطر.

المسجد النبوى

على صاحبه أفضل الصلاة والسلام

٨٦

الحرم النبوى

موضع منبره، وجوار مقبره، ومقام مصلاه، ودار آخرته وأُولاه .

الروضة الشريفة

و بجانبه حجرته المعظمه، التى ضمت أعظُمَه.[1] ولله القائل :

ياخيرَ من دُفنت فى القاع أعظُمُه، ❊ فطاب من طيبهن القاعُ والأَكَمُ!

نفسى الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنه، ❊ فيه العفاف وفيه الجود والكرمُ!

قدوم النبىّ إلى المدينة وصلاه فيها

قال أنس: "قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزل فى عُلُوِّ المدينة، فى حىّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف. فأقام فيهم أربع عشرة ليلة. ثم إنه أرسل إلى ملإ بنى النجّار، فجاؤوا متقلدين سيوفهم. فكأنى أنظر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملأُ بنى النجار حوله، حتّى ألقى بفناء أبى أيوب". قال: "وكان يصلى حيث أدركته الصلاة، و يصلى فى مرابض الغنم".

بناء النبى لمسجده بالمدينة

ثم إنه أمر بالمسجد. فأرسل إلى ملإ بنى النجار، فجاؤوا. فقال: يابنى النجار، ثامنونى بحائطكم هذا. فقالوا: لا والله! ما نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى.

قال أنس: وكان فيه نخل، وقبور المشركين، وخرِب . فأمر النبى (صلى الله عليه وسلم) بالنخل فقطع، و بقبور المشركين فنُبشتْ، و بالحرب فسُوّيتْ . قال : وصفُّوا

(١) فى المواهب اللدنية (ج٢ ص ٥١٠ طبع محمد شاهين بالقاهرة سنة ١٢٨١) أن محمد بن حرب الهلالىّ أتى قبر النبى (صلى الله عليه وسلم). فزاره وجلس بحذائه. فجاء أعرابىٌّ فزاره، ثم قال : يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتابا صادقا قال فيه : "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسولُ لوجدوا الله توابًا رحيمًا". وقد جئتك مستغفرا من ذنبى، مستشفعا بك إلى ربى! وأنشأ يقول :

❊ يا خير من دفنت . . . البيتين ❊

وانظر أيضا شرح "المواهب" للزرقانى (ج ٨ ص ٣٦١ من طبعة بولاق سنة ١٢٧٨)

النخل قبلةً، وجعلوا عضادتيه حجارة. قال: فكانوا يرتجزون، ورسول الله، (صلى الله عليه وسلم) معهم، وهم يقولون:

اَللهم إنه لاخير إلا خير الآخره! * فأنصرِ الأنصار والمهاجره!

(رواه البخارىّ ومسلم).

وروىَ عن الشَّفَّاء بنت عبد الرحمٰن الأنصارية، قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين بنىٰ المسجد يَؤُمُّه جبريلُ إلىٰ الكعبة ويُقيم له القبلة.

قال السُّهَيْلىّ: بُنى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسُقِف بالجريد وجُعلت قبلته من اللَّبِن. ويقال: بل من حجارة منضودة بعضها علىٰ بعض، وحيطانه باللَّبِن، وجُعلتْ عمده من جذوع النخل. فنَخِرت فى خلافة عمر، فجدّدها.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبىّ: "كانت هـذه القبلة فى شمالىّ المسجد. لأنه (صلى الله عليه وسلم) صلّىٰ ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا إلىٰ بيت المقدس. فلما حُوّلت القبلة بقِىَ حائط القبلة الأُولىٰ مكان أهل الصُّفَّة".

قال أبو سعيد الخُدْرىّ: كان سقف مسجد النبىّ (صلى الله عليه وسلم) من جريدِ النخل. وأمر عمر ببناء المسجد، وقال: أَكِنَّ الناس من المطر. وإياك أن تُحمِّر أو تصفِّر، فتفتِنَ الناس!

زيادة عمر فيه وبنيانه

وعن عبد الله بن عمر أن المسجد كان علىٰ عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مبنيا باللَّبِن، وسقفه الجريد، وعمده خُشُب النخل. فلم يزد فيه أبو بكرٍ شيئًا. وزاد فيه عمر وبناه علىٰ بنيانه فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) باللبِن والجريد، وأعاد عمده خَشَبا. ثم غيره عثمانُ، فزاد فيـه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشـة والقَصَّة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقَفَه بالساج. (رواه البخارى فى صحيحه.)

(٨٧)

زيادة عثمان آبن عفان

وعن عِكْرِمَة قال: قال لى عبدالله بن عبّاس ولآبنه علىّ: "اِنطلقا إلىٰ أبى سعيد فاسمعا من حديثه". فآنطلقنا. فإذا هو فى حائط يصلحه، فأخذ رداءه فآحتبىٰ ثم أنشأ يحدّثنا حتّىٰ أتىٰ علىٰ ذكر بناء المسجد. فقال: "كنا نحمل لَبِنَةً لَبِنَةً، وعمّارٌ لَبِنتين لَبِنتين. فرآه النبى (صلى الله عليه وسلم) فجعل ينفض التراب ويقول: ويحَ عمارٍ! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلىٰ الجنة ويدعونه إلىٰ النار! قال: يقول عمارٌ! أعوذ بالله من الفتن!" (رواه البخارىّ). وزاد معمر فى "جامعه" أن عمّارا كان ينقل لبنتين لبنتين: لبنة عنه ولبنة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم). فقال النبىّ (صلى الله عليه وسلم): "للناس أجرٌ ولك أجران، وآخِرُ زادِك من الدنيا شربةُ لَبَنٍ، وتقتلك الفئة الباغية."

مساحة الحرم فى عهـد النبى

وعن خارجة بن زيد، أحدِ فقهاء المدينة السبعة، قال: بنىٰ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مسجده سبعين ذراعا فى ستين ذراعا، أو يزيد. فلما كان عثمان، زاد فيه.

الزيادات المتوالية فيـه

جعل طول المسجد مائة وستين ذراعا وعرضه مائة وخمسين، وجعل أبوابه ستة، كما كانت فى زمن عمر. وآمتدّت الزيادة إلىٰ أن دخلتْ بيوتُ أُمّهات المؤمنـين فيه، ومنها حجرة عائشة (وهى التى دفن فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصاحباه رضى الله عنهما). فبنوا علىٰ القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر فى المسجد، فيصـلى إليه العوامّ ويؤدّى إلىٰ المحذور الذى نهىٰ عنه رسول الله (صـلى الله عليه وسـلم) من آتخاذ المساجد علىٰ القبور. ثم بنوا جدارين من ركنَى القـبر الشماليين، حرفوهمـا حتّىٰ آلتقيا. كل ذلك حتّىٰ لايتمكن أحد من آستقبال القبر. ولهذا قالت عائشة (رضى الله عنها): "ولولا ذلك أُبرِز قبره، غير أنه خُشِى أن يُتّخذ مسجدا".

(٨٨)

ثم إن الوليد بن عبدالملك زاد فيه فجعـل طوله مائتى ذراع وعرضـه فى مقدمه مائتين، وفى مؤخره مائة وثمـانين.

زيادات العباسيين

ثم زاد فيه المهدىّ سنة ستين ومائة، من جهة الشام فقط دون الجهات الثلاث.

ثم زاد فيه المأمون سنة اثنتين ومائتين، وأتقن بنيانه ونقش فيه: "هذا ما أمر به عبد الله المأمون" فى كلام كثير.

قال العلامة أبو زكريا النَّوَوِى، رحمه الله: فينبغى للمُصلِّى أن يعتنىَ بالمحافظة على الصلاة فيما كان فى زمنه (صلى الله عليه وسلم). فإن الحديث الصحيح عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "صلاةٌ فى مسجدى هذا أفضلُ من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام" إنما يتناول ما كان فى زمنه، لأنه هو الذى حصلت الإشارة إليه. لكنْ إذا صلّى فى جماعة، فالتقدم إلى الصف الأول، ثم إلى ما يليه أفضلُ. فَلْيُتَفَطَّنْ لذلك.

المسافة بين المنبر ومصلى النبى وقبره

وذرع ما بين المِنبر ومقام النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى كان يصلى فيه حتى تُوُفِّىَ، أربعة عشر ذراعا وشبر.

وذرع ما بين المِنبر والقبر ثلاثة وخمسون ذراعا وشبر.[1]



بيوت النبى

صلى الله عليه وسلم

بيوت النبى

قال السُّهَيْلى: كانت بيوت النبى (صلى الله عليه وسلم) تسعة: بعضها من جريد مطيّن بالطين وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها على بعض مسقفة بالجريد أيضا.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبى: "لم يبلغنا أنه (صلى الله عليه وسلم) بنى له تسعة أبيات، حين بُنِىَ المسجد. ولا أحسبه فعل ذلك. إنما كان يريد بيتا حينئذ لسودة، أم المؤمنين، ثم لم يحتج إلى بيت آخر، حتى بنى لعائشة فى شوال سنة اثنتين. وكأنه (صلى الله عليه وسلم) بناها فى أوقات مختلفة. والله أعلم".

(١) بياض بأسفل الصحيفة فى الأصل مقداره سبعة أسطر.

وقال الحسن بن أبى الحسن: كنتُ أدخل بيوت النبى (صلى الله عليه وسلم) وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدى. وكان لكل بيتٍ حُجرةٌ. وكانت حُجَرُه (عليه السلام) أكسيةً من شَعَرٍ مربوطةً فى خَشَبِ عَرْعَرٍ.

وفى تاريخ البخارى أن بابه (صلى الله عليه وسلم) كان يُقرع بالأظافير. أى لا حَلَق له.

تداخل بيوته فى المسجد، أيام عبد الملك بن مروان

ولما توفى أزواجه (صلى الله عليه وسلم) خُلطت البيوت والحُجَر بالمسجد. وذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان. فلما ورد كتابه بذلك، ضجّ أهل المدينة بالبكاء، كيوم وفاته.

قال السُّهَيْلى: وهذا يدل على أن بيوته (صلى الله عليه وسلم) إذا أضيفت إليه، فهى إضافة ملك: كقوله تعالى: "لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ". وإذا أضيفت إلى أزواجه كقوله: "وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ" فليست إضافةَ مِلك. وذلك أن ما كان مِلكا له، فليس بموروث عنه.

٩٠

مسجد قُباء

مسجد قباء (وهو أول مسجد بنى فى الإسلام)

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسّسه لبنى عمرو بن عوف. ثم انتقل إلى المدينة.

كيفية تأسيسه

وذكر ابن أبى خَيْثَمة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين أسسه، كان هو أوّل مَن وضع حجرا فى قبلته، ثم جاء أبو بكر بحجرٍ فوضعه، ثم جاء عمرُ بحجر فوضعه إلى جنب حجر أبى بكر. ثم أخذ الناس فى البنيان.



وذكر الخطّابيّ عن الشَّمُوس بنت النعمان، قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين بنى مسجد قُبَاء يأتي بالحجر قد صهره[1] إلى بطنه، فيضعه. فيأتي الرجل يريد أن يُقِلّه، فلا يستطيع حتّى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره.

قال السهيليّ: وهذا أوّل مسجد بُني في الإسلام، وفي أهله نزلت: "فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا". فهو على هذا المسجد الذي "أُسِّسَ على التقوى". وإن كان قد روى أبو سعيد الخُدريّ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سئل عن المسجد الذي "أسس على التقوى" فقال: هو مسجدي هذا. وفي رواية أُخرى قال: وفي الأرض خير كثير. وقد قال لبني عمرو بن عَوْف حين نزلت "لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا": ما الطهور الذي أثنى الله به عليكم؟ فذكروا له الاستنجاء بالماء بعد الاستجمار بالحجارة. فقال: هو ذاكم، فعليكموه!

قال السُّهَيْليّ: وليس بين الحديثين تعارضٌ. كلاهما أسس على التقوى. غير أن قوله سبحانه "من أول يوم" يقتضي مسجد قُباء، لأن تأسيسه كان في أول يوم من حلول النبيّ (صلى الله عليه وسلم) دار هجرته والبلد الذي هو مُهَاجَرُه.

قال القاسم بن عبد الرحمن: عمّار بن ياسر أوّل من بنى مسجدا لله، يُصَلَّى فيه، رواه أبو عروبة. وذكر ابن إسحاق هذا الحديث عن عمّار في خبر بناء مسجد المدينة.

قال السُّهَيْلي: إنما عنى بهذا مسجد قباء، لأنه هو الذي أشار على النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ببنيانه، وهو الذي جمع له الحجارة. فلما أسسه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) استتم بنيانه عمّارٌ.

(١) أي أدناه إلى بطنه [أنظر اللسان ج ٦ مادة ص هـ ر].

وعن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يزور قباء راكبا وماشيا، فيصلي فيه ركعتين. مُتَّفَقٌ عليه. وفي رواية: كان النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يأتي مسجد قباء كل سبت، راكبا وماشيا. وكان ابن عمر يفعله.

مسجد الضِّرار

مسجد الضرار

رُوِي أن بني عَمْرو بن عَوف لما بنَوْا مسجد قباء — وكان يأتيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويصلي فيه — حسدهم إخوتهم بنو غَنْم بن عوف. وقالوا: نبني مسجدا ونرسل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب، إذا قدم من الشام. ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم، زعموا. وأبو عامر هو الذي سمّاه النبيّ (صلى الله عليه وسلم) الفاسقَ. وقال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم. فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنَين. فلما انهزمت هوازنُ، خرج هاربا إلى الشام. وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهبٌ إلى قيصر، وآتٍ بجنود، ومُخْرِجٌ محمدا وأصحابه من المدينة.

فبنَوْا مسجد الضِّرار إلى جانب مسجد قباء. وقالوا للنبيّ (صلى الله عليه وسلم): "بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية. ونحن نحب أن تصلي لنا فيه، وتدعو لنا بالبركة". فقال (صلى الله عليه وسلم): "إني على جَناح سفرٍ وحالِ شغلٍ. وإذا قدمنا، إن شاء الله، صلينا فيه". فلما قفل من غزوة تبوكَ، سألوه إتيان المسجد، فنزل قوله: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا" إلى قوله "لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا" الآيات.

فدعا بمالك بن الدُّخْشُمُ ومَعْن بن عَدِىّ وعامر بن السَّكَن ووحشىّ ،قاتل حمزة، (٩٢) فقال لهم: "اِنطلقوا إلىٰ هذا المسجد الظالِمِ أهلُه. فٱهدموه وأحرِقوه". ففعلوا. وأمَر أن يُجعل مكانه كُناسة تلقىٰ فيها الجِيَفُ والقُمَامة.

وقيل كل مسجدٍ بُنِىَ مباهاةً، أو رياءً وسُمْعَةً، أو لغرضٍ سوىٰ ٱبتغاء وجه الله، أو بمال غير طيّب فهو لاحق بمسجد الضِّرار.

وعن شقيقٍ أنه لم يدرك الصلاة فى مسجد بنى عامر، فقيل له: مسجد بنى فلان، لم يصلوا فيه بعدُ. فقال: "لا أحب أن أصلّى فيه، فإنه قد بنى علىٰ ضِرارٍ". وكل مسجد بنى علىٰ ضِرار أو رياء، فإن أصله ينتمى إلىٰ المسجد الذى بُنِىَ ضِرارًا.

وعن عطاءٍ: لما فتح الله الأمصار علىٰ عمر (رضى الله عنه) أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأنْ لا يتخذوا فى مدينةٍ مسجدين يضارّ أحدُهما صاحبَه.

وذكر ٱبن إسحاق الذين ٱتخذوا مسجد الضرار وذكر فيهم جارية بن عامر، وكان يعرف بحمار الدار. وهو جارية بن عامر بن مُجَمِّع بن العَطَّاف. وذكر فيهم ٱبنَه مُجَمِّعًا، وكان إذ ذاك غلاما حَدَثا قد جمع القرآن. فقدّموه إماما لهم، وهو لا يعلم بشئ من شأنهم.

وقد ذُكر أن عمر بن الخطاب، فى أيامه، أراد عزله عن الإمامة. وقال: أليس بإمام مسجد الضِّرار؟ فأقسم له مُجَمِّع أنه ما علم شيئا من أمرهم، وما ظنّ إلا الخير. فصدّقه عمر وأقرّه.



مساجد المدينة

مساجد المدينة

قال السُّهَيْلىّ: كانت مساجد المدينة تسعة، سوىٰ مسجد النبىّ (صلى الله عليه وسلم). كلهم يصلون بأذان بلال. كذلك قال بُكَير بن عبد الله بن الأشجّ، فيما روىٰ عنه أبو داود فى مراسيله، والدارقطنىّ فى سننه.

فمنها مسجد راتِج، ومسجد بنى عبد الأشهل، ومسجدُ بنى عمرو بن مبذول، ومسجد جُهَينة، وأسلَمَ (وأحسبه قال مسجد بنى سلمة).

وسائرها مذكور فى السنن.

وذكر ٱبن إسحاق، فى المساجد التى فى الطريق، مسجدا بذى الحِيفة. كذا وقع فى كتاب أبى بحرٍ بالخاء معجمة، ووقع بالجيم فى كتابٍ قرئ علىٰ ابن السراج وٱبن الأفليلى.

---

(٩٣)

بقيع الغرقد

بقيع الغرقد

وهو مدفن أهل المدينة النبوية. وفيه تَدافُن أكثر أهل المدينة.

قبة العباس ومن فيها من أهل البيت

وفيه قُبَّة العباس بن عبد المطلب، عمّ النبىّ (صلىّ الله عليه وسلم). وفيها معه الحسن بن علىّ. وكان الحسن أوصىٰ أن يدفن مع النبىّ (صلى الله عليه وسلم) إلا أن يُخاف أن يُراق فى ذلك مِحْجَمُ دمٍ. فمنعه مَرْوان. وكادت الفتنة أن تقع. وأبىٰ الحسنُ [ٱبنه] إلا أن يدفن مع جدّه. فكلمه عبد الله بن جعفر ومِسْوَر بن مخرمة. فدفن بالبقيع فى قبة العباس. وفيها أيضا زين العابدين، وٱبنه محمد الباقر، وٱبنه جعفر الصادق.

قبة عثمان بن عفان

وفى البقيع أيضا قبة أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وكان موضع القبة وما حوله بستانا لرجل من الانصار ٱسمه كوكب. وكان يقال حُشّ كوكب. والحُشّ البستان.

فاشتراه عثمان (رضى الله عنه) وزاده فى البقيع . وكان يقول إنه يدفن هاهنا رجل صالح. فكان أول من دُفن بهذه الزيادة.

قبة إبراهيم (ابن النبىّ)

وفى البقيع أيضا قبة إبراهيم بن النبىّ (صلى الله عليه وسلم).

قبة فاطمة وغيرها من أمهات المؤمنين والصحابة والتابعين

وقبة فاطمة الزهراء.

وفى البقيع أيضا جماعة من أزواج النبىّ (صلى الله عليه وسلم) وعَمَّتُه صفية.

وفيه خلائقُ من الصحابة والتابعين.

قبة مالك بن أنس

وفيه قبة مالك بن أَنَس، إمام دار الهجرة.

أول مدفون بالبقيع

وأول من دفن بالبقيع عثمانُ بن مظعون . قال المطلب بن عبد الله بن حَنْطب: أول من دفنه النبىّ (صلى الله عليه وسلم) بالبقيع، عثمانُ بن مظعون، ثم قال لرجل عنده: اذهب إلى تلك الصخرة، فأْتنى بها حتّى أضعها عند قبره. فمن مات من أهلنا دفناه عنده. رواه ٱبن أبى شَيْبَة.

قال علىّ بن أبى طالب: ثم أتبعه إبراهيم بن النبىّ (صلى الله عليه وسلم). رواه ٱبن أبى شيبة أيضا.

سبب تسميته بالغرقد

٩٤

قال الأصمعى: قُطعت غَرْقَدات فى هذا الموضع، حين دفن فيه عثمان بن مظعون. فسمى بَقيع الغَرقد لهذا.

معنى الغرقد

وقال الخليل: "البقيع من الأرض موضع فيه أُروم شجرٍ. وبه سمى بقيع الغَرقد. والغَرقد شجر كان ينبت هناك".

والبقيع يلى باب المدينة الذى فى جهة الشرق، الذى وراء دار عثمان بن عفّان. ومنه يخرج إلى البقيع. (١)

(١) بياض بالاصل مقداره ستة سطور.

المسجد الاقصى

كلمة عامة على الحرم المقدسى

مَعْهَد الأنبياء، ومتعهَّد الأولياء، وثانى البيت الحرام فى البناء، وأول القبلتين حال الأبتداء. شَيَّدَتْ ملوكُ بنى إسرائيل معاهدَه، وشدّت بقباب البروج معاقدَه، ثم تدارك بنو أُمية ذَماءه، وصفَّحوا أرضه وسماءه، وهذا هو على ماهو عليه من حمل الآلام، وٱختلاف دول الكفر والإسلام، ومن صخرته المقدّسة المعراج، حيث عرج بخاتم الأنبياء (عليه الصلاة والسلام) من حضرة القدس إلى حضرة القدس، وبسط له بساطُ الأنس، ودنا من ربه مقاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم، ولا وصل إليه مَلَك مقرب ولا نبىّ كريم، وقد أمَّ فى ذلك المسجد بالنبيين، وصعِد منه إلى أعلى عليين. وإلى صفيح تلك البقعة المحشر، ومنها يوم القيامة المَنْشر. والصخرة بها عرش الله الأدنى، ومقام الفخار الأسنى، وهى التى تزف إليها عروس الكعبة زفا، وتُقسم الناس لشقاوة وزلفى ... ... الفضائل التى لاتحصى.

٩٥

قد تقدم حديث أبى ذرّ: أول مسجد وُضع، المسجدُ الحرامُ ثم المسجد الأقصى. وبينهما أربعون عاما.

ورُوِى عن علىّ بن أبى طالب، قال: كانت الأرض ماء فبعث الله ريحا فمسحت الأرض مسحا، وظهرت على الأرض زَبَدة فقسمت أربع قطع. خلق من قطعة مكة، والثانية المدينة، والثالثة بيت المقدس، والرابعة الكوفة. ذكره أبو الفرج ٱبن الجوزى.

بناء بيت المقدس

وروى ٱبن مَنْدَه بسنده، أن كعبا قال: بنى سليمان بن داود بيتَ المقدس على أساسٍ قديم، كما بنى إبراهيم الكعبة على أساس قديم.

قال ابن الجوزى: سكن الجبّارون فى الأرض المقدّسة فسُلّط عليهم يُوشَع، ثم سُلّط الكفار على بيت المقدس فصيروه مزبلة. فأوحى الله (عز وجل) إلى سليمان فبناه.

وروى عن سعيد بن المسيّب قال: أمر الله تعالى داود أن يبنى مسجد بيت المقدس. قال: ربّ! وأين أبنيه؟ قال: حيث ترى المَلَكَ شاهرا سيفه. قال: فرآه فى ذلك المكان. قال: فأخذ داود فأسس قواعده ورفع حائطه، فلما آرتفع آنهدم. فقال داود: يارب! أمرتنى أن أبنىَ لك بيتا، فلما آرتفع هدمتَه. فقال: ياداود إنما جعلتك خليفتى فى خلقى، لِمَ أخذتَه من صاحبه بغير ثمن؟ إنه يبنيه رجل من ولدك. فلما كان سليمان ساوم صاحب الأرض، فقال: هى بقنطار. فقال سليمان: قد آستوجبتُها: فقال له صاحب الأرض: هى خير أو ذاك؟ قال: لا بل هى خيرٌ. قال: فانه قد بدا لى. قال: أو ليس قد أوجبتها؟ قال: بلى، ولكن البيعين بالخيار مالم يتفرقا. (قال عبد الله بن المبارك، هذا أصل الخيار). فلم يزل يراده، ويقول له مثل قوله الأول، حتى آستوجبها منه بسبعة قناطير. فبناه سليمان حتى فرغ منه. وتغلقت أبوابه. فعالجها سليمان أن يفتحها، فلم تنفتح، حتى قال فى دعائه: بصلوات أبى داودَ إلا تفتحتِ الأبواب! ففُتّحتِ الأبواب.

قال: ففرّغ له سليمان عشرة آلاف من قُرّاء بنى إسرائيل: خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار. لا تأتى ساعة من ليل ولا نهار، إلا والله عز وجل يُعبَد فيه. (٩٦)

وقال أبو عمرو الشّيبانى: أوحى الله إلى داود: إنك لن تُتم بناء بيت المقدس. قال: أىْ ربِّ! ولمَ؟ قال: لأنك غمرت يدك فى الدم. قال: أىْ ربِّ! أوَ لَمْ يكن فى طاعتك. قال: بلى وإن كان.

وقال كعب: أوحى الله تعالى إلى سليمان أن آبنِ بيت المقدس. فجمع حكماء الإنس وعفاريت الجن وعظماء الشياطين. ثم فرّق الشياطين، فجعل منهم فريقا يبنون، وفريقا يقطعون الصخور، وفريقا يقطعون العُمُد من معادن الرُّخام، وفريقا يغوصون فى البحر فيخرجون منه الدر والمرجان. وأخذ فى بناء المسجد، فلم يثبت البناء. وكان عليه حَيْر[1] بناه داود. فأمر بهدمه. ثم حفر الأرض حتى بلغ الماء. فقال: أسّسوا على الماء. فألقوا فيه الحجارة. وكان الماء يلفظ الحجارة، فآستشار فى ذلك، فأشاروا عليه أن يتخذ قِلالا من نحاس، ثم يملأها حجارة، ثم يكتب عليها ماعلى خاتمه من ذكر التوحيد، ثم يلقيها فى الماء لتكون أساس البناء. ففعل، فثبت وبنى. عمل بيت المقدس عملا لايوصف، وزينه بالذهب والفضة وألوان الجوهر فى سمائه وأرضه وأبوابه وجُدُره. ثم جمع الناس وأخبرهم أنه مسجد لله، وأنه هو الذى أمر ببنائه، وأنه من آنتقصه أو شيئًا منه، فقد ضادّ الله، وأنه كان قد عهد إلى داود فى ذلك، ثم أوصى سليمانَ بذلك من بعده. ثم آتخذ طعاما وجمع الناس.

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص فى قوله تعالى: "فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ" قال: هو سور بيت المقدس الشرقى. وقد أضربنا عن كثير مما ورد فى البناء السليمانى والعجائب التى كانت فيه، لعدم صحته بالنقل.

فضل بيت المقدس

وأما ماورد فى فضله.

فمنه حديث أنس. قال: "قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): صلاةُ الرجل

(١) الحَيْر بالفتح شبه الحظيرة أو الحِمى [أنظر لسان العرب ج ٥ ص ٣٠٨].

فى بيته بصلاةٍ واحدة،وصلاتُه فى مسجد القبائل بستّ وعشرين صلاة، وصلاته فى المسجد الذى يُجَمَّع فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته فى المسجد الأقصىٰ بخمسين ألف (٩٧) صلاة،وصلاته فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة".

وعن أبى ذرّ قال : قيل : يارسول الله ! صلاةٌ فى بيت المقدس أفضل، أم صلاة فى مسجد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ؟ قال : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من أربع صلوات فيه . ولنعم المُصلَّى ! هو أرض المحشر والمنشر،ولَيأْتينَّ علىٰ الناس زمانٌ ، ولَبَسْطةُ قوسٍ من حيث يُرىٰ بيت المقدس ، أفضلُ وخيرٌ من الدنيا جميعا !"

وصحّ عن موسىٰ (عليه السلام) أنه لما آحْتُضِر قال : يارب أدننى من الأرض المقدّسة رميةً بحجرٍ! .

ونزله أبو ذرّ وأكثر فيه الصلاة . وصلّى فيه آبن عمر . ومات فيه عُبادة بن الصامت ، وشدّاد بن أوس ، وأبو أُبَىّ بن أمّ حرام ، وأبو ريحانة (وآسمه شمعون) وذو الأصابع ،وأبو محمد النجارىّ . هؤلاء من أهل بيت المقدس ماتوا به . والذى أعقب منهم عُبادة وشدّاد وسلامة بن قيصر وفيروز الديلمىّ . والذى لم يعقب منهم ابو ريحانة وأبو محمد النجارىّ وذو الأصابع .

وقال أبو الزاهرية : أتيتُ بيت المقدس أريد الصلاة . فدخلتُ المسجد وغَفَلتْ عنى سَدَنَةُ المسجد، حتّى أُطفِئت القناديل، وآنقطعت الرِجل، وغُلِّقت الأبواب . فبينا أنا كذلك إذ سمعت حفيفا له جناحان، قد أقبل وهو يقول : "سبحان الدائم القائم ! سبحان القائم الدائم ! سبحان الحىّ القيُّوم ! سبحان الملك القُدّوس !

سبحان رب الملائكة والروح ! سبحان الله وبحمده ! سبحان العلىّ الأعلىٰ ! سبحانه وتعالىٰ". ثم اقبل حفيفٌ يتلوه، يقول ذلك . ثم أقبل حفيف بعد حفيف يتجاوبون بها، حتّى آمتلأ المسجد . فإذا بعضهم قريب منى . فقال : آدمىٌّ ؟ فقلت : نعم . فقال : لارَوْعَ عليك، هذه الملائكة ! قلتُ : سألتك بالذى قوّاكم علىٰ ماأرىٰ ! مَن الأوّل؟ قال : جبريل، قلت[(١)] : ثم الذى يتلوه؟ قال : ميكائيل . قلت : مَن يتلوهم بعد ذلك؟ قال : الملائكة . قلتُ : سألتك بالذى قوّاكم علىٰ[(٢)] ما أرىٰ . ما لقائلها من الثواب؟ قال : (٩٨) مَن قالها مرةً فى كل يوم، لم يَمُت حتّى يرىٰ مقعده من الجنة، أو يُرىٰ له .

وروىٰ أبو عبد الله بن باكُويَهْ، بسنده إلىٰ محمد بن أحمد الصوفىّ، قال : قال لى أستاذى أبو عبد الله بن أبى شَيبة : "كنتُ ببيت المقدس . وكنتُ أُحِبُّ أن أبِيتَ فى المسجد، وما كنت أُترك . فلما كان فى بعض الأيام، بصُرتُ فى الرواق بحُصُرٍ قائمةٍ . فلما أن صليت العتمة وراء الإمام، أتيتُ الحُصُر، فآختبأت وراءها . وآنصرف الناس والقُوَّام . ثم خرجتُ إلىٰ الصخرة . فلما سمعتُ غَلْق الأبواب ، وقعت عينى علىٰ المحراب وقد آنشق ودخل منه رجُلٌ ثم رجُلٌ إلىٰ أن تم سبعة . وآصطفّ القوم . ولم أزل واقفا شاخصا زائل العقل إلىٰ أن آنفجر الصبح . فخرج القوم علىٰ الطريق الذى دخلوا."

وبه[(٣)] إلىٰ ذى النون قال : بينا أنا فى بعض جبال بيت المقدس ، سمعتُ صوتا يقول : ذهبت الآلام عن أبدان الخُدَّام، ولَهَتْ بالطاعة عن الشراب والطعام، وألِفَتْ

(١) فى الأصل : قال .

(٢) فى الأصل : لما .

(٣) أى : وبسنده يعنى بسند أبى عبدالله بن باكويه .

قلوبهم طول القيام ، بين يدى الملك العلام ! فتبعتُ الصوتَ . فإذا أمردُ مصفَرُّ الوجه ، يميل ميل الغصن إذا حركته الريح ، عليه شملة قد آتزر بها ، وأُخرىٰ قد آتّشح بها . فلما رآنى ، توارىٰ عنى بالشجر . فقلت : ليس الجفاء من أخلاق المؤمنين . فكلِّمْنى وأَوْصِنى . فخرّ ساجدا ، وجعل يقول : هذا مقام مَن لاذ بك وآستجار بمعرفتك وأَلِفَ محبتك ! فيا إلٰه القلوب ، آحجبنى عن القاطعين لى عنك ! قال : فغاب عنّى ولم أره .

ورُوِىَ عن قَتادة فى قوله تعالىٰ : " يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ " قال : من صخرة بيت المقدس . وقال يزيد بن جابر فى الآية : يقف إسرافيلُ علىٰ صخرة بيت المقدس ، فينفخ فى الصُّور ، فيقول : أيتها العظام النَّخِرة ، والجلود المتمزِّقة ، والأشعار المتقطعة ، إن الله تعالىٰ أمركِ أن تجتمعى للحساب !

(٩٩) وروىٰ آبن منده بسنده عن أنس بن مالك قال : إن الجنة لتحنّ شَوْقًا إلىٰ بيت المقدس . و بيت المقدس من جنة الفردوس ، وهى سرّة[1] الأرض . (يعنى الصخرة) .

وبه عن أبى إدريس الخَوْلانىّ قال : يحوّل الله صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء كعرض السماوات والأرض . ثم ينصبُ عليها عرشه . ثم يقضى بين عباده ، يصيرون منها إلىٰ الجنة و إلىٰ النار . وقال أبو العالية فى قوله تعالىٰ : " إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا " قال : من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس .

قال المفسرون فى قوله تعالىٰ : " وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ " قالوا : هو إسرافيل . يقف علىٰ صخرة بيت المقدس فينادى : يا أيها الناس ، هلمُّوا إلىٰ الحساب ! إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ! (وهذه هى النفخة الأخيرة . والمكانُ القريبُ صخرةُ بيت المقدس) .

(١) فى الاصل : صرة .

قال كعب ومقاتل : هى أقرب إلىٰ السماء بثمانية عشر ميلا . وقال آبن السائب : باثنىْ عشر ميلا .

وروىَ أن كعبا قدم إيلياء فَرَشَا [حبرا] من أحبار يهود بضعةَ عشر دينارا علىٰ أن دلّه علىٰ الصخرة التى قام عليها سليمان بن داود لما فرغ من بناء المسجد . وصلّى مما يلى ناحية باب أسباط . فقال كعب : قام سليمان بن داود علىٰ هذه الصخرة ثم آستقبل بيت المقدس كله . فدعا الله عز وجل بثلاث . فأراه تعجيل إجابته فى دعوتين ، وأرجو أن يستجيب فى الثالثة . فقال : " اللهم هَبْ لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب " فأعطاه الله (عز وجل) . وقال : " اللهم هب لى ملكا وحكما يوافق حكمك ! " . ففعل الله (عز وجل) ذلك به . ثم قال : " اللهم لا يأتى هذا المسجدَ أحد يريد الصلاة فيه ، إلا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمه ! "

هذه نبذة يسيرة من آبتداء وضعه .

[فتح بيت المقدس فى أيام عمر ، ثم فى أيام صلاح الدين ، ثم تسليمه للفرنج ، وآستنقاذه منهم (١٠٠)]

وأما ما يتعلق بفتح بيت المقدس فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وآستيلاء الفرنج عليه ، ثم فتحه علىٰ يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتسليمه إلىٰ الفرنج بعد ذلك فى أيام الملك الكامل ، ثم آستنقاذه منهم بعد ذلك علىٰ يد الناصر داود بن المعظّم ، فليس هذا موضعه . وسيأتى إن شاء الله تعالىٰ فى التاريخ التلويح بذلك والإشارة إليه . فهناك ذكره أنسبُ .

[وصفه ومزاراته إلىٰ سنة ٧٤٣]

ولنذكر الآن ما يتعلق بصفة المسجد الأقصىٰ ، وما آشتمل عليه من المزارات ، علىٰ ما استقر عليه بناؤه إلىٰ سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

تصنيف خاص في الحرم المقدسي

وقد ألّف فى ذلك الصاحب تاج الدين أبو الفضائل أحمد بن أمين الملك تأليفا صغيرا سماه: "سلسلة العسجد، فى صفة الصخرة والمسجد". نقلتُ منه مايليق بهذا الموضع، معتمدا فى ذلك علىٰ ماحرّره بالذراع.

الصخرة الشريفة

ونبتدئ بذكر الصخرة الشريفة والبناء المحيط بها، فنقول:

البناء المثمن المحيط بها وطاقاته وشبابيكه

أما البناء المبارك من وجه الصحن المفروش بالبلاط المصقول، فارتفاعه ثمانية عشر ذراعا، يعلو ذلك كرسىّ القبة، وآرتفاعه عشرة أذرع وربع. ودوره مائة وثلاثة أذرع وثلثا ذراع. فى دوره ست عشرة طاقة زجاج مذهبة، بظاهرها شبابيك، وهى مثمنة الأركان. كل تمينة تسعة وعشرون ذراعا وثلثا ذراع. والبناء من ظاهره مكسوّ منه آرتفاع سبعة أذرع بالرخام الأبيض المشجّر. ومن أعلاه سبعة أذرع إلىٰ الميازيب بالفصّ المُذْهَب المشجّر المختلف. وتحتوى كل تمينة علىٰ سبع طاقات: اِثنتان فى الطرفين مسدودتان، والخمسة مركب عليها الزجاج، ومن ظاهرها الشبابيك الحديد. ومن اعلىٰ الميازيب حائطٌ آرتفاعه أربعة أذرع، مكسوّ بالفص بالصفة المذكورة، مشخص فى كل تمينة منه ثلاثة عشر محرابا. ولها أبواب أربعة:

وصف فنّى للبناء على الطراز العربى

فالقبلىّ آرتفاعه ستة أذرع وربع، وعرضه ثلاثة أذرع ونصف وثمن. وأمامه من (١٠١) خارجٍ رواقٌ مفروش بالرخام الأبيض المشجّر طوله من الشرق للغرب أحد وعشرون ذراعا ونصف، وعرضه أربعة. سقفه بسطٌ مدهون. والوسطُ أمام الباب قنطرةٌ بالفص المُذْهَب، محمول علىٰ ثمانية أعمدة من الرُّخام: منها غُرابىٌّ آثنان فى طرفيه، وخُضْرٌ مَرْسِينِىّ تلوهما أربعة، و"شحم ولحم" آثنان، بين الأعمدة الغُرابىّ والخُضْرِ هَنابُ رخام منقوش الظاهر سعته ذراع وثلث. تنزل فيه المياه المنحدرة من المزاريب.

ويُعلَّق علىٰ الباب المذكور مصراعان من الأبواب ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش. وعلىٰ يَمْنة الداخل ويَسْرته درابزين خشب آرتفاع ثلثى ذراعٍ، فى رؤوس التثمينة الأوّلة خاصة. ويقاس من عتبة هذا الباب من داخل إلىٰ وجه الأعمدة الآتى ذكرها ثمانية أذرع وثلثا ذراع، بأعلاها سقف بسط مدهون بأنواع الدهان، آرتفاعه خمسة عشر ذراعا، محمول علىٰ حائط الصخرة. والأعمدة والحائط من باطن التثمينة، مُلَبَّس جميعه بالرخام بغير فص بانبذاريه(١) رخام منقوشة تقدير ذراع مذهبة.

كل تثمينة من هذا السقف محمولة علىٰ ساريتين ملبسة بالرخام المشجر والملون البديع. دور كل سارية أحد عشر ذراعا وثلثا ذراع. وطولها ثمانية أذرع وثلثاذراع، وجهها الذى يلى الصخرة بقُرنتين. ومع السارية عمودان: أحدهما "شحم ولحم" والآخر أخضر مَرسينىّ. بين كل عمود لأخيه خمسة أذرع. ودوره ذراعان وثلثا ذراع. وآرتفاعه خارجا عن القواعد ستة ونصف يعلوها "بساتل" ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش المذهب فوق نقشه. يعلو "البساتل" قناطر بالفص المذهب البديع.

بهذه التثمينة الأولى، ثمانية سَوَارٍ وستة عشر عمودا: منها أبيض وأزرق عشرة، (١٠٢) واخضر مرسينىّ ثلاثة، و"شحم ولحم" ثلاثة.

وصف السقف

وتقيس من واجهة قواعد هذه العمد عشرة أذرعٍ لتثمينةٍ ثانيةٍ عليها سقف "مقالى" مذهب، آرتفاعه آرتفاع السقف الأوّل. و"مقاليه" مركبة بغير تسمير لأجل كنس السقف. والسقفُ الذى يعلوه الرصاص خمسةُ أذرع من الباطن. وبآخر هذه التثمينةِ الدائرةُ الدرابزينُ المحيطُ بدور القبة. والحامل للقبة أربعة سَوارٍ مربعة ملبسة

(١) هكذا فى الأصل. وربما كان المراد: بآستدارته.

بالرخام مثل الأولىٰ. بين كل سارية وسارية ثلاثة أعمدة من الرخام ”الشحم واللحم“ والأخضر المرسينىّ. يعلو ذلك قناطر من الوجهين : فصٌّ مُذْهَبٌ، والباطن رخام أبيض وأسود. جملة الأعمدة الحاملة للقبة آثنا عشر عمودا : منها أخضر مرسينى سبعة، و”شحم ولحم“ خمسة.

قال : ولقد قِستُ عمودا منها ”شحما ولحما“ فكان دوره ثلاثة أذرع ونصفا وآرتفاعه خارجا عن القواعد سبعةَ أذرع وثلثى(١) ذراع.

ارتفاعات القبة

وآرتفاع هذه القبة الخشب المذهبة من قطبها إلىٰ ظاهر الصخرة الشريفة سبعة وأربعون ذراعا؛ ومن ظهر الصخرة لباطن أرض المغارة ستة أذرع؛ ومن ظاهر القبة الخشب إلىٰ القبة الثانية المكسوّة بالرصاص ذراع ونصف.

قال : ولقد قست الدور الحامل للقبّة بالأعمدة والسوارى فكان مائة وثلاثة أذرع.

صفة الشباك وأبوابه

وصفة الشباك الحديد الذى بين هذه العمد والسوارى، له أربعة أبواب : الشمالىّ منها مغلق، والثلاثة مفتوحة. فأما القبلىّ فيُصعد إليه بدرجتين. ومن حد عتبته من داخل إلىٰ صدر الصخرة أربعة أذرع ونصف وربع. وحجر الصخرة من هذه الجهة ملبس بالرخام الملوّن آرتفاعَ ذراعين. ويحيط بحجر الصخرة من تمّة أقطاره درابزينُ من الخشب المنقوش، دوره أربعة وسبعون ذراعا. وبآخر هذه الصخرة المرخمة من غربٍ إلىٰ جهة الشمال حجرٌ صغير محمول علىٰ ستة أعمدة صغار. قيل إنه أثر قدم النبى (صلى الله عليه وسلم) ليلةَ المعراج. وقبالة القدم المشار إليه مرآة من السبعة(٢) معادن يسمونها ”درقة حمزة“ محمولة علىٰ ثلاثة أعمدة لطاف : منهن آثنان ”رُوحَان فى جسد“.

أثر قدم النبىّ فيما يقال

١٠٣

(درقة حمزة مرآة من السبعة معادن)

(١) بالاصل : وثلثا.

(٢) بالاصل : السبع معادن.

وآرتفاع الشباك الحديد أربعة أذرع وثلثا ذراع، تعلوه شرفة خشب مدهونة. وبأعلىٰ الشرفة شمعدانات حديد.

المحراب والمغارة

والمحراب الذى يصلى به إمام الصخرة عن يمين الداخل من الباب القبلىّ داخلَ الدرابزين الخشب المقدّم الذكر. وتجاه المحراب باب مغارة للصخرة الشريفة، معقودٌ قنطرةً بالرخام الغريب، علىٰ عمودين ”شمعية“ يُنزل إلىٰ باطنها بأربع عشرة درجة. طول باطن المغارة من الشرق للغرب عشرة أذرع، وعرضها سبعة ونصف من القبلة للشمال.

وجميع باطن أرض الصخرة والمغارة مفروش بالرخام.

باطن المغارة

مقام الخضر

وبباطن المغارة المذكورة محرابان علىٰ اليمين واليسار. كل محراب علىٰ عمودى رخام لطاف. وأمام المحراب الأيمن صُفَّةٌ تسمّى ”مقام الخَضِر“. طولها من الشرق للغرب ذراع وثلثا ذراع، ومن القبلة للشمال ذراعان وربع. يواجهها عمود رخام قائم للسقف، وعمود راقد مَرَدٌّ لها. وبالركن الشمالىّ من المغارة صُفَّةٌ نقرٌ فى الصخرة يسمونها ”مقام الخليل“. عمقها من القبلة للشمال ذراع ونصف، ومن الشرق للغرب ذراع وربع.

مقام الخليل

الباب الشرقى للصخرة

وأما الباب الشرقىّ من بناء الصخرة، فهما بابان : أحدهما داخل الآخر. جُعل الباب الخارج وقايةً للداخل من الأمطار والثلوج. ملبس بالرخام. رحاب مابين البابين عرض أربعة أذرع وربع، وطول خرجته آثنا عشر ذراعا ونصف.

علىٰ يمنة الخارج بيت للبوّاب. وبه محراب محمول علىٰ ثلاثة أعمدة لطاف، وعلىٰ يَسْرته بيت للقناديل محمول علىٰ أربعة أعمدة خضر مرسينىّ وزُرْق.

وعقد ما بين البابين بالفص المُذْهَب . ومن عتبة الباب الثانى منهما إلىٰ العمد سبعة أذرع وثلثان وهو الحامل للسقف البَسط. (١٠٤)

ومن واجهة العمد للشباك الحديد أحد عشر ذراعا. ومن باطن الشباك الحديد إلىٰ الدرابزين الخشب الساتر للصخرة أربعة أذرع وربع. ومن حدّ هذا الباب الشرقىّ، علىٰ يَسرة الداخل منه طالبا للقبلة علىٰ مسافة تسعة أذرع، عمودان مرسينىّ أخضر. بأعلاهما دُقَيْسىّ مُذْهَب يطلع من باطنه إلىٰ ظهر سقف الصخرة والقبة.

الباب الشمالى المسمى باب الجنة

وأما الباب الشمالى ويسمّى باب الجنة فله خرجة كالتى فى الباب الشرقىّ وصفتِها وحليتِها.

وفيما بين العمودين اللذين أمام الباب ـ داخل درابزين خشب مذهب به محراب لطيفٌ ـ إشارةٌ علىٰ الرخامة السوداء التى يصلى الناس عندها. وفُقِدت هذه الرخامة من مدّة زمانية، وعمل مكانَها رخامةٌ خضراء. والناس يصلون ويدعون عندها.

الباب الغربى

وأما الباب الغربى فله خرجة كالبابين الشرقىّ والشمالىّ.

وسعة ما بين تثامين الصخرة من داخل مثل الباب الشمالىّ خلا السعة من الشباك الحديد لدرابزين الصخرة فإنه ستة أذرع وثلثا ذراع.

هذا ما يتعلق بصفة الصخرة والبناء المثمن المحيط بها.

الصحن ومساحته

وأما الصحن المحيط بها، فجميعه مفروش بالبلاط الجليل المصقول.

وذرعه من القبلة للشمال مائتا ذراع وتسعة وعشرون ذراعا؛ ومن الشرق للغرب مائتا ذراع وثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع.

وذرع ما بين الرواق الذى قبلىّ الباب القبلىّ من أبواب الصخرة إلىٰ رأس السلالم الموصلة للجامع، ثلاثة وخمسون ذراعا، ومن رأس السلالم إلىٰ عتبة الجامع مائة وخمسون ذراعا ونصف وربع.

وبأعلىٰ هذه السلالم أربع قناطر محمولة علىٰ ثلاثة أعمدة وركنين من البناء: منها عمودان صوّان أحمر، والوسطانى رخام أبيض فيه نقر مربع.

ذكروا فى التواريخ أن الدعاء عنده مستجاب.

وشرقىّ هذه القناطر علىٰ مسافة[1] أربعين ذراعا قناطر مثلها. أعمدتها آثنان أخضر مرسينىّ. وفيما بين هاتين القنطرتين فى سُفل الحَرَم صُفَّةٌ كبيرة تسمّى صفة السَّبْع دَرَج. يقال إنها مأوىٰ الصالحين والسُّيَّاح فى الليل، وعليها يتركعون. (١٠٥)

وبجانب القنطرة المذكورة أولا، مدهونٌ صورةُ محرابٍ، بخدّيه عمودا رخام لطاف. وفى ركنها الغربىّ قبتان من رخام، واحدة تعلو الأخرىٰ: كل منهما قطعة واحدة، تسمّى قبة الميزان، محمولة علىٰ آثنى عشر عمودا من الرخام "الشحم واللحم" بقواعد "شمعية". والقبة التى عليها كمثل آرتفاع القبة المذكورة بكمالها: ثمانية أذرع وثلثان. وآرتفاع العمد السُّفلى ذراعان وسدس، وآرتفاع العمد الفوقانى ذراع ونصف وربع. وتعرف أيضا بقبة النجو.

قبة الميزان

قبة النجو

المدرسة المعظمية

وبالقرنة القبلية من جهة غربىّ الصحن موضع يعرف بالمدرسة المعظمية، طولها من ظاهرها أربعة وثلاثون ذراعا، وعرضها من القبلة للشمال سبعة أذرع. لها بابان يُفتحان للشمال، بخدّهما ثلاثة أعمدة من الرخام، كل عمود به أربعةٌ فى جسدٍ واحد،

(١) فى الاصل: مساحة.

ملفوفة "مشعبنة". وتلوُ ذلك عمودان لطاف. وآرتفاع بنائها تسعة أذرع من أرض صحن الصخرة .

ويُدْخَل من البابين المذكورين لرواقٍ طوله ثمانية عشر ذراعا ونصف فى عرض ستة، بسقف شامىّ مذهب ثلاثة عشر مربعا. بصدره القبلىّ ثلاثُ طاقاتٍ مطلةٌ على الحَرَم وأبواب الجامع .

وبالجهة الغربية منه قبةٌ معقودة . بكل جهة من جهاتها القبليّة والشمالية والغربية ثلاث طاقات . ولجهتها الغربيّة باب للدخول إليها من الرواق المذكور، وطاقة تطلّ على الرواق المذكور .

قبة الملك المعظم

وبالجهة الشرقية من الرواق المذكور قبة ألطف من هذه . سكنُ الإمام، وقيِّم المكان، وحاصلُ الزيت .

الإمام والطلبة أحناف بهذه المدرسة

(١٠٦)

ورتب الملك المعظم لها إماما مفردا يصلى الصلوات الخمس . ورتّب بها خمسة وعشرين نفرا من طلبة النحو وشيخا لهم ، وشرط أن يكونوا حنفية من جملة طلبة مدرسته التى خارج الحرم. ووقف على ذلك قرية تسمّى بيت لقيا، من عمل القدس الشريف . وعلى سقفها مكتوبٌ أنه آهتمّ بعمارة ذلك فى سنة ثمان وستمائة.

القرية الموقوفة عليها

وأمام الشبابيك الشماليّة التى بالقبة الغربيّة من هذا الرواق ، على تقدير خمسة أذرع ، مَمْشاةٌ معقودة عدّتها سبع عشرة درجة، عرض كل درجة ذراع، يُتوصل منهن إلى سفل الحرم.

مزولة المدرسة

وأمام القبة الشرقية من هذا الرواق صُفّةٌ عليها رخامة منقوشة مِزْوَلة لإخراج ساعات النهار ، طولها من الشرق للغرب ذراعان وثلثان ، وعرضها ذراع وثلث ، وارتفاعها ذراع ونصف.



قبة للمتصدرين بالحرم القدسى

ويقابل هذه المدرسة فى القُرنة الشرقية من هذا الصحن قبةٌ لطيفة مكسوّة من ظاهرها بالبياض، خلوةٌ لبعض المتصدّرين بالحَرَم الشريف، يفتح بابها للشمال . وثمة جهاتها الثلاث بكل منهنّ طاقة مطلة على الحرم.

وفى حائطى هذا الصحن الغربية والشمالية مسطبتان تعلو إحداهما قبة من جهة الغرب والأخرىٰ فى الشمال سقفٌ على عمودين رخام، يصلى عليها المبلّغون فى الصلوات الخمس .

وذرع ما بين عتبة الباب الشرقىّ إلى حد الدرج، نهايةَ صحن الصخرة المبلط من جهة الشرق، ستة وسبعون ذراعا .

خلوتان للفقراء

وبأعلى هذا الدرج خمس قناطر معقودة على أربعة أعمدة وساريتين، بجذهنّ القبلىّ والشمالىّ خلوتان للفقراء المجاورين بالحرم. وآرتفاع عقد هذه القناطر عشرة أذرع، أسوةَ آرتفاع القناطر التى على سائر السلالم . وبقى ثلاث قناطر منهنّ مفتوحة، يُخرج منهن إلى هذه الدرج المسماة بدرج البُراق. وعدتهن ست وثلاثون درجة.

درج البراق

وذرع ما بين أول درجة من هذا الدرج إلى حد السور الشرقىّ مائة وستة وخمسون ذراعا وثلث .

وذرع ما بين الباب الشرقىّ البرّانىّ وقبة السلسلة خمسة أذرع ونصف وربع .

أعمدة القبة

(١٠٧)

وهذه القبة محمولة على آثنى عشر عمودا أخضر مرسينىّ و"شحم ولحم". طول كل عمود، خارجا عن قواعده، ثلاثة أذرع وثلث وربع وثمن؛ وآرتفاع سقفها البسط الملبس بالرصاص ثمانية أذرع .

جميع ما بين الأعمدة محروق . وما بين العمود والعمود مُتَّكَاَيَةٌ من الحجر الصوّان المنحوت المجلىّ، تقدير شبر لاغير . طول كل قطعة من هؤلاء أربعة أذرع ونصف . وعرض مابين عمودى المحراب خمسة أذرع مسدود بالرخام الملوّن. بحذى المحراب عمودان رخام أبيض. وبأعلىٰ هذه الأعمدة قناطر ملبسة بالفص المذهب والأخضر المختلف الألوان. آرتفاع القناطر ذراعان وربع، وسعتها من المحراب لآخرها ثمانية عشر ذراعا . وبباطن هذه القبة قبة محمولة علىٰ ستة أعمدة أخضر مرسينىّ و"شحم ولحم". مابين العمود والعمود أربعة أذرع سعتها ثمانية أذرع ونصف. بأعلىٰ الأعمدة قناطر ملبسة بالفص، طول أربعة أذرع ونصف. والقبة الخشب من أعلىٰ ذلك .

السلسلة المعلقة بين السماء والأرض

روىٰ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد المقدسىّ الخطيب ، بسنده إلىٰ أبى مالك بن ثعلبة ، قال : سمعتُ إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله يحدّث عن أبيه عن جدّه (يرفعه) "أن سليمان بن داود جعل سلسلة معلّقة من السماء إلىٰ الأرض ليتبيَّن المحقُّ من المبطل ، فالمحق ينالها والمبطل لاينالها ، وأن يهوديا آستُودِع مائة دينارٍ بجحدها . فجاؤوا إلىٰ السلسلة ـ وقد سبك اليهودىُّ الذهبَ فى عصًا ـ وناولها صاحب المال وحلف : لقد أعطيته دنانيره . وحلف الآخر أنه لم يأخذ . فآرتفعت السلسلة من ذلك اليوم".

ويقال إن السلسلة كانت موضع القبة المذكورة . والله تعالىٰ أعلم .

(١٠٨) وذرع مابين الباب الشمالىّ من أبواب الصخرة (المسمى بباب الجنة) إلىٰ منتهىٰ الصحن المحيط بها إلىٰ القناطر الثلاث المعقودة علىٰ عمودين رخام وساريتين[1] مائة وثمانية أذرع .

(١) بالأصل : سارتين .

المشاة الموصلة للحرم

ويُنزل من هـذه القناطر فى ثمان درج إلىٰ الحرم الشريف . وأمام الدرج مَمْشاةٌ مستطيلة مفروشة بالبلاط ، عرضها خمسة أذرع وربع وينتهى متشاملا إلىٰ باب الحَرَم المعروف بباب شرف الأنبياء ؛ وطول هذه المشاة مائة ذراع وثمانية وسبعون ذراعا . وسيأتى (إن شاء الله) ذكر هذا الباب عند ذكر أبواب الحرم .

وعن يمين الداخل من هذه القناطر ويسراه فى منتهىٰ شمالىّ الصحن مسطبتان . طول كلّ منهما ثمانية أذرع ونصف ، من الشرق إلىٰ الغرب ، وعرضها من القبلة للشمال ذراعان وثلثا ذراع . يصلى الناس عليهما .

ومن هذا الباب الشمالىّ علىٰ مسافة آثنين وأربعين ذراعا طالبا للغرب عمل مسطبة آرتفاعها عن الصحن المبلط ثلث ذراع ، وطولها من الشرق للغرب ثلاثة عشر ذراعا وثلث ، وعرضها من القبلة للشمال عشرة أذرع . بُنى عليها قبةٌ مثمنة ، تسمّى قبة المعراج . بابها يفتح للشمال ، سعته ذراع وثلث ، وطوله ذراعان وثلث . بظاهر القبة المذكورة حاملا لأركانه من الأعمدة الرخام الأبيض ثلاثون عمودا . طول كل عمود ، خارجا عن القواعد ، ذراعان وثلثا ذراع .

قبة المعراج

والتثمينة التى بين الأعمدة ملبسةٌ ألواح رخام ملكىٍّ مشجرةٍ بأزرق . يُصعد إلىٰ بابها بثلاث درج رُخام . ثم ينزل إلىٰ داخلها بمثلهنّ .

أرضها مفروشة بالرخام الأبيض ، وحيطانها من داخل كذلك ، مثل الظاهر . باطنها من الأعمدة أيضا ثمانية عشر عمودا . وبأعلىٰ الرخام المذكور طاقات نصاص شبه الجبس "المكندج" ثلاثة ، وزجاج أربعة . وبأعلىٰ الطاقات كرسىّ القبة . وعرضها من الشرق للغرب سبعة أذرع ، ومن القبلة للشمال ستة أذرع وربع . سَعة محرابها ذراعٌ وثلثا ذراع ؛ وهو بأوّل المسطبة لجهة القبلة . والباب والسلالم بآخرها لجهة الشمال . وثمّة المسطبة يصلى عليها الناس .

ومن قطب القبة لأرضها ارتفاعُ ستة عشر ذراعا . وبظاهرها فى أعلاها قبة لطيفة مكانَ الهلال، محمولة على ستة أعمدة صغار رخام شمعية، طول كل واحد منها تقدير ذراع . (١٠٩)

وذرع ما بين الباب الغربىّ إلى رأس القناطر التى أمامه بآخر صحن الصخرة من جهة الغرب ثمانية عشر ذراعا وثلثا ذراع . وهى أربع قناطر معقودة على ثلاثة أعمدة مُكتَّبة بالأزرق وساريتين[1] . وينزل من هذه القناطر بأربع وعشرين درجة إلى الحرم . ومن حدّ هذه الدرج إلى السور[2] الغربىّ (وهو الذى فيه الباب الجديد المعروف الآن بباب القيسارية ، وفيه باب الميضأة وسائر الأبواب الغربية الآتى ذكرها إن شاء الله عند ذكر أبواب الحرم) خمسةٌ وثمانون ذراعا وثلث ذراع .

الآبار والصهاريج بصحن الحرم

وبظاهر هذا الصحن من الصهاريج المركب على[3] فُوَّهَة كل منهن خرزةُ رخام أو حجر منحوت سبعة ، لهن تسعة أبواب . منها بالجهة القبلية بئر يعرف بالرُّمَّانة له بابان : هذا الباب الذى بالصحن ، وباب بسُفل الحرم أمام الجامع ، وبالجهة الشرقية بئران ، يعرف أحدهما بالشوك ، ويعرف الآخر بئر[4] الورد ، له بابان جميعهما من صحن الصخرة الشريفة . وبالجهة الشمالية بئر يعرف بباب الجنة . وبالجهة الغربية ثلاث آبار : إحداها يُعرف بالكاس لأن على فُوَّهَته كأس رخام طويل ، والآخر له بابان من الصحن ، والآخر بفرد فَمٍ .

(١) بالأصل : وسارتين .

(٢) بالأصل : الصور .

(٣) بالأصل : من فم الصهاريج . ولا يستقيم الكلام فى رأينا إلا بإهمال لفظة فم واعتبارها زائدة .

(٤) فى الأصل : تذكير البئر فى مواضع ونص اللغويون على تأنيثها .

وإذ ذكرنا ما فى هذا الصحن من الصهاريج ، فلنذكر ما فى سُفل الحرم من الصهاريج ، فنقول :

الصهاريج فى سفل الحرم المقدسى

فى سُفل الحرم من الصهاريج خمسة عشر صهريجا .

بالجهة القبلية ستة : بالقرب من الزاوية الفخرية واحد ، وبباب الجامع واحد ، وداخلَ باب الجامع الشرقىّ واحد ، ويسمى ببئر الورقة ، وله بابان أحدهما هذا الذى داخل باب الجامع ، والآخر فى مكان يعمل فيه نجارة[1] الحرم ، والبئر الأسود ، وله ثلاثة أبواب : أحدها يُنزل إليه بدرج ، وبئر يعرف بالبحيرة ، له بابان ، وبئر فى الحاكورة التى عند الباب الشرقىّ ، وله بابان : واحد فى الحاكورة ، وباب خارج عنها . (١١٠)

وبالجهة الشرقية ثلاثة آبار : منها بالقرب من باب الرحمة واحدٌ ، له بابان .

وبالجهة الشمالية ثلاثة آبار : بئر بركة بنى إسرائيل ، وبئر بباب شرف الأنبياء ، وبئر بالرواق الحامل للزاوية المعروفة باللاوى وخانقاه الإسعردىّ .

وبالجهة الغربية ثلاثة : أحدها بباب الغوانمة ، والآخر عند باب الرباط المنصورىّ ، وله بابان : بابٌ فى الحاكورة ، وبابٌ خارج عنها ، يعرف بابن عروة ، وبئر عند الباب الحديد مغطًّى بحصر[2] الأروقة .

وهذه الآبار الاثنان والعشرون معمرة بالمياه .

وهناك أيضا غيرها ثلاثة صهاريج خربة معطلة . واحد عند دَرج الميزان ، والثانى عند محراب عمر ، والثالث تحت الزيتون بالجهة الشرقية من الحرم .

(١) ليس فى الاصل نقطٌ . فنقطنا الكلمة ولا نضمن أنها مطابقة لما أراد المؤلف ، ويجوز أن تكون بحارة .

(٢) يظهر أن هذه الكلمة مضروب عليها فى الأصل ولكن بكيفية توجب الشك .

وقد آستوعبنا الآن صفة صحن الصخرة وما آشتمل عليه.

فلنذكر ما بباطن الحرم من المساجد والمزارات والأبنية وغير ذلك.

ونبتدئ أوّلا بذكر السور(1) المحيط بذلك جميعه.

صفة السور القبلي وما صاقبه من المساجد وغيرها

السور القبلي ومساطبه ومحاريبه

وأول هذا السور من جهة الغرب مسطبةٌ طولُها من المحراب للشمال ستة أذرع وعرضها ستة ونصف. وبصدرها محرابٌ. ويتلوها من جهة شرقها بابُ الزاوية الفخرية، ويتلو بابَ الزاوية الفخرية من الشرق صُفّةٌ عشرةَ أذرع وربع، وعرضها ثلاثة ونصف. ويتلو هذه المسطبة باب جامع المغاربة. وطول جامع المغاربة من محرابه لرأس دهليزه أحد وثلاثون ذراعا ونصف، وعرضه أحد عشر ذراعا ونصف. ومحرابه لطيفٌ، مركب على عمودين رخام لطاف. ومن ظاهر حائط هذا المحراب إلى حائط جامع النساء خَرجةٌ فى الزاوية الفخرية التى إلى جانبه، وطول دهليزه أحد عشر ذراعا وثلثا ذراع، وعرضه أربعة أذرع وثلثا ذراع.



وفى باطن سوره الشرقىّ مسطبة لطيفةٌ، عرضها ذراع ونصف، وطولها ثمانية أذرع ونصف وربع وثمن.

خزائن القناديل والحوائج

وفى ثخانة السور خزائن لطاف للقناديل وحوائج القَوَمة به. وله باب واحد يُفتح للشمال، سَعَتُه أربعة أذرع وآرتفاعه خمسة أذرع.

(١) بالأصل: الصور

جامع المغاربة وجامع النساء

وقولنا جامع المغاربة، لغلبة هذا الآسم على ألسنة الجمهور. ولو قلنا مسجد المغاربة، لما علم الجمهور بالقدس. وكذلك جامع النساء. كل ذلك ليس بجوامع تقام فيها خطبة. وإنما لكل منها إمامٌ مفرد، يصلى فيه الصلوات الخمس لاغير.

ويتلو جامع المغاربة فَضوةٌ كبيرة يتلوها جامع النساء. وطوله من الشرق للغرب آثنان وستون ذراعا ونصف ذراع، وعرضه(1) من القبلة للشمال آثنان وعشرون ذراعا وثلثا ذراع، وهو(1) رواقان سقفهما آثنا عشر عقدا: كل رواق ستة عقود محمولة فى الوسط على ست عضائد. وبصدره من الشبابيك خمسة: عرض الشباك الأول منها ذراعان ونصف، وعمقه فى السور ثلاثة أذرع، وهو عرض السور جميعه فى هذه البقعة، وآرتفاعه ثلاثة أذرع وثلثا ذراع. وثمة الشبابيك دون هذا المقدار.

وبحائطه الغربىّ شباكٌ مطلّ على حارة المغاربة.

وباب هذا الجامع يُفتح للشمال. وبكل خد أربعة أعمدة رخام أبيض فى جسد واحد. طولها خارجا عن القواعد ذراعان إلا ربعا. وأمامه شجرتان عظيمتان من الجوز، تحتهما مسطبة يصلى الناس عليها.

ويدخل من الباب المذكور وينزل بخمس درج إلى الأروقة المذكورة. ومن باب جامع النساء على مُضِىّ سبعة وعشرين ذراعا من جهة الشرق، البابُ الغربى من أبواب الجامع المسمّى الآن بالمسجد الأقصى.

(١) فى الأصل: وعرضها ... وهى. [والسياق يدل على أن المراد مساحة ذلك الجامع. لذلك آستعملنا الضميرين المذكرين].



صفة السور الشرقى

السور الشرقى (وفيه مهد عيسى)

تقدّم أن فى قُرنة السور القبلىّ مهدَ عيسى، عليه السلام. وشماليّه رواق معقود على ستة عقود قد خربت مساطبه من العمائر القديمة. وبعض أرضه مبسوطة بالفص. طوله ثلاثة وأربعون ذراعا، ومن جانبه للقبلة كشفٌ إلى حدّ مهد عيسى.

مسجد باب الرحمة

وشمالىّ هذا الرواق، على مضىّ ثلثمائة ذراع، مسجد باب الرحمة. وطوله من الشرق للغرب ثلاثون ذراعا، وعرضه قبلةً(1) وشمالا(2) أربعة عشر ذراعا ونصف. وسعة محرابه ثلاثة أذرع وربع. يصلى فيه إمام مفرد. وهو معقود بالحجر المنحوت ستّ قباب: اثنتان مرتفعتان، وأربعة منبسطة على عمودين صوّان بيض فى الوسط وساريتين فى وسطه طول كل عمود أحد عشر ذراعا ودورته أربعة أذرع ونصف. وهذا المسجد متخذ باطن البابين المسميين بباب الرحمة.

باب الرحمة

وهما بابان قديمان قد سُدَّا. على كل منهما مصراعان من خشب مصفح من خارج بالحديد. طول كل منهما أحد عشر ذراعا، وعرضه ستة ونصف. وخلف كل منهما بابان بالصفة المذكورة إلا أنهما مصفحان بالنحاس الأصفر المنقوش. قد سُمّرا وأُحكم غلقهما. قيل إنهما من بقايا العمائر السليمانية. سُمّيا بأبواب الرحمة.

ومنتهى السور الشرقىّ رواقٌ طوله من القبلة للشمال ستة عشر ذراعا ونصف، ومن الشرق للغرب سبعة أذرع وثلث، ويعقبه فى أول السور الشمالىّ باب أسباط. وسيأتى ذكره، إن شاء الله.

(1) بالاصل : وعرضها.
(2) بالاصل : وشمال.

وليس فى هذا السور الشرقىّ الآن بابٌ يُسلك منه للحرم الشريف. ولم يكن له فى الزمن القديم سوى البابين المذكورين.

ويقال إن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غلقهما لما فتح القدس. فلم يفتحا إلى الآن.

المقبرة خارج هذا السور

وقد اتخذ الناس ظاهرَ هذا السور مقبرة يدفنون فيها موتاهم. وفيها قبر شدّاد بن اوس.



وادى جهنم وما فيه من عجائب المبانى والآثار والنقوش والمعابد القديمة

وتلو المقبرة المذكورة وادٍ عميقٌ يعرف بوادى جهنم، يزرع. وفيه كروم وبساتين. ومنه يُتطرق إلى عين[ماء]. وفيه أبنية عجيبة وآثار غريبة ونقوش ومعابد قديمة. وهو وقف على المدرسة الصلاحية. وحدّ هذا الوادى من الشرق طُورزَيْتا الذى يقال إن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام منه. وبه قبر رابعةَ العدوية، يُزار قصدًا. وفيما بين السور الشرقىّ وصحن الصخرة الشريفة أشجار من الزيتون والميس والتوت والتين. تقدير عدّتها مائة شجرة، يستظلّ الناس تحتها ويصلون.

قال الصاحب تاج الدين أحمد بن أمين الملك:

وصف الفصول الاربعة بالحرم المقدسىّ

"ولقد مضى علىّ فى مجاورة هذا الحرم الشريف الفصولُ الأربعُ، فرأيتُ له فى كل فصل محاسنَ فى غيره لم تُجمع، وهو أنه من مبدإ فصل الربيع تبدو فيه من الأزاهر المختلفة الألوان ما يستوقف بحسنه لُبَّ الذكىّ الأروع. وكلُّ أحد ممن له معرفة بالأعشاب يأتى إليه، ويأخذ من تلك الأزاهر ما علم منفعته ومضرّته".

قال": وأما ماشاهدته بالعيان، أنى جلست وقتا فى بقعة منه تكللت بأزاهرَ من الشقائق والبَهار والأُقْحُوان، وإلى جانبى فقير عليه أطمارٌ رثّةٌ يبدى تبسّمًا، وتارة يعلن صوته

بالتسبيح والتكبير ترنّما، ويقول: سبحان من جمع فيك المحاسن وكساك هذه الحلل الفاخره، وجعلك تحتوى على كنوز الدنيا والآخره! فقلت له يا سيدى! أما فضله وبركته، فقد صدّق العيانُ فيها الخبر، وقام بها الدليل والبرهان وتواتر بها الأثر، لكن ما كنوز الدنيا؟ فقال: ما مِن زهرة تراها إلا ولها فى النفع والضر خواصّ، يعرفها أهل الاختصاص! فقلتُ: لعلّ تُظهر للعيان شيئا مما عرفتَ يزداد به اليقين تبصره، وتكون هذه الجلسة معك عن صبح النجاح مسفره. فأخذ بيدى ومشّى خُطُواتٍ إلى جهة من جهات الحرم. ومدّ يده أخذ قبضة من ذلك الكلإ، وقال: هل معك خاتم أو درهم؟ فقلت نعم. فأخرجتُ درهما مما معى. فعركه بذلك الكلإ، (١١٥) فعاد كالدينار فى صفرته. ثم أخذ حشيشة أخرى، وعركه بها. فعاد أبيض، أنقى مما كان أولا. وقال: هذه رموز احتوت على تلك الكنوز. ولم يترك نبىّ الله سليمان شيئا من المواهب التى منحه الله إياها، والمنافع التى وصلت إليه من الإنس والجنّ على اختلاف صورها ومعناها، إلا وأودعه فى هذا الحرم. فأين من يفهم تلك المعانى، أو مَن كان لها يُعانى؟ ثم أخذ منهجا غير ما كنت أسلكه. فسألته التثبت والتلبث. فقال: الدنىء مَن صرف نظره إلى العَرَض الأدنى، والسرىُّ مَن صرف زمانه بالتهجد فى هذا المغنى. أُوصيك أن تغتنم الفرصة فى ركعات تقدّمها بين يديك، فما سواها فان، ولا تلتفت إلا إلى ما يقربك من الرحمن. فقلت: يا سيدى! ومثلك مَن يفتح لى أبواب الصواب. فقال: ما بعد السنّة والكتاب من باب. ثم فارقنى مهرولا، معلنا بصوته ومرتلا. يقول: سبحانك يا دائم! سبحانك يا قُدّوس! سبحانك يا رحمن! سبحانك يا محيى النفوس! فجعلتُ هذا الذكر لى ديدنا، وكلما اشتاقت له منّى عينٌ أطربتُ بذكره أذنا.

صفة السور الشمالىّ وفيه عِدّة أبواب

باب أسباط

أولها من جهة الشرق بابٌ يسمّى باب أسباط. وهو تلو الرواق المقدم ذكره الذى هو نهاية السور الشرقىّ. وارتفاع هذا الباب خمسة أذرع، وعرضه ثلاثة أذرع ونصف وربع وثمن ذراع.

ويعقب هذا الباب من غربه، رواقٌ معقود على عشر سوارٍ. طوله اثنان وسبعون ذراعا، وعرضه ثمانية أذرع. بصدره أربعة شبابيك مُطلّة على بركة بنى إسرائيل. وهى بركة قديمة عميقة.

ويعقب هذا الرواق ساحةٌ، وهى أرضٌ كشفٌ ببعضها مصبٌّ مياه لبركة بنى (١١٦) إسرائيل. وبعضها كشفٌ، قُصد أن يُبنى به أروقةٌ. وإلى الآن لم تُكمل. وطولها أربعة وسبعون ذراعا.

المدرسة الكريمية

ويعقب هذه الأرضَ المدرسةُ الكريمية. وجاورت(1) ما أمامها من الأروقة بحائطين: غربية وشرقية. وجعلوا مَصيفَين قدّامها. وطول هذه المدرسة من الشرق للغرب خمسة وعشرون ذراعا. وجُعل قدّامَ هذه الأروقة مسطبةٌ يُصعد إليها بأربع دَرَج بارزة فى الحرم، طولها من القبلة للشمال ستة عشر ذراعا. وهذه المدرسة بناها كريم الدين عبد الكريم، ناظر الخواص الشريفة السلطانية الناصرية. ويعقب هذه المدرسة بابٌ، يسمّى باب حِطّة. عرضه أربعة أذرع وثلثا ذراع، وارتفاعه ثمانية أذرع. أمامه ممشاة

(1) فى الاصل: وجارت.

مفروشة بالبلاط، طولها مائة وثمانية وسبعون ذراعا، وعرضها خمسة أذرع وكَسْرٌ يُصعد من آخره(١) بدرج إلى ثلاث قناطر معقودة على عمودين رخام وساريتين، يُدخل منهن إلى صحن الصخرة.

وبحذى هذا الباب مسطبتان لطيفتان، عرض كل منهما ذراعان: الشرقية منهما لصيقةٌ لمدرسة الكريمية المذكورة، وتلوَ الغربية رواق، طوله اثنان وسبعون ذراعا فى العرض المذكور.

وفى سوره ثلاثة شبابيك للرباط العَلَمى الدواداري. وبأوله من الشرق بالقرب شباكٌ للتربة الأوحدية، من بنى أيوب.

باب شرف الأنبياء

ثم يتلو هذا الرواق بابٌ يعرف بباب شرف الأنبياء. طوله ثمانية أذرع وعرضه أربعة. وأمامه ممشاة نظير الممشاة المذكورة. وقد تقدم ذكر هذه أيضا.

ويتلو هذا الباب رواقٌ طوله سبعة وأربعون ذراعا، وعرضه سبعة أذرع ونصف، معقودٌ على ثمان سَوَارٍ. بأوله شباكان، أحدهما مفتوحٌ يُتوصل منه إلى زاوية الصاحب أمين الدين، المعروف بأمين الملك. وتلوهما بابٌ يُصعد من باطنه إلى زاوية اللاوى. وتلو الباب مسطبةٌ، فيها صهريجٌ. (٢٢٧)

ويعقب هذا الرواق من الغرب رواقٌ معقود عقدين على ثلاث سوارٍ، طوله تسعة عشر ذراعا ونصف، وعرضه من الشمال للقبلة تسعة أذرع. ويُصلى به الآن بعضُ النسوة، الصلواتِ الخمسَ، خلفَ الأئمة.

(١) لعله من آخره أو من آخرها [ليستقيم بناء الكلام].

مدرسة آل ملك وخانقاه الاسعردى

وبأعلاه مدرسة الأمير سيف الدين الحاجّ آل مَلَك الجوكندار، وخانقاه مجد الدين الإسعردى التاجر. وبأوله جوارَ الصهريج المذكور، سُلَّمٌ يُصعد منه إلى المدرسة والخانقاه المذكورتين.

ويعقب هذا الرواق كشفٌ ليس به أروقة. وهو صورة مسطبة عالية. ويُنزل من وسطها بست درج إلى الحرم.

مدرسة الجاولى

وبأقصى ارتفاع هذا السور خمسة شبابيك لمدرسة الأمير علم الدين سنجر الجاولى، رحمه الله. وليس لها استطراق إلى الحرم. ومن حد هذا الكشف، طالبا لجهة الغرب، خلوتان. لكل منهما بابٌ يُفتح للجهة القبلية من الحرم. وداخلهما كله فى باطن السور الشمالى. وهى من جبل صخرٍ أصمَّ، صفة مغارةٍ. وقيل يعرف قديما بمغارة إبراهيم. وفى الشرقية منهما شباك لطيف. وإلى جانب هاتين الخلوتين، خلوة لشيخ الحرم. وبها شباكان على الحرم الشريف. وطولها ستة عشر ذراعا. وأمامها مسطبة فى الطول المذكور، وعرضها أربعة أذرع وثلث. وبأعلى هذه الخلوة، خلوة يُصعد إليها بسلَّم، بسبع درج فى حد الباب الذى يفتح للشرق.

ويتلو ذلك رواق على عقدين طوله من الغرب طالبا للشرق خمسة عشر ذراعا وعرضه تسعة ونصف. وتلوه سُلَّم مستطيل جدا، يصعد من أعلاه إلى مأذنة، وإلى دارٍ هناك لبنى جماعة. وهذه المأذنة هى أقصى السور الغربى، وارتفاعها ثلاثة وخمسون ذراعا. وبأعلاها درابزينات خشب منقوشة. وهى مكللة من العمد الرخام اللطاف (٢٢٨) بأحد وثلاثين عمودا.

صفة السور الغربىّ

السور الغربىّ

ويشتمل على سبعة أبواب بما فيه من باب الطهارة، فإنه الآن غير نافذ. وامام كل باب شجرة كبيرة من الميس أو التوت، وتحتها مسطبة يصلىّ الناس عليها، ويستظلون، خلا باب الغوانمة، فليس قدامه شئ.

ومبدأ السور من المأذنة المذكورة.

أبوابه

وأول أبوابه من هذه الجهة، باب الغوانمة. وطوله أربعة أذرع، وعرضه ثلاثة أذرع. يُصعَد إليه من الحرم الشريف بعشر درج. وبحذه الشمالى خلوة للبوّاب، بارزةٌ فى الحرم تقديرَ خمسة أذرع. ومن حد هذه الخلوة إلى المأذنة المذكورة خمسة وثلاثون ذراعا. ومن الباب المذكور ـ على مضىّ ثمانية عشر ذراعا طالبا للقبلة ـ بابٌ لطيفٌ لخلوة فى باطن عرض السور لبعض الفقراء المجاورين. ومن حد هذه الخلوة إلى نهاية أربعة وعشرين ذراعا حاكورةٌ بها أشجار وكروم تحت دار وقفها علاء الدين الأعمى.

آثار علاء الدين الأعمى ناظر الحرم

وكان هذا الرجل من نظار الحرم المتقدمين، وله تأثيرات حسنة فى الحرم من المواعيد والأبنية.

وطول الحاكورة طالبا للشمال خمسةٌ وأربعون ذراعا، فى عرض سبعة أذرع وكسر. ومن نهاية الحاكورة إلى أقصى السور وهو المأذنة المذكورة كشف بلا أروقة.

باب الرباط المنصورى

ولصيقُ هذه الحاكورة من القبلة بابٌ كبير يعرف بباب الرباط المنصورى. طوله ستة وعرضه خمسة ونصف. وأمامه ممشاة يُتوصل بها إلى السلم الذى يتوصل منه إلى صحن الصخرة، قُبالةَ الباب الحديد الآتى ذكره.

وبحذ الباب المذكور إلى جهة الشمال عقد على ساريتين، طوله تسعة أذرع وعرضه عرضُ الحاكورة وسائر الأروقة المتصلة به. وهذا العقد أول العقود فى السور الغربىّ.

مساكن ومجالس وخلوات

وعُمل فى ثخانة الحائط التى فى أوله مع ثخانة السارية خلوةٌ صغيرة للقيّم والبوّاب بالباب المذكور.

(١٢٩)

وتحت هذا العقد يجلس الناظر والمباشرون يومئذ للنظر فى المصالح(١). وتلوُ الباب المذكور عرضُه عرضُ الأروقة، وطوله مائة وثمانية أذرع، معقودٌ على ست عشرة سارية. وعلى تقدير عشرة أذرع من أوله شباكُ القاعة التى هى سكن الناظر على أوقاف الحرم. وهى من وقف الحرم. وفى آخره خلوةٌ لطيفةٌ سكنُ القيّم و برسم القناديل.

باب الحديد

وتلو ذلك البابُ المعروف بالحديد. طوله أربعة أذرع ونصف، وعرضه ذراعان وثلثا ذراع. وأمامه ممشاة مبلطة يُتوصل منها إلى سلم لصحن الصخرة الشريفة. عرضه ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف وعدد درجه إحدى وعشرون درجة. وليس بأعلاه قناطر أسوةَ بقيّة السلالم.

وتلو هذا الباب رواقٌ على ثمان سوارٍ طوله ثمانية وخمسون ذراعا وعرضه عرض سائر الأروقة. وبآخره بابٌ لطيف لخلوةٍ لبعض الفقراء.

* الباب الجديد

ثم يتلو هذا الرواق بابٌ كبيرٌ عُمِل من قريب واستجد فتحه، يُنزل إليه بعشر درجات. له مساطبُ فى خديه. طول كل منها سبعة أذرع وعرضها ذراع وثلثا ذراع.

(١) فى الأصل : مصالح.

قد أُتقِنتْ عمارته . وآرتفاعه ثمانية أذرع وعرضه خمسة أذرع . وعقده بوجهين، منقوش بالحجر الملوّن . وطراز كتابته بالذهب، نُقِر فى الحجر . وأبوابه مصفحة بالنحاس المذهب المخرّم، متقن العمارة والزخرفة . ويُتوصل منه إلىٰ القيسارية المستجدّة . وتشتمل علىٰ صفّىْ حوانيت، بعضها وقفٌ علىٰ الحرم، وبعضها وقفٌ علىٰ المدرسة والخانقاه اللتين أنشأهما الأمير سيف الدين تنكز، رحمه الله، وسيأتى ذكرها عن كَثَب . إن شاء الله !

الخلاوى والطهارات والمساكن (١٢٠)

وإلىٰ جانب هذا الباب رواقٌ معقود علىٰ ساريتين كبار جدّا طوله خمسة عشر ذراعا، وعرضه إلىٰ خارج الساريتين سبعة أذرع وثلثا ذراع وإلىٰ باطنهما خمسة أذرع ونصف . بصدره شباكٌ لقاعةٍ من وقف الحرم . وبجانب الشباك خلوةٌ لطيفةٌ للقيّم والبوّاب . وإلىٰ جانب هذا الرواق بابُ الطهارة . وهو يشتمل علىٰ طهارتين : إحداهما للنساء، والثانية للرجال . وتشتمل طهارة الرجال علىٰ ثلاثة وعشرين بيتا وفسقية كبيرة . وبأعلىٰ طهارة النساء مساكن تُكْرىٰ لوقف الحرم .

باب الطهارة

وباب الطهارة يُنزل إليه من أرض الحرم بأربع درجات . وطول الباب أربعة أذرع وثلثا ذراع، وعرضه ثلاثة وثُمنٌ . وبعده سبع درجات إلىٰ دهليز مستطيل، يُتوصل منه إلىٰ طهارة الرجال وإلىٰ سلم يتوصل منه إلىٰ عُلْو طهارة النساء . وطهارة النساء فى اوائل الدهليز، علىٰ يمين الداخل .

ويتلو باب الطهارة رواقٌ طوله ثلاثة وستون ذراعا، وعرضه سبعة ونصف . معقودٌ علىٰ تسع سوارٍ .

وفيه فى ثخانة السور بابان لخلوتين : إحداهما للقيّم والأخرىٰ برسم فقيرٍ . وفى آخره من جهة القبلة محرابٌ ملاصق للمأذنة، يُصلّى فيه صلاةٌ مفردةٌ بإمامٍ مفردٍ . وتجاوره المأْذنة المختصة بالحرم وآرتفاعها ثمانيةٌ وأربعون ذراعا . وبأعلاها درابزينان من الخشب . وهى مكللة من العمد الرخام اللطاف بثمانية أعمدة .

باب السلسلة (وهو باب السَّحَرة)

ويتلو المأْذنة بابان قد غُلِق الشمالىّ منهما وسُمّر والمأْذنة إلىٰ جانبه . ويسمّى البابُ المفتوح بابَ السلسلة . ويعرف قديما بباب السَّحَرة . سَعته خمسةُ أذرع وثلث، وطوله ثمانية ونصف . وكذلك المُغْلَق(١) . وأمام هذا الباب مَمشاة قلع يتوصل منها إلىٰ سلالم صحن الصخرة بعقدٍ قبالةَ المعظميّة . ذرعها سبعة وسبعون ذراعا وربع . ويتلو الباب رواقٌ معقود علىٰ عشر سوارٍ طوله سبعة وخمسون ذراعا، وعرضه سبعة أذرع وربع، وآرتفاع عقده عشرة أذرع ونصف . وهو نظير آرتفاع سائر سقوف أروقة الحرم .

وهذا الرواق فيه شباكان للمدرسة التنكزية : أبوابهما من الآبنوس والعاج، وداخلهما المدرسة . وظهره حامل للخانقاه التنكزية . وفى آخره باب لطيفٌ يُصعد منه إلىٰ أعلىٰ المدرسة وسكن الصوفية . وفى آخر سواريه ستة أعمدة من صَوّان كبار. (١٢١)

ويتلو هذا الرواق من القبلة مسطبةٌ آرتفاعها ذراع وطولها من الجنوب للشمال ثمانية وثلاثون ذراعا إلا ثُمنا، وعرضها عرض الرواق المذكور .

باب حارة المغاربة

وتقيس من هذه المسطبة ثلاثة وثلاثين ذراعا، تجد باب حارة المغاربة . وسعته ثلاثة أذرع وربع، وطوله أربعة ونصف .

---

(١) فى الأصل : المغلوق .

وتلو الباب المذكور على ثلاثة أذرع مسطبةٌ . وهى نهاية السور الغربى وأول السور القبلى . وهذه المسطبة مجاورة للزاوية الفخرية التى هى أول السور القبلى من جهة الغرب . وقد تقدّم ذكرها .



وإذ قد آستوعبنا صفة السور المحيط، فلنذكر الآن ماوعدنا بذكره مما آشتمل عليه سوى صحن الصخرة.

الخلاوى والحواصل تحت الصخرة

ونبدأ بما هو تحت صحن الصخرة، وعدّته تسع خلاوٍ : أحدها جُعل حاصلا لأصناف الحرم.

فمنها بالجهة القبلية ثلاثةٌ: منهن ماعلى أبوابه مساطب ومُعَرَّشات كَرْم، وفيه أبواب الرواق المعظَّمى التى تحت مدرسته، وهو مصلًّى للحنابلة بإمام مفرد. وبجانبه الشرقى حاصلان يُجعل فيهما زيت الحرم وأصنافه .

وفى الجهة الشرقية من تحت صحن الصخرة أربع خلاوٍ : منها ماعمل قدام أبوابه حاكورةٌ وغُرست أشجارا . والجهة الشمالية خالية من الخلاوى والحواصل .

وبالجهة الغربية خلوتان . إحداهما جُعلت حاصلا لأصناف الحرم. وفيه أبوابُ للرواق المعظمى . وقبالة أبواب الرواق المعظمى من الغرب قُبَّة موسى عليه السلام. وهى أمام باب السلسلة وأمام رواق الحنابلة . بين المسطبة الحاملة لها وبين باب السلسلة ثمانية وعشرون ذراعا . وطول المسطبة من القبلة للشمال أربعة وعشرون ذراعا ، وعرضها من الشرق للغرب أحد وعشرون ذراعا ونصف، وآرتفاعها نصف ذراع . بصدر المسطبة القبلى القبةُ المذكورةُ . طولُها من ظاهرها من القبلة إلى الشمال



عشرة اذرع ، وعرضها من الشرق للغرب مثل ذلك . وآرتفاع كرسى القبة من ظاهر المسطبة ثمانية أذرع . تشتمل هذه القبة من باطنها على أرض مفروشة بالرخام .

بابها يفتح للشمال . عرضه ذراع ونصف ، وطوله ذراعان وثلثان . وبحذيه شُبَّاكا حديد فى طول الباب وعرضه . وبكل جهة من جهاتها شُبَّاكا حديد. يُغلق على كل شباكٍ ، زوجُ أبواب . وهى محمولة على الأركان . وبين كل حائط وأخيه قوسُ عقد. وبأعلى كرسى القبة كرسىٌّ ثانٍ ، فيه خمسُ طاقات زجاج . وبأعلى الكرسى الثانى القبةُ المعقودة . تقدير آرتفاعها من ظهر الكرسى الثانى ثمانية أذرع . وليس فيها عمد رخام بالجملة الكافية ، حتّى ولا فى خذى المحراب .

صفة قبة سليمان عليه السلام

قبة سليمان

وهذه القبة بالجانب الشمالى من الحرم . وهى مسامتة للصهريج والسُّلَّم الذى يُصعَد منه إلى الخانقاه الإسعردية والمدرسة السيفية آل مَلَك .

ومن واجهة الصهريج إلى باب القبة ثمانية وأربعون ذراعا . وهو يُفتح للشمال . طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع وثُمُن . بحذيه عمودا رخام ومسطبتان : يمنى ويسرى . طول كل منهما خمسة أذرع وربع ، وعرضهما مثل ذلك .

وبحذى الباب المذكور شباكان مطلان على هاتين المسطبتين . طول كل شباك منهما ذراعان وثلثا ذراع ، وعرضه ذراع وثلثان .

يُدخل من هذا الباب إلى قبة مثمَّنة . وثمة التثمينات مسدودةٌ . بها أربعة وعشرون عمودا من الرخام طول كل عمود ـ خارجا عن القواعد ـ ذراعان ونصف . فى كل تثمينة

من المسدودات أربعة أعمدة حاملة للرخامة التى فى عقد القناطر . وبحذِّى المحراب عمودان لطيفان طول كل منهما ذراع ونصف . (١٣٣)

وفى نهاية العمد ـ عند نهاية كرسىّ القبة ـ طاقاتُ زجاج بدائرها . سَعة القبة ستة أذرع ونصف ، وآرتفاعها من قطب القبة للأرض عشرون ذراعا .

صخرة سليمان

وعلىٰ يَمْنة المصلى فى المحراب صخرةٌ صغيرة طولها ذراعان و ربع ، وعرضها من الجهة القبليـة ذراع ، ومن الشَّمالية ثلثا ذراع . يدعو الزوّارُ عندها . ويقال إنها من الآثار السليمانية ، وإن الدعاء عندها مستجابٌ .

وفى حائط هذه القبة القبلىّ ، من خارجٍ ، عمودان من الرخام . وبهما تكمّل مابهذه القبة من الأعمدة ثلاثين عمودا .

صفة المجلس الذى بناه سليمان عليه السلام
ويسمّى الآن إصطبل سليمان

إصطبل سليمان

قال الصاحب تاج الدين : هـذا المجلس بناؤه أعجب وأتقن من المسـجد الذى أعلاه . وله من داخل الخـانقاه الصلاحية (يعنى المجاورة لمقصورة الخطابة وبها الان شيخ يعرف بالختنىّ ، وبه تُعرف الآن) سُلَّمـان : أحدهما ست وثلاثون درجةً يُنْزَل منهـا إلىٰ بعض أقسام المجلس المذكور ، والثانى أربع وخمسون درجةً ، يُنْزَل منها إلىٰ بقية أقسام المجلس المذكور .

قال : والمكان فى غاية النور لِمـا عُمل له من المناور والطاقات المُحكمة . وهو رواقات عقودها محمولة علىٰ عمد من الصَّوّان وأركان البناء . وعرض هذه المجالس من القبلة إلىٰ الشَّمال : منها ماعرضه ثمـانية أذرع ، ومنها ماعرضه تسعة أذرع ، ومنها ماعرضه

عشرة أذرع ؛ وآرتفاع عقوده من الأرض التى بها الأبواب النافذة لرأْس وادى عين سلوان منها ما تقدير آرتفاعه عشرون ذراعا ، ومنها ماتقديره خمسة عشر ذراعا .

ويقال إن أحد هذه الأبواب كان منه دخول الأنبياء عليهم السلام .

مربط البراق

وفى إحدى أُسطواناته حَلْقةٌ . يقال إن البُرَاق ربط بها ليلةَ الإسراء .

وهـذه الأروقة كلها آخذة من الشرق للغرب . فمنها ماأمكن قياس طوله ، الذى أمكن التطرّق إليه . فكان تقديره ثلاثةً وتسعين ذراعا . ومنها مالم يمكن قياس طوله لكون أطواله قسمت حيطانا : منها ماهو فى وقتنا هذا مملوءٌ بالتراب المهول ؛ ومنها ماهو صفة حواصل ؛ ومنها ماهو مساكن ومرافق لسكان الخانقاه المذكورة . (١٣٤)

قال : ونِطاق النُّطْق ضاق عن آستيعاب وصف هذا المجلس . لكن الأماكن التى أمكن التطرّق إليها والمشى لمـا هو نافذ منها دلّت[1] علىٰ أن البقعة المسماة بالجامع (يعنى المسجد الأقصى) موضعَ الخطبة الآن ؛ وبقعةَ جامع النساء وغالبَ المشاوات التى بالحرم والأشجار المزدرعة : كلها معلقة علىٰ هذه العقود والسوارى .

زيارة المؤلف

قلتُ : ولقد دخلتُ إلىٰ بعض هذه الاماكن ، ورأيتُ من عجائب الأبنيـة بها مايملأ العين . وكان دخولى إليها من الزاوية المعروفة بسكن الخُتنىّ ثم أفضيتُ منها إلىٰ الكروم وظاهر المسجد .[2]

---

(١) بالأصل : دل .

(٢) بياض بآخر الصحيفة بالأصل مقداره تسعة سطور .

(١٢٥)

قبر الخليل عليه الصلاة والسلام

وما جاوره من قبور بنيه والأزواج

وكلها داخل ذلك المسوَّر، وفى حدود ذلك المكان المنوَّر .

قبر الخليل إبراهيم وزوجته سارة وابنه إسحاق

روىٰ الحافظ أبو القاسم مكّىّ بن عبدالسلام بن الحسين الرُّمَيْلىّ المقدسىّ، بسنده إلىٰ كعب الأحبار، قال : أوّل مَن مات ودُفن بِحَبْرىٰ سارةُ . وذلك أن إبراهيم خرج لما ماتت، يطلب موضعا ليقبرها فيه . فقدم علىٰ صفوان، وكان علىٰ دينه . وكان مسكنه وناحيته حَبْرىٰ (١) . فآشترىٰ منه الموضع بخمسين درهما . وكان الدرهم ذلك العصر خمسةَ دراهم . فدُفنت سارة فيه . ثم تُوُفّى إبراهيم فدُفن لَصِيقَها . ثم تُوُفّيت رَبقةُ زوجةُ إسحاق، فدُفنت فيه . ثم تُوفى إسحاق فدفن لَزِيقَها . ثم تُوُفّى يعقوب فدُفن فى الموضع . ثم تُوفيت زوجته لِيقا فدفنت معهم .

فأقام ذلك الموضع علىٰ ذلك إلىٰ زمن سليمان . فلما بعثه الله، أوحىٰ إليه أنِ آبنِ علىٰ قبر خليلى حَيْرا حتّى يكون لمن يأْتى بعدك، لكى يُعرَف .

فخرج سليمان وبنو إسرائيل من بيت المقدس، حتّى قدم أرض كنعان . فطاف فلم يصبه . فرجع إلىٰ بيت المقدس . فأوحىٰ الله إليه : ياسليمان، خالفتَ أمرى ! قال : ياربِّ، قد غاب عنى الموضع . فأوحىٰ الله إليه : اِمض، فإنك ترىٰ نورا من السماء إلىٰ الأرض، فهو موضع قبر خليلى . فخرج سليمان ثانيا، فنظر فأمر الجنَّ فبنوا علىٰ الموضع الذى يقال له الرامة . فأوحىٰ الله إليه : إن هذا ليس هو الموضع، ولكن

(١) حَبْرىٰ كسكرىٰ [أُنظر القاموس . وقد أورد القصة فى "معجم ياقوت" ج ٢ ص ١٩٥ ببعض تصحيف فى الاسماء] .

اذا رأيتَ النور قد آلترق بأعنان السماء . فخرج سليمان فنظر إلىٰ النور قد آلترق بأعنان السماء إلىٰ الأرض . فبنىٰ عليه الحَيْر .

قلتُ : ولم يكن لهذا الحير بابٌ . وإنما المسلمون لما آفتتحوا البلد، فتحوا له بابا . وبناؤه بناء محكم . وفى حائطه حجارة هائلة فى كبر القدر، منها ماطوله سبعة وثلاثون شبرا .

(١٢٦) وقد أُقيم بهذا الموضع خطبةٌ، ورُتِّب به إمام ومؤذنون .

وفى قبلته بابٌ يُنزل منه بدرج كثيرة إلىٰ سرداب ضيّق تحت الأرض، يأخذ متشاملا إلىٰ فجوة فيها ثلاث نصائب قبور فى حائطه، يقال إنها قبر الخليل وزوجته وإسحاق .

وهناك طاقة لا يُعرف إلىٰ أين تنتهى، لكن يقال إنها إلىٰ مغارة تحت أرض الحرم، فيها الموتىٰ . وتلك أمثال القبور من فوق .

زيارة المؤلف للسرداب الذى فيه قبور الأنبياء

ولقد أتيتُ إلىٰ هذا السرداب ومشيتُ به زحفا، لضيقه . ولتطأطؤ سقفه، لا يقدر أحد علىٰ المشى منتصبا به . وهو خطوات يسيرة تنتهى إلىٰ الفجوة المذكورة . وهى نحو أربعة أذرع فى مثلها . وهيئة القبور فى قبلة المسجد الآن قبران : الأيمنُ قبر إسحاق، والأيسر قبر زوجته . وفى شماليّه مما هو منفصل عن المسجد بقبتين متقابلتين قبران : الأيمنُ قبر إبراهيم الخليل، والأيسر قبر سارة زوجته . وفى شمالىّ الحرم قبةٌ مفردة مسامتة لقبة الخليل . وفيها قبرٌ يقال إنه قبر يعقوب . ولا شكَّ ولا ريْب أن إبراهيم (صلوات الله عليه) ومَن ذُكر معه مدفونون داخلَ هذا المسوَّر . وأما تعيين موضع القبر، فالله أعلم .

انكشاف قبور الأنبياء فى أيام احتلال الصليبيين لبلد الخليل

قال علىّ بن أبى بكر الهروىّ : حدثنى جماعة من مشايخ بلد الخليل أنه لما كان فى زمان بردويل الملك ، انخسف موضع فى هذه المغارة . فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك ، فوجدوا فيها إبراهيم و إسحاق ويعقوب ، وقد بَلِيَتْ أكفانهم ، وهم مستندون إلى حائط ، وعلى رؤوسهم قناديل . وهى مكشوفة . فجدد الملك أكفانهم ثم سدّ الموضع . وذلك سنة ثلاث عشرة وخمسمائة . حكى ذلك شهاب الدين بن الواسطى . قال : وقيل إن قبر آدم ونوح وسام فى المغارة . قال : والمغارة تحت هذه المغارة التى تُزار الآن . والله أعلم .

قبر آدم ونوح وسام

قبر يوسف وسبب وجوده خارج الحرم

ووراء الحرم موضعٌ فيه قبرٌ ينسب إلى يوسف ، عليه السلام . يقولون إنه لما بُنى المكان ، أرادوا أن يجعلوا قبره داخل الحرم . فسمع بانيه وهو سليمان (عليه السلام)
١٣٧ قائلا يقول : دعوه خارج الحرم ، فعليه خراج مصر !

و يقال إن موسى (عليه السلام) لما خرج من مصر ، استصحب معه تابوت يوسف ، ودفنه هناك قريبا من آبائه ؛ ولم يدفنه عندهم ، لما ناله من المُلك . هكذا يقال ، والعهدة على قائله . والله أعلم .

زخرفة الحرم الخليلىّ وضيافاته

قلتُ : وهذا الحرم مؤزّر جدره بالرخام الملون والمُذهب . وعليه أوقاف جليلة . ويُمدّ فيه كلَّ يوم بعد العصر سماطٌ ويفرق فيه من الخبز على الواردين بحسبهم على قدر كفايتهم .

زيارة المؤلف لقبر ابراهيم الخليل سنة ٧٤٥

ولقد زرتُ الخليل (صلوات الله عليه وسلامه) فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة . فأخبرنى جماعة المباشرين أن فى بعض ليالى العشر من هذا الشهر فى هذه السنة فرقوا زيادة على ثلاثة عشر ألف رغيف ؛ وأن غالب أيام العام مابين السبعة



آلاف والعشرة آلاف . ويُفرق ايضا مع الخبز طعام العدس بالزيت الطيّب والسُّماق . وفى بكرة النهار يُطبخ أيضا قدر من الدشيش ، ويفرق على الواردين . وفى بعض ايام الأسبوع ، يُطبخ ماهو افخر من ذلك .

قمح الضيافة وأهراؤه

وله خُدام برسم غربلة القمح وطحنه وعجينه وخبزه . لا يَبْطلون ليلا ولا نهارا . وأهراء القمح والطاحون والفرن ، نافذٌ بعض ذلك إلى بعض . بحيث إن القمحَ يُفترغ فى الأهراء ويُخرَج خبزا مخبوزا . ولم يزل على هذا مدى الشهور والأعوام والليالى والأيام ، لاينقطع له مدد ، ولا يُحصر بضبط ولا عدد .

استمرار السماط فى أيام الفرنج وزياداتهم

ولما استولى الفرنج على بلد الخليل (عليه السلام) أجرَوْا هذا السِّماط وزادوا على مَن كان قبلهم ، و بالغوا فى صلة هذا المعروف .

زيادة ملوك الإسلام فيه

ثم زاد ملوك الإسلام فى السِّماط . وهو معروفٌ يشمل المأمور والأمير ، والغنىّ والفقير .

قصائد المؤلف فى مدح الخليل

وقلتُ من قصيدٍ مدحتُه ، عليه الصلاة والسلام :

هـذا خليـل الله إبراهيم قد * لاحت لنا أعلامه الشُّمّ الذُّرى !
هذا الذى سنّ القِرى لضيوفه * كرمًا ، ولولاه لما سُنّ القِرى !
هذا الذى مدّ السماط فما انطوى * ذاك السماط تكرمًا ، وسَل الورى !

وقلتُ من أخرى :

هو ذا صاحب السِّماط ولكن * صاحب الحوض نجله وذووه !
ذو فناء يُقرَى به كلُّ ضيف * لم يُحجَب تحت الدُّجى طارقوه !
مُنعمٌ سيِّدٌ جوادٌ كريمٌ ، * منذ مدّوا سماطه ما طووه .

(١٢٨) وقلتُ من أخرىٰ، حين زرته فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين [وسبعمائة]:

خليلُ إله العرش أوّلُ مَن قرىٰ * ضُيوفا! وهاقدجئتُه وٱستضفتُهُ.
أتيتُ كريما لاتزال رحابُه * مُطَبّقةً بالوفد حيثُ نظرتُه.
دعت نارُه الضِّيفانَ فى غَسَق الدُّجىٰ * وليس سواها بارقا تمّ شِمتُهُ.
فتىٰ الجودِ شيخُ الأنبياء جميعهم * ووالدُهم حقًّا، يقينًا علمتُهُ.

وقلتُ، عند الوَداع فى هذه السَّنة:

هذا الخليل وهذه أبناؤه! * يكفيك بعد فراقه أبناؤه!
هيهات لا تُوفِى أقلّ حقوقه * ولو انّ جفنك لا يجفّ بكاؤه!
فامسك فؤادك إن ملكت عنانه! * هيهات قد طارت به أهواؤه!
وتعزّ عن أهل الكثيب وإنما * من أين للصب الكثيب عزاؤه!

تفصيل المؤلف لزيارته

قلتُ: وكان قدومنا هذه المرّة علىٰ الخليل (عليه السلام) يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة. فبتنا ليلتنا نتبرّك بما حوت تلك القبور من العظام العظام، ونعفّر الوجوه فى تلك البقعة المشرَّفة فى مواضع أقدام أولئك الأقوام. ثم أصبحنا وقد حمدنا السُّرىٰ عند الصَّباح، وطلبنا حوائجنا عند تلك الوجوه الصِّباح. فلما قضينا من الزيارة الأرب، وهزّتنا من النوبة الخليلية الطرَب، بعثتُ وراء الصاحب ناصر الدين أبى عبد الله محمد بن الخليلىّ التميمىّ الدارىّ. وهو بقية هذا البيت الجليل، والمُنتهى إليه النظر علىٰ وقف
(١٢٩) الحبيب سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وبلد أبيه إبراهيم الخليل. وٱلتمسنا منه

استحضار المؤلف نسخة الإقطاع النبوىّ لتميم الدارىّ ووصفه لها

إحضار الكتاب الشريف النبوىّ المكتتب لهم بهذه النَّطيه.[1] والمُشرَّف لهم به علىٰ سائر البريه. فأنعم بإجابة الملتمس، وجاء به أقرب من رَجْع النَّفَس. وهو فى خرقة سوداء من مُلْحَم قطن وحرير، من كُمّ الحسن أبى محمد المستضىء بالله أمير المؤمنين، وبطانتها من كتّان أبيض علىٰ تقدير كل إصبع منه ميلان أسودان، مشقوقان بميل أبيض، جُعل ضمن أكياس يضمّها صُندوق من آبنوس يُلَفّ فى خرقة من حرير. والكتاب الشريف فى خِرقة من خُفّ من أدم، أظنّها من ظَهْر القدم. وقد موّه سوادُ الجلد علىٰ الخط، لا أنّه أذهبه، وما أخفىٰ من يد كاتبه المشرفة ما كتبه. وهو بالخط الكوفىّ المليح القوىّ. فقبّلنا تلك الآثار، وتمتعنا منه بمدد الأنوار. ومعه ورقة كتبها المستضىء بنصه شاهدةً لهم بمضمونه، ومزيلةً لشكّ الشاكّ المُريب وظنونه: ومضمون ما كتب كهيئته وسطوره:

"نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه
"لتميم الدارىّ وإخوته فى سنة تسع من الهجرة بعد منصَرَفه
"من غزوة تبوك فى قطعة أدم من خف أمير المؤمنين علىّ وبخطه

"نسخته كهيئته

(١) أى العطية، بلغة اليمن. وذلك إشارة إلىٰ إقطاع تميم الدارىّ الصحابىّ. وسيأتى حكاية هذا الإقطاع ونسخة كتابه فى هذه الصفحة والتى تليها.

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"هـــذا ما انطى محمد رسول الله لتمـــيم"

"الدارى وإخوته حبرونَ والمـــرطومَ"

"وبيتَ عَينون وبيت ابراهيم وما فيهنّ"

"نَطية بتٍّ بذمتهم ونفّذتُ وسلمتُ ذلك لهم" (١٣٠)

"ولاعقابهم فمن آذاهم آذاه الله فمن آذاهم"

"لعنه الله شهد عتيق بن أبو قحافة وعمر بن"

"الخطاب وعثمان بن عفان وكتب علىّ بن"

"بو طالب وشهد"

هذه نسخة الكتاب الشريف .

و"أبو قحافة" ألف وباء وواو – ثم "قحافة" – و"بو طالب" باء وواو – ثم "طالب". وليس فى "بو" ألف. بيّن ذلك ليُعرف. و"كتب" فى ذكر علىّ رضى الله عنه مقدّمةً، و"شهدَ" مؤخرةً. بيّن ذلك أيضا ليعرف.

نقل هذه النسخة من خط الخليفة المستضيء

وقد رأيتُ ذلك كله بعينى، ومن خط المستضىء نقلت . وهو خطه المعروف المألوف . وقد رأيته وأعرِفه معرفة لا أشكُّ فيها ولا أرتابُ . وقرأتُه من الكتاب

النبوى نفسه . وهو موافقٌ لما كتبه المستضىء، نقلا منه . على أن آثاره كادت تتعفّى، وتحتجب عن الناس لفساد الزمان وتختفى.(١)

وكان التبرُّك برؤية ذلك على ظهر القبو الصغير الشمالىّ، فى الحرم الخليلىّ الملاصق لقبر زوج يعقوب (عليه السلام) المفضى منه إلى المأذنة بحضرة مخزن العدس .

(١) وقد رأى كثير من الناس هذا الكتاب الشريف قبل ابن فضل الله . فمن ذلك مارواه صلاح الدين الصفدىّ (فى ورقتى ٢٧ و ٢٨ من الجزء ٤٨ من تذكرته، وهذا الجزء مخطوط ومحفوظ بدار الكتب الخديوية) . وهذا نص ما فيه :

قال الفقيه القاضى أبو بكر العربىّ المعافرىّ رحمه الله تعالى فى كتاب القَبَس له : "وقد كان عند أولاد تميم الدارىّ رضى الله عنه بحبرون بدمشق، قرية إبراهيم صلى الله عليه وسلم، كتابُ النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قطعة من أديم : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أقطع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميما الدارىّ . أقطعه قريتى حبرون وعينون قريتى ابراهيم الخليل . يسير فيهما بسيرته . وكتب علىّ بن أبى طالب . وشهد فلان وفلان .) فبقيتا فى يده يسير بسيرته . وشاهد الناس كتابه إلى أن دخلت الروم سنة ستين [لعلها ست] وتسعين . ولقد اعترضه فيهما بعض الولاة بان يزيلهما من يده إبان كونى بالشام . فحضر مجلسه القاضى حامد الهروىّ . وكان حنفيا فى الظاهر، ومعتزليا فى الباطن، ملحدا شيعيا . وكان الوالى سكمان بن أرتبك [أزبك ؟] . فاستظهر أولاد تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال القاضى حامد : هذا الكتاب لا يلزم، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أقطع مالا يملك . فاستفتى الفقهاء . فقال الطوسىّ، وكان بها حينئذ : هذا كافر، والنبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقطع الجنة و يقول : قصر عمر، قصر فلان . فكيف لا يُقطِع فى الدنيا ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زُوِيت لى الأرض ... الحديث . فوعدُه صدقٌ وكتابه حق . فخزى القاضى والوالى، وبقى أولاد تميم بكتابهم ."

ومما يدل على وجود هذا إلى مابعد ابن فضل الله بثلاثة أرباع القرن أن القلقشندى صاحب "صبح الأعشى" كتب فصلا طويلا على هذا الإقطاع وعلى الكتاب النبوىّ الكريم . وذكر فى آخره مانصه : "وهذه الرقعة التى كتب بها النبىّ صلى الله عليه وسلم موجودة بأيدى التميميين خدّام حرم الخليل عليه السلام إلى الآن . وكلما نازعهم أحد، أتَوْا بها إلى السلطان بالديار المصرية ليقف عليها و يُكَفّ عنهم مَن يظلمهم . وقد أخبرنى برؤيتها غير واحد . والأديم التى هى فيه قد خَلِق لطول الأمد ." [أنظر صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٩ من النسخة المحفوظة بخزانتى] . وذلك يدل على أن الكتاب النبوىّ كان موجودا إلى سنة ٨٢١ هجرية .

رؤية المؤلف لهذا الكتاب الشريف سنة ٧٣٩

وقد كنتُ رأيتُ ذلك مرة متقدمة بالحصنِ سكنِ بنى الخليلى، بظاهر البلد، لما أتيتُ زائرا بعد العوْد من الحجّ علىٰ الدرب المصرى فى المحرّم سنة تسع وثلاثين وسبعمائة. ولكنّى إذ ذاك لم أنقله.

---

(١٣١)

قبر يُونس بن متّٰى عليه السلام

قبر يونس بن متى وزيارة المؤلف له مرات آخرها سنة ٧٤٥

بقرية حَلْحُولَ علىٰ يسار الذاهب من بلد القدس إلىٰ بلد الخليل عليه السلام. ويعرّج الزائر إليه. وعليه بناءٌ وقُبّةٌ. وله خادم.

زُرْتُه مراتٍ. وآخر عهدى به فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة. وكتبتُ علىٰ جدار القبة بيتين خطرا لى فى ذلك الوقت، وهما: (١)

قبر موسىٰ بن عِمْران عليه السلام

قبر موسىٰ الكليم

بالقرب من أَرِيحاءَ. وتعرف القرية بِشَيْحان.

رواية فى تحقيق موضعه ومنام عجيب

رأيتُ بخط علاء الدين ٱبن الكلّاس ما صورته: "قال الشيخ إبراهيم ٱبن الشيخ عبد الله بن يونس الأرموى عن والده قال: زرتُ قبر موسىٰ (عليه السلام) الذى بالقرب من أَرِيحاء. قال الشيخ إبراهيم: وكان إذ ذاك لم تُبْنَ عليه قُبّةٌ ولا مشهدٌ. قال: فقلت فى نفسى: اللهم أرِنى ماأزداد به يقينا فى صحة هذاالقبر. قال: فبينا أنا نائم رأيتُ كأنّ القبر ٱنشقّ وخرج منه إنسانٌ طُوَال. قال: فجئتُ إليه وسلّمتُ عليه، وقلتُ له: مَن أنت؟ قال. موسىٰ بن عمران، وهذا قبرى. وأشار إليه. ثم قعدنا. وإذا بالقرب

(١) بياض بالاصل مقدار سطرين.

منا رجل يطبخ فى قِدْره فلما ٱستوىٰ طعامه، أحضره إلينا وإذا هو شورباة أرز. فأكل موسىٰ عليه السلام منها ثلاث ملاعق، وأنا ثلاث ملاعق، والرجل ثلاثا. ثم تداولناها بيننا إلىٰ أن فَرَغت. قال الشيخ عبد الله: وكنتُ علىٰ عزم العود إلىٰ (١٣٢) بلاد العجم إلىٰ عند شيخى. فقال لى موسىٰ عليه السلام: أنت لاتسافر إلىٰ شيخك. وكيف تسافر؟ وأنت تريد تتزوج بٱمرأة من نسل الرسول وتُرْزق منها أربعةَ أولاد. وأقام الشيخ إبراهيم أصابع يده اليمنىٰ الأربعة، وضم الإبهام إلىٰ باطن كفه، يحكيه. قال الشيخ إبراهيم: فكان كما ذكر موسىٰ عليه السلام. فلم يسافر والدى، وتزوج بٱمرأة شريفة، وهى أُمّى. ورُزق أربعة أولاد، أنا أحدهم. ولما حضرته الوفاة، قلت له: ياسيدى أنت راضٍ عنى؟ فقال: كيف لا أرضىٰ عنك، وقد بشرنى بك موسىٰ عليه السلام. (١)

(١) بياض بآخر الصفحة بالاصل مقداره ثلاثة عشر سطرا.

---

(١٣٣)

مسجد دمشـــق

المسجد الأموى وأوليته

مسجدٌ عظيم، ومعبد قديم. لا يُعرف على الحقيقة بانيـه ولا زمن بنائه. فتح المسلمون الشأم، وهو كنيسة لأهل دمشق يُتعبَّد فيها، زمنَ الرُّوم. وقد كان قبلهم معبدًا لأمم مختلفة. وتزعم الكلدانية أنه من بنائهم وأنهم بَنَوْه فيما بَنَوْا من الهياكل السبعة التى آتخذوها للكواكب السبعة. جعلوه بيتا للمشترِى. قالوا ولهذا آستمر التعبُّد فيه إذ كان المشترِى طالع الديانات والتألُّه. هذا مازعموه.

حيطانه

وقال عبدالرحمن بن إبراهيم دُحَيْم: حيطان مسجد دمشق الأربعة من بناء هود وما(١) كان من حد الفسيفساء إلى فوقُ، فهو من بناء الوليد.

لوح مكتوب بخط عادىّ وجدوه فى أيام الوليد، وزعم وهب بن منبه أنه قرأه

وقال الوليد بن مسلم: لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق، وجدوا فى حائط المسجد القبلى لوحا من حجر، فيه كتاب نَقْش. فأتَوْا به الوليد. فبعث إلى الرُّوم فلم يستخرجوه. فدُلَّ على وَهْب بن منبه. فأقدمه عليـه، فأخبره بموضع ذلك اللوح. ويقال ذلك الحائط من بناء هود عليه السلام. فلما نظر إليه وهبٌ، حرَّك رأسه. ثم قرأه، فإذا هو:

صورة مافى اللوح

"بسم الله الرحمن الرحيم. ابنَ آدم! لو نظرتَ يسير مابقِىَ من أجلِك، لزهدتَ فى طول ما ترجو من أملك! وإنما تلقىَ ندمك، لو قد زلَّتْ بك قدمُك، وأسلمك اهلك وحشَمُك، وآنصرف عنك الحبيب، وودعك القريب، ثم صرتَ تُدعَى فلا تجيب! فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا فى عملك زائد. فآعمل لنفسك قبل يوم القيامه، وقبل الحسرة والندامه، وقبل أن يحلَّ بك أجلك، وتُنتزع منك رُوحك! فلا ينفعك

(١) بالاصل: ومن.

مالُ جمعتَـه، ولا ولدٌ ولدتَه، ولا أخٌ تركتَه! ثم تصير إلى برزخ المثوى، ومجاورة الموتى. فاغتنم الحياة قبل الموت، والقوة قبل الضعف، والصحةَ قبل السقم، قبل أن يؤخذ بالكَظَم، ويحالَ بينك وبين العمل! وكُتب فى زمان سليمان بن داود عليهما السـلام."

دخول العرب دمشق فاتحين

(١٣٤)

ولما فتح المسلمون دمشـق (على ما يأتى ذكره، إن شاء الله تعالى) دخل أمير الجيش أبو عبيدة بنُ الجراح (رضى الله عنه) بالأمان من غرب البلد، ودخل خالدُ آبن الوليد بالسيف من شرقه.

الكنيسة نصفها للنصارى ونصفها للمسلمين، إلى أيام الوليد

فكانت دمشقُ نصفين. والكنيسة كذلك. فاتخذوا منها النصف الشرقيَّ المفتوح عَنْوةً، مسجدًا يصلُّون فيه. وتصلِّى النصارى فى النصف الآخر. فتأذَّى المسلمون لمجاورة النصارى لهم فى مكان تعبُّدهم، وكرهوا قرع النواقيس بإزائهم. وآشتد ذلك على الوليد بن عبد الملك. وكان مُغْرًى فى سلطانه بعمارة المساجد وبناء المعابد.

حيلة لطيفة للوليد مع إمبراطور الروم

فأعطى رجلا ديته حتّى أتى القسطنطينية. ودخل فى زِىِّ النصارى كنيستها العظمى يوم الأحد، والملكُ فيها فَمَنْ دونه. فلبث حتّى رأى أن جمعهم قد آستكمل. ثم قام فأذّن. فأُخذ وأُحضر لدى الملك، وقد جلس إلى جانبه البطرِيْرك، وآستدارت بهما القسوس والشمامسة. فقال له الملك: مَن أنت، وما حملك على ما صنعتَ؟ فقال: أما أنا، فرجل من المسلمين من أهل دمشق، وأما ما حملنى على ماصنعت، فأنشدك اللهَ، أيها الملك: هل ساءك مافعلتُه وكرهتَه أم لا؟ فقال: نعم. فقال: ونحن فى معبدٍ فى شطره النصارى، نسمع نواقيسهم، ونُساء بمجاورتهم. فأراد أمير المؤمنين أن يعرفك أننا نُساء بذلك، كما ساءكم ما فعلتُ. فخلّى عنه، وكانوا قد همُّوا بقتله. ثم قال له: صالحونا على عِوَض. فصولحوا عنه بنصف كنيسة مريم، وكانت شطرين.

المصالحة على اختصاص المسلمين به فى نظير استئثار النصارى بكنيسة مريم كلها

شروع الوليد في تحسينه

ثم شرع الوليد بن عبد الملك فى تحسين بنائه وتحصين فِنائه . أبقىٰ منه ما أبقىٰ ، وجدّد ما جدّد .

رواية أخرىٰ فى انفراد المسلمين به

وقال إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المُقرى : حدّثنى أبى عن أبيه المغيرة ، أنه دخل يوما علىٰ الوليد بن عبد الملك فرآه مغموما . فقال : يا أمير المؤمنين ماسبيلُك؟ فقال : يامغيرة إنّ المسلمين قد كثروا ، وقد ضاق بهم المسجد . وقد بعثتُ إلىٰ هؤلاء لنُدخل كنيستهم فى المسجد ، فأبَوْا . وقد أقطعتُهم قطائعَ كثيرةً وبذلتُ لهم مالًا ، فامتنعوا . قال : لا تغتمّ ياأمير المؤمنين ! قد دخل خالد من الباب الشرقىّ بالسيف ، ودخل أبو عبيدة من باب الجابية بالأمان . فماسِحْهم أىَّ موضع بلغ السيفُ ، فإن يكن لنا فيه حقٌّ أخذناه . قال : فرّجتَ عنى ! فتولَّ أنت هذا . فتولاه . فبلغت المسحة

(١٣٥)

إلىٰ سوق الريحان حتّٰى حاذىٰ من القنطرة الكبيرة أربعة أذرع وكسرا بالقاسمىّ .

أخذ النصارىٰ أربع كنائس فى نظير نصفهم فيه

فإذا باقى الكنيسة قد دخل فى المسجد . فبعث إليهم . فقال : هذا حقٌّ قد جعله الله لنا ! لم يُصَلِّ المسلمون فى غَصْبٍ ولا ظلم ، بل نأْخذ حقنا . قالوا : قد أقطعتَنا أربع كنائس ، وبذلتَ لنَا من المال كذا وكذا . فإن رأيت ياأمير المؤمنين أن تتفضل بذلك علينا ، فافعل ! فتمنّع عليهم حتّٰى سألوه وطلبوا إليه . فأعطاهم كنيسة حُمَيد بن درّة ، وكنيسةً أخرىٰ عند سوق الجُبن ، وكنيسةَ مريم ، وكنيسة المُصَلّبة .

محاولة القساوسة لمنع هدم كنيسة لتوسعته ، ومباشرة الوليد الهدم بنفسه

ثم جمع الوليد المسلمين لهدم الكنيسة . فقال بعض الأقساء للوليد ، والفأْس علىٰ كتفه ، وعليه قباء سفرجلىّ ، وقد شدّ قباءه : إنى أخاف عليك من الشاهد[(١)] . قال : ويلك ! إنى ماأضع فأْسى إلا فى رأْس الشاهد ! ثم إنه صعد . فأوّل مَن وضع فأْسه فى هدمها الوليدُ بن عبد الملك . وكبّر الناس .

(١) هو محراب المذبح ، كما يؤخذ من الرواية الآتية فى صفحة ١٨٢

رواية أخرىٰ

وقال يعقوب الفسوىّ : سألت هشام بن عمّار عن هدم الكنيسة . فقال : كان الوليد قال للنصارىٰ : ماشئتم ، إنا أخذنا كنيسة توما عنوةً وكنيسة الداخلة . فأنا أهدم كنيسة توما ، وكانت أكبرهما . قال : فرضُوا أن هَدَمَ كنيسة الداخلة وأدخلها فى المسجد . وكان بابها قبلة المسجد اليوم المحراب الذى يُصلّٰى فيه . قال : وهدم الكنيسة فى أوّل خلافته . وكانوا فى بنيانه تسع سنين . ولم يتم بناؤه .

رواية أخرىٰ

وقال يزيد بن أبى مالك : أرسل إلىّ الوليد حين أراد أن ينقض الكنيسة فأتاه النصارىٰ فقالوا : كنيستنا لانهدمها ! قال : فإنى أتركها وأهدم كنيسة تُوما ، لأنها لم تكن فى العهد . فلما رأَوْا ذلك ، قالوا : فإنا نتركها لكم ، وتدع لنا كنيسة توما . فصعد الوليد وصعدنا معه . فكان أوّلَ مَن ضرب بفأس فى هدمها .

وضع الأساس

قال : وأراد أن يبنى المسجد أسطوانات إلىٰ الطاقات . فدخل بعض البنائين فقال : لاينبغى أن يُبنى هكذا . ولكن ينبغى أن يُبنى فيه قناطر وتُعقد أركانها ، ثم تجعل أساطين وتجعل عُمُدا . وتُعقد فوق العُمُد قناطر تحمل السقف وتخفف عن العمد البناءَ . ونجعل بين كل عمودين ركنا . قال : فبُنى كذلك .

(١٣٦)

تخويف النجارين النصارىٰ للوليد ، ومباشرة الهدم بنفسه

وقال إبراهيم بن هشام الغسّانىّ : حدثنى أبى عن يحيىٰ بن يحيىٰ ، قال : لما همّ بهدم كنيسة مَرْ يُحَنَّا ليزيدها فى المسجد ، يعنى الوليدَ ، صعد المنارة ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وفيها راهبٌ يأوِى فى صومعةٍ . فأحدره من الصومعة . فأكثر الراهب كلامه . فلم تزل يد الوليد تدقُّ فى قفاه حتى أَحدره من المنارة . ثم همّ بهَدْم الكنيسة . فقال له جماعة من نجارى[(١)] النصارىٰ : ما نجسر علىٰ هدمها . فقال : أتخافون ؟ هاتِ

(١) العرب تقول للرجل نجار ، و إن كان لا يعمل بالمثقب والمنشار ونحوه ، ولا يضرب بالمضلع ونحو ذلك . (أُنظر كتاب "الحيوان" للجاحظ ج ٤ ص ٢٦)

التعويض على النصارىٰ بكنيسة أخرىٰ

المِعْوَل، ياغلام ! ثم أُتِي بسُلّم فنصبه على محراب المذبح.(١) وصعد فضرب بيده حتّى أثّر فيه أثرا كبيرا. ثم صعد المسلمون فهدموه، وأعطاهم الوليد مكانَ الكنيسةِ الكنيسة التى بحمام القاسم، حِذاءَ دار أمّ البنين فى الفراديس. قال يحيىٰ بن يحيىٰ: أنا رأيت الوليد فعل ذلك بكنيسة مسجد دمشق.

مساومة الوليد مع النصارىٰ وتخويفهم إياه بالجنون إذا هدمها ومباشرته الهدم بنفسه لتكذيبهم

وروىٰ الوليد بن مسلم عن آبن جابر وغيره،(٢) قال: لما كان الوليد وأراد بناء المسجد، فقال(٣) إنا نريد أن نزيد فى مسجدنا كنيستكم هذه، ونعطيكم عوضها حيث شئتم. وإن شئتم أعطيتكم ثمنها، وأُضعف لكم الثمن. فأبَوْا ذلك، وقالوا: لنا ذمّةٌ وعهدٌ. والله إنا لنجد مايهدمها أحدٌ، إلا جُنّ! قال: فانا أوّل مَن يهدمها. فقام وعليه قباء أصفر فضرب، وهدم الناسُ معه.

قال أحمد بن المُعَلّىٰ: فأخبرنى شيبة بن الوليد، قال حدثنى أبى، قال: كنت أمُرّ بعبد الرحمن بن عامر اليحصبىّ (وهوشيخ كبير أزرق) وهو جالس بالروضة، فيقول لى: ألا تأتى حتّى أكتبَ لك آرتجازَ جدك وهو يضرب بالفأس فى الكنيسة بعد الوليد؟ قلت: نعم، ولكن حدّثنى الحديث. فقال: لما عزم الوليد على هدم الكنيسة، قالوا إنه لايهدمها أحدٌ إلا جُنّ. فقام جدك يزيد بن تميم فجمع له وجوهَ أهل البلد. وأمَرَه الوليد أن يتخذ فأسا صغيرة. ففعل. ثم خرج الوليد وتبعه وجوه أهل البلد حتّى علا الكنيسة. ثم آلتفت إلى يزيد بن تميم، فقال: أين الفأس؟ فأتاه به. فقال:

(١) هو الذى سماه "الشاهد" فى الرواية المتقدمة فى صفحة ١٨٠

(٢) فى الأصل: قالوا.

(٣) فى الأصل: فقالوا.



إن هؤلاء الكفرة يزعمون أن أوّل مَن يهدمها يُجَنّ، وأنا أوّل من يُجَنّ فى الله. وأخذ برقبة قبائه فوضعها فى مِنطَقته. ثم أخذ الفأس فضرب به ضرباتٍ. ثم ناوله جدك فضرب به بعده، وتناول الفأس كل من حضر.(١)

إتمام اليهود هدمها

وصاح النصارىٰ على الدرج وولولوا. فالتفتَ إلى يزيد بن تميم، وهو على خراجه، فقال: آبعث إلى اليهود حتّى يأتُوا علىٰ هدمها. ففعل. فجاء اليهود فهدموها.

طلب الوليد صناعا وعملة من ملك الروم

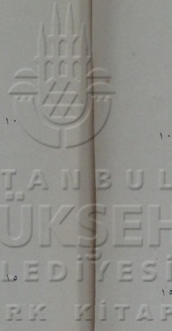
قال آبن المعلّىٰ: وأخبرنى همّام بن محمد بن عبد الباقى، قال: حدثنى أبى، قال حدثنى مَرْوان بن عبد الملك بن عبد الله بن عبد الملك بن مَرْوان، قال: لما أراد الوليد بناءَ مسجد دمشق، آحتاج إلى الصُّنّاع. فكتب إلى الطاغية أن وجِّه إلىّ بمائتى صانع من صُنّاع الروم، فإنى أريد أن أبنى مسجدا. و إن لم تفعل، غزوتُك بالجيوش، وخربتُ الكنائس، وفعلتُ. فكتب إليه: "لئن كان أبوك فَهِمَها فأَغفل عنها، إنها لوصمةٌ عليه؛ ولئن كنت فُهِّمتَها وغُيِّبَتْ عن أبيك، إنها لوصمةٌ عليك.(٢) وأنا موجّه إليك ماسألتَ". فأراد أن يعمل لها جوابا، فجلس عقلاء الرجال يذكرون. فقال الفرزدق: أنا أجيبه، قال الله تعالى: "فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا". فسُرِّىَ عنهم.

مكاتبة ملك الروم بشأن الهدم

وعن خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه، قال: كتب ملك الروم إلى الوليد: "إنك هدمت الكنيسة التى رأىٰ أبوك تركها. فإن كان حقًّا فقد خالفت أباك، وإن كان باطلا فقد أخطأ أبوك". فلم يجبه أحدٌ. فوثب الفرزدق، فقال: أنا أبو فراس! "فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَٰنَ"! قال فكتب به الوليد إلى ملك الروم.

(١) نسى الراوى أوآبن فضل الله إيراد الرجز الذى أشار إليه فى صدر الكلام فى الصفحة السابقة.

(٢) هكذا بالاصل. والرواية التالية أكثر وضوحا وظهورا.



سقوط القبة بعد بنائها

وقال أحمد بن إبراهيم بن هشام بن ملّاس: حدثنى أبى عن أبيه عن جدّه، قال: بنىٰ الوليد قبة مسجد دمشق، فلما آستقلّتْ وتمّتْ، وقعتْ. فشقّ ذلك عليه. فأتاه بنّاء، فقال: أنا أتولّى بناءها، علىٰ أن لايدخل أحد معى فى بنائها. ففعل. فحفر موضع الأركان حتّى بلغ المـاء. ثم بناها. فلما آستقلت علىٰ وجه الأرض، غطّاها بالحُصُر. وهرب. فأقام الوليد يطلبه ولا يقدر. فلما كان بعد سنة، قَدِم، فقال له: ما دعاك

حيلة هندسية فى تشييدها

(١٣٨) إلىٰ الهَرَب؟ قال: تخرج حتّى أُريَك. فأتَوْا. فكشف عن الحُصُر. فوجَد البنيان قد آنحطّ حتّى صار مع وجه الأرض. فقال: مِن هذا كنتَ تُؤْتىٰ! ثم بناها حتّى قامت.

وقال عمر بن الدِّرَفْس الغسّانىّ: رأيت قبة مسجد دمشق. وقد حُفر لأركانها حتّى بلغوا المـاء وأُلقِىَ علىٰ المـاء جرانُ الكروم. وبنىَ الأساس عليه.

محاولة الوليد عقد رأس القبـة بالذهب، وتقريع أحد أصحابه له

وقال إبراهيم بن أبى حَوْشب: كان جدّى أحدَ قَوَمَة المسجد فى بنـائه. فحُدِّثتُ أن الوليد بعث إليه عند فراغه من القبة، ولم يبق إلا عقد رأسها. فقال: إنى عزمت علىٰ أن أعقِدها بالذهب. قال: ياأمير المؤمنين! اِختلطتَ؟ هذا شئ يَتَعَذَّرُ؟ فقال: يا مَاجِنُ، تقول لى هذا؟ وأمر به، فضُرِب خمسين سوطا. ثم قال: آذهب، فافعل ما أمرتُ به. قال: فذُكر لى أنه عَمل لَبِنَةً من ذهب. فحملها إليه. فلما رآها وعرف مافيها، قال: هذا شئ لايوجد فى الدنيا. ورضى عنه وأمر له بخمسين دينارا.

تغشية سطوحه بالرصاص

شراؤه رصاصا من آمرأة يهودية بوزنه ذهبا، ثم تبرعها بالثمن للمسجد لما رأت من عدل الخليفة

وقال أبو بكر أحمد بن البرامىّ، حدثنا أبى: سمعت بعض شيوخنا قال: لمـا فرغ الوليد من بناء المسجد، قيل له أتعبت الناس فى طينه كلّ سنة. فأمر أن يُسقَّف بالرصاص من كل بلد. فبقى عليه موضعٌ لم يجد له رصاصا. فكتب إليه بعض عماله: وجدنا عند آمرأة منه شيئا، فأبت أن تبيعه إلا وزنا بوزن. فكتب إليه خذه بمـا

أرادتْ. فأخذه منها وزنا بوزن. فلما وفّاها، قالت: هو منّى هديّةٌ للمسجد. وقالت: أنا ظننتُ أن صاحبكم يظلم الناس. وقيل كانت يهودية.

سليمان بن عبد الملك يتولى أمر الصناع بنفسه

وقال الوليد بن مسلم: لمـا أراد الوليد بناء المسجد، كان سليمان بن عبد الملك علىٰ الصُّنّاع.

أداء الأمانة

وروىٰ محمد بن عائذ(١) عن مشيخةٍ قالوا: ماتمّ مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة. لقد كان يفضُل عند الرجل منهم الفلس ورأس المسمار، فيجىء حتّى يضعه فى الخِزانة.

ما كان فيـه من الرخام والمرمر

وقال أحمد بن إبراهيم بن هشام: سمعت أبى يقول: مافى مسجد دمشق من الرخام شئ، إلا رخامتا المقام الغربىّ. فإنه يقال إنهما من عرش سبإٍ. وأما الباقى فكله مرمر. المقام هو مقصورة الخطابة والرُّخامتان هما السماقىُّ البرّاق، لايُدْرىٰ ماقيمتهما. (١٣٩)

قلتُ: قوله فى ذلك مردود.

مناقشة المؤلف عن الرخام والمرمر والحجارة. وتفصيل أنواع الرخام الملون

فقـد أجمعت الحكماء علىٰ أن الرخام هو الأبيض. فأما الملوّن فكله حجـارة. وبمسجد دمشق من الرخام الأبيض وقرمِزيين من الإبل. وإن كان الثـانى رخاما بزعمه، ففيه من الملوّن كالغرابىّ والمنقط والمشحم والأخضر والسُّمّاقىّ غير اللوحين شئ كثير. والناس تطلق علىٰ كل ذلك آسم الرخام.

رخام بيبرس ومن بعده

وقد آستجدّ شئ كثير منه فى الحائط الشامىّ، جدّده الظاهر بيبرس. وآستجد بعد ذلك كثير.

---

(١) فى الأصل بالدال المهملة وقال فى "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال" لصفىّ الدين الخزرجى: هو بالذال المعجمة الدمشقى.

وقوله المقام الغربىّ، إشارةٌ إلىٰ محراب مقصورة الخطابة . فإن المسجد لم يكن فى حائطه القبلىّ فى ذلك الوقت إلا هذا المحراب، والمحراب الشرقىّ المعروف بمحراب الصحابة .

عدد المرخمين ١٢،٠٠٠

قال دُحَيْم : وحدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح عن ابيه، قال : كان فى مسجد دمشق آثنا عشر ألف مرخِّم .

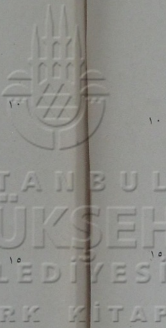
تزويقه ونفقاته الباهظة وآحتجاج الامة علىٰ الوليد وردّه المقنع

وقال أبو تقىّ(١) هشام بن عبد الملك : حدثنا الوليد بن مسلم، قال : لما أخذ الوليد فى بناء المسجد وظهر من تزويقه وبنائه وعظم مؤونته، تكلم الناس وقالوا : محَقَ بيوت الأموال فى نقش الخشب وتزويق الحيطان . فصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال : " قد بلغنى مقالتكم، وليس الأمر علىٰ ماظننتم . ألا وإنى أمرتُ باحصاء ما فى بيوت أموالكم فأصبت فيه عطاءكم ست عشرة سنة(٢)" .

(١) فى الاصل بالموحدة وهو تصحيف من الناسخ . وصوابه بالمثناة الفوقية والقاف كما ضبطه فى "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال" لصفىّ الدين الخزرجى .

(٢) أقام اليونانيون فى جاهليتهم (سنة ٤٣٨ قبل المسيح) هيكلا فخاجدًا سمّوه البارتنون [Le Parthénon] علىٰ رأس الصخرة المقدسة عندهم [l'Acropôle] [Athènes] فى مدينة أثينة وآستغرقوا فى بنائه عشر سنين إلى آثنتى عشرة . ولا تزال أطلاله ماثلة للآن ، موضعا للعجب العُجاب . وقد بلغت النفقة عليه ٢،٠٠٠ "تالنت" أى بدرة أوخزنة . والتالنت ٦٠،٠٠٠ فرنك ، قريبا من ٥،٠٠٠ دينار . فيكون مجموع المصروف عليه ٦،٠٠٠،٠٠٠ من الدنانير [بتحويل النقد إلىٰ ما يعادله فى أيام الدولة الاموية] . وقد قام جماعة من المعارضين للحكومة فألّبوا أهل أثينا علىٰ زعيمهم الخطيب الشهير بيريكليس [Periclès] ونعوا عليه هذا الإسراف الفاحش وهذا البذخ الباهظ . فجمعهم الرجل ، وألقىٰ عليهم خطبة أخذت بمجامع قلوبهم ، وعرفهم أن هذه النفقة الطائلة لاتكاد تذكر فى جنب هذا الفخر الذى سيبقىٰ لهم ولأعقابهم مدىٰ الدهر . فأقرّه القوم وآنصرفوا راضين .

أما المسجد الأموىّ فقد كان بدء العمل فيه سنة ٨٨ للهجرة . وقد علمنا من الرواية المتقدمة فى صفحة ١٨١ أنهم "أقاموا فى بنيانه تسع سنين ولم يتم بناؤه" . هذا وقد عرفنا أبو قصىّ العذرىّ (كما فى صفحة ١٨٨) =



وقال الوليد عن عمر بن مهاجر، قال : حسبوا ما أنفق علىٰ الكرمة التى قبلىّ مسجد دمشق فكانت سبعين ألف دينار .

قصة كنز

وذكر الحافظ آبن عساكر فى ترجمة أصبغ بن محمد بن محمد بن لهَيعة السكسكىّ قال : ذُكر أن الوليد بن عبدالملك حين بنىٰ مسجد دمشق، مرّ برجل يعمل فى المسجد وهو يبكى . فقال : ماقصتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! كنتُ رجلا جمالا . فلقينى يوما رجل فقال : أتحملنى إلىٰ مكان كذا وكذا؟ وذكر موضعا فى البرّيّة . فقلت : نعم . فلما حملته وسرنا بعض الطريق ، آلتفت إلىّ فقال لى : إن بلغنا الموضع الذى ذكرته لك، وأنا حىّ، أغنيتك ؛ وإن متُّ قبل بلوغى إليه، فاحمل جثتى إلىٰ الموضع الذى أصف لك . فإنّ ثَمَّ قصرا خرابا، فإذا بلغته، فآمكث إلىٰ ضحوة النهار . ثم عُدَّ سبع شرفات من القصر وآحفر تحت ظلّ السابعة منها على قدر قامة . ستظهر لك بلاطة، فاقلعها فإنك سترىٰ تحتها مغارة، فادخلها، فإنك ترىٰ فى المغارة سريرين علىٰ أحدهما رجل ميت . فاجعلنى علىٰ السرير الآخر، ومدّنى عليه، وحمِّلْ ما معك مالا من المغارة وآرجع إلىٰ بلدك . فمات الرجل فى الطريق، ففعلت ما أمرنى به . وكان معى أربعة جمال وحمارة فأوسقتها كلها مالا من المغارة؛ وسرت بعض الطريق، وكانت معى مخلاة نسيت أن أملأها وداخلنى الشَّرَهُ . فرجعت بها وتركت الجمال والحمارة فى الطريق . فلم أجد المكان، وعدتُ . فلم أجد الدوابَّ، فبقيت أدوِّر أياما . فلما يئست، رجعت

= أن النفقة عليه بلغت ٤٠٠ صندوق ، فى كل صندوق ١٤،٠٠٠ دينار . فيكون مجموع النفقة عليه ٥،٦٠٠،٠٠٠ دينار وهو يعادل تقريبا ما صرفه أهل أثينا وأحلافهم علىٰ بناء هيكلهم .

فأنت ترىٰ أن المدة التى آستغرقها بناء الهيكل الوثنىّ وبناء الجامع الإسلامىّ تكاد تكون واحدة . كذلك كان الشأن فى آعتراض الوثنيين والمسلمين ، وفى الردّ الذى أجاب به كل من زعيم الوثنيين وأمير المسلمين ، وإن كانت المدة بينهما ١٢٥٠ سنة . أفليس التاريخ يعيد نفسه ، كما يقولون ، ولو بعد توالى الدهور وتعاقب القرون ؟

إلىٰ دمشق ولم أحصل علىٰ شئ واضطرنى الأمر إلىٰ ماترىٰ : أعمل فى التراب كل يوم بدرهم. وكلما ذكرتُ حالى، لم أملك نفسى ! أن أبكى فقال له الوليد : لم يقسم الله لك من تلك الأموال شيئا، وإلىّ صارت، فبنيت بهاهذا المسجد. ثم وهبه شيئًا.

النفقة عليه ٥٫٦٠٠٫٠٠٠ دينار

وقال أبو قُصَىّ العُـذرىّ : وحسبوا ما أنفقوا علىٰ مسجد دمشق، فكان أربعمائة صندوق، فى كل صندوق أربعـة عشر ألف دينار. وبلغ الوليد أنهم تكلموا، فقال : يا أهل دمشق إنى رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببتُ أن يكون مسجدكم الخامس.

مفاخر دمشق أربعة ، وبه صارت خمسة

١٫٥٠٠ دينار ثمن عمودين

وقال خالد بن تبوك : اِشـترىٰ الوليد العمودين الأخضرين اللذيْن تحت النَّسْر من حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار.

وقال أحمد بن إبراهيم الغسّانىّ : حدّثنا أبى عن أبيـه عن زيد بن واقد، قال : وكّلنى الوليد علىٰ العُمَّال فى بناء مسجد دمشق، فوجدنا فيه مغارة، فعرّفْنا الوليدَ ذلك. فلما كان الليل وافىٰ، والشموع تزهر بين يديه، فنزل. فإذا كنيسة لطيفة : ثلاثة أذرع فى ثلاثة ؛ وإذا فيها صندوق. فإذا فيـه سَفَط، وفى السَّفَط رأْسُ يحيىٰ بن زكرياء. فأمر به الوليد، فرُدّ إلىٰ المكان. وقال آجعلوا العمود الذى فوقه مغيرًا من الأعمدة. فجعل عليه عمود مسَفَّط الرأْس.

رأس يحيىٰ بن زكريا فى كنيسة تحته

١٤٠

وقال آبن البرامىّ : سمعت أبا مروان عبد الرحيم بن عمر المازنىّ يقول : لما كان فى أيام الوليد وبنائه المسجدَ، آحتفروا فيه فوجدوا بابا مغلقا . فأتىٰ الوليد، ففُتح بين يديه. فإذا مغارة فيها تمثال رجل علىٰ فرس، فى يده الواحدة الدُّرّة التى كانت فى المحراب، ويده الأخرىٰ مقبوضة. فأمر بها، فكسرت. فإذا فيها حبّتان : حبّة قمح وحبّة شعير. فسأل عن ذلك، فقيل له : لو تركتَ الكفّ، لم يسوّس فى هذه المدينة قمح ولا شعير.



الأقباء المعقودة تحت المسجد

قلتُ : وحكىٰ لى شيخنا أبو عبد الله محمد بن أسد النجار الحرّانى الكاتب المجوّد، وكان يبـاشر به بعض العمائر، أنه فتح فى حضرته الشرقيـة المعروفة بتحت الساعات لكشف قُنِىّ المـاء. فإذا تحت المسجد أقبـاء معقودة وعمد منصوبة يفرق بينهما عضائد محكمة، قد أُحكم بنـاؤها، وشُدّت فى سلاسل الأساس معاقدها . قد بنيت بالصُّفّاح (١) والعمد، والبناء الذى ماهو فى قدرة أحد. قال : ودخلناها وجُلنا فى جوانبها.

الرواق الذى كان محيطا به ، وأنقاضه وماذا بنى بها

وحكىٰ لى المعلم علىّ بن محمد بن التقىّ المهندس، قال : حدّثنى أبى عن أبيه، قال : كان لهذه الكنيسة رواقٌ يحيط بها من الجهات الأربع بأبواب أربعة. فى كل جهة باب. فالشرقىّ باب جَيْرون ؛ وكان الباب الغربىّ تلقاءه، وراء المسرورية، مابين العَصْرونية وبينها. وبقى إلىٰ زمن العادل أبى بكر. ففكّهُ لما عمّر القلعة. ونقل حجارته وعمده إليها.

قال : وكان فى هذا الرواق قَلَالِىُّ وصوامعُ.

قلت : ومن آخر ما نُقض منها البابُ وما يجاوره برأْس القباقبيين، مما يلى عقبـة الكتّان.

وبُنى منه منارة الجامع الشرقية، بعد الحريق الكائن سنة أربعين وسبعمائة.

وتأخر من حجارته بقايا آشترُيت لعمارة الجامع اليلبغاوىّ، جوار بَرَدَا، سنة ثمـان وأربعين وسبعمائة.

وثَمّ بقايا من سُور ذلك الرواق وباب قديم، موجود بين المدرسـة النُّورية وبين المدرسة المجاهدية المعروفة بقصر هشام.

---

(١) الصُّفّاح حجارة عراض كما فى اللسان . وقد استعملها كتاب الاندلس بمعنى الصخور (راجع دوزى فى تكملة المعجمات العربية) . فلعل آبن فضل الله جرى فى هذا المقام على هذا الاصطلاح.

(١٤١) وقال آبن المُعَلّٰى : أخبرنى أحمد بن أبى العباس، حدثنا ضمرة عن علىّ بن أبى جَميلة قال : لما وَلِىَ عمر بن عبد العزيز، قالت النصارىٰ : ياأمير المؤمنين، قد علمتَ حال كنيستنا ! قال : إنها صارت إلىٰ ماترون. فعوّضهم كنيسة من كنائس دمشق، لم تكن فى صُلحهم، يقال لها كنيسة توما.

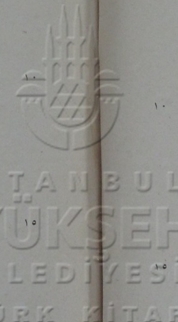
تعويض عمر آبن عبد العزيز علىٰ النصارىٰ بكنيسة أخرىٰ

قال آبن المعلّٰى : وبلغنى عن الوليد بن مسلم عن آبن جابر أنهم رفعوا إلىٰ عمر بن عبد العزيز ما أخذوا عليه العهد فى كنائسهم. فكلمهم ورفع لهم فى الثمن، حتّٰى بلغ مائة ألف . فأبَوْا . فكتب إلىٰ محمد بن سُوَيد الفِهرىّ أن يدفع إليهم كنيستهم، إلا أن يرضيهم . فأعظم الناسُ ذلك، وفيهم بقيّةٌ من أهل الفقه . فشاورهم محمد بن سُوَيد، متولى دمشق. فقالوا : هذا أمر عظيم ! ندفع إليهم مسجدنا؟ وقد أذّنّا فيه بالصلاة وجَمّعْنا فيه. يُهدم ويعاد كنيسةً؟ فقال رجل منهم : هاهنا خصلة. لهم كنائسُ عظام حولَ المدينة : دَيْرمُرّان، و باب توما، والراهب، وغيرها. إن أحبوا أن نعطيهم كنيستهم، ولايبقىٰ حول دمَشق كنيسة إلا هدمت؛ وإن شاؤوا تُركت هذه الكنائس ونسجّل لهم سجلا. ثم عرضوا عليهم ذلك. فقالوا : أنظِرونا، ننظرْ فى أمرنا ! فتركهم ثلاثا. فقالوا : نحن نأخذ الذى عرضتَ علينا، ونكتب إلىٰ الخليفة نخبره بذلك، ويسجّل هو لنا بأمان علىٰ مافى الغُوطة. فكتب إلىٰ عمر. فسرّه ذلك وسجّل لهم كنائسهم، إنهم آمنون أن تُخرَّب أو تُسكن. وأشهد لهم شهودا بذلك.

عمر بن عبد العزيز أراد إرجاعه للنصارىٰ، وكيف أرضاهم القوم وأرضوا عمر

وقال صفوان بن صالح : حدثنا الوليد، حدثنا محمد بن مهاجر : سمعت أخى عَمْرًا قال : سمعت عمر بن عبد العزيز، وذَكر مسجدَ دمشق، فقال : رأيت أموالا أُنفقت فى غير حقها، فأنا مستدركٌ ما آستدركتُ منها، فرادُّه فى بيت المال : أعمدُ إلىٰ ذلك الفسيفساء والرخام، فأقلعه وأطيّنه، وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالا، وأنزع

شروع عمر بن عبد العزيز فى نزع زخارفه لوضع ثمنها فى بيت المال، وكيف ردّوه عن ذلك مع المخاشنة



(١٤٢) تلك البطائن . وأبيع جميعَ ذلك . فبلغ ذلك أهل دمشق فآشتدّ عليهم. فخرج إليه اشرافهم فيهم خالد القسرىّ . فقال لهم خالد : آئذنوا لى حتّٰى أكون أنا المتكلم. فأذنوا له . فلما أتَوْا دير سمعان آستأذنوا علىٰ عمر. ثم قال له خالد : بلغنا ياأمير المؤمنين أنك هممت بكذا وكذا. قال : نعم. قال : والله مالك ذلك . فقال : عمر لمن هو؟ لأمّك الكافرة ! (وكانت نصرانية أُمَّ ولد) . فقال : إن كانت كافرة، فقد ولدت مؤمنا. فاستحىٰ عمر، وقال : صدقتَ ! فما قولك "ماذاك لى"؟ قال : لأنا كنا معشر أهل الشأم، وإخواننا من أهل مصر والعراق نغزو فيُفرض علىٰ الرجل منا أن يحمل من ارض الروم قفيزا بالصغير من فسيفساء، وذراعا فى ذراع من رخام. فيحمله اهل العراق وأهل حلب إلىٰ حلب ويستأجر علىٰ ماحملوه إلىٰ دمشق. ويحمل أهل حمص إلىٰ حمص فيستأجر علىٰ ماحملوه إلىٰ دمشق؛ ويحمل أهل الشام ومن وراءهم حصتهم إلىٰ دمشق . فذاك قولى : ماذاك لك. فسكت عمر.

ثم جاءه بريدٌ من والى مصر يخبره أن قاربا ورد عليه من رومية، فيه عشرة من الروم يريدون الوصول إلىٰ أمير المؤمنين . فأذن لهم وأمره أن يوجه معهم عشرة من المسلمين يحسنون الرومية، ولا يعلمونهم بذلك حتّٰى يحملوا إلىٰ كلامهم. فساروا حتّٰى نزلوا دمشق، خارج باب البريد. فسأل الرومُ رئيسَ العشرة من المسلمين أن يستأذن لهم فى دخول المسجد . فأذن لهم فمرّوا فى الصحن حتّٰى دخلوا من الباب الذى يواجه القبلة. فكان أوّل ما آستقبلوا المقام. ثم رفعوا رؤوسهم إلىٰ القبة. فخرّ رئيسهم مغشيًّا عليه . فحُمل إلىٰ منزله، فأقام ماشاء الله أن يقيم. ثم أفاق. فقال له أصحابه بالرومية : ماقصّتك؟ وما الذى عَرَض لك؟ قال : كنا معشر أهل رومية نتحدّث أن بقاء العرب قليل . فلما رأيت مابَنَوْا، علمتُ أن لهم مدّة سيبلغونها . فلذلك أصابنى ما أصابنى. فلما قدموا علىٰ عمر، أخبروه. فقال : لا أرىٰ مسجد دمشق إلا غيظا علىٰ الكفّار. فترك ما كان همّ به من امره .

وفود الروم وإعجابهم به

(١٤٣) رواية أخرى فى عزمه على تجريد القبلة مما فيها من الذهب

وقال أبو زُرعة الدمشقى : حدثنى أحمد بن إبراهيم بن هشام، حدثنا أبى عن أبيه عن جده، قال : أراد عمر بن عبد العزيز أن يجرّد ما فى قبلة مسجد دمشق من الذهب. وقال إنه يَشْغَل عن الصلاة. فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه أُنفق عليه فىءُ المسلمين وأعطياتُهم. وليس يجتمع منه شئٌ ينتفع به. فأراد أن يبيضه بالجصّ. فقيل له : تذهب النفقات فيه. فأراد أن يستره بالخزف فقيل له : ضاهيتَ الكعبة. فبينا هو كذلك إذ ورد عليه وفد الروم. فاستأذنوا فى دخوله فاذن لهم. وأرسل معهم من يعرف الرومية وقال : احفظوا مايقولون. فلما وقفوا تحت القبة، قال رئيسهم : كم للإسلام؟ قالوا : مائة سنة. قال : فكيف تُصغّرون أمرهم؟ ما بنى هذا البنيان إلا مَلِكٌ عظيم. وأتى الرسولُ عمرَ فأخبره، فقال : أما إذ غايَظ العدوَّ، فدعه.

إقرار المهدى العباسى بفضل بنى أمية فى أربعة أشياء

وقال أحمد بن إبراهيم بن ملّاس : حدثنا أبى عن أبيه قال : لما قدم المهدى يريد بيت المقدس، ومعه أبو عبيد الله الأشعرى كاتبُه، فقال : يا أبا عبيد الله! سبَقَنا بنو أمية بثلاث : بهذا البيت، لا أعلم على الأرض مثله، وبنُبْل الموالى، وبعمر بن عبد العزيز. لا يكون والله فينا مثله أبدا. فلما أتى بيت المقدس ودخل الصخرة قال : يا أبا عبيد الله، هذه رابعةٌ.

إعجاب المأمون ببنائه على غير مثال تقدم

قال أحمد : وحدثنا أبى أن المأمون لما دخل مسجد دمشق ومعه المعتصم ويحيى ابن أكثم قال : ما أعجبُ ما فى هذا المسجد؟ قال المعتصم : دهنه و بقاؤه، فإنا ندعه فى قصورنا فلا يمضى عليه عشرون سنة حتّى يتغير. قال : ما ذاك أعجبنى منه. فقال يحيى بن أكثم : تأليف رخامه، فإنى رأيت فيه عقدا ما رأيت مثلها. قال : ما ذاك أعجبنى. قالا : فما هو؟ قال : بنيانه على غير مثال متقدم.



عجائب الدنيا خمس عند الشافعى منها المسجد الأموى (١٤٤)

وقال الشافعى : عجائب الدنيا خمس : منارة ذى القرنين، والثانية أصحاب الرقيم بالروم، والثالثة مرآة ببلاد الأندلس معلقة على باب مدينتها الكبيرة إذا غاب الرجل من بلادهم على مسافة مائة فرسخ وجاء أهله إليها، يرون صاحبهم من مسافة مائة فرسخ، والرابعة مسجد دمشق، والخامسة الرخام والفسيفساء، فإنه لايُدرى له موضع.

قلتُ : وكذا ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر.

صناعة الفسيفساء وأنواعها

والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق. ومن هذا النوع المسحور. وأما الملون فمعجون.

الفسيفساء التى احترقت سنة ٧٤٠

وقد عمل منه فى هذا الزمان شئ كثير برسم الجامع الأموى وحُصِّل منه عدة صناديق وفسدت فى الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة، وعمل منه قِبَلٌ للجامع التنكزى ما على جهة المحراب.

الفرق بين القديمة والجديدة فى أيام المؤلف

غير أنه لا يجيء تماما مثل المعمول القديم فى صفاء اللون وبهجة المنظر. والفرق بين الجديد والقديم أن القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد، والجديد قطعه مختلفة. وبهذا يعرف الجديد والقديم.

هذا المسجد يشوق إلى الجنة

وروى الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان قال : ما ينبغى أن يكون أحد أشد شوقا إلى الجنة من أهل دمشق، لما يرون من حسن مسجدها.

الدرة المسماة "قليلة"

وروى أحمد بن البرامى بسنده عن عبد الرحيم الأنصارى قال : سمعتُ [بعض] الأعراب وهم يدورون المسجد، يقولون : لا صلاةَ بعد القُلَيْلة. فقيل له : رأيتَ القُلَيْلة؟ قال : نعم، وهى تضىء مثل السراج. قلت : مَنْ أخذها؟ قال : أما سمعت المثل؟ "منصور سرق القلة، وسليمان شرب المزة" منصور الأمير، وسليمان

الأمين يسرقها، والمأمون يردّها للتشنيع عليه

صاحب الشرطة، يعنى صاحب شرطته. وذلك أن الأمين كان يحب البلور. فكتب إلىٰ صاحب شرطة متولى دمشق أن يُنفذ إليه القُلَيْلَة. فسرقها ليلاً، وبعث بها إليه. فلما قُتل الأمين ردّ المأمون القُلَيْلَة إلىٰ دمشق ليُشنّع بها علىٰ الأمين.

ضياعها وآنكسار البرنية الزجاج التى وضعت محلها

وكانت فى محراب الصحابة. فلما ذهبتْ جُعل موضعها برنيّة زجاج رأيتُها ثم آنكسرت فلم يُجعل مكانها شئ.

أستار المسجد

وقال علىّ بن أبى جميلة: كنا نستر مسجد دمشق فى الشتاء بلبود حسنة، فدخلته الريح فهزّته. فثار الناس فخرقوا اللبود.

وصف المؤلف لبنائه الوثيق الأنيق

قلتُ: وأما بناؤه، فهو وثيق البناء، أنيق البهاء، قد بُنى بالحجر والكِلس إلىٰ منتهىٰ حوائطه، وشُرِّف بالشراريف فى أعاليه، وآتُّخذت له ثلاث منائر: اثنتان فى جناحَىْ قبلته، شرقا وغربا؛ والثالثة فى شامه وتعرف بالعروس.

أبوابه القديمة والمستجدة

ويُدخل إليه من ستة أبواب، منها أربعة أُصول، وآثنان مستجدان. فالأُصول باب الزيادة، وهو فى حائطه القبلىّ؛ وباب الساعات وهو فى حائطه الشرقىّ، يفضى إلىٰ حضرة الساعات المعمولة لمعرفة الأوقات، تدار بالماء، وتعلق بها أبواب الساعات. وتُجاهه فى الحائط الغربىّ باب البريد، وهو أشهر من الشمس فى الآفاق، وأكثر ذكرا من "ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ" للرفاق. وهو حضرة فسيحة فى جانبها حوانيت للفواكه والشمع والعطر والشراب وأطايب المأكول. وبها القُنِىّ من المياه الجارية، وتوقد عليها المصابيح بالليل فيموّه الماءَ ذهبُ شعاعها، وتُطرب أنابيبها الأسماع بلذة إيقاعها.

والرابع باب النطّافين وهو فى حائطه الشمالىّ، تلاصقه الخانقاه الشميشاطية وتقاربها الأندلسية.

وأما البابان المستجدان فهما الباب النافذ إلىٰ الكلّاسة، والباب النافذ إلىٰ الكاملية. (١٤٥)
وهما جناحا باب النطّافين.

صحن المسجد وفسيفساؤه

والمسجد ذو صحن يصاقب باب النطّافين، قد فُصّصتْ حوائطه بالفسيفساء الرومىّ المُذْهَب والملوّن بغرائب الأشجار والصباغة.

رواق الصحن

ويدور به رواقٌ قد أُزّرت جُدُره وسواريه بالرُّخام الملوّن، وعُقدت رؤوس عمده وسواريه بالقناطر. وجُعل علىٰ قنطرة منها طاقاتٌ صغارٌ، يفصل بين كلّ آثنتين منها عمود رخام أوسارية.

أروقة القبلة، وقبة النسر

وفى قبلته ثلاثة أروقة، وفى وسطها القبة المعروفة بالنّسر: قد عُقدت علىٰ المحْراب الكبير الذى يصلّى به خطيب الجامع وعامة الناس؛ ومقصورة الخطابة وبها المنبر، وأمامه سُدّة الأذان.

المصحف العثمانى الذى كان فيه

وإلىٰ جانبه الأيسر المصحف العثمانىّ بخط أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

محراب الصحابة

وفى شرقىّ هذه المقصورة المحراب المعروف بمحراب الصحابة. وهو محراب المسلمين الأُوَل. وبه تصلى المالكية الآن.

محراب الحنفية

وغربىّ المحراب الكبير محرابٌ يعرف باللازوردة. تصلى به الحنفية، جوارَ دار الخطابة.

محراب الحنابلة

ثم يليه باب الزيادة، ويليه من الغرب محرابٌ تصلى به الحنابلة.

ولكل من هذه المحاريب الثلاثة إمام ومؤذّن. وقد وُقف فى كل محراب منها وقفٌ علىٰ مدرّس وجماعة من الفقهاء من المذاهب الثلاثة: كلٌّ طائفة فى محرابها.

وصف الأروقة

وكلٌّ أروقته بالعمد والعضائد ، عليها طاقاتُ القناطر المعقودة بعضها على بعض .

وقد أُزِّرت جُدُرُ هـذه الأروقة بالرُّخام الأبيض والمجزَّع والأحمر المنقَّط والأخضر المرشوش والأسود الغرابيّ والأبقع والمعجون الأزرق.

وصف قبة النسر

وأما أركان القبة الأربعة وجناحا النَّسر القبليّ والشاميّ فمن الرخام إلى أعلى الجدر والأركانِ معمولٌ بالفسيفساء ، مسقوفٌ بالبطائن المعمولة بالذهب واللازورد والزنجفر والإسفيداج والأصباغ الخالصة من لونٍ والمركبة من لونين .

مشاهد الخلفاء الراشدين

وقد جُعل فى أركان المسجد الأربعة أربعةُ مَشاهدَ آتُّخذت على أسماء الصحابة الأربعـة . فالشرقيّ بقبليه [مشهدٌ] على آسم أبى بكر، وبه عدّة خزائن كُتُب وقف . وشاميه مشهدٌ على آسم علىّ . والغربىّ بقبليه مشهدٌ على آسم عمر، ويعرف الآن بمشهد عروة ، وبه شيخ حديث وجماعةٌ من العلماء يستمعون الحديث بوقف مستقل وعدّة خزائن كتب وقف . وشاميّه(1) مشهدٌ على آسم عثمان . وبه يصلى نائب السلطان فى شباكه والحاكم الشافعيّ إلى جانبه .

وبهذا الشباك يحكم الحاكم بعد الصلاة ، كأنه كرسيّ ملك له .

مجلس الحاكم الشرعى والحكام الأربعة

وبهذا المشهد تعقد مجالس الحكام الأربعة والعلماء لفصل القضايا المعضلة التى لاينفرد بها حاكم . فيجتمعون بأمر نائب السلطان وينظرون فى تلك الحكومة ويحكمون فيها بأجمعهم .

سجن زين العابدين

وداخل مشهد علىّ مشهدٌ لطيف يعرف بالسجن . يقال إنه سُجِن به زين العابدين حين أُقدِم على يزيد . وجواره فى زاوية الرواق الشاميّ ــ شرقيّ الباب النافذ إلى الكاملية ــ مقصورةٌ قد جاور بها جماعةٌ من الفقراء ، وتعرف بالحلبية . وبها خزانة كتب وقف .

(1) كذا وقع فى الأصل ولعله سهو عن جنوبيه .

وفى كلّ من ذلك إمامٌ يُؤتَمُّ به ، ومؤذنٌ يقيم الصلاة ويُبلِّغ .

العمارات والمدارس التى انضمت إليه

وفى هذا المسجد زياداتٌ فى شماله آتسع بها فِناؤه ، وتفسحت أرجاؤه .

منها الزاوية الحلبية المذكورة فى أوّل حدّه الشمالىّ من الشرق ؛

ثم التربة الكاملية ، ولها مسجد له إمام ومؤذن ؛

والكلّاسة ، وبها إمامان ومؤذنان .

وفى شامها ، الأشرفية والمدرسة العزيزية ينفذ إليهما ، ولكل منهما إمام ومؤذن .

وجوار المدرسة العزيزية التربةُ الصلاحيّة من غربها .

هذا إلى عدّة أئمة تقوم فيه آحتسابا .

فرشه بالمرمر وعمده وعضائده بالرخام المذهب

وقد فُرش المسجد بالمرمر (ومقطعه من جبل المزّة) وعمد قائمه بالرخام الملون والمنقوش المُذْهَب .

فساقى الماء

وكذلك عُملت عضائده وذُهِّبت قواعد عمده ورؤوسها . وأُجرِى الماء فى صحنٍ عُقِدت عليه قبةٌ فى صحنه ، وفى صحنٍ فى ركن النَّسر من داخل الرواق ، وفى جميع مشاهده وزياداته ، وفى ميضأةٍ آتُّخذت أسفل المنارة الشرقية منه . هذا إلى مافى حضرة باب البريد والزيادة وتحت الساعات من مياه جارية ، وأسواق قائمة ، وسُرُج تتقد ليلا كالأنجم ، وبيوت ذات مناظر تملأ عين الناظر المتوسّم .

عود الى وصف القبـة

فأما القبـة فما لايجول مثلها فى ظنّ ، ولا يدور فى فكر . قد تعلّق رفرفها بالغمام عابثا ، وحلّق طائرها إلى أخويه النسرين يبغى أن يكون لهما ثالثا . قد بُنيت على

قناطر، ممتدّة علىٰ قناطر، بعقود مُحكمه، وقطع صخور مُنظّمه، إلىٰ سقوف مُذْهَبـه، ومحاسن موجزة مسهبه.

طول هلال القبة

وعلى رأس القبة هلالٌ عالٍ فى أنبوبة، طولَ الرمح.

قد غُلِّفت هى وكل الأسطحة بالرصاص. وحُكِّمت ميازيبُه، وجُمع فيه من كل حَسَن غريبُه.

وصف ساعة المسجد

قال أبو محمد بن زَبْر القاضى: سُمى بابَ الساعات لأنه عمل هناك بيكار[1] الساعات، يُعلم بها كلُّ ساعة تمضى. عليها عصافيرُ من نُحاسٍ وحيّة من نُحاس وغرابٌ من نحاس. فإذا تمت الساعة خرجت الحيّة، وصفرت العصافير، وصاح الغراب، وسقطت حصاة فى الطَّست.

طلسمات الجامع قبل حريقه ١٤٧

وكان فى الجامع قبل حريقه طِلَّسماتٌ لسائر الحشرات، مُعلّقةٌ فى السقف فوق البطائن. ولم يكن يوجد فى الجامع شئ من الحشرات قبل الحريق. فلما آحترقت الطلسمات، وُجدتْ. ومما كان فيه طِلَّسمٌ للصنونات[2] لاتعشش فيه. ولا يدخله غرابٌ. وطِلَّسم للفأر، وطلَّسمٌ للحيّات والعقارب. وما أبصر الناس فيه من هذا شيئا إلا الفأر. وفيه طِلَّسمٌ للعنكبوت.

وكان حريق الجامع فى نصف شعبان سنة إحدى وستين وأربعمائة.

حريق الجامع سنة ٤٦١ وسببه

وكان سببه أن أمير الجيوش بدرًا الجمالىّ ورد من مصر إلىٰ دمشق فى هذه السنة. فلما كان بعد العصر يوم نصف شعبان، وقع القتال بين المشارقة والمغاربة. فضربوا

(١) هكذا فى الأصل. وصوابه "بنكام". وهى الساعة المائية التى وصفها آبن جبير الأندلسىّ فى رحلته

(٢) هو الطائر المعروف بآسم سنونو عند العرب وبآسم عصفور الجنة عند عامة مصر. وآسمه الفرنسىّ Hirondelle.

دارا كانت مجاورة للجامع بالنار، فبادرتْ إلىٰ الجامع. وكانت العامة تعاون المغاربة. فتركوا القتال وقصدوا إطفاء النار من الجامع. فجلّ الأمر وعظم، فجعلوا يبكون ويتضرّعون.

وصف العماد الكاتب لهذا الحريق

ووصف العماد الكاتب هذا الحريق فى كتابٍ. فقال: "وفى النصف من شعبان هذه السنة، آحترق جامع دمشق. ففُجع الإسلام بمُصَابه؛ وصلّت النار فى محرابه؛ وآشتعل رأس القبة شيبًا بما شبّت، وأكلت النارأُمَّ الليالى منها مارَبّت؛ وطار النسر بجناح الضِّرام؛ وكاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام؛ فكأنّ الجحيم آستجارت به فتمسكت بذيله؛ وكأنّ النهار ذكر ثأرًا عنده فعطف علىٰ ليله؛ فواهًا له! من مسجد أحرقته نَفَحاتُ أنفاس الساجدين؛ وعَلقت فيه لَفَحات قلوب الواجدين؛ ثم تداركه الله بالألطاف والإطفاء؛ وأتاه بالشفاء بعد الآستشفاء؛ وقال حسبه آصطلاء وآصطلاما؛ وحقق فيه قوله: "قُلْنا يَانَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا".

أبيات فى ذلك الحريق

وقال آبن العين زَربىّ فى الحريق المذكور:

لَهْفَ نفسى علىٰ دمشق التى كا * نتْ جَمالَ الآفاق والأقطارِ!
وعلىٰ ما أصاب جامعها الجا * مِعَ للعجبات والآثارِ!
إذ أتته النّيران طُولا وعَرضا * عن يمين من قُطره ويسارِ،
ثم مَرّت علىٰ حدائق نخل * فإذا الجمر موضع الجُمّارِ!

الفوارات التى به وتواريخ إنشائها وسقوط عمدها وما فوقها

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أقيمت القبة الرخام التى فيها فوارة الماء فى سنة تسع وستين وثلثمائة. قال: "وقرأتُ بخط إبرهيم بن محمد الحنائى": أُنشئت الفوارة المنحدرة فى وسط جيرون سنة ست عشرة وأربعمائة. وأَمَرَ بجرّ القصعة من ظاهر

(١٤٨) قصر حجاج إلىٰ جيرون وأجرىٰ ماءَها الشريفُ فخر الدولة حمزة بن الحسن بن العباس الحسينى". وتحتهُ بخط محمد بن أبى نصر الحُمَيدى". "وسقطت فى صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة، من جِمالٍ تحاكَّتْ بها. فأنشئت كَرَّةً أخرى".

قال ٱبن عساكر: ثم سقطت عمدها وما عليها فى حريق اللبادين ورواق دار الحجارة ودار خديجة فى سنة ٱثنتين وستين وخمسمائة.

عمل الشاذروان بعد سنة ٦١٠

قال الحافظ أبو عبدالله الذهبى: ثم عُمل لها الشاذروان، فى آخر دولة الملك العادل سنة نيف عشرة وستمائة.

وصف الذهبى لقصعة الفوّارة الكبرى وما بنى عوضا عنها بعد حريق سنة ٦٨١

قال: "ورأيتُ القَصعة وهى أكبر من التى فى وسط طهارة جيرون. وفى زنّارها الأوسط ستُّ أنابيبَ صغار، تفور حولَ الفوّارة. وعليها درابزينات. فلما ٱحترقت اللبادين سنة إحدى وثمانين وستمائة، تلفت هذه القصعة وبُنى عوضَها هذه البركة المثمّنة. وينبع الماء فى هذه البركة من قناةٍ دُفنت إليها من مكان مرتفع. فيعلو بها الماء نحو قامة. وسُمعة الفوّارة أعظم من مرآها، وٱسمها أجلّ من معناها."

حريق سنة ٧٤٠ وتجديد المنارة على أجل مثال

قلتُ: ولما وقع الحريق سنة أربعين وسبعمائة بسوق الدهشة والطرائفيين وتشعّث وجه الجدار الذى للمشهد المعروف بأبى بكر وتعلّت شَرَر النار حتّى وصلت إلىٰ دائر المنارة الشرقيّة وشرعوا فى إصلاح ماوهىٰ من ذلك، وجدوا أعاليها متداعية، وحجارتها مفخّرة مفطّرة. فوقف عليها الحكام وقامت البيّنة بالضرورة الداعية إلىٰ نقض المنارة وتجديد بنائها. فنُقضت جُدُرها الأربعة إلىٰ حدّ أوتار الرواق القبلى، ونُقض الجدار القبلى والجدار الشرقى إلىٰ الأرض، وحُفر مابين الجدران فى وسط المنارة عدّة

قاماتٍ. وبُنى ذلك لَبِنةً واحدة، وبُنيت المنارة بنيانا جليلا لم يُبن من زمن الوليد أجلُّ منه ولا أوثق.

مقامة الصفدى فى وصف الحريق سنة ٧٤٠

وقال الفاضل صلاح الدين أبو الصفاء الصفدى من مقامةٍ أنشأها فى الحريق المذكور، من فصل يتعلق بالجامع:

«فسألتُ الخبر، ممن غبر، فقال: إن الحريق وقع قريبا من الجامع، وٱنظر إلىٰ شَبَح الجوّ كيف ٱنتشرت فيه عقائق اللّهَب اللامع! فبادرتُ إلىٰ صحنه والناس فيه قطعة (١٤٩) لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم؛ ورأيت النار، وقد نشرت فى حداد الظلام مُعَصْفَراتِ ذوائبها، وصعّدت إلىٰ السماء عَذَباتِ ذوائبها:

ذوائبُ لجّتْ فى عُــلُوّ كأنّمَا * تحاول ثأْرًا عند بعض الكواكبِ.

وعلت فى الجوّ كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف فى الميدان يراها وهى "تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ"؛ فكم "زُمَرٍ" "أضحت" لذلك "الدُّخَان" "جاثِيه". وكم نفس كانت "فى النازِعَات" وهى تتلو "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَه"؟ ولم تزل النار تأكل ما يليها، وتُفنى مايستفِلها ويعتليها؛ إلىٰ أن ٱرتفعتْ إلىٰ المنارة الشرقيه، ولعبت ألسنتها المسودّة فى أعراض أخشابها النقيه؛ وثارت إليها من الأرض لأخذ الثار، وأصبح صَخرها كما قالت الخنساء "كأنه عَلَمٌ فى رأْسه نار". فنُكّست وكانت للتوحيد سبّابة، ولمعبدها المطرب شبّابة؛ وٱبتُلِيَ رأْسها من الهدم والنار بشقيقه، وأدار الحريق علىٰ دائرها رحيقَه:

وبالأرض من حُبّها صفرة، * فما تُنْبت الأرض إلا بَهارًا.

وأصبح "باب الساعات" وهو من آيات الساعه، وخلت مصاطب الشهود من

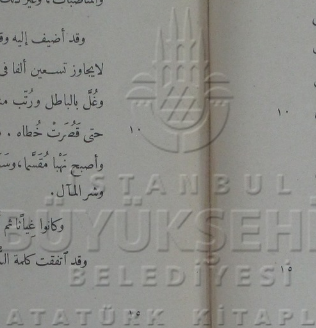
السنّة والجماعه، وعادت الدهشه، وقد آل امرها إلى الوحشه، وحسنُها البديعُ وقد تلّتِ النارُ عرشه. كأنْ لم أرَ بها سميرا، ولا شاهدتُ من بنائها وقماشها جنّةً وحريرا».

وصف ابن غانم لهذا الحريق — وقال جمال الدين عبد الله بن غانم، من كتابٍ عن كافل الشام، تنكز (رحمه الله) إلى نائب طرابلس فى هذه الواقعة.

«وأضحى "فَمُ الفوارة" يصاعد[١] جمرات أنفاس، و "سوق النحّاسين" يُرسَل منه إلى سور الجامع "شُواظٌ مِن نارٍ ونُحاس"، وأُقعِد "بيت الساعات" إلى قيام الساعه، ودُخل إلى باب الجامع لكن لغير طاعه، وكاد يُصلَى مَنْ به يُصلّي، ويُقبل على صف العابدين فيُولّي. واهتزّت المأذنة بحُمّى نافض، وتشعّث وجه المشهد الأبى بكرىّ فكأنما أصابته عين الروافض، وترقرقتْ عيون العابدين من الألم، ورقّ صحن
(١٥٠) الجامع لمأتم هُداة الساجدين من المأذنة بنار على عَلَم، وما زالت مِرآةُ اللّهب حتّى خرّبت المنار، وصُفّ بعد ذلك فى صحن الجامع مافضَل عن أكل النار.»

وصف المؤلف لعمار هذا المسجد بالناس دائما — قلتُ: وهذا المسجد معموُر بالناس كلّ النهار وطَرَفى الليل، لأنه ممرّ المدارس والبيوت والأسواق. وفيه ماليس فى غيره من كثرة الأئمة والقرّاء، ومشايخ العلم والإقراء، ووجوه أهل التصدير والإفتاء، ووظائف الحديث وقراء الأسباع والمجاورين من ذوى الصلاح. فلا تزال أوقاته معمورة بالخير، آهلة بالعبادة. قلّ أن يخلو طرفة عين فى ليل أو نهار من مُصلٍّ، أو جالسٍ فى ناحيةٍ منه لاعتكاف، أو مرتّلٍ لقرآن، أورافعٍ عقيرتَه بأذان، أومكرّرٍ فى كتاب علمٍ، أو سائلٍ عن دينٍ، أو باحثٍ فى معتقَد، أو مقرّرٍ لمذهبٍ، أو طالب لحل مشكلٍ: من سائلٍ ومسؤل، ومفتٍ ومستفتٍ. هذا إلى مَن يأتى هذا المسجد مستأنسا لحديثٍ، أو مرتقبا لقاءَ أخٍ، أو متفرجا

(١) لعل الأصوب: يُصعّد.



فى فضاء صحنه وحسن مرأى القمر والنجوم ليلا فى سمائه. هذا إلى فسحة الفضاء وطيب الهواء وبَرْد رُواقاته، اوقاتَ الهجير، وحسن مَرائى ميازيبه، أحيانَ المطر. وفى كل ناحية من وجهها قمر.

أوقافه ومرتباته — وعلى هذا الجامع من الوظائف المرتبة ما لا يَستقِلّ به إلا ديوانُ مَلِكٍ، وعليه جلائل الأوقاف. إلا أن الأيدى العاديَة قد استولت على كثير منه لسبه[١] الأكابر والمناصبات، وغير ذلك مما عُمل عليه على سبيل التّصبّات.

وقد أضيف إليه وقفُ المصالح، وقد كان أُفرِد زمَن نور الدين، رحمه الله. وهو لايجاوز تسعين ألفا فى السنة. جُعل لها مصارف أخذ بحجتها كل مال المسجد وغُلّ بالباطل ورُتّب منه لغير ذوى الاستحقاق. وحُمّل حتّى كلّ مَطاه، وأخذتْ حتى قصُرتْ خُطاه. وها هو الآن قد اختلّت أحواله، وأُكلت وشُربت أمواله. وأصبح نَهْبا مُقسّما، وسَواما صِيحَ فى حَجَراته. وآل حالُ مباشريه إلى أسوإ الحال وشر المآل.

وكانوا غياثًا ثم أضحوا رزيّةً * ألا عَظُمتْ تلك الرزايا، وجلّتِ!

وقد اتفقت كلمة السُّفّار فى الآفاق إلى أنه فردٌ فى محاسنه، بديع فى نظرائه.

مقام إبراهيم ببَرْزة

(١٥١)

مقام إبراهيم بقرية برزة (بالغوطة) — روى مكحول عن ابن عباس، قال: وُلِد إبراهيم بغُوطة دمشق فى قرية يقال لها بَرْزةُ، بجبل قاسِيُون.

(١) فى الأصل: "لسبه الأكابر والمناصبات" وفى الكلام إبهام. ولعل المؤلف أراد أن يقول: "لشبه المكابرات والمناصبات."

وعن حَسّان بن عطيـة قال: أغار ملك نَبَط هذا الجبل على لوط فسباه وأهله. فأقبـل إبراهيم فى طلبـه، فى عدّة أهل بدر: ثلثمائة وثلاثة عشر. فالتقى هو وملك الجبـل فى صحراء يعفور. فعبّى إبراهيم ميمنـةً وميسرةً وقلبا. وكان أوّلَ من عبّى الحرب هكذا. فالتقوا. فهزمه إبراهيم وآستنقذ لوطا وأهله. فأتى هذا الموضع الذى ببَرْزة، فصلّى فيه.

وروى أحمد بن حميد بن أبى العجائز عن أبيـه عن شيوخه، أن الأثاراتِ التى فى بَرْزة عنـد المسجد الذى يقال له مسجد إبراهيم فى الجبل (عند الشق) أنه مكان إبراهيم، وأن الأثارات التى فوق الشّق فى الجبل موضع رأى إبراهيم(١)، فمن صلّى فيه ودعا أجابه الله، وأن ذلك الجبل كان فيه لوط و جماعة من الأنبياء وآثارهم فى مواضع من الجبل. أدركتُ الشيوخ يقصدونه و يصلون فيه و يدعون. وهو نافع لقسوة القلب وكثرة الذنوب، وأن بعضهم جاء من مكة فصلّى فى الموضع الشق، لمنامٍ رآه.

وعن أبى الحسين محمد بن عبد الله الرازىّ، قال: قال أحمد بن صالح: أدركتُ الشيوخ بدمشق وهم يفضلون مسجد إبراهيم عليه السلام ببرزةَ و يقصدونه و يصلُّون فيه ويذكرون أن الدعاء فيه مجاب، وهو موضع عظيم شريف. ويذكرون ذلك عن شيوخهم ويقولون إن الشق الذى فى الجبل خارجا عن المسجد هو(٢) الموضع الذى اختبأ فيه إبراهيم من النمروذ، صاحب دمشق.

وعن عروة بن رُويم عن أبيه عن علىّ: سمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسأله رجل عن الأثارات بدمشق فقال: لها جبل يقال له قاسيون، فيه قَتَل آبنُ آدم

(١) لعل المراد: موضع رؤياه.
(٢) فى الاصل: وهو.



أخاه، وفى شرقيّه وُلد إبراهيم، وفيه آوى الله عيسٰى بن مريم وأُمّه من اليهود. وما من عبد أتى معقل روح الله فآغتسل وصلّى فيه ودعا، إلا لم يُرَدّ خائبا. وهو جبل كلمه الله. (والحديث طويل. وهو موضوع، وانما ذكرته لئلا يُغتَرّ به.)

مغارة الدم

(١٥٢)

مغارة الدم وفضلها، خصوصا فى الآستسقاء.

قال أبو زُرعة الدمشقىّ: سألت أبا مُسْهِرٍ عن مغارة الدم. فقال: مغارة الدم موضع الحمرة، موضع الحوائج. يعنى بذلك الدعاءَ فيها والصلاةَ.

وقال محمد بن أحمد بن إبراهيم: حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، سمعتُ سعيد ابن عبد العزيز: حدثنى مكحول أنه صعد مع عمر بن عبد العزيز إلى موضع الدم يسأل الله أن يسقيَنا، فسقانا.

قال مكحول: وخرج معاوية والمسلمون إلى موضع الدم يستسقون. فلم يبرحوا حتّى سالت الأودية.

قال سعيد بن عبد العزيز: صعدنا فى خلافة هشام إلى موضع قتل آبن آدم نسأل الله أن يسقينا. فأتى مطر، فأقمنا فى الغار الذى تحته ثلاثة أيام.

وقال هشام بن عمار: صعدتُ مع أبى وجماعة ــ نسأل الله سُقْيَا ــ إلى موضع قَتَلَ آبنُ آدمَ أخاه. فأرسل الله علينا مطرا غزيرا، حتّى أقمنا فى المغار. فدعونا الله فآرتفع عنا، وقد رَوِيتِ الأرضُ.

وقال محمد بن يوسف الهروىُّ: سمعتُ يزيد بن محمد وأبا زُرعة وأحمد بن المُعلّى وسليمان بن أيوب بن حَذْلم وغيرَهم من مشايخنا يقولون: سمعنا هشام بن عمار وهشام

ابن خالد وأحمد بن أبي الحَوَارِيّ [1] وسليمان بن عبد الرحمن والقاسم بن عثمان الجُوعيّ يقولون: سمعنا الوليد بن مسلم يقول: سمعت ابن عَيَّاش يقول: «كان أهل دمشق إذا احتبس عنهم القَطْرُ أو غلا سعرهم أو جار عليهم سلطانٌ أو كانت لأحدهم حاجةٌ، صعدوا إلى موضع ابن آدم المقتول. فيسألون الله، فيعطيهم ما سألوا.»

قال هشام: ولقد صعدتُ مع أبي وجماعة من أهل دمشق نسأل الله سقيا. فأرسل الله علينا مطرا غزيرا حتى أقمنا في الغار الذي تحت الدم ثلاثة أيام.

قال هشام بن عمار: وسمعت من يذكر عن كعبٍ قال: اختبأ إلياسُ من مَلِكِ قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين، حتى أهلك الله الملك ووَلِيَ غيرُه. فأتاه إلياسُ فعرَض (١٥٣) عليه الإسلامَ. فأسلم وأسلم من قومه خلقٌ، سوى عشرة آلاف منهم. فأمر بهم فقتلهم عن آخرهم. [2]

مقام عيسى بالربوة

مقام عيسى بالربوة

روى هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم، قال حدثنا الأوزاعيّ عن حسان بن عطية أن مَلِكا من بني إسرائيل حضره الموت، وأوصى بالمُلك لرجلٍ حتى يُدرك ابنُه. وكانوا يؤمّلون أن يُدرك ابنُه فيملّكوه. قال: فمات فجزعوا عليه. فلما خرجوا بجنازته، وفيهم عيسى بن مريم، دنا من أمّه فقال: أرأيتِ إن أنا أحييتُ لكِ ابنكِ، أتؤمنين بي وتتبعيني؟ قالت: نعم. فدعا الله. فجعلت أكفانُه تحلّل عنه، حتى استوى جالسا. فقالوا: هذا عمل ابن الساحرة. وطلبوه حتى انتهى إلى شِعب النيرب. فاعتصم منهم

معجزتان لعيسى

(١) الحواريّ بوزن سكاريّ. انظر القاموس (في مادة ح و ر).

(٢) بياض في الأصل مقدار سبعة سطور.

بقلعة على صخرة متعالية. فأتاه إبليس فقال: «جئتك، وما أعتذر إليك من شيء. هذا أنت لم تنافسهم في دنياهم ولا شبرٍ من الأرض، صنعوا بك ما صنعوا. فلو ألقيتَ نفسك من هذا المكان، فتلقاك روح القُدُس فيذهب بك إلى ربك فتستريح منهم؟» فقال: «يا غَوِيّ، الطويلَ الغَواية! إني واجدٌ فيما علمني ربي، عزوجل، أني لا أُجرّب ربي حتى أعلم أراضٍ عني أم ساخطٌ عليّ.» فأقبلتْ أمُّ الغلام، فقالت: يا معشر بني إسرائيل! (١٥٤) كنتم تبكون وتشقّون ثيابكم جزعا عليه، فلما أحياه الله لكم أردتم قتله. قالوا: فما تأمرينا به؟ قالت: إيتوه فآمنوا به. فأتوه فقالوا: خَصلةٌ بيننا و بينك! إن أنت فعلتَها، اتّبعناك. قال: وما هي؟ قالوا: تُحيي لنا عُزَيرا قال: دلّوني على قبره. فنزل عيسى معهم حتى انتهوا به إلى قبره. قال: فتوضأ وصلّى ركعتين ودعا. فجعل قبره يتفرّج عنه التراب. فخرج قد ابياضّ نصف رأسه ولحيته وهو يقول: هذا فعلك يا ابن مريم! قال: لم أصنع بك. هذا فعل قومك. زعموا أنهم لا يؤمنون لي ولا يتّبعوني حتى أُحييك لهم. وهذا في هُدى قومك يسير. قال فأقبل عليهم يعظهم و يأمرهم باتّباعه. فقال له قومه: عهدناك وأنت أسود الرأس واللحية! فما لنصف رأسك ولحيتك قد ابيضّ؟ قال: سمعت الصيحة، فظننتُ أنها دعوة الداعية، حتى أدركني مَلَك، قال: إنما هي دعوة ابن مريم. فانتهى الشيب إلى ما ترى.

اختلاف المفسرين في موقع الربوة

واختلف أهل التفسير في تعيينها.

وروى مرفوعا عن النبيّ، صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: "وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومعينٍ". قال: تدرون أين هي؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هي بالشام بأرض يقال لها الغُوطة، مدينة يقال لها دمشق، هي خير مدائن الشام.

وروى عن ابن عباس قال: الرَّبوة أنهار دمشق.

وكذا قال سعيد بن المسيّب ويزيد بن شجرة، وقال كعب أمر الله تعالى عيسى بن مريم وأمّه أن يسكنا دمشق، وهى إرم ذات العماد.

وقال الحسن فى تفسير الآية: هى ارض ذات أشجار وأنهار. يعنى أنهار دمشق.

وعن الوليد بن مسلم عن بعض مَشْيخته أن بنى إسرائيل همّت بعيسى فأمره الله أن ينطلق إلى دمشق. وقال الحسن: ذات قرار ومعين، ذات معيشة تقوتهم وتحملهم. وماء جارٍ. قال: هى الربوة، هى دمشق.

وقيل إن الربوة فى القرآن هى الرملة. رُوى مرفوعا عن النبىّ، صلى الله عليه وسلم. وزاد فيه: ولا تزال طائفة من أمتى على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتّى يأتى أمر الله وهم كذلك. قلنا: يارسول الله، وأين هم؟ قال: بأكناف بيت المقدس.

وروى عبد الرزاق فى تفسيره عن أبى هريرة قال: هى الرملة من فلسطين. (١٥٥)

ويروى عن قتادة: هى بيت المقدس.

وقال زيد بن أسلم: هى الإسكندرية.

وقال وهب: هى مصر(1).

ويروى عن جابر الجعفىّ عن أبى جعفر: وآويناهما إلى ربوة، قال: الكوفة، والمعين الفرات.

وقيل غير ذلك. والراجح عند الأكثرين أنها ربوة دمشق.

انتقاد المؤلف على هذه الأقوال

وهذه الأقوال واهيةٌ. وإنما ذكرناها للتعجب، اقتداءً بالحافظ أبى القاسم بن عساكر، رحمه الله!

(1) المقصود هنا المدينة المعروفة قديما بالفسطاط.



الكهف(1) بقاسيون

بناء الكهف بقاسيون سنة ٣٧٠ ورؤيا غريبة فى ذلك

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق: ذكر أبو الفرج محمد بن عبد الله آبن المُعلّم أنه آبتدأ ببناء الكهف سنة سبعين وثلثمائة. قال: وبالله ربى أعتصم من الكذب، وأسأله أن يُنطق بالصدق لسانى. رأيتُ جبريل عليه السلام فى النوم فقال لى: إن الله يأمرك أن تبنى مسجدا يُصلَّى فيه ويُذكر آسمُه، وهوهذا. فقلت: وأين هذا الموضع؟ فسار إلى هذا الموضع الذى سميتُه أنا: كهف جبريل. وقلتُ: أنّى لى بذلك؟ قال: إن الله سيوفق لك من يُعينك عليه.

مسجد عمرو بن العاص

مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط بمصر

مسجدٌ عظيمٌ بمدينة الفُسطاط. بناه عمرو بن العاص، موضعَ فسطاطه وماجاوره. وموضعُ فسطاطه منه، حيث المحراب والمنبر.

وصفه وفضله

وهو مسجد فسيح الأرجاء، مفروش بالرخام الأبيض، وعمده كلها رخام. ووقف عليه نحو ثمانين من الصحابة وصلّوا فيه.

ولا يخلو من سكنى الصلحاء. معمور الأوقات بالذكر. وبعقب صلاة الصبح فيه أوقاتٌ مشهودةٌ ومواسمُ خيرٍ لاتعدُّ.

وصف الهلال والشمس فوق النيل فى وقت الغروب

وحكى علىّ بن ظافر [الأزدىّ](2) قال: رُوى لى أن الأعز أبا الفتوح آبن قلاقس و[نشو الملك علىّ بن مفرج] بن المُنجِّم آجتمعا فى منار الجامع فى ليلة فطر ظهر بها

(1) أى مسجد الكهف.

(2) وقعت هذه الحكاية فى صفحة ١٣٧ و ١٣٨ من كتاب "بدائع البداهة" المطبوع فى بولاق سنة ١٢٧٨. وهناك زيادة ونقص فى الألفاظ. فلذلك جمعتُ بين روايته ورواية آبن فضل الله.

الهلال للعيون، وبرز فى صفحة بحر النيل كالنون[١]. ومعهما جماعة من غواة الأدب، الذين ينسلون إليه من كل حَدَب. فحين رأوا الشمس فوق بحر النيل غاربه، وإلى مستقرها جارية ذاهبه، قد شمرت للغرب[٢] الذيل، واصفرت خوفا من هجمة[٣] الليل، والهلال فى حمرة الشفق، كحاجب الشائب أو زورق الورق. فاقترحوا عليهما أن يصنعا فى ذلك الوقت النزيه، على البديه.

فصنع آبن قلاقس:

أُنظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً * وآنظر لما بعدها من حُمْرَة الشَفَق!
غابت وأبقتْ شُعاعا منه يخلفها * كأنما آحترقتْ بالماء فى الغَرَق!
وللهلال، فهل وافى لينقذها * فى إثرها زورقٌ قد صيغ من وَرِق؟

وصنع آبن المنجم:

يارُبَّ سامِيَة[٤] فى الجو قمتُ بها * أمُدُّ طَرْفِى فى أرضٍ من الأُفُق.
حيثُ العشِيَّةُ فى التمثيل معركةٌ * إذا رآها جبانٌ، مات للفَرَق.
شمسٌ نهاريَّةٌ للغرب ذاهبةٌ[٥] * بالنِّيل مُصْفَرَّةٌ من هَجْمَةِ الغسَق.
وللهلالِ آنعطافٌ كالسِّنانِ بَدَا * من سَوْرَة الطعن مُلْقًى فى دمِ الشَّفَق.

وحكى علىُّ بن ظافر أيضا[٦]. قال: أخبرنى [أبو عبدالله] بن المنجم الصوّاف، بمامعناه

(١) فى كتاب البدائع: كانون. [وهو غلط].
(٢) فى « « : للغيب.
(٣) فى « « : هجوم.
(٤) يعنى المأذنة.
(٥) ورد هذا الشطر فى كتاب البدائع هكذا: "والشمس هاربة للغرب دارعة".
(٦) بدائع البدائه ص ١٢٩ وفيه زيادة ونقص عن آبن فضل الله. وقد جمعتُ بين الروايتين.

قال: صعدتُ إلى سطح الجامع بمصر فى آخر شهر رمضان مع جماعة. فصادفتُ به الأديب الأعز أبا الفتوح بن قلاقس ونشو الملك علىّ بن مفرّج بن المنجم وآبن مؤمن وشجاعًا المغربىّ فى جماعة من الأُدباء. فآنضفتُ إليهم. فلما غابت الشمس وفاتت، ودُفِنَتْ فى المغرب حين ماتت، وتطرّز حِداد الظلام بعَلَم هلاله، وتجلّى زنجىُّ الليل بخلخاله، اقترح الجماعة على آبن قلاقس وآبن المنجم أن يعملا فى صفة الحال. فأطرق كلٌّ منهما مفكرا، وميّز ما قذفه إليه بحر خاطره من جواهر المعانى متخيرًا. فلم يكن إلا كرَجْع الطَّرف، أو وثبة الطَّرف، حتّى أنشدا.

فكان ماصنعه نشو الملك:

وعَشِيٍّ[١] كأنما الأُفْق فيه * لازَوَرْدٌ مُرَصَّعٌ بنُضارِ!
قلتُ لمّا دَنَتْ لمغربها الشمْـسُ ولاَحَ الهِلالُ للنُّظَّارِ[٢]:
أقرَضَ الشرقُ صِنْوَهُ الغَرْبَ دِينا * را فأعطى الرهينَ نصفَ سِوارِ!

وكان الذى صنعه آبن قلاقس:

لا تَظُنَّ الظَّلامَ قد أخذ الشمْـسَ وأعطى النهارَ هذا الهلالا.
إنما الشرقُ أقرضَ الغَرْبَ دينا * را فأعطاه رَهْنَه[٣] خَلْخالا!

(١) البدائع: وعشاء.
(٢) فى آبن فضل الله: النهار [وهى ليست مطابقة للمقام، ولعلها سبق قلم. فلذلك آخترتُ رواية بدائع البدائه].
(٣) فى البدائع: فأعطاه الرهن.

قال: وهذا مما تواردت فى معناه الخواطر. وقطعة ابن المنجم أحسن من قطعة الأعز أبى الفتوح ابن قلاقس: لتنصيفه السوار. وعلى كل حال فقد أبدعا، ولم يتركا للزيادة فى الإحسان موضعا.

---

(١٥٦)

مسجد قرطبة

مسجد قرطبة

مسجدٌ عظيمٌ ليس فى مساجد المسلمين مثله بِنْيَةً وتنميقا، وطولا وعرضا.

طوله وعرضه

وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة، وعرضه ثمانون باعا.

تسقيفه وصحنه

ونصفه مُسَقَّف، ونصفه صحن للهواء.

قسيه وسواريه

وعدد قسى مسقفه تسعة عشر قوسا. وفيه من السوارى (أعنى سوارى مسقفه بين أعمدته وسوارى قبلته ــ صغارا وكبارا ــ مع سوارى القبة الكبرى وما فيها) ألف سارية.

ثرياته

وفيها ثُريات كبيرة للوقيد. منها واحدة يوقد فيها ألف مصباح. وأقلها تحمل اثنى عشر مصباحا.

سماواته وجوائز سقفه

وسقفه كله سماوات خشب مسمرة فى جوائز سقفه. وجميع خشب هذا الجامع من (عيدان الصنوبر) الطرطوشى. ارتفاع الجائزة منها شبرٌ فى عرض شبر إلا ثلاثة أصابع. وطول كل جائزة سبعة وثلاثون شبرا. وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة.

صنعة الفص وصنعة الدوائر

والسماوات المذكورة كلها مسطحة: فيها ضروب صنائع من الضروب المسدسة والمُدَرَّب وهو صنعة الفص وصنعة الدوائر. والمداهن لا يشبه بعضها بعضا بل كل سماء منها مكتفٍ بما فيه من صنائعَ قد أُحكم ترتيبها وأُبدع تلوينها بألوان حمرة

الزنجفرية والبياض الإسفيداجى والزرقة اللازوردية والزرنوق الباروقى والخضرة الزنجارية والتكحيل النِّقسى. تروق العيون وتستميل النفوس: بإتقان ترسيمها، ومختلفات ألوانها وتقسيمها.

بلاطه

وسعة كل بلاط من بلاط مسقفه ثلاثة وثلاثون شبرا. وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرا.

أعمدته

ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة. وقد عُقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قِسِيٌّ غريبةٌ عليها قِسِيٌّ أخر، على عمد من الحجر المنحوت، متقنة.

صناعة الفص بالمغرة

وقد جُصِّص الكُلُّ منها بالجص والجيَّار. ورُتِّبت عليها نجورٌ مستديرة، ثابتة بينها ضروب صناعات الفص بالمُغْرة. وتحت كل سماء منها إزار خشب.

(١٥٧)

وصف قبلته العجيبة، وما فيها من صبغة القوط

ولهذا المسجد الجامع قبلة تُعجز الواصفين أوصافُها. على وجه المحراب سبع قسى قائمة على عمد طول كل قوس منها أشفُّ من قامة، وكل هذه القسى مزججة بصبغة القوط(١). قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها ووضعها.

أعمدة المحراب لاتقوم بمال

وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران، واثنان زرزوريَّان. لاتقوم بمال.

المنبر الذى ليس بمعمور الأرض مثله

ومع(٢) يمين المحراب المنبرُ الذى ليس بمعمور الأرض مثله صنعةً. خشبُه آبنوس وبقس وعود المجمر. ويحكى فى كتب تواريخ بنى أمية أنه صنع فى نجارته ونقشه سبع سنين.

ستة صناع قضوا سبع سنين فى عمله

وكان عدد صُنّاعه ستة رجال، غيرَ من يخدمهم ويتصرف لهم. ولكل صانع منهم فى اليوم نصف مثقال محمدى.

---

(١) أى L'art Gothique

(٢) هكذا فى الأصل . ولعله أراد وعن . [كما فعل المؤلف بعد أربعة أسطر] .

آلات الوقيد فى ٢٧ رمضان

وعن شمال المحراب بيتٌ فيه عُدَد وطسوت ذهب وفضة وخسك.[1] وكلها لوقيد الشمع فى ليلة كل سبع وعشرين من رمضان.

مصحف يرفعه رجلان فيه ٤ ورقات من مصحف عثمان

وفى هذا المخزَن مصحف يرفعه رجلان، لثقله. فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان الذى خطه بيمينه، وفيه نُقَطٌ من دمه.

أبوابه ٢٠ مصفحة بالنحاس وكواكب النحاس

ولهذا الجامع عشرون بابا، مصفحةٌ بصفائح النحاس وكواكب النحاس. وفى كل باب منها حَلْقتان فى نهاية الإتقان.

صومعته الغربية

وفى الجهة الشمالية منه الصومعةُ، الغريبةُ الشكلِ والصنعة، الجليلةُ الأعمال الرائقة. ارتفاعها فى الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشى: منها ثمانون ذراعا إلى الموضع الذى يقف عليه المؤذن بقدميه، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعا. ويصعد إلى أعلى المنار بدرجَيْن: أحدهما من الجانب الغربىّ والثانى من الجانب الشرقىّ. إذا آفترق الصاعدان أسفل الصومعة، لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى. والذى فى الصومعة من العمد بين داخلها وخارجها ثلثمائة عمود: بين صغير وكبير. وفى أعلى الصومعة على القبة التى على بيت المؤذنين ثلاثُ تُفَّاحات: واحدةٌ من ذهب، وآثنتان من فضة. تسع الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلا من الزيت.

درجان متخالفان للصعود إلى أعلاها

فيها ثلثمائة عمود

(١٥٨)

ثلاث تفاحات من ذهب وفضه

٦٠ رجلا يخدمون الجامع

ويَخْدُمُ الجامعَ كله ستون رجلا[2].

(1) هكذا فى الأصل بالاهمال. وفى اللسان أن الحسك شوك مدحرج لا يكاد أحد يمشى عليه اذا يبس الا من كان فى رجليه خف... والحسك من الحديد مايعمل على مثاله وهو من آلات العسكر. [ولعله المراد هنا والغرض احاطة هذه العُدَد والآلات بشئ يمنع الناس الوصول اليها].

(2) بقية الصحيفة بياض. مقداره سبعة عشر سطرا.



(١٥٩)

بقية المزارات الأُخرى

سائر المزارات وتفصيلها ومواضعها المزعومة والحقيقية

وأما سائر المزارات فكثيرة جدا: لاتدخل تحت الحصر، ولايحيط بها قلم الإحصاء. وإنما نذكر منها ماحضَرنا ذكرُه فى هذا الوقت، مما هو ببلاد الشام، على ما يغلب على الظن صحته، لا كما يزعمه كثير من الناس فى نسبة أماكنَ لاحقيقة لها. والله أعلم!

فمن ذلك:

§ قبر مالك بن الأشتر النخعىّ. قيل إنه على باب مدينة بعلبك، من الشمال. والصحيح أنه بالمدينة.

§ قبر حفصة، زوج النبىّ، صلى الله عليه وسلم. قيل إنه ببعلبك. والصحيح أنها أم حفص، أخت معاذ بن جبل. فإن حفصة ماتت بالمدينة.

§ دير إلياس النبىّ عليه السلام، ويقال إنه كان محبوسا [فيه].

§ مشهد إبراهيم (عليه السلام) بقلعة بعلبك. جدد بناءه الملك الأشرف موسى.

§ قبر أسباط، ببعلبك.

§ قبر نوح (عليه السلام) بقرية تعرف بالكَرَك، من أعمال بعلبك.

§ قبر شيث، بقرية تعرف بشَرْعِينَ بالقرب من كَرَك نوح. وقبر إلياس النبىّ بقربه.

§ قبر حزقيل، أحد أنبياء بنى اسرائيل بالبقاع، غربىّ كَرَك نوح.

§ قبر بنيامين، شقيق يوسف، عليه السلام، بقرية ظهر حمار، من البقاع.

§ قبر شَيْبان الراعى، بالبقاع، بالقرب من حزقيل. فى مشهد مبنىٍّ عليه.

§ قبر أيُّوب (عليه السلام) بقرية تعرف بدير أيوب، من أعمال نَوَىٰ. كان بها أيّوب، عليه السلام. وبها ٱبتلاه الله، عزّ وجلّ، وبها العين التى ركضها برجله، والصخرة التى كان عليها؛ و بالقرية أيضا قبر سعد التكرورى، فقير صالح له شهرة.

§ مشهد جماعة من الصحابة بقرية تعرف بُمَجَّة علىٰ يسار الذاهب إلىٰ زُرع[1].
(١٦٠) كان بها وقعة أجنادِينَ فى فتوح الشام. وبها حجرٌ، ذُكر أن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) جلس عليه. وهذا ليس بصحيح. فانه (صلى الله عليه وسلم) لم يَعَدِّ بُصْرىٰ. وذُكر أن بجامعها سبعين نبيا.

§ قبر ٱلْيَسَع، بقرية تعرف ببُسر، من أعمال زُرع[1].

§ نَجْرانُ، شرقىّ بُسر. يقال إن بها الأُخدود. ولا يصحّ. لأن الأُخدود باليمن. والله أعلم.

§ قبر عبد الرحمن بن عوف، بقرية تعرف بالدُّور، على باب زُرع[1]. والله أعلم.

§ الهَمَيْسَع أبو ٱلْيَسَع، فى ذيل اللَّجَاة. والله أعلم.

§ سام بن نوح، علىٰ باب نَوَى. وبها قبر الشيخ محيي الدين النَّوَوىّ. وبها الشيخ على الحريرىّ، شيخ الطائفة الحريرية.

§ مبركُ الناقة. موضعٌ معروف ببُصْرىٰ. ويقال إن ناقة النبىّ (صلى الله عليه وسلم) بركت به هناك. أما قدوم النبىّ (صلى الله عليه وسلم) بُصْرىٰ فلا شك فيه؛ وأما أن ناقته بركت به فى هذا الموضع بعينه، فلا نقطع به. ولكن الظاهر أنه هو. فالله أعلم.

(١) ذكر ياقوت أن أصل ٱسمها زُرًّا والعامة سمتها زُرْع (ج ٢ ص ٩٢١).

وفى هذا الموضع مصحفٌ شريف عثمانىٌّ، وعليه أثر الدم.

§ وقبلىّ بُصْرىٰ ديرٌ يقال له دير الناعقىّ. كان به بَحِيرا، الراهب. وبه ٱجتمع برسول الله، صلى الله عليه وسلم.

§ وشرقىَّ بُصْرىٰ، قرية تعرف بدَنِين. بها قَدَمُ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى صخرة سوداء، على ماذكروا. والله أعلم.

§ وقرب بُصْرىٰ قرية تعرف بغَصب. بها قبر وهب بن مُنَبِّه.

§ قدم هارون، عليه السلام. ببلدةٍ بصَرْخَد.

§ وبهذه البلدة مشهدٌ، ذكروا أن موسىٰ و هارون (عليهما السلام) كانا به، لمّا خرجا من التيه.

§ قبر هارون. فى السيق ببلاد الشَّوْبَك.

§ قبر أبى عُبيدة بن الجرّاح. بقرية عَمْتَا من الغَوْر. وعليه بناءٌ، ولخادمه مرتب جارٍ، أُجرى له فى الأيام التنكزيّة، بعلم الوزير أمين الملك ووساطته.

§ قبرُ معاذ بن جَبَل. بالقُصَير المَعِينِىّ.

§ قبر أبى هُريرة. بقرية تُبْنىٰ بالساحِل، من أعمال الرملة.

§ البلقاء. يزعم بعض الناس أن الكهف والرقيم هناك. وهذا ليس بصحيح. قال (١٦١)
الهَروىّ: وقد زرنا الكهف والرقيم فى بلاد الروم عند مدينة يقال لها أبْسُس[1]، خَرِبَةً

(١) تعرف أيضا باسم أفسس. و بالفرنسية Ephèse.

بها آثار عجيبة، قريبةٌ من مدينة أَبُلُسْتَيْنِ . وقيل إن مدينة دقيانوس[1] هى طليطلة . والصحيح الذى ببلاد الروم. وسيأتى ذلك فى موضعه.

§ قبر جعفر الطيّار. بقرية مُؤْتَة، من أعمال كَرَك الشَّوْبَك.

§ وبها أيضا قبر زيد بن حارثة، وقبر عبد الله بن رَوَاحة، والحارث بن النعمان، وعبد الله بن سهل، وسعد بن عامر القيسىّ وأبى دُجَانَة الأنصارىّ: اِستُشهدوا (رضى الله عنهم) فى غزوة مُؤْتَة، وهى غزوة مشهورة.

§ قبر سليمان بن داود. شرقىّ بُحَيرة طَبَرِيَّة. قال شهاب الدين آبن الواسطىّ فى تصنيفه: والصحيح أن سليمان دُفن إلى جانب أبيه، فى بيت لحم. وهما فى المغارة التى بها مولد عيسى، عليهم السلام.

§ قال: ومن شرقيّها أيضا قبر لُقْمان الحكيم وآبنه، على ما قيل.

§ قبر أمّ موسى بن عمران. بقرية يقال لها إِرْبِل من أعمال طبريّة، عن يمين الطريق. وبها أربعة من أولاد يعقوب. وهم: دان وأبساخور وزَبولون وكاذ.

§ قصر يعقوب، عليه السلام، وبيت الأحزان، وجُبّ يوسف، عليه السلام. فى الطريق إلى بانياس. وهذا هو المشهور. قال آبن الواسطىّ: والصحيح (١٦٢) أن جُبّ يوسف فى طريق القُدْس، عند بلد يقال له سِنْجيل. وقال فى موضع آخر: سَيْلُون قريةٌ كان يعقوب (عليه السلام) ساكنا بها. وإن يوسف (عليه السلام) خرج منها مع إخوته. والجُبّ الذى رُمى فيه بين سِنْجيل ونابُلُس، عن يمين الطريق.

(١) فى الأصل بعد هذا الكلام تكرار ونصّه: و يقال ان مدينة دقيانوس.

§ قبر شُعيب، عليه السلام. بقرية يقال لها حِطّين ويقال حِطّيم. وقبر زوجته على الجبل، على ماقيل.

§ قبر يهوذا بن يعقوب. بقرية رُومَة من أعمال طبرية.

§ قبر صَفُّورَاء، بنت شُعيب، زوجة موسى بن عمران. بقرية كفر مَنْدَه. قيل إنها مَدْيَن، على مازُعِم. قال آبن الواسطىّ: والصحيح أن مَدْيَن شرقىّ طُورسينا.

§ وبهذه القرية الجُبّ الذى قلع موسى الصخرة من عليه، وسقى منها أغنام شُعيب. قال: والصخرة باقية هناك. وبها آثنان من أولاد يعقوب، وهما: أشير ونفتالى.

§ وعند هذه الأماكن جبل يقال له الطور. قيل إن موسى، من هذا الجبل رأى النار، ومن هذا الموضع أرسله الله.

§ قبر راحيل أم يوسف. عن يمين الطريق السالك من القدس إلى الخليل.

§ قبر لوط. بقرية كفر تريك، شرقىّ بلد الخليل.

§ مقام لوط. بقرية تامين. وبها كان يسكن، بعد رحيله من زُغَر. والموضع الذى خُسف بقومه هو اليومَ البحيرة المنتنة. وقيل إن الحجر الذى ضرب به موسى فآنفجرت منه آثنتا عشرة عينا، بزُغَر.

§ قبر عبادة بن الصامت. بالرملة.

§ مشهد الحسين. بعسقلان. كان رأسه بها. فلما أخذها الفرنج، نقل المسلمون (١٦٣) الرأس إلى القاهرة، ودُفن بها فى المشهد المعروف به، خلف القصرين، على زعم من

قال ذلك . والأغلب أنه لم يتجاوز دمشق . لأنه إنما حمل إلىٰ يزيد بن معاوية . وكانت دمشق دار ملكه وملك بنى أمية . ومن المحال ان يتجاوز الرأس المحمول إلى السلطان لغير حضرته . وله بدمشق مشهدٌ معروف ، داخل باب الفراديس . وفى خارجه مكان الرأس ، على ما ذكروا . وقد جاء فى أخبار الدولة العباسية أنهم حملوا أعظُمَ الحسين ورأسه إلىٰ المدينة النبوية حتّىٰ دفنوه بقبر أخيه الحسن . والمدىٰ بعيد بين مقتل الحسين ومبنىٰ مشهد عسقلان .

§ وفى هذا المشهد دُفن رأس الكامل صاحب ميَّافارقينَ . وفى ذلك قال ٱبن المهتار ، الكاتب .

أين غازٍ غَزَا وجَاهَدَ قوما ، * أَثْخنوا بالعراق والمشرقَيْنِ ؟
لم يَشِنهُ أنْ طِيف بالرأس منه * فله أسوة برأس الحُسينِ .
وافق السِّبط فى الشهادة والدفـ * ـن وقد حاز أجره مرَّتين .
لِمَوَارَوْا فى مشهد الرأْس ذاك الر * أسَ ؟ فٱستعجِبوا من الحالتينِ !

§ قبر يحيىٰ وزكريا . يقال إنهما بسَبَسْطِيَة[1] . وحكىٰ ٱبن عساكر عن زيد بن واقد ، قال : وكّلنى الوليد علىٰ العمال فى بناء جامع دمشق . فوجدنا فيه مغارة ، فعرّفنا الوليد ذلك . فلما كان الليل وافىٰ ، وبين يديه الشموع . فنزل . فإذا هى كنيسة لطيفة : ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع . وإذا فيها صُندوق . فاذا فيه سَفَط وفى السفط رأْس يحيى بن زكريا ، مكتوبا عليه : "هذا رأْس يحيى بن زكريا" . فأمر به الوليد ، فرُدّ إلىٰ المكان . وقال : ٱجعلوا العمود الذى فوقه مُغيّرا من الأعمدة . فجُعل عليه عمود مُسفَّط الرأْس .

(١) هذا الضبط لياقوت . والذى فى القاموس ضبطه بوزن أَحْمَدِيَّة .

قال زيد بن واقد : رأيتُ رأْس يحيىٰ بن زكريا ، وعليه البشرة ، والشَّعَرُ علىٰ رأْسه لم يتغير . وقال القاسم بن عثمان الجُوعىّ : سمعتُ الوليد بن مسلم وسئل : أين بلغك رأْس يحيىٰ بن زكريا ؟ قال : بلغنى أنه ثَمَّ . وأشار بيده نحو العمود المسفّط الرابع من الركن الشرقىّ . وقال هشام بن عمار : حدّثنا محمد بن شُعَيب ، قال : دخلتُ مع شدّاد بن عبد الله من باب الدَّرَج . فقال لى : ترىٰ هاهنا كتابا بالرومية ؟ قلت : نعم . فصلّىٰ ركعتين . وقال : هاهنا رأس يحيىٰ بن زكريًا . وروىٰ القاسم الجُوعىّ عن الوليد بن مسلم أنه سأل الأوزاعىّ : أين بلغك رأْسُ يحيىٰ بن زكريا ؟ قال : فى العمود الرابع المُسَفَّط .

سعد بن عبادة . يقال إنه بقرية المَنِيحة ، من غُوطة دمشق . ولا يصحّ .[1] (١٦٤)

خالد بن الوليد . يقال إنه خارجَ حِمْص . ولا يصحّ . وإنما هو خالد بن يزيد ٱبن معاوية ، بقولِ جَزْمٍ . فإن عمر بن الخطاب كان قد عزل خالدا عن حمص وأشخصه إلىٰ المدينة . فمات بها ، ووَجَدَ عليه عمرُ بعد موته .

ضِرَار بن الأَزْوَر . خارج باب شرقىّ . مع خلق من الصحابة ، ٱستُشهِدوا فى فتح دمشق .

§ وبمقابر باب الصغير خلقٌ من الصحابة أيضا ، ٱستُشهِدوا فى فتح دمشق .

§ وكذلك مَن سكن دمشق منهم .

§ وكذلك بسائر بلاد الشام ، وبمصر ، والعراق ، والعجم ، والمغرب .

§ وبجزيرة العرب منهم رجال ، وبمكة والمدينة مشاهيرُ وأعلام .[2]

(١) بياض بالأصل مقداره سطرّان .

(٢) بياض بالأصل مقداره خمسة سطور .

البيوت المعظمة عند الأمم

وأما غير ذلك مما هو لطوائف الأمم :

عبادة الكواكب وهياكلها

فأول ذلك ما كانت عُبَّاد الكواكب تعظمه .

وهى سبعة بيوت فى الأرض . يرون أن كلا منها هيكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة : لاعتقادها أن الكواكب أجسامٌ حيةٌ ناطقةٌ ، تجرى بأمر الله فى كل ما يحدث فى العالم . فقربوا إليها القرابين ، لتنفعهم . فلما رأَوْها تَخفىٰ فى النهار و بعض أحايين الليل ، عملوا لها تماثيل ، وبنَوْا لها البيوت والهياكل : ظنًّا أنهم إذا عظموا تلك (١٦٥) التماثيل الموضوعة لها ، تحركت الأجسامُ العُلوية بمرادهم .

وقد قال الله تعالىٰ ، حكايةً عن قولهم : " مانَعبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفىٰ " .

البيوت المحجوجة

والأبيات السبعة التى كان إليها حجُّهم :

§ أولها البيتُ الحرام . كان يأتيه منهم من يتقرب بزُحَل .

قلتُ : وإن صح قولهم من قصد هؤلاء البيتَ الحرام بالتعظيم ، فلا عجيبٌ . فإنه مازال معظما فى الإسلام وقبل الإسلام ، تحجُّ إليه طوائف الأمم فى كلّ الأوقات . زاده الله إبقاء وأدامه ، ووصل شرفه بيوم القيامه !

§ وثانيها بيتُ فارس ، علىٰ رأس جبل أصفَهان . و بينهما ثلاثة فراسخ . كان يأتيه منهم مَن يتقرب بالمشترِى . ثم جعله يستاشف ـ لمّا تمجّس ـ بيتَ نارٍ . فعظمه المجوس .

§ وثالثها بيت مندرسان ، ببلاد الهند . كان يأتيه منهم من يتقرب بالمِرّيخ . وقد

ذكره أبو عبيد البكرىّ وقال : إن به من القُوىٰ الدافعة والجاذبة والمنفردة ، أوصافا لايسع ذكرها . ثم قال : وهو بيت مشهور من أراد البحث عنه ، فليبحث .

§ ورابعها بيت كاوسان . بناه كاوس الملك ، بمدينة فَرْغانة . كان يأتيه منهم من يتقرب إلىٰ الشمس . قال أبو عبيد البكرىّ : وهدمه المعتصم . ولهدمه خبر ظريف ذكر فى كتاب الزمان .

§ وخامسها بيت غُمْدانَ . بناه الضحاك بمدينة صنعاء . كان يأتيه منهم مَن يتقرب بالزُّهَرَة . وخرّبه عثمان بن عفان ، رضى الله عنه . والآن مكانه بركة (١) . وآثاره كالجبل الضخم . وكان الوزير عيسىٰ بن الجرّاح ، لما نفى إلىٰ اليمن احتفر به قبرا وبنىٰ عليه سقاية . قال البكرىّ : وزعم أهل اليمن أنه سيُبنىٰ علىٰ يدِ غلام يخرج من بلاد سبإ ، (١٦٦) يؤثّر فى هذا العالم تأثيرا عجيبا .

§ وسادسها بيت بأعلىٰ بلاد الصين . بناه ولد عامور بن سويل بن يافث بن نوح . يأتيه منهم [من] يتقرب لعُطَارد خاصةً ، ولسائر الكواكب السبعة السيارة عامةً . وهو سبعة أبيات ، فى كل بيت سبع كُوًى ، يقابل كلَّ كوّة صورةٌ علىٰ صورة كوكب من الخمسة والعشرين (٢) . ولهم فيه أسرارٌ بزعمهم .

§ وسابعها بيت النُّوبَهار . بناه متوشهر الهندىّ بمدينة بلخ . وكان يأتيه من الصابئة من يتقرب بالقمر . وكان يسمّى المتولّى لسدانته " برمكٌ " . وكانت ملوك الفرس تعظمه وتعظم متوليه . وآلت ولايته إلىٰ أبى خالد البرمكىّ ، فلهذا قيل " خالد بن برمك " ولهذا قيل " البرامكة " . وكان من أعلىٰ المبانى تشييدًا . وكان يُلَبَّس بالحرير الأخضر ، تُنشر عليه

(١) فى الأصل : مكان

(٢) هكذا فى الاصل . والحسبان لايتجه .

شِقاقٌ منه . طول كل شُقَّة مائة ذراع . فيقال إن الريح حملت بعض تلك الشِّقاق فرمت به على مسيرة خمسين فرسخا . وهذا يدل على عُلُوّه الزائد . وكان قد كتب على باب النوبهار بالفارسية : "قال سوراشف الملك : أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال : عقل، وصبر، ومال".

ثم لما ملك الإسلام مدينة بلخ، كُتب تحت هذه الكتابة بالعربية : "كذب سوراشف . الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان".

هياكل الأقدمين

هياكل الأقدمين

وأما بيوت اليونان(١) فهى ثلاثة هياكل، وهى مشهورة فى العالم :

أولها ـ بيت بانطاكيَة، داخل مدينتها، على يَسْرة المسجد الجامع . وخربه المسلمون . ولما أتى ثابت بن قُرّة بن زكريا الحَرّانيّ مع المعتضد فى سنة تسع وثمانين ومائتين، أتى هذا الهيكل وعظّمه .

وثانيها ـ هو الهرم الذى على بُعد من الفُسطاط .

وثالثها ـ بيت المقدس . كان قد شُرع فى بنائه . ثم شَرع داود (عليه السلام) ١٦٧
فى تكميل بنائه مسجدا . ثم تمّ على يد ابنه سليمان، عليهما السلام .

قال البكرى : فأما الصنم الذى ذكره الله عز وجل فى الإنجيل، فكانت اليونانية اختارت له جبل لُبنان . فاتخذوا له هناك هيكلا فيه نقوش عجيبة، فى الحجر . لا يتأتى مثلها فى الخشب .(٢)

(١) فى هذه التسمية نظر . ولعل المؤلف أراد "الأولين" . وإلا فالهرم للمصريين الاقدمين، وبيت المقدس لبنى إسرائيل .

(٢) لعل الإشارة الى هيكل بعلبك، فان هذا الوصف ينطبق عليه .

هياكل الصقالبة

بيوت الصقالبة

وأما بيوت الصَّقلب فهى بيوت ثلاثة، وفيها مخاريق مصنوعة يسمع لها أصوات استرقّت عقولهم :

فأولها ـ بيت فيه آثار مرسومة تدلّ على الكائنات . قال البكرى : وهذا البيت على الجبل الذى كان للفلاسفة(١) أنه أحد جبال العالَم . (قلتُ : لعله يكون على الجبل المستدير وهو المسمّى فى الشمال بجبال قاقونا) .

وثانيها ـ على الجبل الأسود . تحيط به مياه عجيبة، ذوات طعوم مختلفة . وفيه صنم كبير، على صورة رجل شيخ، بيده عصًا يحرّك بها عظام الموتى . وتحت رجله اليسرى غرابيبُ سودٌ من صور الغُداف وغيرها .

وثالثها ـ يحيط به خليج من البحر، فى وسطه قبة عظيمة، بها صنم على صورة جارية .

هياكل الصابئة

هياكل الصابئة

وأما ما كان للصابئة . فكان لهم هياكلُ تسمى بأسماء، وهى :

هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل الصورة، وهيكل النفس . مستديراتُ الأشكال .

وهياكل الكواكب والنيرين على أشكال مختلفة من التسديس والتثليث والتربيع . وكانت لهم فيها دُخَنٌ وقرابينُ يطول وصفها .

(١) الذى فى مروج الذهب : "الذى ذكرت الفلاسفة أنه أحد جبال العالم العالية" .

قال البكرىّ : والذى بقِىَ من هياكلهم ، بيتٌ بحرّان ، فى باب الرقّة . يعرف بمعلنيشا . وهو هيكل آزر ، أبى إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام . ولهم فى آزر وأبيه كلام كثير . (١٦٨)

قال البكرىّ : ولهم فى هياكلهم مخاريق قد وصلت : تقف السَّدَنَة من وراء الجُدُر وتتكلم بأنواع الكلام ، فتجرى الأصوات فى تلك المنافخ والمخاريق إلى تلك الصور المجوّفة فيظهرلها نطقٌ على حسب ما دُبِّر على هيئة هندسية . ثم قال : والصابئةُ حشويّةُ اليونان . وإنما يضافون إلى الفلسفة ، إضافة نَسَب لا إضافة كلمةٍ . لأنهم يونانيون ، وليس كلّ يونانىّ بحكيم . قال أبو عبيد البكرىّ : وعلى باب حَرّان كتابة بالسريانية نسبة قول فى النفس نسبة قول أفلاطون : الإنسان نبات سماوىّ . قال : والصابئة تقرّب فى بعض الأوقات ثورا أسود . تُشدّ عيناه ويُضرب وجهه بالملح ، ثم يُذبح ويُنظر فى أعضائه . وما يَظهر منه فى الجراحات والاختلاج ، فيُستدلّ به على أحوال السنة . ولهم فى قرابينهم أسرار ومخبّآت .

§ وهيكل فى أقاصى الصين . وهو بيت مدور له ستور وأبواب . فى داخله قبة مسبّعة عظيمة البنيان . وبه بئر مسبّعة الرأس ، متى أكبّ إنسان على رأسها تهور على رأسه فيها . وعلى رأس البئر ، شبهُ الطوق مكتوب عليه بقلم قديم ، قلم السندهند : هيكل الصين

” هذه البئر تؤدّى إلى مخزن الكتب الأولى وتاريخ الدنيا وعلوم السماء لِمَا كان ويكون ، وتؤدّى إلى خزائن رغائب هذا العالَم . لا يصل إلى الدخول إليها والاقتباس مما فيها إلا مَن وازت قدرته قدرتنا وعلمه علمنا “ .

قلتُ : هذا ماذكره البكرىّ ذكرته كما ذكره . والعهدة عليه فيما نقله .

بيوت النيران

(١٦٩)

وأما بيوت النيران ، فأوّل من ذكرها أفريدون . قال : لأنه زعم أنها من جنس الكواكب النورية . وبالنور صلاح العالم . لأنها عندهم أصل كل حىّ ومبدأ كل تمام . لأنها تجذب الحيوان إليها كالفَرَاش الطائر بالليل ، وما يصاد بالليل بالسُّرُج من الوحش والطير والسمك كما يصاد فى البَصرة بإيقاد السرج فى الزواريق ، فيطلع السمك من الماء حتّى يقع فى الزواريق . ويبطِل أقوال المجوس فى اجتذاب النار للحيوان أن الحيوان ينام الليل لاحتباسه عن الإسفار ، فاذا رأى النّارَ ظنّه فرجة إلى النهار ، فقصده . بيوت النيران

وليس هذا موضع ذكر شبهتهم والأجوبة عنها . وإنما ذكرنا هنا ماهو لائق به .

وبيوتهم المشهورة خمسة :

فأوّلها ، بيتٌ بطُوسَ ، } بناهما أفريدون .
وثانيها ، بيتٌ ببخارى ، }

وثالثها ، بيتُ دارابجرد فى أرض فارس .

(كان زرادشت نبىّ الفرس ، على مازعموا ، قد أمر يستاشف الملك أن يطلب نارا كان يعظمها جمٌّ ، الملك ؛ فوجدت بخوارزم . فنقلها يستاشف إلى دارابجرد . قال البكرىّ : والمجوس تعظم هذه النار ، وهى أكرم نيرانهم .)

ورابعها ، بيتٌ بإصطخر ، من فارس . ويقال إنه كان مسجد سليمان ، عليه السلام .

وقال المسعودى: وقد دخلته. وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخر. فرأيت بنيانا عجيبا وهيكلا عظيما، وفى أعلاه صُوَرٌ من الصخر محكمة، عظيمة المقادير: من الخيل وسائر الحيوان. يحيط بذلك كله سور من الحجر، فيه صور الأشخاص، قد شُكِّلت وأُتقنت. ويزعم مَن جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء، عليهم السلام. وفى جوف هذا الهيكل الريح غير خارجة منه فى ليل ولا نهار: لها هبوبٌ وحفيفٌ. يذكر مَن هناك من المسلمين أن سليمان حبس الريح فيه، وأنه كان يتغدّى ببعلبكّ، من أرض الشام، (١٧٠) ويَقيل بمدينة تَدْمُر، فى الملعب المتّخذ فيها (وهى فى البرّيّة بين العراق ودمشق من أرض الشام. وبين تدمر والشام ستة أيام) ثم يتعشّى بهذا المسجد.

وبتدمر خلق من العرب من قحطان.

وخامسها(١)، بمدينة جُور التى يضاف اليها الماورد. بيت نار بناه أردشير له يوم عيد. وهو على عين هناك، عجيبة. وإليه متنزّهاتهم. وفى وسط جُور بنيانٌ كانت تعظّمه الفُرْس، يعرف بالطربال. خرّبه المسلمون.

وإنما فُضِّل ماء وردهم، لصحة التربة وصفاء الهواء.

وألوان سكانها فى غاية الحسن، من اعتدال الحمرة والبياض.

وبين جور وشيراز (وهى قصبة فارس) عشرون فرسخا.

فسبحان الذى منّ علينا بالإسلام، وهدانا إليه وعلّمنا مالم نكن نعلم، وفضّلنا على كثير من خلقه، تفضيلا!

---

(١) فى الأصل: ورابعها.

الآثار المشهورة

الآثار المشهورة

ومما تُتبع به هذه الهياكل من الآثار المشهورة فى الأرض مما بقى، لقى جسمه أو رسمه، ما يُذكر:

§ فمن ذلك صنم الخطا المحجوج فى نهاية الشرق المتشامل. وهو قريب من السند.

§ ومن ذلك قصر الدهاك. مابين مدينة طَغُورا وبين مدينة باش بالق، شرقىّ طغورا وغربىّ باش بالق.

§ ومن ذلك حائط القلاص. ويعرف بالحائط المحيط، ويعرف بحائط عبد الله ابن حُمَيْد جنوبىّ بلاد الغربة وأَسبيجاب.

§ ومن ذلك مدينة إصطخر. وهى مدينة عجيبة البناء، من بناء سليمان، عليه السلام.

قصر سنداد

§ ومن ذلك قصر سِنْداد. وهو بالعراق، قريب النيل، بأرض الأزير، على نهر سنداد. وكان مسكن آل مُحَرِّق(١). وفيه قال الأسود بن يَعفُر.

(١٧١)

ماذا أؤمّل بعد آل مُحَرِّق، * تركوا منازلهم، وبعد إيادِ؟
أهل الخَوَرْنَق والسَّدير ومأرِبٍ * والقصر ذى الشُّرُفات من سِنْداد.
دارٌ تخيَّرها لطيب مَقيلها * كعبُ بنُ مامة وابن أمِّ دُوَادِ.
نزلوا بأنقِرةٍ يسيل عليهم * ماءُ الفُرات، يجىء من أطوادِ.
جرتِ الرياح على محلِّ ديارهم * فكأنما كانوا على ميعادِ!

§ ومن ذلك قصور الحِيرة، بين العراق والشام.

---

(١) هو بالحاء المهملة كما فى لسان العرب فى مادة (ح ر ق) وقد أعجم فى الأصل تصحيفا من الناسخ.

الخورنق والسدير

§ ومن ذلك الخَوَرْنَق والسَّدِير. وهما من أشهر الآثار. بناهما شخص اسمه سِنِمَّار للنعمان بن قيس، وكمّله فى عشرين سنة. فلما وقف عليه النعمان، استجاده وأثنى على سِنِمّار. فقال له سِنِمّار: لو شئتُ أن أجعله يدور مع الشمس، لفعلتُ. فأمر به أن يُطرح من أعلى شُرُفاته. فضُرب به المَثَل، فقيل: "جزاء جزاء سنمار". وفى ذلك يقول الشاعر(1):

جزتنى بنو قيسٍ، وما كنت مذنبًا * جزاء سِنِمّارٍ وما كان ذا ذنبِ!
بنى القصر للنعمان عشرين حِجّةً * يعلّ عليه بالقراميد والخُشُبِ.
فلما استوى البنيان واشتد رصفُه * وآض كمثل الطود والشامخ(2) الصعبِ،
رمى بسِنِمّار على أمّ رأسهِ، * وذاك لعمرُ الله من أعظم الخَطْبِ!

ثم ترهب هذا النعمان فى الجاهلية، وانخلع من ملكه، ولبس المُسُوح. وفيه قال عَدِىّ بن زيد:

وتذكَّرْ ربَّ الخورنق إذ فكّـ * ـر يوما. وللهدى تفكيرُ!
راقه ماله وكثرةُ ما يمـ * ـلك، والنهر معرضا والسديرُ،
فارعوى قلبُه وقال: وما غبـ * ـطة حىّ إلى الممات يصيرُ؟ ١٧٢

§ ومن ذلك قصر سَنَافاد.

الرصيف

§ ومن ذلك الرصيف الممتد بين صَرْخَد والعراق، ممتدا فى البرية. يقال إنه من عمل سليمان بن داود، عليهما السلام. وهو يتصل فى مواضع وينقطع فى أخرى. يتوصل السالك معه من الشام إلى العراق، ومن العراق إلى الشام فى أقرب مدة.

(1) أورد ياقوت هذه الأبيات باختلاف يسير فى الألفاظ (فى معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩١).

(2) فى الأصل: الشادخ. [وقد صححت بمعاونة ياقوت].

تدمر

§ ومن ذلك مدينة تَدْمُر بين العراق وبين الشام، وما فيها من عجائب البناء وكبار العمد.

ملعب بعلبك

§ ومن ذلك ملعب بعلبك. والباقى منه عمدٌ بقلعتها الآن، وما فى سورها من الأحجار العظام والصخور الراسية كالجبال. يقال إنه من بناء سليمان بن داود، عليهما السلام.

آثار حوران بصَفَد

§ ومن ذلك مدينة شُهْبَة من بلاد حوران. بها من الأبنية الباقية والعمد العالية والآثار الدالّة ما هو من جلائل الآثار.

§ ومن ذلك مدينة جُرَش من بلاد حوران. يحكى الهول عن غرائب آثارها. وقد أضحت خاوية على عروشها، خالية من أهلها وسكّانها، لا يُحَسّ بها حسيس، ولا يوجد بها أنيس.

§ ومن ذلك جُبُّ يوسف، وهو قرب قرية اسمها شورى.

§ ويدانيها جسر يعقوب، وهو معروف مشهور.

كلّ ذلك ببلاد صَفَد.

منازل ثمود

§ ومن ذلك منازل ثمود(1) بين الحجاز والشام. وبيوتهم المنحوتة فى الجبال باقية إلى الآن. وهى المعنيّة بقوله تعالى: "وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ". وبها البئران: بئر الناقة وبئر ثمود، المقسوم بينهما الشِّرب. ولما مرّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأرض ثمود فى غزوة تَبُوك، وجد بعض مَن سبق من أصحابه قد ملأ من بئر الحِجْر. فأمر بأن يُراق الماء. فقالوا: يارسول الله قد عجنّا منه العجين. فأمر بأن يُطعموه الإبل، وأن ١٧٣ يشربوا من بئر الناقة. وهما معروفان هناك.

وهذه فائدة أردنا التنبيه عليها.

(1) فى الاصل عاد وصححها بالهامش "ثمود" ولكنه لم يلتفت الى البقية فصححناها نحن كما ترى والآية والحديث معروفان من قصة ثمود.

جبّ بابل

§ ومن ذلك جُبُّ بابِلَ، وهو الذى حُبِس به دانيال. ألقاه فيه بُخت نَصَّر. وألقى معه أسدين حتّى أتاه، بأمر من الله، نبىٌّ من أنبياء بنى إسرائيل. فقال: ياصاحبَ الجُبّ! فأجابه دانيالُ: قد أسمعتَ! ماتريد؟ قال: أنارسول الله إليك، لأستخرجك من موضعك. فقال دانيال: الحمد لله الذى لا يَنسى مَن ذكره! والحمد لله الذى لا يَكِلُ من توكّل عليه إلىٰ غيره! والحمدلله الذى يجزى بالإحسان إحسانا! والحمد لله الذى يجزى بالإساءة غفرانا! والحمد لله الذى يكشف ضرنا عن كربنا، وآستخرجه وإن الأسدين لعن يمينه وشماله يمشيان معه حتّى عزم عليهما دانيال أن يرجعا.

وعن آبن عباس، قال: من قال عند كلّ سبُع: "اللّهُمّ! ربَّ دانيالَ وربَّ الجبِّ وربَّ كل اسدٍ مستأسدٍ! إِحفظنى وآحتفظ علىّ!" لم يضره السبُع.

الأُخدود

§ الأُخدود. المحتفر لأصحاب الأُخدود المذكورين فى القرآن الكريم. وهو بنجرانَ من اليمن.

البئر المعطلة والقصر المشيد

§ ومن ذلك البئر المُعَطَّلة والقصر المَشِيد. وهما قريب الفج الخالى[1] بمشاريق اليمن.

سد مأرب

§ ومن ذلك سدّ مأرب. وهو ببلاد سبإ من اليمن.

قصر القشيب

§ وبه قصر القَشِيب. كان لبِلْقيس.

قصر غمدان

§ ومن ذلك قصر غُمْدان. بصنعاء اليمن. وهو من أشهر الآثار وأظهر المعالم. كان مسكن التبابعة من حِمْيَر، ومنهم شَمِر بن مالك وأسعد أبو كَرِب. وكفىٰ بذكرهما. طافا الأرض وبلغا الآفاق. وقصر غُمدان هذا هو المذكور فى الأشعار، والمشهور فى الأخبار. وفيه يقول آبن أبى الصَّلْت:

(١) هو الذى يسمّى الآن بالربع الخالى، فى الجنوب الشرقىّ من بلاد العرب.

إِشربْ هنيئًا عليك التاج مغتبِقًا * فى قصر غُمْدان دارا منك مِحْلالا!

تلك المكارم لاقَعْبانِ من لَبَنٍ * شِيبَا بماءٍ، فعادا بعدُ أبْوالا!

بئر برهوت

§ ومن ذلك بئر بَرَهُوت. ببلاد حَضْرَمَوْت من بلاد اليمن. وهو الذى لم يُعرف عمقه، ولا عُلم أن إنسانا نزله.

قصر زيدان

§ ومن ذلك قصر زَيدان. المشهور بمدينة ظَفَارِ باليمن. وكانت تسمّى قديما مدينة يَحْصِب.

قصر الشاذياخ

§ ومن ذلك قصر الشَّاذِيَاخ. وهو بباب نيسابور، من خُراسان. كان دار السلطنة لبعض ملوكها. ولم نؤخر ذكره إلا لأنه شُبِّه ببناء غُمدان. فكان كأن لذكره به تعلقا:

إِشرب هنيئًا عليك التاج مرتَفِقًا * بالشَّاذِياخِ، ودع غُمدان لِليَمنِ[1]!

فأنت أولىٰ بتاج الملك تلبَسُه * من هَوْذَة بن علىّ وآبن ذى يَزَن!

وعلىٰ باب قصر الشاذياخ، صُلب علىُّ بن الجَهْم. فقال حين صُلب، آرتجالا.

لم ينصِبوا بالشاذِياخ عشيَّة الإِثنين* مسبوقا ولا مجهولا!

نَصَبوا بحمد الله مِلءَ قلوبهم * شرفا، ومِلءَ صدورهم تبجيلا!

ما عابه أن بُزَّعنه ثيابه، * فالسيف أهول مايُرىٰ مسلولا![2]

(١) فى الأصل: باليمن. [وقد صححتُ بمعونة ياقوت، لأنه أورد هذين البيتين فى معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٢٩].

(٢) هذه الحكاية والأبيات المتعلقة بها ليست فى ياقوت. وانما أوردها صاحب الأغانى بتفصيل أوفىٰ (ج ٩ ص ١٠٧) مع إيراد القصيدة بأكلها وهى ١٢ بيتا. [وقد صححتُ بعض الكلمات بمعونته].

دار الأنماط بالفسطاط

§ ومن ذلك دار الأنماط . وكانت بفسطاط مصر، يباع بها قماش النساء، وفاخر اللباس والأمتعة. وتجلب إليها من كل أرض. وكان يجلس على حوانيتها أهل الفراغ واللهو. وكانت من عجائب المباني، وغرائب الآثار.

وحكى ابن ظافر[1] أن ابن قلاقس جلس بمصر فيها مع جماعة، فمرت بهم امرأة تعرف بابنة أمين الملك. وهى شمس تحت سماء النقاب[2]، وغصن فى أوراق[3] الشباب. فحدقوا إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب، والمريض إلى الطبيب. فجعلت تتلفت تلفت الظبي المذعور، أفرقه القانص فهرب، وتثنى تثني الغصن الممطور، عانقه النسيم فاضطرب. فسألوه العمل فى وصفها. فقال هذا يصلح أن يعكس فيه قول ابن القطان الأزدى القيروانى[4]:

"أعرضن لما أن عرضن فإن يكن * حذرا، فأين تلفت الغزلان؟"

ثم صنع:

لها ناظر فى ذرى ناضر * كما ركب السن فوق القناة.

(١) فى كتاب بدائع البدائه، ص ١٧٤ وفى ديوانه المخطوط نمرة ٥٤٩ أدب بدار الكتب الخديوية، وفى نسخته التى عنى باظهارها مع التدقيق فى التصحيح الشاعر العصرى الشهير خليل افندى المطران. سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥)

[وقد جمعت بين الروايات، إلا ما كان فيه اختلاف وتغيير فقد نبهت عليه فى الحواشى التالية. الثلاثة دون الحكاية التى تضمنت واقعة الحال.]

(٢) فى كتاب بدائع البدائة : سحاب.

(٣) فى ابن فضل الله : فى غصن أوراق.

(٤) « « « : قول العطار الازدى.

لوت[1] حين ولت لنا جيدها * فأى حياة بدت من وفاة[2]؟

كما ذعر الظبي من قانص * فمر وكرر[3] فى الالتفات!

ثم صنع[4].

ولطيفة الألفاظ لكن قلبها * لم أشك منه لوعة، إلا عتا.

كملت محاسنها فود البدر أن * يحظى ببعض صفاتها أو ينعتا.

قد قلت لما أعرضت وتعرضت: * يا مؤيسا، يا مطمعا، قل لى متى؟

قالت: أنا الظبي الغرير[5] وإنما * ولى وأوجس خيفة[6] فتلفتا.

الأهرام

§ ومن ذلك الأهرام بمصر. وأجلها الهرمان بجيزة مصر. وقد أكثر الناس القول فى سبب ما بنياله. فقيل: "هياكل للكواكب". وقيل: "قبور ومستودع مال وكتب" وقيل: "ملجأ من الطوفان". وهو أبعد ما قيل فيها. لأنها ليست شبيهة بالمساكن. (١٧٤)

فتح المأمون للهرم الكبير، وتدقيق المؤلف فى ذلك.

وأقربها إلى الصحة ـ والله أعلم ـ أنها إما هياكل كواكب، وإما مواضع قبور. ولقد فتح أكبرها فى زمان المأمون، حين قدم مصر. فلم يظهر منه ما يدل على ما وضع له. وعلى ألسنة الناس أنه وجد ذهبا فوزنه، وحسب مقدار ما أنفقه، فوجدهما سواء بسواء، لا يزيد أحدهما على الآخر بشئ، لعلمهم[7] السابق أنه سينفق عليه مثل هذا

(١) فى ابن فضل الله : أرت.

(٢) « « « : حياة بذا أو وفاة.

(٣) فى ديوانه المخطوط والمطبوع : ففر.

(٤) هذه الأبيات لم ترد فى الديوان المخطوط ولا المطبوع.

(٥) فى البدائع : الفريد.

(٦) « : نبوة.

(٧) فى الأصل : لعلمهما.

المقدار. فوُضع هذا المقدار بإزاء ماينفق عليه. ووجدتُ هذا فى كثير من الكتب. فراجعتُ التواريخ الصحيحة والكتب المسكونَ إليها، فلم أجد المأمون وجد به شيئا ولا آستفاد زائدًا عما يعلم الناس به علما.

وأدلُّ الأدلة على أن أحدها هيكلٌ بعض الكواكب، أن[(١)] الصابئة كانت تأتى حقيقة تَحُجّ الواحد وتزور الآخر، ولا تبلغ به مبلغ الأول فى التعظيم. والله أعلم بحقيقة أمورها وجليّة أحوالها.

وصف المؤلف للاهرام وزيارته لها

وهى أشكال لهبيّة. كأن كلّ هرم لهبة سراج. آخذة فى أسافلها على التربيع مسلوبة فى عمود الهواء، آخذة فى الجو حتّى إلى التثليث. لولا آستدارة سفل أُبلوج السُّكّر[(٢)] لشبهناها به. ويحتمل أن يكون هـذا الشكل موضوعا لبعض الكواكب لمناسبةٍ آقتضته.

ولقد أصْعَدْتُ غير مرّة، مارًا على الأهرام بجميع بلاد الجيزة، ورأيت منها ما دَثَر بعضه، وما دثر كله. فإذا هى مصفحة البناء، شيئا على شئ، لافُسحة فى أوساطها، كما تكون ساحات الدور بين الجُدْران. وإنما هى بناء ملتصق على بناء، بعضها فوق بعض. ووجدتُ بعض الأهرام مبنيّة بالطوب. وهذا أكبر دليل على أنها لم تُتّخذ ملجأ من الطوفان.

(١٧٥)

فأما مقدار الهرمين المشار إليهما، فى آرتفاعهما ومساحة أقطارهما، فإنه مذكور فى الكتب ذكرا مستوعبا لم أحققه بالقياس. وأبىٰ لى تحقيقى فى هذا الكتاب أن أذكره بمجرّد التقليد، مع إمكان التحقيق، مع كثرة تردّدى عليها، وسَكَنى بالقاهرة فى جوارها. ولعذرٍ مانعٍ فى وقت هذا التأليف، قَعَدتُ عن معاودتها بالنظر والتحقيق.

(١) فى الأصل: وأن.

(٢) أى رأس السكر، قمع السكر.

على أن الهَدْم قد شرع فى قلع هذه الآثار، ونقل أحجارها إلى الأبنية والمساكن. نبّه لها الدهرُ طرْفا غافيا، وقلبا غافلا، فأصبحت هاوية الأركان، تابعة السكان. فلقد صدق عليها المتنبّى قوله:

أين الذى الهَرَمان من بُنْيانه؟ * مَن قومه؟ مايومُه؟ ماالمصرعُ؟
تتخلّف الآثار عن سُكّانها * حِينا، ويدركها الفناء فتتبع!

وإن فيها لعبرةً للمعتبر، وتذكرةً للذكر، وآيةً لمن أناب، وتبصرةً فى الدنيا لمن يلد للفناء ويعمّر للخراب.

وحكى آبن ظافر[(١)]، قال: ذُكر لى أن جماعة من الشعراء فى أيام الأفضل خرجوا متنزهين إلى[(٢)] الأهرام، ليرَوا عجائب مبانيها، ويتأملوا غرائب[(٣)] ماسطّره الدهر من العِبَر فيها، فاقترح بعضُ مَن كان معهم العملَ فيها. فصنع أبو الصَّلْت أُميّة بن عبد العزيز [الأندلسى]:

بعيشك هل أبصرتَ أحسن منظرًا، * على ماراتْ عيناك، من هرَمَىْ مصر؟
أنافا بأعنانِ[(٤)] السماء وأشرفا * على الجوّ، إشرافَ السِّماك على[(٥)] النَّسرِ.
وقد وافيا نَشْزًا من الأرض عالياً * كأنهما نَهْدانِ قاما على صدر.

(١) بدائع البدائه (ص ١٣٦)، ونفح الطيب (ج ٢ ص ٢٢٤).

(٢) آبن فضل الله: فى.

(٣) هذه الكلمة ليست فى البدائع ولا فى نفح الطيب.

(٤) البدائع: بأكناف.

(٥) آبن فضل الله: أو.

أبو الهول ووصفه

§ ومن ذلك أبو الهول . وهو اسمٌ لصنمٍ يقارب الهرم الكبير . فى وَهْدة منخفضة تقع دونه شرقا بغرب . لا يبين من فوقِ سطح الأرض إلا رأسُ ذلك الصنم وعنقه . أشبه شئ برأس راهب حبشىّ ، عليه غفارية . على وجهه صباغ أحمر إلى حُوّة ، لم يَحُلْ على طول الأزمان ، وقديم الآباد . وهو كبير . لو كان شاخصا كله ، لما قصّر عن عشرين ذراعا طولُه . فى غاية مناسبة التخطيط .

يقال إنه طَلّسم(1) يمنع الرمل عن المزدَرَع . وزاد تحسين هذا القول إليهم وتصويره لهم ، أنه على نهاية الرمل إلى جهة المزدَرَع .

وفى أبى الهول يقول [أبو منصور] ظافر الحدّاد(2) :

تأمّل هيئة الهرمين وانظُر * و بينهما أبو الهَوْلِ العجيبُ !
كعمّاريتين(3) على رحيلٍ * بمحبوبين ، بينهما رقيبُ .
وفيْضُ البحر عندهما دموعٌ * وصوتُ الريح بينهما نحيبُ .
وظاهرُ سجنِ يوسفَ مثلُ صَبٍّ * تخلّف ، فهو محزونٌ كئيبُ .

سجن يوسف

§ وأما سجن يوسف ، فشمالَ الأهرام ، على بُعدٍ منه ، فى ذيل خرجة من جبلٍ فى طَرَف الحاجر .

(1) هكذا ضبطه فى الأصل . والمعروف أنه طِلَّسم .

(2) فى بدائع البدائه (ص ١٣٦) ، وفى نفح الطيب (ج ٢ ص ٢٢٤)

(3) فى ابن فضل الله وفى البدائع : كُمَّاريتن . [وهو تصحيف . وقد ورد الصواب فى نفح الطيب ، والكلام يقتضى التثنية لا الجمع . والعمّارية هنا هودجٌ . وهى كلمة مولدة ــ أنظر تكلة المعجمات العربية للعلامة دوزى] .

حائط العجوز

§ ومن ذلك حائط العجوز . وهو حائط يستدير بالديار المصرية ، ممتدا على جانب المزدرع بها ، كأنه قد جُعل حاجزا بين الرمل والمزدرع . على أنه غير عالى الذُّرى . مشيتُ معه إلى دَنْدرا ، من الصعيد الأعلى . ورأيتُه قد دَثَر غالبه ، ومنقطِعه أكثر من متصله . وهو مبنىّ من طوب . ليس بعريض السُّمك ولا عالى الجدار .

ووقفت على الكتب المؤلفة فى أخبار مصر أنه من بناء امرأة اسمها دلوك ، وأنه يصل إلى ما بين العريش ورَفَح ، منتهى الحد الفاصل بين مصر وبين الشام . وليس له هناك أثر ، بل ولا فى اسافل أرض مصر .

ويُذكر فى تلك الكتب ــ بسبب بناء العجوز له ــ خُرافةٌ لسنا نرضى ذكرها .

ولا يُعرف مَن بنى هذا الحائط حقيقةً ، ولا ما بُنى له عن يقين . ولكنا قلنا على الظن الغالب .

شامة وطامة (تمثالا ممنون أو رمسيس الكبير)

§ ومن ذلك شامَة وطامَة . وهما صنمان من حجر ، على قاعدتين ، ببلاد الصعيد .

§ ومن ذلك البَرابِى . بالصعيد ، فى أماكن منه .

بربى إخميم

§ وأشهرها برباة إخميم . من ورائها على شرقىّ النيل ، حيث ينعطف الرمل ملتفًّا على الريف .

ما رآه المؤلف فيها

رأيتُ بها مختلفاتٍ من صور الحيوان : من نوع الإنسان والدوابّ والوحش والطير . على صور مختلفة ، وأشكال متباينة ، مصبّغة بأنواع الأصباغ ، مرسومة فى الجُدُر والسقوف والأركان ، من باطن البناء وظاهره ، لم تنطمس رسومها ، ولا حالت أصباغها : كأنّ يَدَ الصانع مافارقت صورها ، وكفّ الصبّاغ مامسح دهانها .

تحقيق الحكيم شمس الدين محمد النقاش بشأنها

(١٧٧)

قال لى الحكيم المحقق شمس الدين محمد النقاش: إنه سافر قصْـدا إليها وأقام مدّة يرِدّد نظره فيها، ويجدّد نظره[1] فى أوضاعها. فرآها تشتمل علىٰ هيئة العُلْوِيّات المرصودة بأسرها، ممـا لايُعمل كلّ موضوع منها إلا برصد محرَّر مما لا يسع زمانٌ واحدٌ بعضَه. قال: فعلمتُ أنها ما عُملت فى زمانٍ واحد، بوضع حكيم واحد: لِقصَر مدد الأعمـار عن زمان يفى برصد تلك الهيئة الكاملة. قال: وإنما تكون ـ والعلم لله ـ ممـا توارث عَمَلَها علىٰ حُكم الأرصـاد المحررة عدَّةُ حكماء فى أزمنـة طويلة، حتىّ آسـتقلَّ ذلك المجموع وتمّت تلك الهيئة.

عمود الصوارى بالإسكندرية

§ ومن ذلك عمود الصَّوارى. بظاهر الإسكندرية. وهو عمود مرتفع فى الهواء تحته قاعدة، وفوقه قاعدة. يقال إنه لانظير له من العمد فى علوه ولا فى آستدارته. ويُحكىٰ عنه حكاياتٌ منها ماهو مسطّر فى الصحف، ومنها ماهو مستفيضٌ علىٰ الألسنة، ممـا لا نرىٰ ذكره

منارة الإسكندرية والشعراء

§ ومن ذلك المنارة بها. وشهرتهـا كافية. ولم يبق منها إلا ماهو فى حكم الأطلال الدوارس، والرسوم الطوامس.

وقد كانت المنارة مسرح ناظر، ومطمح أمل حاضر، طالمـا جمعت أخدانا، وكانت لجياد الخواطر ميدانا.

حكىٰ آبن ظافر[2] أن آبن قلاقس والوجيه [أبا الحسن عليّا] بن الدروىّ طلعا المنارة. والوجيه يومئذ فى عنفوان [شبابه و] صِباه، وهبوب شَمـاله فى الجَنوب وصَباه.

(١) لعله أراد: بصره

(٢) بدائع البدائه، (ص ١٣٨).

وآبن قلاقس مغرم به، مُغْرًى بحبـه، مكبٌّ[1] علىٰ تهذيبه، مبالغ فى تفضيض شـعره وتذهيبه. ولم تكن وقعت بينهما تلك الهناه، ولا آستحكمت بينهما أسباب المهاجاه. فآقترح عليه آبن قلاقس أن يصف المنارة. فقال [بديهًا]:

وساميةِ الأرْجاء تَهدِى أخا السُّرىٰ * ضِياءً، إذا ماجِندِسُ الليل أظلما.
لبستُ بها بُرْدًا من الأنس ضافيًا * فكان بتَذكار الأحبّـة مُعْلَمَـا.
وقد ظَلّلَتْنى من ذُراها بقبّة * أُلاحظ فيها من صِحابىَ أنجما.
فَخُيِّل أن البحر تحتى غَمامةٌ * وأنِّىَ قد خيَّمتُ فى كَبِـد السَّما.

فآشتدّ سرور آبن قلاقس وفرحه، وقال يصفها ويمدحه:

ومنزلٍ جاوَرَ الجَـوْزاء مرتقيا * كأنَّما فيه للنَّسْرَيْن أوْكارُ.
راسِى القرارةِ سامِى الفرع فى يده * للنُّون والنُّور أخبارٌ وآثارُ.[2]
أطلقتُ فيه عِنان النظم فآطَّردتْ * خيلٌ لها فى بديع الشِّعر مِضمارُ.
ولم يَدَعْ حَسَنًا فيهِ أبو حَسَنٍ، * إلا تحكّم فيه كيف يختارُ.
حلَّى المنارةَ لمـا حلّ ذِرْوتَها * بجوهر الشـعر بحرٌ منه زخَّارُ.
مازال يُذْكِى بها نار الذكاء إلىٰ * أن أصبحت عَلَمًا فى رأسه نارُ.[3]

(١٧٧) مكرر الملعب ومكان قصر بنى خليف

ومن ذلك الملعب بها. وقد كان له عيد يجتمعون إليه فيه، فى كل سنة، وتُرمىٰ به كُرة. فمن وقعت فى كمّه، آل إليه المُلك. وحضره عمرو بن العاص فى الجاهليـة،

(١) بدائع البدائه: دَنِبٌ.

(٢) فى آبن فضل الله. وأخبار.

(٣) وردت هذه الأبيات فى الديوان المخطوط والمطبوع، مجردة من الثانى والخامس، ومن حكاية الحال.

وقعت الكُرة فى كمّه. فقالوا: أخرمت العادة؟ فإن مثل هذا لا يُملك. وهذه واقعة مشهورة، لاحاجة إلى الإطالة بها.

ومكانُ هذا الملعب عمر بنو خُلَيف القصر المنسوب إليهم.

وحكى ابن ظافر[1] أن ابن قلاقس حضر يوما عند بنى خليف [بظاهر الإسكندرية] فى قصرٍ رسا بناؤه وسما، وكاد يمزّق بمزاحمته[2] أثواب السما. قد ارتدى جلابيب السحائب، ولاث عمائم الغمائم. وابتسمت ثنايا شُرُفاته، واتسمت[3] بالحُسْن حنايا غُرُفاته. وأشرف على سائر نواحى الدنيا وأقطارها، وحبّته السحائب بما اؤتمنتْ عليه من ودائع أمطارها. والرمل بفِنائه قد نشر تبره فى زبرجد كرومه، والجو قد بعث بذخائر الطيب[4] إليه لطيمة نسيمه. والنخل قد أظهرت جواهرها، ونشرت غدائرها. والطلّ ينثر لؤلؤه فى مسارب النسيم ومساحبه، والبحر يرعُد [غيظا] من عَبَث الرياح به. فسأله بعض الحُضور أن يصف الموضع الذى تمت محاسنُه، وغُبط به ساكنه. فجاشت لذلك لُجَجُ بحره، وألقتْ إليه جواهرَه لترصيع لَبَّة ذلك القصر ونحره[5]، فقال:

قصرٌ بمَدْرجة النسيم تحدّثتْ[6] * فيه الرياضُ بسرّها المستور.[7]

(١) بدائع البدائه، ص ١٧٥، ونفح الطيب [ج ٢ ص ١٧٤، ١٧٥].
(٢) هذه الكلمة ليست فى البدائع، ولكنها واردة فى نفح الطيب.
(٣) فى ابن فضل الله، وفى النفح: وارتسمت.
(٤) هاتان الكلمتان ليستا فى البدائع.
(٥) فى البدائع: فألقتْ اليه جواهرها لترصيع لبة ذلك القصر ونحره.
(٦) فى ابن فضل الله وفى البدائع: عنه.
(٧) لم يرد فى الديوان المخطوط والمطبوع سوى هذا البيت والثالث بعده.

خفضَ الخورنق والسديرَ سُمُوُّه * وثنى قصورَ الرُّوم ذاتَ قُصور[1].
لاث الغَمام عِمامةً مِسْكيّةً[2] * وأقام فى أرضٍ من الكافور.
غنّى الربيعُ به محاسن وصفه * فافترّ عن نَوْرٍ يروق [ونُورِ].
فالدَّوح[3] يسحب حُلّةً من سُندُس * تزهو بلؤلؤ طلّها الموفُور.
والنخل كالغيد الحسان تقرّطتْ * بسبائك المنظوم والمنثور.
والرمل فى حُبُك النسيم كأنما * أبدى غُضُونَ[4] سوالف المذعور.
والبحر يرعُد متنه فكأنّه * درع تُشَنّ[5] بمَعْطِفَى[6] مقرور.
وكأننا، والقصرُ يجمعُ شَمْلنا، * فى الأفق، بين كواكبٍ وبُدُور.
وكذاك دَهْر بنى خُلَيف لم يزل * يثنى المعاطف فى حبير حبور.

مدينة لبدة ببرقة

ومن ذلك مدينة لبدة[7]. وهى خراب يَبَاب. بها صنمان عظيمان من الرُّخام الأبيض، فى زىّ امرأتين. وغالب بناء هذه المدينة — فى جدرها وسقوفها وفرش دياراتها وأرضها — من الرخام الأبيض. وكان يجرى إليها وادٍ يصُب إلى البحر الشامىّ

(١) فى ابن فضل الله: السور.
(٢) فى الديوان المخطوط والمطبوع: لاث [وهو سهو من الناسخ ومن جامع الحروف].
(٣) فى البدائع: فالروض.
(٤) فى البدائع: المهجور [وقد صححت البيت لان فيه تحريفا كثيرا فى ابن فضل الله وفى البدائع دون النفح].
(٥) أى تُصَبّ وتُلبس.
(٦) فى ابن فضل الله: بمعطف.
(٧) اسمها الجغرافى القديم "لبتيس" Leptis

وتُرسي السفن البحرية إليه . وطفّات الوادى ومجارى الماء مرصوفة بالرخام . فغلب عليها سافى الرمل ، فقطع مدد الوادى ، وأخلى أوطانها ، وأجلى سُكّانها . وهذه المدينة ببَرْقة ، مما يقابل أطرابُلُس الغربية[١] .

مدينة المعلقة بتونس (وهى قرطاجة)

(١٧٨)

ومن ذلك المُعلَّقة[٢] . وهى مدينة بإفريقية . على ساحل البحر الشامى على نحو ستة عشر ميلا من تونس . يقال إنها كانت لابنة الملك الذى قال الله ، وقوله الحق ، فى حقه : "وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا" . بها آثار عظيمة ، وأحجار كبيرة ، ومهاوٍ بعيدة ، وأسراب عميقة . تُظْهر لمن تأملها العجبَ العُجَاب ، واللُّبّ اللباب . ومن عظيم ماحوته من الأحجار ، أنه على طول المُدد ، وتراخى عِنان الأبد ، أنه ينقل من أحجارها إلى ما جاورها ولا ينقطع مددها ، ولا يظهر نقص فى كثرتها .

مدينة شرشال بالجزائر

ومن ذلك مدينة شرشال[٣] . وهى مدينة تقابل مِلْيانة ، بالغرب الأوسط ، على ساحل البحر الشامى . يقال إنها كانت مدينة الملك الغاصب للسفن ، المعنِىّ بقوله تعالى فى سورة الكهف . وقد تقدمت الآية عند ذكر ابنة هذا الملك ، فيما قبلُ . وهى مدينة تزيد على الوصف ، فى اتساع الأفنية ، وارتفاع الأبنية ، وعظم القناطر المرفوعة ، والأقبية المعقودة ، والقواعد المشيدة ، والجُدُر السميكة ، مما يشهد له جُوَّال الأرض ، وسُفَّار الآفاق ، وسُمّار الحديث ، بأنه لاشبيه له فى تخشين بنائها ، وتحسين صناعاتها .

(١) Tripoli de Barbarie

(٢) يشير المؤلف إلى أحد أقسام مدينة قرطاجة المشهورة التى يسميها الإدريسى قرطاجنة ، وقد أفاض فى وصفها وفى شرح آثارها (ص ١١٢ — ١١٤ من طبعة دوزى) .

(٣) ذكرها الإدريسى . وليس فى كتابه هذا الوصف الذى أورده ابن فضل الله .



صخرة سبتة

ومن ذلك صخرة سَبْتة[١] . يقال إنها المعنية[٢] بقوله تعالى : "أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ" . وهى مشهورة هناك .

هيكل الزهرة بالأندلس

ومن ذلك هيكل الزُّهَرة[٣] . بالأندلس ، فى ذيل الجبل الآخذ بين طُلَيْطِلة[٤] ووادى آش[٥] فى شرقيه بشمال . مطلٌّ على البحر المحيط . وقد تقدمت الإشارة إليه .

باب الصفر بجبال البرانس

ومن ذلك باب الصُّفر[٦] . فى شرقىّ الأندلس يفصل بينه وبين الأرض الكبيرة[٧] . ذات الألسُن العديدة من سكان الشمال . عمل الباب على نقب كان فتح فى جبل حيث خَرَجتَ من البحر الشامىّ طريقا للأندلس إلى البر المتصل .

(١٧٩)

وقد رأيتُ أن أعقب ذكر هذه الآثار ، بما هو مماثلها[٨] أو أبلغ فى الاعتبار ، وهو :

قصور العرب ووصف الشعراء لها

قصر العَبَّاس . وهو بين سنجار ونَصِيبين . وهو وإن لم يكن فى القدم من نسبة ماذكرنا ، فإنه فى العِبرة كما أشرنا . حكى قاضى القضاة أبو العباس أحمد بن خَلِّكان

(١) هى مدينة Centa .

(٢) فى الأصل : المعنىّ .

(٣) Port Vendre .

(٤) Tolède .

(٥) Guadix .

(٦) يشير إلى أحد أبواب (Puerta) جبال البرانس (Les Pyrénées) التى يسميها العرب جبال الأبواب وجبال البُرتات وجبال البرانس .

(٧) هذا التعبير يطلق فى عرف جغرافيى العرب وخصوصا الأندلسيين على بلاد فرنسا خاصة وسائر أرض أوربة عامة .

(٨) فى الأصل : ممثلها .

فى تاريخه[1] قال : مر أبوالربيع قرواش بن المقلّد بن المسيب بقصر العباس بن عمرو الغنوىّ وكان مطلًّا علىٰ بساتينَ ومياه كثيرة ، فتأمله ، فإذا فى حائط منه مكتوب :

"ياقصر عبّاسِ بن عمـ * ـرٍو ، كيف فارقك آبنُ عمْرِكْ ؟

قـد كنتَ تغتال الدُّهو * ر ، فكيف غالك ريب دهْرِكْ ؟

واهًـا لعِـزِّك بل لجُـو * دك بل لمجدك بل لفخرِكْ !

وكتبه علىّ بن عبد الله بن حمدان بخطه سنة إحدىٰ وثلاثين وثلاثمائة ".

(وهذا هو الامير سيف الدولة بن حمدان) .

وتحته مكتوب :

"ياقصرُ ، ضعْضعك الزما * نُ وحطَّ من عَلْياء فخرِكْ[2] !

ومحا محاسنَ أسطُرٍ * شَرُفت بهنّ مُتُون جُدْرِكْ !

واهًـا لكاتبها الكريـ * ـم وقدره المُوفِى بقَدْرِكْ !

وكتبه الغضنفر بن الحسن بن علىّ بن حمدان بخطه سنة آثنتين وستين وثلاثمائة ".

(وهذا هو عدّة الدولة آبن الامير ناصر الدولة أخى سيف الدولة) .

وتحته مكتوب :

يا قصرُ ، مافعـل الأُولىٰ * ضُربَتْ قِبابُهُـم بِعُقْرِكْ ؟

(١) كتاب "وفيات الاعيان" فى ترجمة "المُقَلَّد" صاحب الموصل (ج ٢ ص ١٦٨ — ١٦٩ من طبعة بولاق سنة ١٢٧٥) . وآنظر الترجمة الانكليزية للبارون ده سلين تحت آسم Mukallad .

(٢) قدرك (فى آثار البلاد للقزوينى ص ٣١٣ من طبعة وُستنفلد) .

أخنىٰ الزمانُ عليهـم * وطواهُمُ لطوِيلِ نَشْرِك[1] !

واهًا لقاصِرِ عُمْرِ مَن * يختال فيك ، وطُولِ عُمْرِكْ !

وكتبه المقلّد بن المسيب بن رافع بخطه فى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ". (١٨٠)

(وهذا هو والد قرواش) .

فكتب ولده قرواش تحته :

"ياقَصْرُ ، ماصنعَ الكِرا * مُ الساكنُونَ قديمَ عَصْرِك ؟

عاصَرْتَهم فبذَذْتَهم * وشأَوْتَهم طُرًّا بصبرِك[2] !

ولقـد أثارَ[3] تفجُّعِي * ياآبنَ المسيَّبِ رَقْمُ سطرِك !

وعلمتُ أنّي لاحِـقٌ * بك دائبٌ[4] فى قَفْو إثْرِك !

وكتبه قرواش بن المقلد بن المسيب بخطه فى سنة إحدىٰ وأربعمائة ".

وعزم علىٰ هدمه ، وقال : هذا مشؤوم ، ثم تركه .

وبانى هذا القصر العباس بن عمرو الغنوىّ من أهل تلّ سيَّار ، بانى الرقة ورأس عين من حصن مَسْلَمة بن عبـد الملك بن مَرْوان . وكان يتولّٰى اليمامة والبحرين .

(١) فى آبن خلكان : وطواهمو بطويل نشرك . وفى ياقوت والقزوينىّ : وطواهُمُ تطويل نشرك .

(٢) فى آبن خلكان :

عاصرتهم فبـددتهم * ساورتهم طراً بصبرك .

[وهذا البيت الثانى غير وارد فى القزوينىّ] .

(٣) فى القزوينىّ : أطال .

(٤) فى آبن خلكان : ذائبٌ . [وهو تصحيف مطبعىّ] . وفى القزوينىّ : تابع .

وسيّره المعتضد لحرب القرامطة فى عشرة آلاف فارس. فقُتل الجميع، وسلم وحدَه. (وعمرو بن الصفار حارب إسمعيل بن أحمد صاحب خراسان فى خمسين ألف فارس فأخذوه وسلم الباقون).

وكذلك قصر البصرة. وكان قبل أن تُختطَّ البصرة منزلا تنزله الأكاسرة فى متصيَّداتهم، وتخرج إليه الأساورة فى متنزَّهاتهم. وتهدم حتّى جدده الحجاج، فعرف به، فقيل قصر الحجاج. وكان يعرف بقصر قُباذَ. وقال: قال أبو العزاف: قال الحجاج لجرير والفرزدق، وهو فى قصره بالبصرة بالخزيرة: «إيتيانى فى لباس آبائكما فى الجاهلية». فلبس الفرزدق الديباج والخزَّ، وقعد فى قبّة. وشاور جرير دُهَاة بنى يربوع وشيوخَهم، فقالوا: "ما لباس آبائنا إلا الحديد". فلبس درعا وتقلد سيفا وتأبط رُمْحا وركب فرسا، وأقبل فى أربعين فارسا من بنى يربوع. وجاء الفرزدق فى هيئته. فتقاولا. فقال جرير:

لَبِستُ سلاحِى، والفَرَزْدق لُعبةٌ * عليه وِشاحا حَلْيِه وخلاخِلُهْ
أَعِدّوا مع الخزِّ المَلابَ، فإنّما * جريرٌ لكم بعلٌ وأنتم حلائلُهْ!

ثم رجعا. فوقف جرير فى معرّة بنى حصن، ووقف الفرزدق بالمِربَد. وقد أَبرَّ[1] جرير عليه.

وكذلك قصر الكوفة. وقد هُدم، فلم تبق منه باقية.

وله حكاية مشهورة. ولهذا ذكرناه.

قال عبدالملك بن عُمير: كنتُ مع عبدالملك بن مَرْوان بقصر الكُوفة، حين جىء برأس مُصْعَب بن الزبير. فوُضع بين يديه، فرآنى قد ارتعدتُ فقال لى: مالك؟

(١) أى غلبه وفاز عليه.

فقلت: أعيذك بالله، ياأمير المؤمنين! كنتُ بهذا القصر، فى هذا الموضع، مع عبيد الله ابن زياد، فرأيتُ رأس الحسين بين يديه. ثم كنتُ فيه مع المختار بن أبى عبيد، فرأيتُ رأس ابن زياد بين يديه. ثم كنتُ فيه مع مُصْعَب بن الزبير، فرأيتُ رأس (١٨١) المختار بين يديه. ثم ها أنا فيه معك، ورأس مصعب بين يديك. فقام عبد الملك من مقامه ذلك، وأمر بهدم ذلك الطاق.

ولمناسبة هاتين الواقعتين، ذكرنا هذين القصرين، لما فيهما من العبرة لمن تفكر. فسبحان الله الباقى، وكل شئ هالك، الدائم، وما سواه ليس كذلك!

ومنها قصر هِرَقْل. وهو بالشَّرَف الأعلى الشمالىّ. ويُعرف فى زماننا بقصر شمس الملوك. ولم يبق منه اليومَ إلا الجوسق والحمام. والجوسق الآن خانقاه للفقراء. ولم يزل منزلا للملوك ومنتزها لأهل البلد، لإشرافه [على] نهر بَرَدَى والوادى. ونزله السلطان صلاح الدين.

وحكى ابن ظافر[1] قال: دخل أبو خالد بن صقير[2] القيسرانى على الأمير تاج الملوك أبى سعيد نور بخت[3]، أتابك طغتكين، صاحب دمشق، وبين يديه بركة فسيحة الفِناء، صحيحة البناء، قد راق ماؤها وصفا، وجرّ النسيم عليها مارقَ من أذياله وضفا. وهو تارة يرشُف رضابها، ويجعّد ثيابها، وتارة يسبكها مبردا، ويحبكها مسردا. فأمره بوصفها، فقال:

(١) بدائع البدائه، ص ١٧٢.
(٢) « « : صغير.
(٣) « « : نورى بن.

أَوَ مَا تَرىٰ طَرَبَ النسيـ * ـم إلىٰ الغدير إذا تحرَّكْ؟[1]
بَلْ لو رأيتَ الماء يلـ * ـعب فى جوانبه، لسرَّكْ!
وإذا الصَّبا هبّت عليـ * ـه، أتاك فى ثوبٍ مُفَرَّكْ.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ أبو القاسم علىّ بن عساكر، فى ترجمة إسماعيل بن أبى هاشم. قال: قرأت بخط أبى الحسن رشإ بن نظيف، وأنبأنيه أبو القاسم علىّ بن إبراهيم وأبو الوحش سبيع بن المسلم، عنه: أخبرنا القاضى أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن علىّ بن محمد بن يحيىٰ الدقاق: حدثنى أبو الحسن علىّ بن أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوىّ: حدثنا إسماعيل بن أبى هاشم، قال: قرأت علىٰ قصرٍ بدمشق لبنى أُمَيَّة:

ليتَ شِعْرى! ماحالُ أهلك ياقَصْـ * ـرُ وأيْنَ الذين عالَوْا بِنَاكا؟
ما لأرْبابِك الجبابِرَةِ الأمـ * ـلاك شادُوك ثم حَلُّوا سِوَاكا؟
أَلِزُهْدٍ يا قصـرُ فيك تحامَوْ * ك ألا تُبْتَنَىٰ ولستَ هُناكا؟
ليت شِعْرى! وليتنى كنتُ أدْرِى! * مادهاهُمْ، ياقصر، ثُمَّ دهاكا؟

ومن خلفه: "هذا جوابٌ عنهم:

أيُّها السائلُ المفكِّرُ فيهم! * ماإلىٰ ذا السُّؤال ـ قُلْ لى ـ دَعَاكا؟
أَوَما تعرِفُ المَنُونَ إذا حلّت دِيَارا فلن تُراعِى هَلَاكا!
إنّ فى نفسك الضعيفةِ شُغْلا * فاَعتَبِر وامض فالمَنُون وَرَاكا!"

قال: وحدثنى أبو الحسن بن الطحاوىّ: حدثنى ابن أبى هاشم قال: قرأتُ بحُلوان [مصر] علىٰ قَصرٍ لعبد العزيز بن مَرْوان:

(١) بدائع البدائه: أو ماترىٰ طرب الغديـ * ـر إلىٰ النسيم إذا تحرّك؟

(١٨٢)
أيْنَ ربُّ القَصْرِ الذى شيَّد القصـ * ـر، وأين العَبِيدُ والأجنادُ؟
أيْنَ تلكَ الجُموعُ والأمر والنهـ * ـىُ وأعوانُهم وذاك السَّوادُ؟
أين عَبدُ العزيز، أيْنَ ابن مَرْوا * نَ، وأيْنَ الحُماةُ والأولادُ؟
مالنا لا نُحِسُّهم ونَرَاهم! * أتُرىٰ، ما الذى دهاهم، فبادُوا؟

قال: وقرأت تحته: "هذا جواب عنهم:

أيُّها السائلُ المُفكِّر فيهم: * كيْفَ بادَتْ جُمُوعُهم والسَّوادُ،
ثم فى القَصْر والذين بَنَوْه * أسَفًا، حين فارقوه وبادُوا.
أيْنَ كِسْرىٰ وتُبَّعٌ قبل مَرْوا * نَ ومِن قبلِ تُبَّعٍ شَدّادُ.
أيْنَ نُمْرودُ؟ أيْنَ فِرْعونُ مُوسىٰ؟ * أين مِن قبلهم ثمودُ وعادُ؟
كلُّهمْ فى التراب أضحىٰ رَهِينا * حينَ لم تُغْنِ عنهم الأجْنادُ!
إنّ فى الموت ياأخى لك شُغْلا * عن سِواه، والمَوْقف المِيعادُ!"

ومما ينسحب علىٰ ذيل ذلك، أننى نزلتُ فى مسجد بقُنَيَّة السلّار، من اليرموك بالشام (وكانت قديما منازل غَسَّانَ، ثم نزلها قوم من آل يَسَار، ثم صارت إلىٰ بنى السلّار، وكانوا أمراء نبلاء، وسادة أجلاء، ثم أبادهم الحدثان) فقرأت علىٰ بعض جُدْران المسجد:

أرأيتَ أىُّ منازلٍ وديارِ * أمسَتْ خَلاءً مِنْ بنى السَّلّارِ،
العامرين مساجدًا لإلٰهِهم * الغامرين ندّى ذَوِى الإعسارِ؟

وقد كتب آخرُ تحتها:

قلْبى المَشُوقُ إلىٰ بَنِى السَّلّار * أبدًا يُقلَّب فوق جُذوة نارِ!
قومٌ لحُسْن صَنِيعهم أحببتُهم، * حُبِّى لآل محمدٍ الأطْهارِ!

(١٨٢ مكرر) فكتبتُ تحتها :

لا تنكرنَّ تنكُّر الآثار * وتغيُّر الأوطانِ والأوطار!
يامَن تعجَّب للقُنيَّة إذ خلتْ * من ساكنيها من بنى السَّلار!
لاتعجَبنَّ فهم سُلالة آدمٍ * أُكْل المَنون وعُرضةُ الأقدار!
إنْ تَخلُ منهم، فهى من قبلٍ خلتْ * من آل غسَّانٍ وآل يسَار.
لا تعجَبنَّ من الفِراق، فإنَّه * ما هٰذه الدُّنيا بدارِ قرار!
جاؤوا على آثارِ غيرِهمُ وقد * ذهَبوا كما ذهَبوا على الآثار!
وسَبيلُنا لمَّا أتينا بعْدَهم * كسبيلهم فى الوِرْد والإصْدار!
كلُّ الذى حازُوه عاريةٌ ولا * عَجَبٌ إذا ردّ المُعارُ عَوَارى!

(١٨٢ مكرر) قلتُ: ومن هذا النوع أننى مررتُ بعد حين من الدهر بمعاهدَ كنت آلفها أول عُمرى، والشيبُ ما عارض عارضى ولا عُذرى، وعقد الاجتماع منظوم، وأهلها أهلَّة ونجوم. فوجدتها خالية بعد أهلها، ظامية بعد علَّها ونهلها، قد أصبحت عارية من ريفها وظِلِّها، عادمة لكُثْرها وقُلِّها. وقد كتب عليها بعض من ولِع :

هذه دارُهمْ وماتُوا جميعا * هكذا هكذا يُعادِى الزمانُ!

فحرّكنى هذا البيت، لسكان ذلك البيت، وأيامِنا نحن وساكنه الميْت، وتذكرتُ تلك الأيام الماضيه، والعيشة الراضيه، ثم ماغيرت الحوادث، وسدّت من الأبواب والبواعث، فقلت آرتجالا :

أين دهرٌ مضى لنا أول العُمْـ * ـر وأينَ الزمانُ والإخوانُ؟
حدثتْ بعدَنا عليهم أمورٌ! * هاتِ شيئا ما اغتالهُ الحَدَثانُ؟
ذهب الكُلُّ فى زمانٍ تقضَّى، * كلُّ شئ يأتى عليه الزمانُ!
ماتبَقَّى لنا من الكُلِّ إلّا * قولُنا للتَّذكار: كُنَّا وكانُوا!

ثم أمرتُ مَن كتبها تحت البيت وآنصرفت باكيا، وشكوتُ لو أنصف الدهر شاكيا.

الديارات والحانات

(١٨٣)

الديارات المشهورة

وأما ما بلغنا ذكره من الديارات المشهورة الواردة فى أشعار العرب وغيرهم، أوكان قد دخلها أحد من الخلفاء والأمراء والأدباء والشعراء المشهورين، أو ورد لذلك الدير ذكرٌ فى شعر قديم أو عصرى.

دير الكلب

فمنها دير الكَلْب[١] وهو قرب مَعْلَثايا، فى سفح جبل. والماء ينحدر عليه. وقلاليُّه مبنيّة بعضها فوق بعض، فى صعود الجبل. فمنظرها أحسن منظر. وينبُوعه ينصبّ عليه من أعلاه.

وفيه من الزيتون والرُّمّان والآس والكرْم والزعفران والنرجس شئٌ كثير.

ولرهبانه مزارعُ فى السهل، وغلاته كثيرة.

قال الخالدىُّ[٢]: ولهذا الدير خاصية فى برء عضة الكلب الكلب. وله عيدٌ فى وقت من السنة، يخرج إليه خلقٌ: من النصارى نساء ورجالٌ للإقامة عندهم[٣]. وخلق من المسلمين للنظر إليه والنزهة فيه. ويجتمع إليه أهل الرَّفث والمُجّان، وتُسمع به الأغانى وأنواع الملاهى، وتُذبح به الذبائح، وتُشرب الخمور.

(١) يؤكد هذا الضبط ويؤيده مارواه ياقوت من أن "عجائب الدنيا ثلاثة: دير الكلب، ونهر الذهب، وقلعة حلب". (معجم البلدان ج ٤ ص ٨٣٩). وأنظر فيه تفاصيل أخرى على هذا الدير (ج ٢ ص ٦٩٠، ج ٤ ص ٢٩٩). وكذلك فى "أحسن التقاسيم" للبشارى طبع ليدن (ص ١٤٦).

(٢) هو أحد الخالديَّيْن الشاعرين الشهيرين. ينتسبان إلى الخالدية، قرية بقرب الموصل. كانا خازنين لكتب سيف الدولة ممدوح المتنبى. ولهما أشعار وأخبار وتآليف منها كتاب "الهدايا والتحف" وفى خزائن بالقاهرة نسختان منه.

(٣) لعله عنده بإفراد الضمير.

وحُكى أن أخًا لأبى السفاح الشاعر عضه كلب كلب، فحمله إلى هذا الدير، فتداوى به، فبرئ. وأنشد له شعرا فيه، لم أذكره.

دير أبون

دير أبُون[١]. وهو دير بين الجزيرة وثمانين. وهو دير جليل عند النصارى. وبه جماعة من الرهبان. ويزعمون أنه قبر نوح عليه السلام، وقد تقدم ما ذكرناه فى أمر قبره بكَرَك البقاع. والله أعلم أىّ بقعة ضمّته.

ولهم صهريج للماء. زعموا أن له أنابيب من صُفْر يجرى فيها الماء من جبل الجُودىّ إلى الصهريج.

وإلى جانبه ضيعةٌ غنّاءُ كثيرة البساتين، يقال لها بزر مهران.

دير الزعفران

دير الزعفران[٢]. وهو بالقرب من مَعْلَثايا بجانب القلجة النافذة إلى الحسنية. وهو فى لِحف جبلٍ تُطلّ عليه قلعةُ أَرْدَمُشْت[٣]. وفيه نزل المعتضد لما حاصرها وأخذها.

(١٨٤)

وهو كثير الرهبان والقلالى. ولرهبانه يسارٌ ونَعَمٌ ومزارع وبساتين.

وفرشُ أرضه من زهر الزعفران. وقلاليّه بعضها من [فوق] بعض، كبناء دير الكَلْب، بأحسن وصف وأملح تكوين. وله سور يحيط به وشرابه مفضّل فى اللون والرائحة والعتق. وماؤه سائح من يَنْبُوع فى جبله.

(١) أنظر تفاصيل أخرى فى ياقوت (ج ١ ص ٥٦٢، ج ٢ ص ٦٤٠).

(٢) أُنظر الطبرىّ (سلسلة III ص ٢١٤٤)؛ وكامل ابن الأثير (ج ٧ ص ٢٣٥؛ ج ١٢ ص ٢٩٣)؛ وياقوت ج ٢ ص ٦٦٣، ج ٣ ص ٧٢٤)؛ وخصوصا الشابشتى (ورقة ١٨٢). ويسمى أيضا عُمْر الزعفران (أُنظر ياقوت ج ٣ ص ٧٢٤).

(٣) فى الأصل: أردهشت. والتصحيح عن ياقوت.

قال الخالدىّ: اجتزتُ به فى بعض السنين، وعامل الناحية سعيد بن إسحاق فاحتبسنى عنده أياما للأُنس. فعملتُ فيه عدة أشعار، منها:

وزَعْفرانيّــةٍ فى اللّــوْن والطِّيب * طيّبــةِ الخمر دَكّاء الجَــلاليبِ،
ثوتْ بحانة عُمّــر الزعفرانِ علىٰ * مَرّ الهَــواجِر فيــه والأهاضيبِ.
وما الغطارِفةُ الشُّبّانُ إن شربُوا * خمْــرا بأبلجَ من رُهْبانِه الشّيبِ.
شربْتُها من يدَىْ حوراءَ مُقلتها * تُضْنى القُلُوبَ بتَبْعِيــدٍ وتقريبِ.
شمسٌ إذا طلعَتْ، قالتْ محاسنُها: * هاقدطَلَعْتُ، فياشمسَ الضُّحىٰ غيبى!
ونِمْتُ سُــكْرا، ونامتْ لى معانِقةً: * فلا تَسَلْ عن عِناق الظّبْى والذّيبِ!

ديرقنى

ديرقُنّى[1]. وهو ببغداد والمداين.

دير العاقول

ودير العاقُول[2]. أسفل منها[3] باثنى عشر فرسخا. وإلى جانبه قرية كبيرةٌ. أخرجت

(١) أُنظر الطبرىّ (سلسلة III ص ٢١ و ٥٠ و ١٩٦١ ، A ٥٩ ، ١٦٥) ؛ وكتاب العيون والحدائق (ج ٣ ص ١٩٦) ؛ ومعجم ما آستعجم للبكرى (ص ٣٨١) ؛ والتنبيه والإشراف للمسعودىّ (١٤٩) ؛ وطبقات الأطباء لآبن أبى أصيبعة (ص ٢٣٥) ؛ وآبن الأثير (ج ٥ ص ٣١٠) ؛ وياقوت (ج ١ ص ٧٣٩ ، ج ٢ ص ٦٨٧ و ٧٠٠ ، ج ٣ ص ٣٦٢ ، ج ٤ ص ١٧٨ و ٨٤٦) ؛ ومختصر الدول لآبن العبرى (ص ٢٨٥) ؛ وخصوصا الشابشتى (ورقة ١١٥) . ويكتبونه قنا .

(٢) أُنظر الطبرىّ (سلسلة III ص ١٠٠٢ و ١٨٩٣ و ١٩٤٨ و ١٩٦١) ؛ وأحسن التقاسيم (ص ٥٣ و ١١٥ و ١٢٢ و ١٣٤ و ١٣٥) ، ومسالك الإصطخرى (ص ٨) ؛ ومسالك آبن حوقل (ص ١٦٨ و ١٦٩ g) ؛ وآبن خرداذبة (ص ٥٩) ؛ وجغرافية أبى الفدا (ص ٥٤ و ٢٩٥ و ٣٠٥) ؛ وآبن الأثير (ج ٦ ص ٢٢٦ ، ج ٧ ص ٢٠٠ و ٢٣٤ ، ج ٨ ص ١٧٢ و ٤٧٤ ، ج ٩ ص ١٦٥) ؛ وياقوت (ج ١ ص ٢٦٦ و ٢٧٦ و ٦٨٧) . وفى آبن الأثير : دير العقول .

(٣) لعلّ الصواب : منهما .

عدة من الكتّاب والوزراء . وهو حسن البناء، راكبٌ علىٰ دِجلة . وبات فيه الوزير علىّ بن مقلة، ثم آصطبح فيه . وقال

باتتْ يدى تجنى ثِمارَ الجُناحْ * بديرقُنّى من وُجُوهٍ مِلاحْ!
حتّى تـلا الراهبُ مزْمُوره * وصَمّخ الأُفْقَ خلوقُ الصّباحْ.
فهلْ فتًى يُسْعِدُنى عاقِـدًا * ذيْلَ غُبُوقٍ بذُيول آصْطباح؟
أُطيعُــه فى كل مايشْتهِى * كطاعة الرِّيشِ لأمْرِ الرياحْ.

(١٨٥)

وفيه يقول البحترىّ، من قصيدة يمدح آبن الفيّاض الوزير، وكان من ديرقُنّى:

ماتُقَضَّى لُبانةٌ عِنْد لُبْنىٰ، * والمُعنّى بالغانيات مُعَنّىٰ!
نزلُوا ربْوة العِــراق آرتيادا. * أىُّ أرضٍ أشفُّ دارًا وأسْنىٰ؟
بين دَيْرِ العاقول مُرتبَعُ أشْــرف مُحتلّــه إلىٰ ديرقُنّىٰ،
حيث باتَ الزيتونُ من فوقه النخْــلُ عليه ووُرْقُ الحَمام تغنّىٰ.
ما المَعالِى إلا المَكارِمُ تزدا * دُ وإلّا مصانعُ المجــد تُبْنىٰ!

قال الخالدىّ: وأنشدنا أبو العباس بن أبى خالد الأحول: قال أنشدنى كاتب آبن طولون لنفسه:

إنّ عجْــزًا كما نكون وغَبْنًا * أن نُرىٰ صاحِيَيْن فى ديرقُنّى!
حَبّــذا روضــةُ المدبَّجُ ليلًا * وهواه ذاك المُمَسّــكُ رُدْنا!
قد جرىٰ السَّلْسَبِيلُ بالمِسْك فيها * لخوتْه الدِّنّان : دنًّا فــدنّا.
كم خــلَوْنا بخُسْروانِىّ كِسرىٰ * وهو يُسقىٰ طورًا وطورا يغنّى!
تحتنا فَــرْدةٌ من الوَرْد إلّا * أنها من أنامل البــدر تُجْنىٰ!

وحكى جحظة البرمكىّ قال : كُنت بحضرة إسماعيل بن بُلْبُل ، بواسطَ أيامَ حرب العلوىّ البصرىّ ، والموفق الناصر يقاتله . فلما انصرفت رافقنى البحترىّ ، وكان قد زار ابن بُلْبُل . فلما وصلنا إلى ديرقُنَّى قال لى : ويحك ياجحظة ! هذا ديرقُنَّى ، وهو من الحُسْن والطيب على ماترى ! وأنت أنت ! وطُنْبورك طنبورك ! فهل لك أن نقيم به اليوم ، فنشربَ ونطرب ، وننعَمَ ونلعب ؟ فقلت : نعم ! ولم يكن معنا نبيذ . فسألنا عمن يقربُ منا من العمال ، فكتب إليه البحترى :

يا ابنَ عيسى بن فَرُّخانَ ، وللفُرْ * س بعيسى بن فَرُّخان افتخارُ ! (١٨٦)
قد حللنا بديرقُنَّى وما نَبْ * غى قِرًى غيرَ أن يكون عُقارُ !
فاسْقِ من حيثُ كان يشرب كسرى * عُصْبةً كلُّهم ظِماءٌ حِرارُ !
من كُمَيْتٍ تولّت الشمسُ منها * ماتولّته من سِواها النارُ !

فوجه إليها عشرين دنًّا شرابا ، ومائة دجاجة ، وعشرين حَمَلا ، وفاكهة . وعملتُ فى الأبيات لحنا . فلم نزل نشرب عليه يومنا وليلتنا . وأخذتُ فيها معنًى فقلت :

وبات يَسْقينا جنانيّةً * ضنَّت بها الشمسُ على النار !

دير العذارى

دير العذارى[1] . وهو بين سُرَّ مَن رأى وبغداد ، بجانب العلث على دجلة ، فى موضع حسن . فيه رواهب عذارى . وكانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومنتزهات . لا يعدَم من دخله أن يرى من رواهبه جوارىَ حسانَ الوجوه والقدود ، والألحاظ والألفاظ .

(١) انظر معجم ما استعجم (ص ٣٧٦) ؛ وآثار البلاد للقزوينى (ص ٢٤٨) ؛ وياقوت (ج ٢ ص ٦٧٨) .

قال الخالدىّ : ولقد اجترتُ به فرأيته حسنا ، ورأيتُ فى الحانات التى حوله خلقا يشربون على الملاهى . وكان ذلك اليوم عيدًا له . ورأيت فى جُنَيْنات لرواهبه جماعةً يَلْقُطن زهر العُصْفُر ، ولا يماثل حمرةَ خدودهن . ثم إن دجلة أهلكته[1] بمدودها ، حتى لم يبق منه أثر . ولجحظة فيه أخبارٌ وأشعار . لأنه كان مَعَانه[2] ومأواه ، وإليه ينجذب به هواه . وفيه يقول ابن المعتز :

أيا جيرةَ الوادى على المَشْرع العَذْبِ ! * سقاك حَيًا حىُّ الثرى ميِّتُ الجَدْب !
وحسبُك يا دَيْر العذارى قليلُ ما * يحنُّ بما تحويه من طيِّبةٍ قلبى !
كذبتُ الهوى إن لم أقف أشتكى الهوى * إليكَ وإن طال الوُقُوفُ على صَحْبى !
وعُجتُ به والصُّبحُ ينتهب الدُّجى * بأضوائه ، والنجمُ يركض فى الغَرْب .
أصانعُ أطرافَ الدموع بمُقْلةٍ * مُوَفَّرةٍ بالدمع غَرْبًا على غَرْب . (١٨٧)
وهل هى إلا حاجةٌ قُضِّيَتْ لنا * ولومٌ تحمّلناه فى طاعة الحبّ ؟

قال الخالدىّ : وأنشدنى جحظة لنفسه :

قالوا : قميصُك مَغْمُور بآثار * من المُدامة والرَّيحان والقار !
فقلتُ : مَنْ كان مأواه ومَسْكَنُه * دَيْرَ العذارى لدى حانوتِ خمّار ،
وِسادُه يدُه والأرضُ مَفْرَشُه ، * لا يستطيعُ لسُكْرٍ حلَّ أزرار ،
لم يُنْكِرِ الناسُ منه أن حُلّته * خضراءُ كالروض أو حمراءُ كالنار !

(١) فى الأصل : أهلكتها .
(٢) المعان المباءة والمنزل . (قاموس) .

وقال : وللصنوبرىّ فيه :

أقولُ لمُشْبِهِ العَذْراء حُسْناً : * علامَ رَعَيْتَ فى دَيْرِ العَذارى؟
وما وَحْدِى أغارُ عليه، لكِنْ * جميعُ العالَمينَ مَعِى غَيارَى!

ولابن فيروز البصير فيه :

وروضةِ لهوٍ قد جَنَيْتُ ثمارَها * بدَيْرِ العَذارى بين رَوْضٍ وأنهارِ
تَخالُ بها وجهَ المُدِيرِ وكأْسَه * هِلالاً وشَمْساً بين أنجُمِ نُوّارِ
يَطُوف بأبرِيقٍ مُفَدًّى كَرامَةً * علينا بأسماعٍ كِرامٍ وأبصارِ
كأنّا له زُغْبُ الفراخِ يَقُوتُها * بمثلِ مُذابِ التِّبرِ من شَطْرِ منقارِ

قال الخالدىّ : وهذا حَسَن بديع .

وحكى الجاحظ قال : زعم فتيان من تَغلِب أنهم أرادوا قطع الطريق على قَفَلٍ، بلغهم أنه يمرّ بهم قريبَ دير العذارى . ثم جاءتهم العين بأن السلطان قد عُرِف بهم وأقبل فى طلبهم . قال : فاختفينا فى الدير، فلما أَمِنّا، قال بعضنا لبعض : ما يمنعنا أن نأخذوا القَسّ فنشدّوه وثاقا ثم يخلو كل واحد منكم بواحدة من هذه الأبكار، فإذا طلع الفجر تفرّقنا فى البلاد؟ وكنّا جماعة بعدد الراهبات اللواتى كنّا نظنهنّ أبكارا، فوجدناهنّ كلهنّ ثيباتٍ، وقد افتضهنّ القَسّ . فقال بعضنا :

وَدَيْرُ العَذارَى فَضُوحٌ لهُنّ، * وعِنْدَ اللُّصُوصِ حَدِيثٌ عَجِيب .
خَلَوْنا بعشرينَ دَيْرِيَّةً * ونَيْلُ الرواهبِ شئٌ غَرِيب .
إذا هُنّ يَرْهَزْنَ رَهزَ الظِّراف، * وبابُ المَدِينةِ فَجٌّ رحيب .

(١٣٨)

لقد باتَ بالدَّيرِ ليلُ التَّمام * نِساءٌ وَساعٌ ونَيلٌ صليب .
وللقَس حُزْنٌ يَهِيضُ الفُؤاد * ووجدٌ يَدُلُّ عليه النَّحيب .
وقد كانَ عَيْرًا لدى عانَةٍ * فصُبَّ على العَيرِ لَيْثٌ غَضُوب .

وفيه يقول بعض القُطّاع أيضا، من كلمة له :

وأَلْوَطُ مِن راهبٍ يَدَّعِى * بأنَّ النِّساءَ عليه حَرام .
يُحَرِّم بَيضاءَ مَمْكُورةً[1] * ويُغْنِيه فى البَضْعِ عنها الغُلام .
إذا مامشى غَضَّ مِن طَرْفِه * وفى الدير باللَّيل منه عُرام .
ودير العذارى فَضُوح لهنّ * وعند اللُّصوص حديثٌ تمام .

وقيل فى راهبة فيه :

يا أيُّها القمرُ المُنيرُ الزاهرُ * المُشرِقُ الحَسَنُ المضِئُ الباهرُ!
أَبلِغْ شَبِيهَتَكَ السَّلامَ، وهَنِّها * بالنوم، واشْهَدْ لِى بأنّى ساهِر!

دير الباعوث

دير الباعوث[2] . وهو على شاطئ الفرات، من جانبها الغربىّ . فى موضع نَزِه . وكانت العمارة قليلة حوله . وله خفراء من الأعراب . وله مزارع ومباقل وجُنَيْنات .

(١) المكورة المستديرة الساقين خدلتهما . [أُنظر اللسان] .

(٢) فى الأصل بالعين المهملة . ولم يذكره الشابُشتى ؛ وأما ياقوت فقد سماه "دير باغوث" بالمعجمة وبدون أداة التعريف، واقتصر على القول بأنه "دير كبير كثير الرهبان على شاطئ دجلة بين الموصل وجزيرة ابن عمر" . (ج ٢ ص ٦٤٦) وفى شرح القاموس فى مادتى (ب غ ت ، ب ع ث) أن الباغوث عيد للنصارى و يقال فيه باعوثا، وأن الباعوث استسقاء النصارى وهو اسم سريانى، وقيل هو بالغين المعجمة والتاء المنقوطة فوقها نقطتان . [والجارى على ألسنة الشوام فى هذه الأيام "الباعوث" لعيد مشهور عندهم يضاهى المعروف فى مصر باسم "شم النسيم"] .

(١٨٩) وفى هيكله صورة دقيقة الصنعة عجيبة الحُسن، يقال إن لها مئين سنين، لم تتغير أصباغها، ولا حالت ألوانها. قال المنبِجى: آجتزتُ بدير الباعوث هذا وآستحسنته وآستطبتُه، فلولا الوطن لآستوطنتهُ. ورأيت فى رُهْبانه غلاما كما عذَّر قد ترهَّب. نخاطبته وإذا به أحلى الناس ألفاظا على لثغة فيه تجعل السين ثاء. فشدّيتُ سُمّاريّتى[1] إلى جانب الدير. وآشتريت شرابا من الرهبان. وبِتُّ هناك مناديما لذلك الغلام. فلما أردت الرحيل قال: أتنصرف من عندنا وأنت شاعرٌ ولم تقل فينا شيئا؟ فقلت: بلى، والله قد قلتُ! وأنشدته:

يا طِيبَ ليلةِ دِيرِمَرْ[2] باعوثِ! * فسقاه رَبُّ العَرْشِ صِرْفَ[3] غُيُوث!
ومُوَرَّدِ الوَجَنات من رُهْبانِه * هو بينَهُم كالظَّبْىِ بين لُيُوثِ،
حاوَلْتُ منه قُبْلةً فأجابَنِى، * ياحُسنَ ذا التَّذْكيرِ والتأنيثِ!
حَتَّى إذا ما الرَّاحُ سهّل حثُّها * منه العسيرَ بِرِطْله المحثوث!
نِلتُ الرِّضا وبلَغت قاصِيةَ المُنَى * مِنْهُ برغم رَقِيبِه الدَّيُّوث!
ولَقد سَلَكْتُ مع النَّصارى كلَّ ما * سلَكُوه غيرَ القَوْل بالتَّثْليث!

دير السوسى — دير السوسىّ[4] — وهو فى الجانب الغربىّ بسُرَّ من رأى. ومنه أرضها. فابتاعها المعتصم من أهله.

(١) السُّمَّارية: هى سفينة كانت تستعمل فى العراق للنزهة والخلاعة، مثل الذهبية فى وادى النيل. وقد يرد آسمها كثيرا فى كتب الأدب، ولكن الذى ذكره تاج العروس فى آستدراكه هو السميرية فقط، وقال إنها ضرب من السفن وقد آستعمل آبن فضل الله هذا اللفظ الأخير أثناء كلامه الآتى على دير شمونى.

(٢) مر = مار = قديس (٣) فى ياقوت: صوب.

(٤) اقتصر ياقوت على نقل كلام البلاذرى أنه "دير مريم بناه رجل من أهل السوس وسكنه هو ورهبانٌ معه، فسمى به. وهو بنواحى سُرَّمن رأى، بالجانب الغربى" ثم أورد أبيات ابن المعتز فيه، حسبما جاءت فى رواية آبن فضل الله (أنظر معجم الأدباء ج ٢ ص ٦٧٢)؛ وآنظر البكرى فى معجم ما آستعجم (ص ٣٧٨).

حكى أحمد بن أبى طاهر، قال: قصدت بسُرَّ مَن رأى رائدا بعض كبارها بشعر مدحته به، فقبلنى وأجزل صِلَتى، ووهب لى غلاما روميا حسن الوجه. فسرتُ أُريد بغداد. فلما سرت نحو فرسخ، أخذتنا السحاب، فعدلت إلى دير السوسىّ لنقيم فيه إلى أن يخفّ المطر. فآشتدّ القطر وجاء الليل. فقال الراهب الذى هو فيه: أنت العشيّةَ بائتٌ هنا، وعندى شراب جيد، فتبيتُ تقصف ثم تبكّر. فبتُّ عنده. فأخرج (١٩٠) لى شرابا جيدا، ما رأيتُ أصفى منه ولا أعطر. وبات الغلام يسقينى، والراهب نديمى، حتّى متُّ سكرًا. فلما أصبحتُ رحلتُ وقلتُ

سَقَى سُرَّمَن رَى وسُكَّانَها * ودَيْرًا لسُوسِيِّها الراهِبِ!
فقد بِتُّ فى دَيْرِه ليلةً * وبَدْرٌ على غُصُنٍ صاحِبى!
غزالٌ سَقانِى حتَّى الصَّبا * حِ صَفْراءَ كالذَّهَبِ الذائِبِ.
سَقَانِى المُدامةَ مستيقِظا * ونِمْتُ ونام إلى جانِبى.
وكانتْ هَناةٌ لِىَ الويلُ من * جَنَاها الذى خطّه كاتِبى!

وقد ذكره أبو الفرج، وأنشد فيه قول آبن المعتز:

يا لَيَالِىَّ بالمَطِيرةِ والكَرْ * خ ودير السُّوسِىّ، بالله عُودِى!
كنتِ عِندِى أُنْمُوذَجاتٍ من الجَنَّـ * ـة، لكِنَّها بغير خُلُود!
أَشْرَبُ الراحَ وهى تَشْرَبُ عَقْلى، * وعلى ذاك كان قَتْلُ الوليد.

دير عبدون — دير عبدون[1] — وهو بسُرَّمَنْ رأى إلى جانب المطيرة. قال: وسُمّى دير عبدون لكثرة إلمام عبدون — أخى صاعدٍ [بن مخلد] — به. وكان عبدون نصرانيا.

(١) أُنظر البكرىّ فى معجم ما آستعجم (ص ٣٧٤)؛ وآنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٧٨).

وأسلم أخوه صاعد على يد الموفق الناصر . فاستوزره[١] وبلغ معه المبالغ العظيمة .

وحكى البحترى أنه كان مع عبدون فى هذا الدير فى يوم فِصح ، ومعه ابن خرداذبة . قال البحترى فأنشدته قصيدتى التى مدحته بها ، وأولها :

لاجديدُ الصِّبى ولا رَيعانُهْ * راجعٌ بعد ماتقضَّى زمانُهْ !

فأمر لى بمائتى دينار ، وثياب خز ، وشهرى[٢] بسرجه ولجامه . وأخوه حينئذ مع الموفق فى قتال العلوى البصرى . فسُرَّ بذلك وقال لى : ياأبا عبادة ! قل فى هذا شعرا أنفذه إلى ذى الوزارتين ، يعنى أخاه ، وكان لقب بهذا . فقلت :

لِيكتنفكَ السرورُ والفَـرَحُ ! * ولا يَفُتْكَ الإبريقُ والقَدَحُ !

فِتْحٌ وفِصْحٌ قد وافياكَ معًا : * فالفتحُ يقرى ، والفِصحُ يُفتتح .

فأنعم سَليمَ الأقطارِ تَغتَبِقُ الصَّـهباءَ من دنِّها وتَصْـطَبِح !

فإنْ أردتَ اجتراحَ سَيِّئـةٍ ، * فها هنا السَّيِّئاتُ تُجتَـرَح !

(١٩١)

وأقمنا يومنا إلى الليل . وخلع على ابن خرداذبة وحمله وانصرفنا .

وأنشد الخالدى قول ابن المعتز فيه :

سقى الجزيرةَ ذاتَ الظِّلِّ والشجَرِ * فديرَ عَبْدونَ هطَّالٌ من المَطَرِ !

(١) هذه البيانات إلى هنا واردة فى ياقوت مع اختلاف فى اللفظ قليل ؛ وقد أورد فيه قصيدة لابن المعتز ليست عند ابن فضل الله (انظر معجم البلدان ج ٢ ص ٦٧٨) وقد ذكر ياقوت ديرا آخر بهذا الاسم وقال انه "قرب جزيرة ابن عمر ، وبينهما دجلة ؛ وقد خرب الآن . وكان من أحسن متنزهاتها " .

(٢) الشِّهرية بالكسر ضرب من البراذين وهو بين البرذون والمقرف من الخيل أو بين الرمكة والفرس العتيق وجمعه شهارى (تاج) .

دير زكى

دَير زَكَّى[١] . وهو قريب البَليخ والفرات . فى أنزه البقاع ، بين بساتين وأنهار وقلال وضياع .

وحُكى عن الحسين بن يعقوب أنه قال : صرتُ إلى الرُّها ، فبتُّ بها . وخرجت قبل عيد الصليب بيوم . فإذا لدينا وجوهٌ حسانٌ من نصرانيات خرجن لعيدهن ، عليهن جيِّدُ الثياب وفاخر الجوهر ، وإذا روائح المسك والعنبر قد طُيِّب الهواء منها[٢] ، وقد فُرش لهن على العَجَل وهو يجُرُّ بهن ، وأخريات على الشِّهارىّ الخراسانية والبغلات المصرية والحمر الفُرْه ، ومشاةٌ ، وفى خلال ذلك صبيانٌ ما رأيت أحسن منهم وجوها وقدودا وثيابا . فتأملت منظرا لم أر أحسن منه قط . وإذا هم يطلبون دير زكى ليعيِّدوا فيه .

قال الخالدى : وإلى جانبه قرية تعرف بالصالحية ذاتُ قصور ودور . وفيها يقول بعض الشعراء :

قُصورُ الصالحيةِ كالعذارى * لبِسْنَ حُليَّهنَّ ليوم عُرس .

تُقنِّعها الرياضُ بكلِّ نَوْر * وتُضحِكُها مطالعُ كلِّ شمس .

(١) يكتبون أيضا : دير زكا . وانظر الطبرى (سلسلة III ص ١٧٩٢) ؛ وابن الأثير (ج ٥ ص ٢١٥) ؛ ومعجم ما استعجم (ص ٣٧١ و ٣٧٧) ؛ وخصوصا ياقوت (ج ١ ص ٦٦٧ ، ج ٢ ص ٦٦٤ ، ج ٣ ص ٣٦٣ ، ج ٤ ص ٨٦٢ و ٩٩٤) ؛ والشابشتى (ورقة ٩٥) .

(٢) فى الاصل : منه .

وفيها قال الصنوبرى :

إنى طَرِبْتُ إلى زيتــون بِطْياس (١) * فالصالحيّـةِ ذاتِ الوَرْدِ والآسِ!
وَصْفُ الرياض كفانى أن أُقيمَ على * وَصْفِ الطُّلُولِ، فهل فى ذاك من باسِ؟
وقائلٍ لِى : أفِقْ يومًا! فقلتُ له ، * من سَكْرة الحُبِّ : أو من سكرة الكاسِ؟
قلْ للذى لامَ فيه : هـل ترى كَلِفا * بأمْلَـحِ الرَّوْض إلا أملحَ الناسِ؟ (١٩٢)

وفيها قال أيضا :

الصالحيّـة مَوْطِـنى * أبدا ، وبِطْياسٌ قَـرَارِى.
من فَوْقِ غُـدْرانٍ تَفيـ * ـض وبَيْنَ أنهار جوارِى.
ومُـدامـةٍ بُزِلَت فاشْـ * ـبه فتلها فتلَ السّـوارِ.
يالائمـى ما العــارُ عا * رُك! فامض! عنّى العارُ عارى!
لَهَـفِى على مَـلْوِيّةِ الأصداغ مُسْبَلة الإزارِ!
قـد فُضِّضَتْ بالياسميـ * ـن وذُهِّبَتْ بالجُلّنـارِ.

وفيه قال :

حبّذا المرج (٢)! حبّذا العَمْرُ! لا بل * حبّذا الدَّيرُ! حبّذا السَّروتان!
قد تجلّى الربيع من حُلل الزَّهـ * ـرِ وصاغ الحَمامُ طِيبَ الأغانى.
زُيِّنَتْ أوجهُ الرياض فأضحتْ * وهى تُزهَى على الوجوه الحسان.

(١) فى الاصل نطياس بالنون وقد ذكره ياقوت فى حرف الباء .

(٢) لعلها : المرج.

أخضَرُ اللونِ كالزبرجد فى أحـ * ـمرَ صافى الأديم كالعِقْيان.
وبَهارٌ مثـلُ الزنانير محفُـو * ف بزهر الخَيْرِىِّ والحُوذان.
سـقّيانى بكل لَوْنٍ من الرا * ح على كلِّ هـذه الألوان!

وفيه يقول الصنوبرى أيضا من قصيدة :

أراق سِجالَهُ بالرَّقّتيـــنِ * جَنُوبىٌّ صَحُوبُ الجانبين ،
وأهدى للرَّصيف رَصيفَ مُزْنٍ * يعاوده طـريرُ الطّرَّتين .
تُضاحكُها الفُراتُ بكل فجٍّ * فتضحك عن نُضارٍ أو لُجَين.
كأنّ عِناقَ نَهرىْ دَيرزَكّى * إذا اعتنقا عِناقُ متيّمين . (١٩٣)
أقاما كالسّوارَيْن ، استدارا * على كفّيه أو كالدُّمْلُجَيْن ،
ويا سُفُنَ الفرات بحيث تهوى * هُوِىَّ الطير بين الجَلْهَتين.
تَطارَدُ مُقبِلاتٍ مُـدْبِراتٍ * على عَجَلٍ تَطارُدَ عَسْكرين.
ترانا واصلين كما عَهِدنا * وصالا لا نُنَغِّصه ببين؟
ألا ياصاحِبَىَّ خُذا عِنانى * هواىَ! سلمتُما من صاحبَيْن!
وكان اللهوُ عندى كابن أُمّى * فصرنا بعـد ذاك لِعَلّتين!

وله أيضا من أخرى :

ياندیمى أما تحِنُّ إلى القَصْـ * ـفِ، فهذا أوانُ يَبْدُو الحنينُ؟
ما ترى جانبَ المُصلّى وقد أشْـ * ـرَق منه ظُهُوره والبُطُونُ؟
أُسْرِجَتْ فى رياضه سُرُجُ القُطْـ * ـرِ وطابت سُهوله والحُزونُ.
إنّ آذار لم يَذَرْ تحت وجه الأ * رض شيئا أكنّه كانُونُ!

وكأنّ الفُراتَ بينهما عيـ * ـنُ لُجَيْنٍ يعومُ فيها السَّفِينُ،
كبُطُونِ الحيّات أو كُمُتُونِ الـ * ـمَشْرَفيّاتِ، أخلصَتْها القُيُونُ.
كم غدا نحو دير زكّى[1] من قلـ * ـبٍ صحيح فعادَ وهْو حَزِينُ!
لو على الدير عُجتَ يوما، لألْهَتـ * ـك فُنونٌ وأطربتْك فنونُ!
لائمى فى صَبابتى قَدْكَ مَهْـلًا * لاتلمنى . إن المَلامَ جُنونُ!

ولأبى بكر المُعَوّج فيه من قصيدة :

ماتَرىٰ الدير؟ ماترىٰ أسفَلَ الدَّيْـ * ـرِ، وقد صار وَرْدةً كالدِّهَان ؟
لو رآه النُّعمانُ، شَـقَّ عليه * ما يَرىٰ من شَقايِقِ النُّعْمان ! (١٩٤)

قال الخالدىّ عن الزهراوىّ، قال : كان بالموصل جارية مغنية، لُقِّبَتْ بالدير. وكان لها ابن عم يعشقها . فطرقتُه يوما زائرًا، فاحتجب عنى، وعرَفت ان عنده المغنية المعروفة بالدير، وقد خلا بها . فكتبت إليه .

قـد عَلِمْنا بأن مَثْواكَ بالدَّيْـ * ـرِ، فعِيشًا فى غبْطة وأمانِ !
تتَغَنّى طَوْرا وتَسـقِيكَ طَوْرا * وتُلاقِى للسوءَة السَّوْءتانِ.
ثم أنْشَـدتُ إذ سَمِعْتَ نَخِيرا * كَنَخِيرِ الرُّعُود فى نَيْسانِ :
"ما ترىٰ الدير؟ ماترىٰ أسفل الديـ * ـر، وقد صار وَردة كالدِّهانِ."

قال الخالدىّ : "وهذا التضمين حَسَنٌ، واقع فى موقعه، متمكن فى مكانه. وهكذا سبيل مثله أن يكون البيت المضَمَّن كأنه من الشعر المضاف إليه". قلتُ : بشرط نقله لمعنى آخر غير ما أراد به ناظمه. وإلا فترك التضمين أولىٰ، اذا كان بمعنى الأوَّل.

(١) الشعر يستقيم بقول دير زكاه .

وقد ذكره أبو الفرج وقال : وممن ذكره هارون الرشيد . فقال فى بعض غزواته، وقد خلّف جارية كان يحبها هناك :

سـلامٌ علىٰ النّازِحِ المغترِبْ ! * تحيَّـةَ صَبٍّ به مُكْتَئِبْ !
غـزالٌ مراتِعُـه بالبَلِيخ * إلىٰ ديرِ زَكّى فقصْر الخَشَبْ !
أيا مَنْ أعانَ علىٰ نَفْسِـه * بتخليفِه طائعًا مَن أحِبْ !
سأسْتُرُ، والسَّتْرُ من شِيمَتِى، * هوىٰ من أُحِبُّ لمن لا أُحِبْ .

قال : ويقال إنه قالها فى ديرانية رآها فى دير زكّى، فهوِيها .

دير القائم الأقصىٰ[1] ـ وهو علىٰ شاطئ الفرات، من جانبه الغربىّ فى طريق الرَّقَّة. قال أبو الفرج : وقد رأيتُـه ، وهو مَرْقَبٌ من المراقب التى كانت بين الروم والفُرس، علىٰ أطراف الحدود[2] . دير القائم الأقصىٰ

(١٩٥) وقال إسحاق الموصلىُّ : لما خرجنا مع الرشيد إلىٰ الرقة، مررنا بالقائم وعنده الدير. فاستحسن الرشيد الموضع. وكان الوقت ربيعا، وكانت تلك المروج مملوءة بالشقائق والزهر. فشرب علىٰ ذلك ثلاثة أيام . ودخلتُ الدير أطوف فيه، فرأيتُ ديرانيّةً، حين نهد ثدياها، عليها المسوح، مارأيتُ أحسن من وجهها وجسمها. وكأنّ تلك المسوح عليها حلىّ. فدعوت بنبيذ وشربت علىٰ وجهها أقداحا . وقلت :

(١) سماه الطبرىّ وياقوت دير القائم (أُنظر الأول فى سلسلة III ص ٦٧٠ والثانى فى ج ٢ ص ٦٨٤) ثم انظر معجم ما استعجم (ص ٣٥٩) .

(٢) أورد ياقوت هذه البيانات دون ما يليها مع زيادة طفيفة فى التعريف بالمرقب وأتبعها بالابيات الثلاثة دون قصتها وقال إنها "لعبد الله بن مالك المغنى، وقال الخالدىّ هو لإسحاق الموصلى". (أُنظر معجم البلدان ج ٢ ص ٦٨٤). وأما فى الشابشتى الذى بأيدينا فلم يرد فيه ذكر هذا الدير .

بِدَيْرِ القائمِ الأقصى * غزالٌ شادنٌ أحوى!
بَرَى حُبّي له جِسْمِي * ولا يَدْرِي بما ألْقَى!
وأكْتُمُ حُبَّه جَهْدِي * ولا والله مايَخْفَى!

ثم دعوتُ بالعود، فغنيتُ فى الدير صوتا مليحا ظريفا. وما زلتُ أكرره وأشرب وأنظر إليها، وهى تضحك من فعلى حتى سكرتُ. فلما كان من الغد، دخلتُ على الرشيد، وأنا ميّت من السكر. فقال لى: أين شربتَ؟ فأخبرته القصة. فقال: طيّبٌ وحياتى! ودعا بالشراب فشرب. فلما كان العشىّ، قال: قم بنا حتى أتنكر وأدخل إلى صاحبتك هذه وأراها. فقمتُ معه وتلثم ودخل الدير فرآها وقال: مليحة والله! وأمر من جاءه بكأس وخَرْدَاذِىّ(1). وأحضرت عودى فغنيته الصوت الذى صنعته ثلاث مرات، وشرب عليه ثلاثة أرطال. ثم خرج وأمر لى بثلاثين ألف درهم. فقلتُ: ياسيدى، وصاحبة القصة؟ أريد أن يبين عليها أثرى. فأمر لها بخمسة آلاف درهم، وأمر بأنْ لايؤخذ من مزارع ذلك الدير خراجٌ. وأقطعهم إياه وجعل عليه عن الخراج عشرة دراهم فى كل سنة، تُؤدَّى ببغداد.

دير حزقيال

دير حزقيال(2) — قال شريح الخزاعىّ: اجتزتُ بدير حزقيال. فبينا أنا أدور فيه، إذا بسطرين مكتوبين على أسطوانة. فقرأتهما، فإذا هما:

رُبَّ لَيلٍ أمدّ من نَفَس العا * شِقِ طولاً، قطعتُه بانتحابِ!
ونعيمٍ بوصلِ مَن كنتُ أهوى * قد تبدلتُه ببؤس العتابِ!

(1) الخَرداذىّ الخمر. وقد أهمله فى الأصل والصواب إعجامه (أنظر القاموس).

(2) أنظر البكرى (ص ٣٧٨) ؛ وياقوت (ج ٢ ص ٦٥٤).

نَسَبُونى إلى الجُنُون ليُخفُوا * مابقلبى من صَبْوةٍ واكتئاب،
ليت بى ماادّعَوْه من فَقْدِ عَقلى * فهو خيرٌ من طُول هذا العَذاب!

وتحته مكتوب: "هَويتُ فمُنعتُ، وطُردتُ وشُرّدتُ، وفُرّق بينى وبين الوطن، وحُجبتُ عن الإلف والسَّكَن. وحُبستُ فى هذا الدير [ظلما و] عدوانا، وصُفّدتُ فى الحديد زمانا،

وإنى على مانابنى وأصابنى * لذو مِرّةٍ باقٍ على الحَدَثان!
فإن تُعقب الأيامُ أظفرْ ببُغيتى! * وإن أتولَّ يرمِ بى الرَّجَوان!
فكم ميّتٍ همًّا بغيظٍ وحسرةٍ * صَبورٌ لما يأتى به المَلَوان!"

فدعوتُ برقعة، وكتبتُ ذلك، وسألت عن صاحبه، فقالوا: رجلٌ هَوِىَ ابنة عمٍ له. فحبسه عمه فى هذا الدير، وغرم على ذلك جملة للسلطان خوفا أن تفتضح ابنته. ثم مات عمه. فورثه، هو وابنته. وجاء أهله فأخرجوه وتزوج ابنة عمه(1).

دير ماسرجس

دير ماسَرجِس(2) — قال أبو الفرج: لم يذكر أىّ دياراته؟ وله عدة ديارات. منها ديرٌ بإزاء البركان(3)، فى ظهر قرية يقال لها كاذة.

حُكى عن عبدالله الربيعىّ قال: دخلتُ أنا وأبو النصر البصرىّ، مولى بنى جُمَح، بيعة ماسَرجِس. وقد ركبنا مع المعتصم، نتصيّد. فوقفتُ أنظر إلى جارية كنتُ

(1) هذه البيانات كلها واردة فى ياقوت مع زيادة قليلة فى الألفاظ، وقد وهم طابعه فى ضبط بعض الكلمات (ج ٢ ص ٦٥٤).

(2) أنظر البكرى (ص ٣٧٥).

(3) فى الأصل بالإهمال. ونص على إعجامها ياقوت.

أهواها، وجعل هو ينظر إلىٰ صورة فى البِيعة، آستحسنها، حتّىٰ طال ذلك . ثم قال أبو النصر :

فتنتْنا صُورةٌ فى بِيعةٍ ! * فتنَ اللهُ الذى صوّرها !
زادَها الناقشُ فى تحسينها * فَضْلَ حُسنٍ، إنه نضّرها !
وجْهُها لاشكَّ عندى فتنةٌ * وكذا هى عِندَ مَنْ أبصرها !
أنا للقسّ عليها حاسدٌ . * ليت غيْرِى عَبثًا كسّرها ! (١٩٧)

قال، فقلت: له شتان ما بيننا ! أنا أهوىٰ بشرا، وأنت تهوىٰ صورة ! قال لى: هذا عبثٌ، وأنت فى جِدّ.

قال حماد، وغنّى عبد الله بن العباس فى هذا الشعر غناء حسنا، سمعته منه. فنسبه إليه لكثرة شعره فى آمرأة كان يهواها.

دير الروم (١) ـ وهو بأرض بغداد. قال الشابشتى: كان مُدرك بن علىّ الشَّيْبانىّ يطرقه فى الآحاد والأعياد. فينظر مَن فيه من المُرْدان، والوجوه الحِسان. وله فيه : دير الروم ببغداد

وُجوهٌ بدَيْر الروم قد سلبَتْ عقْلى * فأصبحْتُ فى بُؤس شَديدٍ من الخَبْل !
فلم ترَ عيْنِى مَنْظرا مثلَ حُسْنِهم * ولم ترَعيْنٌ مُستهامًا بهِمْ مِثْلى !

وحُكى عن جساس بن محمد قال: كان بدير الروم غلام من أولاد النصارى، يقال له عمرو بن يوحنا. وكان من أحسن الناس صورة وأكملهم خلقا. وكان مُدرك بن علىّ يهواه. وكان من أفاضل أهل الأدب. وكان له مجلس تجتمع فيه الأحداث لاغير.

(١) أُنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦١٦ و ٦٦٢) .

فإن حضره ذو لحية، قال له مدرك: إنه يقبُح بك أن تختلط بالأحداث، فقم فى حفظ الله! فيقوم. وكان عمرو ممن يحضر مجالسه، فعشقه وهام به. فكتب إليه رقعة، وتركها فى حجره. فقرأها فإذا فيها :

بمجالسِ العِلْمِ التى * بكَ تمّ جَمْعُ جُمُوعِها !
إلاّ رَثَيْتَ لمُقْلةٍ * غَرِقتْ بفَيْض دُموعِها !
بيْنِى وبَيْنَكَ حُرْمةٌ، * فالله فى تضْييعِها !

فقرأ الأبيات، ووقف عليها مَنْ حضر. فآستحيا عمرو، فآنقطع عن الحضور. وغلب الأمر علىٰ مدرك، فترك مجالسه وتبعه. وقال فيه أشعارا، منها قوله :

يامَن يُريد وصالَنا ويَردُّه * ماقد يحاذِر من كلامِ الناس !
صِلنى فإن سبقَتْ إليك مقالةٌ * منهم، فعصْبُ مايقال براسى ! (١٩٨)

قال جساس: ثم خرج مدركٌ إلى الوَسْواس. فحضرتُه عائدا فى جماعة من إخوانه، فقال: ألستُ صديقكم القديم؟ فما فيكم أحد يُسعدنى بالنظر إلى وجه عمرو؟ قال: فمضينا إليه. وقلناله: ياعمرو إن كان قتل هذا الرجل دِينًا فإن إحياءه لمرُوءةٌ. قال: فما فعل؟ قلنا له: قد صار إلىٰ حالٍ مانحسبك تلحقه. قال: فنهض معنا. فلما دخلنا عليه، سلّم عليه عمرو، وأخذ بيده. فقال: كيف تجدك ياسيدى؟ فنظر إليه، ثم أُغمى عليه، ثم أفاق وهو يقول :

أنا فى عافيةٍ إلاّ من الشّوْقِ إليكا.
أيُّها العائدُ، ما بى * منك لا يَخْفىٰ عليكا!
لا تَعُد جِسْما وعُد قلْبا رَهينا فى يدَيْكا!
كيف لا يَهْلِكُ مرْ * مِىٌّ بسهمىْ مُقْلتيكا؟

دير الزندورد

دير الزَّنْدَوَرْد[1] – وهو بالجانب الشرقى من بغداد. وأرض ناحيته كلها فواكه وأترج وأعناب. وعنبها من أجود مايعتصر هناك. ولذا قال أبو نُوَاس :

فسقِّنى من كروم الزَّنْدَوَرْد ضُحًى * ماء العَنَاقيد فى ظلّ العَنَاقيد!

قال الشابشتى : حَكَى عبدالواحد بن طَرْخان : قال خرجتُ إلى دير الزندورد فى بعض أعياده متطربا ومتنزها، ومعنا جحظة فى جماعة من إخوانى . فنزلنا موضعا حَسَنًا . ووافقْنا هناك جماعةً من ظراف بغداد، لجميعهم معشوقاتٌ حسان الوجوه والغِنَاء . فأقمنا به أياما فى أطيب عيش . وقال جحظة فيه شعرا، ذكر الدير وطيب الوقت ومن كان معنا وغنّى فيه لحنا حسنا. وهو :

سَقْيًا ورَعْيًا لدير الزَّنْدَوَرْد وما * يَحْوِى ويجمعُ من راحٍ ورَيْحانِ!
دير تَدُور به الأقْداحُ مُتْرَعةً * من كفِّ ساقٍ مريضِ الطَّرْفِ وَسْنانِ!
والعُودُ يَتْبَعُه نايٌ يوافِقُه * والشَّدْوُ يحكِمُه غُصْنٌ من البانِ!
والقومُ فَوْضَى ترى هذا يُقَبِّل ذا * وذاك إنسانُ سَوْءٍ فوق إنسانِ!
هذا ودِجْلة للرائين مُعْرِضَةٌ * والطير يَدْعُو هَدِيلاً بين أغصانِ!
بَرٌّ وبحرٌ فصَيْد البر مقتَرِب * والبحر يسبَحُ شطاه بحيتانِ!

(١٩٩)

ثم صنع لحنا وغنّى فيه بشعرله . منه :

خليلَّى! الصَّبُوحَ! دنا الصباحُ! * فإنّ شفاء ماتَجِدانِ راحُ!
فَنَبِّه فتيةً جَبَهُوا قديما * عَوَاذِلَهم بزَجْرٍ فاستراحوا!

(١) أُنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٦٠ و ٦٦٥ و ٩٥٢) .

رأيتُ الغانياتِ صَدَدْنَ عَنِّى * وأعرضتِ المبتَّلة الرَّداحُ.
وقلن : مضت بِشرَّتك الليالى! * فقلت : نعم، وقد رثّ السِّلاحُ!

دير دومالس

دير دُومَالِس[1]، وهو فى باب الشمّاسية. شرقى دجلة. قال الشابُشتى : وموقعه فى هذا الوقت فى ظهر القرية التى بناها أحمد بن بويه الديلمى. وهو نزه كثير البساتين والشجر. وبقربه أجمة قصب . وهو كبير آهل. وهو من البقاع المعمورة بالقَصْف. وعيده أحسن عيد . يجتمع نصارى بغداد فيه . وفيه يقول ابن حمدون النديم :

يادَيرَدُومالِسَ ماأحسَنَكْ! * ويا غَزَالَ الدَّيْر ماأفتنكْ!
لَئِنْ سَكَنْتَ الدَّيْر فى أهْله، * فإنّ فى وَسْط الحَشَا مَسْكَنَكْ!

دير سمالو

دير سَمَالُو[2]، وهو بالجانب الشرقى من بغداد. على نهر المهدى. وهناك أرْحية للماء وحوله بساتين وأشجار ونخل. آهل بمن يطرقه من أهل الخَلاعة . وفى عيد الفِصْح لا يبقى أحد من النصارى ببغداد، حتّى يأتى إليه، ولمحمد بن عبد الملك الهاشمى فيه شعر، منه :

ولَرُبَّ يومٍ فى سَمَالُوتَمّ لِى * فيه النَّعيمُ وغُيِّبتْ أحزانُه!
حتّى حَسِبْتُ لنا البِساطَ سَفِينةً * والبيتَ ترقُص حَوْلنا حيطانُه!

(٢٠٠)

قال خالد بن يزيد بن الكاتب : كنتُ بدير سمالو، فلم أشعر إلا ورسول إبراهيم ابن المهدى قد وافانى. فذهبت إليه، فإذا برجل أسود مشفرانى قدغاص فى الفُرُش، فاستجلسنى . فجلست . فقال : أنشدنى شيئاً من شعرك! فأنشدته :

(١) فى الأصل دومالس بواو بعد الدال. وفى ياقوت والشابشتى : درمالس، بالراء بدل الواو (أُنظر الأول فى ج ٢ ص ٦٦٠ والثانى فى ورقة ١) .

(٢) أُنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٧٠ ، ج ٣ ص ٤١٦) ؛ والشابشتى (ورقة ٤) .

رأتْ منه عيني مَنظَرين كما رأتْ * من البَدْرِ والشمسِ المُضيئةِ بالأرض.
عشيَّةَ حيَّاني بوردٍ كأنَّهُ * خُدودٌ أُضيفتْ بعضُهنَّ إلى بعض.
وناولني كأساً كأنَّ رُضابَها * دُموعي لما صدَّ عن مُقلتي غُمضي.
وولّى، وفعلُ السُّكْرِ في حَرَكاتِه * من الراحِ فعلُ الرّيحِ بالغُصُنِ الغَض.

فزحف حتّى صار فى ثلثى المُصلّى . ثم قال : يا بُنيَّ! شبّه الناسُ الخدودَ بالورد، وشبهتَ أنت الوردَ بالخدود! زدنى! فأنشدته :

عاتبتُ نفسى فى هوا * ك، فلم أجدْها تقبلُ .
وأجبتُ داعيها إليـ * ـك، ولم أُجبْ مَن يعذُلُ.
لا والّذى جعل الوُجو * ه لِحُسنِ وجهِك تَمثُلُ!
لا قُلتُ : إنَّ الصَّبرَ عنـ * ـك من التّصابى أجْمَلُ!

فزحف حتّى صار خارج المصلّى . ثم قال : زدنى! فأنشدته :

عِشْ بِحُبِّيكَ سريعاً قاتِلى * والهَوَى إن لم تَصِلْنى واصِلى
ظَفِرَ الحبُّ بقَلْبٍ دنِفٍ * بكَ والسُّقمُ بجِسْمٍ ناحِلِ
وبكى العاذلُ لى من رحمتى * فبُكائى من بُكاءِ العاذلِ

فصاح وقال : يا بُليق! كم لى معك من العين؟ قال : ستمائة وخمسون ديناراً . قال : اقسمها بينى وبينه .

وحكى الشابشتى لخالد حكايات، وأنشد له شعراً، منه قوله :

كبِدُ المُستهامِ كيفَ تذُوبُ؟ * ما تُقاسِى من العيونِ القُلوبُ!
يا مكانَ الهوَى خلَوتَ من الصَّبـ * ـرِ، فما للسُّلُوِّ فيكَ نصيبُ!

وقوله :

ولم أدرِ ما جَهْدُ الهوى وبلاؤه * وشِدّتُه، حتّى وجدْتُكَ فى قلبى!
أطاعكَ طَرْفى فى فُؤادى، فحازَه * لِطَرْفِك حتّى صِرتُ فى قبضةِ الحبّ!

دير الثعالب (1) — وهو فى الجانب الغربىّ من بغداد، بباب الحديد . وهو بمكان متنزه لا يخلو من قاصد وطارق . ولا يتخلف أحد من النصارى عن عيده . فمواطنه معموره، وبقاعه مشهوره . ولابن دهقان فيه شعر ظريف . وهو من ولد إبراهيم بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس، ويُكنَى بأبى جعفر . وأنشد له جَحْظَةُ : دير الثعالب

أحين قطعتُ لكَ الواصلينَ * وجُدْتُ عليكَ ولم أبخَلِ،
غَدَرْتَ وأظهرْتَ لى جَفْوةً * وجُرْتَ علىّ ولم تَعدِلِ؟
أأطمعُ فى آخِرٍ من هَوَاكَ * ولم تَرْعَ لى حُرمةَ الأوّلِ؟

دير مديان (2) — وهو على نهر كَرْخايا ببغداد . وكَرخايا نهر يَشُقّ من المحوّل الكبير ويمرّ على العبّاسية، ويَشُقّ الكرخ، ويصبّ فى دجلة . دير مديان

وكان قديماً عامراً يصبّ الماء فيه، ثم نضب بالبثوق (3).

قال الشابُشتىّ : وهذا الدير حسن عامر حوله البساتين . ويُقصد للتنزه . ولابن الضحاك فيه شعر، منه :

(1) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٥٠)؛ والشابشتىّ (ورقة ٨) .
(2) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٩٥)؛ والشابشتىّ (ورقة ١٢) .
(3) فى الاصل : "ثم يصب بالسوق" . وقد صححت بمعونة ياقوت فإنه يقول : وكان الماء فيه جاريا ثم انقطعت جريته بالبثوق التى انفتحت فى الفرات .

يادير مِدْيانَ لا عُرِّيتَ من سَكَنٍ * ما هِجْتَ من سِقَمٍ ! يادير مديانا !
هل عِندَ قَسِّكَ من علمٍ فيُخْبِرَنى؟ * أم كيف يُسْعِد وجهَ الصبر مَن خانا؟
سَـقْيًا ورَعْيًا لكَرْخايا وساكِنِها * بين الجُنينة والرَّوْحاء مَن كانا!

(٢٠٢)

دير أشمونى

دير أشْمُونَى (١) — وأشمونى آمرأةٌ بُنِى الدير باسمها ودُفنتْ فيه . وهو بقُطْرُبُّلَ .

قال جَحْظَةُ : خرجت فى عيد أشمونى فلما وصلتُ الشطَّ ، مددتُ عينى لأنظر موضعا خاليا أصعد إليه ، أو رجُلا أزل عليه . فرأيتُ قينتين من أحسن مَن رأيتُ . فقدّمتُ سُميريّتى نحوهما ، وقلتُ : تأذنون لى فى الصعود إليكما ؟ فقالتا : بالرّحب والسعة ! فصعدتُ ، وقلت : يا غلام ! طُنْبورى ونبيذى . فقالتا : أما الطُّنبور فنعم ، وأما النبيذ فلا . فجلستُ مع أحسن الناس خلقا وأخلاقا وعِشْرة . فأخذتُ الطنبور وغنّيتُ بشعرٍ لى :

سَـقْيًا لأَشْمُونَى ولذّاتها * والعيش فيها بين جَنّاتِها!
إذِ آصطباحى فى بَسَاتِينها * وإذ غُبُوقى فى دِيَاراتها!

فشربنا بالأرطال ، وطاب لنا الوقت إلى آخر النهار .

قال محمد بن المؤمّل : كنت مع أبى العتاهية فى سُميريّته ، ونحن سائرون إلى أشمونى . فسمع غناء من بعض تلك النواحى ، فاستحسنه وطرب له ، وقال لى : أتحسن أن ترقص ؟ فقلتُ : نعم . فقال : فقم بنا نرقص . فقلت : فى سميرية ؟ أخاف أن نغرق . فقال : إن غرقنا ، أليس نكون شهداء الطرب ؟

دير سابر

دير سابُرَ (٢) — وهو فى الجانب الغربىّ من دِجلة ، بين المَزْرفة والصالحيّة ،

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٤٣) ؛ والشابشتى (ورقة ١٨) .
(٢) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٦٦) ؛ والشابشتى (ورقة ٢١) .

فى بقعة كثيرة البساتين والكروم والثمار والحانات والخمّارين ، معمورة بأهل الطرب . والدير حَسَنٌ عامرٌ . ولآبن الضحاك فيه :

وعَوَاتِقٍ باشَرْتُ بين حدائقٍ * فَفَضَضْتُهنّ وقد غَنِينَ صحاحا .
أَتبعتُ وَخْزَةَ تلك وَخْزَةَ هـذه * حتّى شَرِبْتُ دماءهنّ جراحا .
أبرزتُهن من الخُدُور حواسرًا * وتركتُ صَونَ حريمهنّ مُباحا .
فى دير سابُرَ والصباحُ يلوحُ لى ، * فجمعتُ بدرًا والصّباحَ وراحا .
ومنعَّمٍ نازعتُ فضلَ وِشاحِه * وكسوتُه من ساعديّ وِشاحا .
فاذهبْ بظنّك كيف شئتَ فإنّه * مما آقترفتُ لَذاذةً وجِماحا .

(٢٠٣)

وأورد الشابشتىّ فيه للحسين بن الضحاك أخبارًا ظرافا ، وأنشد له أشعارًا لطافا . منها :

أما ناجاكَ بالوَتَرِ الفَصِيحِ * وأنَّ إليكَ من قلبِ الجريحِ ؟
فليتَكَ حين تَهْجُره ضِرارًا ، * مَنَنْتَ عليه بالقتل المُريحِ !
بُحسنك كان أوّلُ حُسنِ ظنّى ، * أما يَنهاك حسنُك عن قبيحِ ؟
ألا ياعَمْرو هل لك بِنتُ كَرْمٍ ؟ * هَلُمَّ إلى صَفِيّةِ كلِّ رُوحِ !
فقام علىّ تَخاذُلِ مُقلتيهِ * وسَلْسَلَها كأوداج الذَّبيحِ .
وأَتبعَ سَكْرَةً سلفتْ بأُخرى ، * وخَلَّى الصَّحوَ للحُزِ الشَّحيحِ .

وحكى عنه قال : كنا عند المتوكل فى يوم نوروز ، والهدايا تعرض عليه فيها تماثيل من عنبر . وكان شفيعٌ الخادم واقفا ، عليه قباء موَرّد ، ورداء موَرّد ، وهو فيهما

من أحسن الناس وجها . فجعل المتوكل يدفع إلىٰ شفيع قطعةً قطعةً من ذلك العنبر، ويقول : اِدفعها إلىٰ حسين، وٱغمز يده . فيفعل ذلك . ثم كان آخر مادفع إلىٰ وردة حمراء، حيَّانى بها . فقلت :

وكالوَرْدةِ الحَمْراءِ حَيًّا بأحمرٍ * من الوَرْدِ، يسعىٰ فى غلائل كالوَرْدِ!
له عَبَثاتٌ عند كلِّ تحيّةٍ * بكفَّيْهِ تستدعى الخَلِىَّ إلىٰ الوَجْدِ!
تمنَّيتُ أن أُسقىٰ بكفَّيْهِ شَرْبةً * تُذَكِّرنى ماقد نَسِيتُ من العهدِ
سقىٰ اللهُ دهرًا لم أَبِتْ فيه ليلةً * من الدَّهْرِ إلا من حَبيبٍ علىٰ وَعْدِ!

فأمره المتوكل أن يسقيه، وقال : قد أعطيناك أُمنيَّتك .

 دير قوطا

دير قُوطا[1] — وهو بالبَرَدان، علىٰ شاطئ دجلة .

قال الشابشتىّ : وبينه وبين بغداد بساتينُ متصلةٌ، ومتنزهاتٌ منتظمةٌ . كلُّ ذلك شجرٌ وكرومٌ كثيرةُ الطُّرّاق . قال : وهذا الدير يجمع أموالا كثيرة : من عمارته وكثرة فواكهه وما يطلبه أهل البطالة فيه . ولعبد الله بن العباس الربيعىّ فيه :

يادير قُوطا، لقد هَيَّجْتَ لى طَرَبا * أزاح عن قلبىَ الأحزانَ والكُرَبا!
بشادنٍ ما رأت عينى له شَبَهًا * فى الناس، لا عَجَمًا منهم ولا عَرَبا .
والله، لو سامنى نفسى سَمَحْتُ بها * وما بَخِلْتُ عليه بالذى طَلَبا!

وأنشد الشابشتىّ له فيه قوله :

يا حبَّذا يومى بالدّاليَهْ! * نَشْرَبُها قَفْصيّةً صافيَهْ
مع كل قَرْمٍ مُتلِفٍ مالَه * لم تَبْقَ فى الدُّنيا له باقيَهْ
نَخُذُ من الدنيا ولذّاتها، * فإنّما نحن بها عاريَهْ!

(1) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٨٩) .

دير جرجس

دير جرجس[1] — وهو بالمَزْرَفة : أحدُ الأماكن المشهودة، والمواضع المقصودة . ويخرج إليه من يتنزه من أهل بغداد فى السُّمَيْريات، لقربه وطيبه . وهو علىٰ شاطئ دِجلة، والبساتينُ محدقة به، والحانات مجاورة له، وبه كل مايُحتاج إليه .

وأنشد الشابشتىّ فيه لأبى جفنة القرشىّ :

تَرَنَّمَ الصَّيفُ بعد عُجمتهِ * وٱنصرفَ البَرْدُ فى أزِقّتهِ!
ومِثْلُ لَوْنِ النَّجيع صافيةٌ * تَذْهَبُ بالمرء فوق هِمَّتهِ!
ومَنْ وفىٰ وعدَه بزَوْرتهِ * وبِتُّ، أُوفى له بذِمّتهِ .
فى دير مَرْجَرْجِس، وقد نفحَ الـ * ـفجرُ علينا أرواحَ زَهْرتهِ .

وأنشد له فيه :

وقرعتُ صافيةً بماءِ سَحابةٍ * فتحنَّ حين قرعتُهنّ سرورا!
وشربتُ ثم سقيتُه فكأنّنى * سَبْسَبْتُ فوق لَهاته كافُورا!
وفتًى يُديرُ عليك فى طَرَباته * خَمْرا تُوَلِّدُ فى العِظام فُتورا .
مازلتُ أَشرَبُها وأَسقى صاحبى * حتّى رأيتُ لِسانه مَكْسورا .

قال : وكتب منه النُّميرىّ إلى ٱبن المعتزّ فى آخر شعبان .

يا أبا العَبّاسِ، قد شَمَّـ * ـرَ شَعْبانُ إزارَه!
ومضىٰ يَسْعىٰ فمايَلْـ * ـحقُ إنسانٌ غُبارَه .
فٱغْدُ نَشْرَبْ صفوةَ الدَّنِّ * وَنَسْلُبْهُ وَقارَه!

فلم يردَّ عليه جوابا، ولا أفهمه فيه خطابا .

(1) سماه ياقوت دير مرجرجس، وٱنظره فى ج ٢ ص ٦٩٧ . وهو غير المعروف بٱسم "مرجرجس" .

دير الخوات

دير الخُوَات[1] ـ وهو بعُكبرا . وهو دير كبير عامر . وأكثر سكانه نساءٌ مترهّبات . وعيده الأحد الأول من الصوم .

قال الشابشتيّ : وتسمّى ليلةَ الماشُوش ، وهى ليلةٌ يختلط فيها الرجال بالنساء ، فلا يردّ أحد يده عن شئ . وأنشد فيه لجحظة :

وحانةٍ بالعَلْثِ وَسْطَ السُّوقِ * نزلتُها وصارمِى رفيقِ
على غُلامٍ من بَنى الحَليقِ * لجاء بالجامِ وبالإبريقِ
* أما رأيتَ قِطَع العقيقِ ! *

دير باشهرا

دير باشْهرا[2] ـ وهو على شاطئ دجلة . نزهٌ كثير البساتين ، على طريق سرّ مَن رأى ، منزلة المُصعِد والمنحدر . وفيه يقول أبو العيناء :

نزلنا دير باشـهرا * على قِسّيسه ظُهرا .
فسـقّانا وروّانا * من الصافيـة العذرا .
فقابَلْنا به الشّمسَ * وقبلنا به البـدرا .
وأحيت لذّةَ الكاس * ولكن قتلت سكرا !

(٢٠٦)

دير مرمار

دير مرمار[3] ـ وهو بسُرّ من رأى ، عند قنطرة وصيف . حوله كروم وشجر . وأنشد فيه الفضل بن العبّاس بن المأمون :

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٥٨) ؛ والشابشتي (ورقة ٣٧) .

(٢) وقد يكتبونه : باشهرا . وأنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٤٥) ؛ والشابشتيّ (ورقة ٣٢) .

(٣) سماه ياقوت : مرمارى . وأنظره (ج ٢ ص ٧٠٠) .

أنضيتُ فى سُرَّ مَن را خَيلَ لذّاتى * ونلتُ فيها هَوى نفسى وحاجاتى !
عمّرتُ فيها بِقاعَ اللّهـو منغمسا * فى القَصف ما بينَ أنهارٍ وجنّـات !
بدير مرمارَ إذ نُحيى الصَّـبُوحَ به * ونُعمل الكاسَ فيه بالعشيّات .
فكم به من غزالٍ شادنٍ لَبِـقٍ * يَصيـدُنا بالّلحاظ البابليّـات !

وحكى الشابشتيّ أن الفضل ذكر أنه خرج مع المعتز للصيد . قال : فانقطعنا عن الموكب ، أنا وهو و يونس بنُ بغا . فشكا المعتز العطش ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إن فى هذا الدير راهبا أعرفه ، وله مروءة حسنة . وفيه آلات جميلة . فهل لنا أن نعدل إليه ؟ فقال : أفعل ! فصرنا إليه ، فرحّب بنا وتلقانا بأجمل مَلْقًى . وجاءنا بماء فشربنا . وعرض علينا النزول عنده ، وقال : أماتبتردون عندنا ؟ فقال المعتز : انزل بنا إليه . فنزلنا عنده . فسألنى الديرانيّ عن المعتز و يونس . فقلت : فَتَيان من أبناء الجُند . فقال : بل مُفلتان من أزواج الحُور . فقلتُ له : ليس هذا من دينك واعتقادك . فقال : هو الآن فى دينى . فضحك المعتز . ثم جاءنا من الطعام بما يكون مثله فى الديارات . وكان من أنظف طعام فى أنظف آنية . فأكلنا منه وغسلنا أيدينا . فقال لى المعتز : قل له بينك و بينه مَن تحبّ أن يكون معك من هـذين ولا يفارقك . فقلت له ، فقال : كلاهما . فضحك المعتز حتّى مال من الضحك . ولحقَنا الموكبُ ، فارتاع . فقال له المعتز : بحياتى عليك لا تنقطع عما كنا فيه ، فإننى لمن ثَمّ مولًى ولمن هُهنا صديقٌ ! فمزحنا ساعة . ثم أمر له المعتز بخمسين ألف درهم . فقال : لا والله ، لا قبلتُها إلا على شرط ! قال : ماهو ؟ قال : يكون أمير المؤمنين فى دعوتى مع مَن أراد . قال : ذلك إليك . فاتّعـدنا ليوم جئناه . فلم يُبق غاية ، وقام بالموكب كله . وجاء بأولاد النصارى ، فخدموا أحسن خدمة . وسُرّ المعتز سرورا ما رأيتُه سُرّ مثله قطّ . ووصله ذلك اليوم بمال كثير.

(٢٠٧)

دير سرجيس

دير سرجيس[1] – وهو بطيزناباذ[2] . بين الكوفة والقادسية، على حافة الطريق . وكانت أرضه محفوفة بالنخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر . وكان بهذا أحد البقاع المعمورة، ونزه الدنيا التي تبتهج بها القلوب المسرورة.

قال الشابشتي : وقد عفت الآن آثارها، وهدمت دياراتها.

قلت : وبلغني أن ديارها خربت، ولم يبق من رسومها إلا قباب خراب، وجرن على قارعة الطريق في القفر اليباب.

قال الشابشتي : ويسميه الناس معصرة أبي نواس . وله فيه :

قالوا : تنسك بعد الحج ! قلت لهم : * أرجو الإله وأخشى طيزناباذا .
أخشى قضيب كرم أن ينازعني * فضل الخطام، اذا أسرعت[3] إغذاذا .
فإن سلمت – وما قلبي على ثقة[4] * من السلامة – لم أسلم ببغداذا .
ما أبعد الرشد من قلب تضمنه * قطربل فقرى[5] بنا[6] فكلواذا .

(١) سماه الشابشتي : دير سرجس (وانظره في ورقة ١٠٢) ، وأما ياقوت فسما دير سرجس وبكس وقال إنهما رجلان (وانظره في ج ٢ ص ٦٦٧ ، ج ٤ ص ٨٨٤) .

(٢) إسم مدينة مشهورة سيأتي ذكرها وبعض الشرح عليها . [وانظر في مجلة "لغة العرب" التي يصدرها اليوم في بغداد الفاضلان الأب أنستاس الكرملي وكاظم الدجيلي فقد تضمنت السنة الثانية منها شرحا وافيا على مؤسس هذه المدينة وأخباره وتاريخ وقائعها وسقوطها] .

(٣) ياقوت : رأس .

(٤) « : نفسي .

(٥) في الأصل : بنى . واعتمدت ما أورده ياقوت (أنظر ج ٣ ص ٥٧٠ و ج ١ ص ٧٣٨) وهي قرية على شاطئ دجلة من نواحي بغداد بينهما نحو فرسخين وهي تحت كلواذى .

(٦) الأشهر كتابة هذه الكلمة بياء في آخرها . ولكنهم يكتبونها بالألف المقصورة أيضا . وهي طسوج قرب بغداد . وهي الآن خراب (وانظر ياقوت في ج ٤ ص ٣٠١ وفي المواضع الاخرى التي أشار إليها فهرسه) .

وفيه يقول الحسين بن الضحاك :

أخوي، هبا للصبوح صباحا ! * هبا ولا تعدا النديم رواحا !
هل تعذران بدير سرجس صاحبا * بالصحو، أو تريان ذاك جناحا ؟
إني أعيذكما بألفة بيننا * أن تشربا بقرى الفرات قراحا !
٢٠٨ يا رب ملتبس الجفون بنومة * نبهته بالراح حين أراحا !
فكأن ريا الكاس حين ندبته * للكاس أنهض في حشاه جباحا .
فأجاب يعثر في فضول ردائه * عجلان يخلط بالعثار مزاحا .
فهتكت ستر مجونه بتهتكي * في كل ملهية وبحت وباحا .

ديارات الأساقف

ديارات الأساقف[1] –

قال الشابشتي : هذه الديارات بالنجف، ظاهر الكوفة ، في أول الحيرة . وهي قباب وقصور، تسمى ديارات الأساقف، بحضرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر أبي الخصيب، وعن شماله السدير. والديارات بين ذلك .

(قصر أبي الخصيب)

قال : وقصر أبي الخصيب هذا، من أحسن متنزهات الدنيا، مشرف على النجف والظهر كله . يصعد من خمسين مرقاة إلى سطح حسن، ومجلس مشرف . ثم يصعد من خمسين مرقاة أخرى إلى سطح أفيح ومجلس عجيب الصنعة . وهو منسوب إلى أبي الخصيب، مولى أبي جعفر المنصور .

وأنشد في هذه الديارات لعلي بن محمد بن جعفر العلوي قوله :

كم وقفة لك بالخورنق لا توازى بالمواقف .

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٤٩٤ و ٦٤٢) ، والشابشتي (ورقة ١٠٣) .

بين الغدير إلى السد * ير إلى ديارات الأساقف .
فمدارج الرهبان في * أطمار خائفة وخائف .
دمن كأن رياضها * يكسين أعلام المطارف .
وكأنما غدرانها * فيها عشور في مصاحف .
وكأنما أنوارها * تهتز بالريح العواصف .
طرر الوصائف يلتقيـ * ـن بها إلى طرر الوصائف .
تلقى أوائلها أوا * خرها بألوان الزخارف .
بحرية شتواتها * برية فيها المصايف .

(٢٠٩)

دير زرارة

دير زرارة — وهو بين الكوفة وحمام أعين، على يمين الحاج من بغداد . نزه، كثير الحانات والشراب . لا يخلو ممن يطلب اللهو واللعب، ويؤثر البطالة والقصف .

قال الشابشتي : خرج يحيى بن زياد ومطيع بن إياس حاجين . فلما قربا من زرارة، قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن نقدم أثقالنا، ونمضي إلى زرارة، ونشرب في ديرها ليلتنا، ونتزود من خمرها، ونستوفي من مردها ما يكفينا إلى العودة، ثم نلحق بأثقالنا؟ ففعلا . وسار الناس، وأقاما . ولم يزل ذلك دأبهما، إلى أن عاد الحاج . فحلقا رؤوسهما، وركبا بعيرين، ودخلا مع الحاج، على أنهما قد حجا . وقال مطيع :

ألم ترني ويحيى إذ حججنا، * وكان الحج من خير التجاره؟
خرجنا طالبي خير ودين، * فمال بنا الطريق إلى زراره!
فآب الناس قد غنموا وحجوا * وأبنا موقرين من الخساره!

عمر مرتومان

عمر مرتومان — وهو بالأنبار، على الفرات . وهو عمر كبير، كثير القلايات

والرهبان . عليه سور محكم البنيان، كالحصن العظيم . والجامع ملاصقه . وله ظاهر حسن، ولا سيما في أيام الربيع . لأن صحاريه وسائر أرضه تكون كالحلل : لكثرة نواره، وطرائف أزهاره . ونزله كل من اجتاز به من الخلفاء . وفيه يقول كشاجم :

أغد يا صاحبي إلى الأنبار، * نشرب الراح في شباب النهار!
وأعمر العمر باللذاذة والقصـ * ـف وحث الكؤوس والأوتار!
فاغتنم غفلة الزمان وبادر * واقترض لذة الليالي القصار!
لا تفرط فإنما خلس العيـ * ـش وبادر بوادر المقدار!

(٢١٠)

وأنشد الشابشتي له فيه يصف عودا في يد محسنة :

جاءت بعود كأن نغمته * صوت فتاة تشكو فراق فتى!
دارت ملاويه فيه واختلفت * مثل اختلاف الكفين شبكتا .
يا حسن صوتيهما، كأنهما * أختان في صنعة تراسلتا!
وهو على ذا ينوب إن سكتت * عنها، وعنه تنوب إن سكتا!

دير الأبلق

دير الأبلق — وهو بالأهواز . وحكى المدائني، قال : إنه اصطبح في دير الأبلق في جماعة من أصحابه، فلما سكر قال :

يومي بدير الأبلق الفرد * ما أنت إلا جنة الخلد!
به وأمثال له لم يزل * يحوز العيش أبو الهندي .

عمر إتراعيل

عمر إتراعيل . والشاهد فيه دار ميخائيل .

قال ابن المستوفي : بينه وبين كفر عزى أقل من ميل . وهو عمار كبير وفيه رهبان كثيرة، وله نهر يجري على بابه وكرم وشجر في شرقيه، ورحى عامرة تطحن فوق الكرم .

وبإزائه تلُّ دير زارج، إذا صعده الزائر أيام الربيع أشرف على سائر بلدة حزة . وفيه من ألوان الزهر وأنواع الأقاحى والشقائق وصنوف النور والزهر ... ...(١) يسرّ الناظرين ويقصر وصف الواصفين. وفى قلالىّ رهبانه جنينات حسان فيها آس مصر وشجر مريم وغير ذلك.

قال : وحدثنى محمد بن حمد الأصم، قال : كنتُ بكفر عزّى، فنزحتُ مع جماعة فيهم خيرٌ نلتمس موضعا نزها نجلس فيه ونقصف . فأجمع رأينا على قصد دير إتراعيل — وهو من كفر عزى على ميل — فى أيام الربيع، فرأيناه فى نهاية الحسن بماحوله وفيه، وهو مشرف على بلد حزة كله، فنزلناه وقصفنا فيه أياما متتابعة، وقلتُ فيه هذه الأبيات :

عَمَرنا عُمْرَ إتراعيـ * ـلَ بالقَصْفِ وباللّعِبِ!
بفتيانٍ ذوى شَرَفٍ * وقَـدْرٍ وذوى لُبِّ.
بغَوْا فى كفر عزّى نُزْ * هة تبعث للشُّـرْبِ!
فوافَوْا جَنَّةً من عُمْـ * ـرِ إتراعيل عن قُرْبِ.
وقد حُفَّ بكَرْمٍ و * بأشجـارٍ له غُلْبِ.
وأنهارٍ يحاكى جر * يُها مسلولة القُضْبِ.
وروضٍ راضه المُزْنُ * فأضحى وهو كالعَصْبِ.
رأوه كعـروسٍ جُـ * ـلِيَتْ فى حُلَلٍ قُشْبِ!
فحلّوا منه فى منز * لِ لهوٍ مُونِقٍ رَحْبِ.
ودارت نُجُبُ الأبطا * لِ مُجّتْ بحلى الشُّرْبِ،

(١) كلمة ناقصة هنا سطا عليها المجلد . ولعلها : "ما" أو نحو ذلك .

على أوجـهِ أعمـارٍ * على قُضُبٍ على كُثُبِ.
فما ظنُّك بالعطشا * نِ عند المَكْرَعِ العذبِ؟

قال فانصرفنا بعد أيام، وكلنا يود أن لا يزول منه : لطيبه وحسنه.

قال ابن المستوفى : وليس بهذا الدير الآن شجر ولاماء على بابه . وفيه بيعة حسنة وقناة قديمة ورحاه باقية، والماء الذى يدير ...(١) بعيد عن الدير، وفى كل عيد من أعياد النصارى يقام به سوق وتخرج إليه جماعة من إربل، ويزوره خلق من النواحى يكونون فيه مدة يومين أو أكثر وينصرفون عنه

دير باقوقا

دير باقوقا — ذكره ابن المستوفى فى تاريخ إربل، قال : وهو إلى الآن باق، وفيه رهبان كثيرة . ذكر الشمشاطى أنه وراء الزابى وله مزرعة إلى جانب دارى وفيها بساتين وفيها تين أسود كبير. وبينه وبين الموصل سبعة فراسخ. وهو دير كبير. وكان أنشدنى فيه أبو الحسين محمد بن ميمون الكاتب :

نزلْتُ بدَيْرِ باقُوقا وفيـهِ * من الرُّهبان لى خِدْنٌ مقيمُ.
فألحقنى بصهباءٍ شمولٍ * يفوح بعنْبرٍ منها النسـيمُ.
ونادمنى برُهْبانٍ ملاحٍ * وفيهم شادنٌ حَسَنٌ رخيمُ.
وسِرْنا عنه والأهواءُ فيه، * وهل شئٌ من الدنيا يدُومُ؟

دير سعيد

دير سعيد(٢) — وهو بالجانب الغربىّ من الموصل . مطلّ على دجلة، حسن البناء، حوله قلال كثيرة، حسنة العمارة، ظاهرة النضارة، فى كلّ قلاية منها جنينات لرهبانه،

(١) هنا كلمة ناقصة فى الأصل مما سطا عليه المجلد . ولعلها : الرّحى .
(٢) أنظر القزوينى (ص ٢٤٨) ؛ وياقوت (ج ٢ ص ٦٦٩) .

فيها طرائف الرياحين وغرائب الشجر. كثير النرجس. وهو يقارب تل باذع. وتراه فى الربيع كالوَشْيِ الملَمَّع، والحَلْى المرصَّع. وهو منسوب إلىٰ سعيد بن عبد الملك آبن مَرْوان. أصحُّ ما قيل فى نسبته إليه أنه ربما كان يتعهّده أيام إمارته بالموصل.

ويقال إن لترابه أثرا فى دفع أذىٰ العقارب، وإن ماءه إذا رُشَّ فى دارٍ، قَلَّت العقارب بها.

وحُكى أن رهبانه أُلْزموا فى وقتٍ بجباية، فقاموا بثلثمائة ألف درهم.

وللخالدى فيه شعر. منه:

ألَا فَآسْتَرْزِقِ الرحمٰنَ خيرا * وسِرْ بالكاس نحْوَ السُّكْرِ سيْرا!
فأيّامُ الهُمومِ مُقَصَّصاتٌ، * وأيامُ السُّرورِ تَطيرُ طَيْرا!

وله فيه:

(٢١١) سَعِدَتْ صُحْبتى بديرِ سَعيد * يومَ عيدٍ فى حُسْنه ألفُ عيدِ!
كم فتاةٍ مِثْلِ المَهاة، سلَبْنا * ها صَليبًا من بيْنِ نحْرٍ وجِيدِ!
وغَريرٍ مثلِ الغَزال حلَلْنا * عَقْدَ زُنّارِ خَصْرِه المَعْقُودِ!
وحطَطْنا رِحالَنا بفِناء الـ * هَيْكَل المُونَق البَديع المَشيدِ.
والرَّوابِى مُشَهَّراتٌ كغِلْما * نٍ لنا فى مُحَبَّرات البرودِ.
وخُدودٌ مثل الشَّقائِق فى اللَّوْ * نِ تَليها شَقائِقٌ كالخُدودِ.
وإذا ما الهَزارُ غرَّد فى الغُصْـ * ـنِ، حَكَتْهُ الأوتارُ فى التغريدِ.
مَن رآنا ـ ونحن فى الأرض صَرْعىٰ ـ * قال: قومٌ مَوْتىٰ بغيرِ لُحُودِ!

وله فيه:

قامَرَ بالنفْسِ فى هَوىٰ قَمَرٍ * ونالَ وَصْلَ البُدُور بالبِدَرِ.
وآفتَضَّ أبكارَ لَهْوِه طَرَبا * بين عَشَايا المُدامِ والبُكَرِ.
من لم يَدُرْ فى رُبىٰ الحَدائقِ مِنْ * دَيْرِ سَعيدٍ، رحاه لم تَدُرِ.
مَسَرّةٌ كلُّها بلا حَشَفٍ * ولَذَّةٌ صَفْوُها بلا كَدَرِ.
قد ضُرِبَتْ خَيْمةُ الغَمامِ لنَا * ورُشَّ خيْشُ النسيم بالمَطَرِ.
وعنْدَنا عاتِقانِ حَمْراءُ كالشمس * وأُخْرىٰ صَفْراءُ كالقمرِ.
ياتاركًا طِيبَ يَوْمِه لِغَدٍ! * تَبِيع عَيْنَ السُّرُور بالأثَر؟

وقوله:

قد طَفَح القَلْبُ بالهُمُومِ فإنْ * طُفتَ بكأسٍ، فهاتِها تَطْفَحْ!
فى جُنْح ليلٍ تُرىٰ كَواكِبُهُ * وهْى إلىٰ الغَرْب، كلُّها جُنَّحْ.
نَراكَ تَنْسىٰ سُرورَ يومِكَ فى * دَيْرِ سعيدٍ وظِلّه الأفْيَحْ!
علىٰ بِساطٍ من البَنَفْسَج قد أُلْـ * ـقِىَ من الوَرْدِ فوْقَه مَطْرَحْ!
وكأسِ راحٍ يُدِيرها قَمَرٌ * لِحاظُه فى قُلُوبِنا تَجْرَحْ!
قد كان فيما مضىٰ يُعَرِّضُ بالـ * ـوَصْلِ، ولكنْ أراه قد صَرَّحْ! (٢١٢)

وقوله:

فكَمْ مِنْ رَوْحةٍ والشَّمْـ * ـس لم تَدْنُ لتطفيلِ،
إلىٰ دَيْرِ سَعيدٍ أو * إلىٰ دَيْرِ مَخَائيل!

بِسَاقٍ كَمَهَاةٍ مُغْـــزِلٍ أدماءَ عُطْبُـــول !.
تَرىٰ فى وجْهه وَجْهَـــك للرِّقَّة مِن مِيـــلِ !
فأَجُراهَا كخَلْخَالٍ * من اليـاقُوتِ مَفْتُولِ.
شَـــربْناها علىٰ أوجـــهِ حـــورٍ كالتمـاثيلِ.
إذا شـــئْنَ تَمَنْطَقْنَ * جَمِيعـا بالخَلاخِيـلِ.

قال الخالدىّ : وأنشدنى السرىّ الرّفاء لنفسه فيه :

وقَلَالِىُ الدير الذى لَوْلَا النَّوىٰ * لم أَرْمِها بقِلًى ولا بعُـــقُوقِ.
مجمـــرَّة الحِيطان يَنْفَح طِيبُها، * فكأنّهـا مَبْنِيَّـــةٌ بخَـلوقِ !
فمتىٰ أزورُ بَنَاتِ مُشرفَةِ الذُّرىٰ، * فأرُودَ بين النَّسْرِ والعَيُّوقِ ؟
وأرىٰ الصَّوامع فى عَوَارِبِ أُكْمِها * مثلَ الهَوادِجِ فى غوَارِب نُوقِ ؟
حُمْـرٌ تلوح خِلالَهَـا بِيضٌ كما * فَصَّلْتَ بالكافُورِ سِمْطَ عَقِيقِ.

وحكى آبن المستوفى فى تاريخ إربل، فى ترجمة أبى حفص عمر بن محمد بن الشِّحنة الموصلىّ النحوىّ، أنه نقل من مجموع بخطه، قال: كنتُ فى يوم من أيام الربيع بدير فى ظاهر الموصل، يعرف بدير سعيد. وكان فيه راهب من النُّبل، كنتُ آوِى إليه إذا جئتُ الدير. فآتّفق فى ذلك اليوم أنى خرجتُ من قلايته إلىٰ بستان الدير ومعى جماعة من الكتّاب، كنت آنس بهم. ونحن علىٰ لذتنا، و إذا قد أتانا رجُلٌ، فجلس وآندفع يغنّى، ويقول هذا الصوت فى الموضع الفلانىّ، ليرينا أنه يعرف صنعة الغناء. فأبرمنى وأبرم الجماعة، وآستثقلناه. فسألنى بعض الجماعة أن أقول فيه علىٰ طريق العَبَث شيئا. فعملتُ فى الحال:

ثقيلٌ يُصِمُّ السمعَ من قُبْح صَوْتِهِ * وتعمىٰ له أبصارُنا والبَصائِرُ!
ولو لم يَكُنْ فوقَ البَسِيطةِ لم تَزَلْ * مُزَلْزَلَةً بُطْنانُها[1] والظـــواهرُ !
تغنّى فقلنا : هاتِفُ البَيْنِ قد دَعَا * بفُرْقَتِنا أو رَيْبُ دهرٍ مبادرُ!
فياليتَ أن الله لم يكُ خالِقى، * وياليْتَــه دارَتْ عليـــه الدوائر!

الدير الأعلى

الديرُ الأعلىٰ[2] ـ وهو بالموصِل، فى أعلىٰ جبل، يُطِلّ علىٰ دِجلة. يضرب المثل به فى رقة الهواء، وحسن المُستشرَف تحته. والجزائر تتفرق خُلْجانها وغُدْرانها بإزائه. ولم تزل الولاة تخرج إليه للطف الهواء، والنظر إلىٰ المـاء. ويقال إنه ليس للنصارىٰ دير مثله. وظهر عنده معادن الكبريت والمرقشيثا والقلفطار وأشياء من هذه الأنواع. ثم صانعت النصارى حتى أُبطِلَتْ، خوفا من تثقيل السلطان : (٢١٣)

قال جعفر بن محمدٍ الفقيهُ : آجتاز بنا بعضَ السنين أبو الحسين بن أبى البغل، فنزل عليـه، وخرجتُ فى غد يوم نزوله إليه. فجعل يصف من طيب الهواء فيـه وطيب قِراءة رهبانه أمرا عظيما. ثم أنشدنى لنفسه فيه شعرا:

ولستُ أرضاه.

وممـا قال الخالدىّ فيه :

وآستَشْرَفَتْ نفسِى إلىٰ مُسْتَشْرَفٍ * للدير، تاهَ بحُسْـــنه وبِطِيبِـــهِ.
مُتَفَـــرِّق آذِىّ دَجْلَةَ تحتَـــهُ * بغَـــدِيرِه وخليجِـــه وقليبِـــهِ.

(١) بطن يُجمع على أبطن و بطون و بطنان.

(٢) أُنظر أيضا آبن الأثير (ج ٧ ص ١٣٩ و ١٨٦ و ٣٠١ ؛ ج ٨ ص ٤١٠ و ٤٦٤ و ٤٧٦ و ٤٧٧ ؛ ج ٩ ص ٤٦) ؛ وخصوصا ياقوت (ج ٢ ص ٦٤٤) ؛ والشابشتىّ (ورقة ٧٥).

فَنعِمتُ بين رِياضِه وغِياضِه * وسَكِرْتُ بين شُرُوقِه وغُرُوبِه .
غَنَّى الجَمالُ به فزاد الثَّغْرُ من * تفضيضه، والخَدُّ من تَذْهيبِه .
واهتَزَّ غصنُ البانِ فى زُنّاره * وأضاء جِيدُ الرِّيم تحت صَليبِه .

وله :

فتكْتَ ! فلا تأخُذَنْ مَنْ فَتَكْ * بما أخَذَ الجهلُ أو ما ترَكْ !
أَدِرْها! ألستَ ترى الديرَ فى * بدائعَ من حُلَلٍ لم تُحَكْ ؟
وبين البُكُور وبين الغُروبْ * و بين الرِّياض و بين البِرَكْ ،
غِناءٌ تُشَدُّ إليه الرِّحال، * بلَحْنٍ تُحَلُّ عليه التِّكَكْ !

دير مار مخايل

دير مار مخايل[1] — وهو على ميل من الموصل . يركب دجلة فى بقعة حسناء . يُطِلُّ على كروم وشجر، برّىّ بحرىّ، سُهْلىّ جبلىّ . و به قَلالىّ[2] كثيرة فى غاية الظَّرف، محفوفة بأنواع الشجر، وأصناف الزهر، وله عيد يكون قبل الشعانين بأسبوع . تخرج إليه النصارى بنسائهم وصبيانهم . ويمرّ لهم فيه يوم وليلة ، تتجاوب فيه ألحان الأغانى وقراءة الرهابين .

(٢١٤) وحُكى أنه أريد به حفر بئر فى بعض قلاليه، فأفضى الحفر إلى صندوق من حجر . فكشف، فإذا فيه ميّت لم يتغير من جسمه شئ، و إذا ثيابه صحيحة . وعند رأسه صحيفة من صُفر فيها كتابة قديمة لم يقفوا على قراءتها، ولكنهم علموا أن فيها ذكره .

(١) يسمى أيضا "دير ما نَخايال" و "دير مار نخايال" و "دير ميخائيل" . وآنظر أيضا ياقوت (ج ٢ ص ٦٩٣ و٧٠٢، ج ٤ ص ٨٧٥) .

(٢) مفرد القلالىّ قلية بالكسر وهى شبه الصومعة كما فى القاموس . ووقع فى الاصل قلال بدون ياء، وصوابه كما ترى .

وقصد المسلمون آنتزاعه منهم . ثم دارت النصارى حتى خُلِّىَ[1] لهم، فردوه إلى مكانه، وعفَوْا أثره .

قال الخالدىّ : والذى يُظَنّ أنه كان ممن على دين المسيح عليه السلام، وأنه هرب بدينه ، فمات فى هذا الموضع ، ودُفن فيه .

قال : وبين هذا الدير وبين الموصل وادٍ يُعرف بوادى زَمّار، عليه رابية تُعْرف برابية العُقاب، تُشرف على دجلة والبساتين والجزائر والنهر. وهى غاية فى الربيع . وقال فيه :

ألستَ ترى التلَّ يُبدى لنا * طَرائفَ من صُنْعِ آذاره؟
وقد نقّط الزهرُ خدّ الثرى * بدرْهَمِه وبدينارِه،
وكتَّب فى لازَوَرْد الدُّجى * بزَنْجَفْرِه وبزِنْجارِه .
فلا تَلْقَ كأسًا بتأخيرها * ولا يومَ لهوٍ بإنظارِه !

قال : وكان جحظة قد أنشدنى لنفسه فى دير العَلْث قوله :

سَقيًا ورَعيًا لدير العَلْثِ من وَطَنٍ ! * لا دير حَنّة من ذات الأُكَيْراح !
أيامَ، أيامَ لا أُصغى لعاذلةٍ، * ولا تردُّ عِنانى جَذْبةُ اللاحى !

فاستحسنتُها، وذكرتُ قول أبى نُوَاس فى دير حَنّة ، وهى فى عروضها وقافيتها، فقلتُ :

محاسنُ الدَّيرِ تَسْبيحى ومِسْباحى، * وخمرُه فى الدُّجى صُبْحى ومِصْباحى !
بُسْطُ البَنَفْسَج .... تبسَّطُ فى * صُحُونِ آسٍ وخَيْرِيّاتِ تُفّاحِ .

(١) من المداراة بمعنى المصانعة .



بدائعُ لا لدَيْرِ العَلْث هُنَّ ولا * لدَيْرِ حَنَّةَ من ذات الأُكَيْراحِ.
حتّٰى تَخمّرَ خَمّارى بمَعْرِفتى * وحبَّرتْ مُلَحى بالسُّكْرِ مَلّاحِى.
أبا مَخايالَ، لا تعدَمْ ضُحًى ودُجًى * سِجالَ كلِّ مُلِثِّ الودْقِ سَحّاحِ! (٢١٥)
فإن أُقِم سُوقَ إطرابى، فلا عَجَبٌ! * هٰذا بذاك إذا ما قامَ نُوّاحى!

قال: وكان فى هذا الدير خمّار، يقال له الحارث، ويكنّٰى أبا الأسد، معروف بجَوْدة الشراب؛ وكان المُجّان من أهل الموصل يقصدونه. وكان له ابن حسن الوجه، مَهَفْهَف القَوام، خفيف الروح، يقال له عبد المسيح، يسقينا ومعنا مغنٍّ مليحُ الغِناء، غنّانا فى شعر حسّان بن ثابت، قوله:

أُنظر خَليلى ببطنِ جِلَّقَ هل * تُؤْنِسُ دون البَلْقاء من أحدِ؟

وهو صوت معروف فى الأغانى. فاستحسنّاه، وكان معنا كاتبٌ، له علىّ اياد، فقال لى: أُحِبُّ أن تعمل فى عروض هذا الشعر شعرا تذكر فيه يومنا. فقلتُ:

لا وجُفونٍ تَنُوس فى العُقَدِ * وحُسْنِ ثغرٍ يلوح كالبَرَدِ!
لاكنتُ ممن يُضيعُ أدْمُعَه * بينَ الأَثافِى والنُّؤْىِ والوتِدِ!
أحْسنُ من وَقْفةٍ علىٰ طَلَل * قَفْرٍ وزَجْرِ العَيْرانة الأُجُدِ،
كأسُ مُدامٍ جَلَا المديرُ بها * أُمَّ الليالى وجِدَّةَ الأَبَدِ.
نشربها شُعْلةً بلا حَرَقٍ * ونَجْتليها رُوحًا بلا جَسَدِ!
هلْ أحدٌ نالَ مِثْل لَذّتنا، * يا بَا مَخايالَ ليلَةَ الأحدِ؟
سَقْيًا لماخُورِ حارثٍ ولما * خُصَّ به من مَحاسِنٍ جُدُدِ!

قلتُ له وابْنُه يَطُوفُ بها: * عُمْرُكَ فينا عِمارةُ البلدِ!
بابنِكَ ذا فى جمال صُورتِهِ * صِرْتَ أبا الظَّبْى لا أبا الأَسَدِ.
هاتِ اسقِنيها فإن سَفَكْتَ دمى! * فما بقَتْلى عليْكَ من قَوَدِ!

(٢١٦) فأقمنا يومنا ذلك، وبتنا. فلما أصبحنا، أراد الكاتب الموصلىّ أن يذهب. وكان اليوم حسنا لرقة غينه[1]، وملاحة صحوه. وكان للرجل غلام يحبُّه، فأراد الركوب إلىٰ ديوانه، فأنشدتُه أبيات شعر قُلتُها. فأمر بحطّ سروج بغاله، وأخذنا فى شاننا.

ومنها:

بحُمرةِ وجهٍ لذاك الهلالِ * وفترةِ مُقلة ذاك الغزالِ!
صِلِ اليومَ بالأمسِ، إنّى أرىٰ * له بالسُّعُودِ وجُوهَ اتِّصالِ.
هواءٌ صَفَا، وهوًى مِثْلُهُ * كخمْرِ دلالٍ وماءٍ زُلالِ.
وغيمٌ توهُّمُه كالنَّوىٰ * وصحوٌ حقيقتُه كالمُحالِ.
ومِثْلُ اليَواقيتِ زَهْرُ الرُّبىٰ * وقَطْرُ النَّدىٰ بينها كاللآلِ.
إذا ما دَنَتْ شمْسُه للدُّبُو * لِ، أشرق نُوّاره كالذُّبالِ.
وذا الديرُ تَسْعىٰ بغِزْلانِهِ * شَعانِينُه فى صُنُوف الجمالِ.
وصَفْراءُ بائعُها خاسرٌ، * ولو حازَ عن قَدَحٍ بيتَ مالِ.
أيابا مخايالَ أفدى ثَراكَ * بنفسى، ومالِى، وعمّى، وخالِى!
فكَمْ سكرةٍ لِى قَبْلَ الأذا * نِ بيْنَ دوالِيبِه والدّوالِى!
تَجُولُ خيُولُ دوالِيبِها * فتَمْلأُ ماوَرْدَ ذاك المَجالِ.

(١) الغين الغيم (عن القاموس).

وقوله فيه :

بِأَمخايالَ إن حاولتما طَلَبى * فانّما تجدانى ثَمَّ مطْرُوحا.
يا صاحبىَّ هو العُمْرُ الذى جُمِعَتْ * فيه المُنَى، فاغْدُوَا للدير أو رُوحا!
بَرٌّ وبَحْرٌ به يهدى نَسِيمُهما * للروح مِسْكًا بماء الورد مَنْضُوحا.
يجرُّ صيّادُه الشَّبُّوطَ مُضطرِبا * حيًّا، وقانصُه اليعفورَ مذبوحا.

وفيه يقول أبو حفص عمر بن الشِّحنة الموصلىّ النحوىّ، من قصيدة :

واْعمِدْ إلى مَرِّ مخائيلٍ فإنّ به * محاسنًا لسُرور النفس مِفْتاحُ!
كم فيه من أشعثٍ بادٍ شُحُوبَتُهُ * تَهْفُو له بِنْتُه تلك الأكيراحُ!

وفيه يقول أيضا :

يا مَرَّ مخائيلٍ، وإن بَعُد المَدَى، * سُقِيتَ صَوْبَ سحائبٍ وبَوارِقِ!
يا حبّذا نُوّارُ روضك إذ غدا * يَفْتَرُّ من دمع الغَمَام الدافِقِ!
مَغْنًى خَلَعتُ به العِذارَ تصابيًا * فى غُنْج أحداقٍ وزَهْرِ حدائقِ!
أيامَ أجرى فى ميادين الصِّبا * متخايلا جَرْىَ الجَمُوحِ السابِقِ!

وستأتى القصيدتان، إن شاء الله تعالى، فى ترجمته مع النحاة.
وبالله التوفيق!

(١) فى الأصل : بيامخايال . والياء الأولى ياء القسم.

٢١٧
دير متى

دير متى (١) — هو بالموصل، من الجانب الشرقى، على جبل شامخ، يعرف بجبل متّى. يُشرف على رستاق نِينوى والمرج. وهو حسن البناء، جيد الحصانة. وأكثر بيوته منقورة فى الصخر، فى نهاية الحسن والنظافة. ورهبانه لا يأكلون طعاما، إلا جميعا : فى بيت للشتاء، وبيت للصيف.

ومتى جلس أحد فى صحن هذا الدير، نظر إلى الموصل. وبينهما سبعة (٢) فراسخ.

وله عدّة أبواب مفرطة فى الكبر، وكلها من حديد مُصْمَت. وبه صِهْرِيج عظيم يجتمع فيه ماء المطر، عمقه اثنا عشر ذراعا : لكل شهر ذراعٌ من الماء. ويفتح هذا الصهريج من موضعين : فى أعلاه وفى أسفله. فيخرج ماؤه من أسدين من صُفْر.

وجملة أمره أنه عجيب عظيم فى أمثاله.

وحوله من الأشجار ومن سائر الثمار. وفى خارجه مغارٌ فى الجبل، فيها صناديق من صخر بأطباق لموتاهم، فمتى امتلأت خرج رأس الدير مع رهبانه يقرءون أناجيلهم، ويجمعون العظام البالية منها. ثم تطرح فى فجّ داخل هذا المغار.

قال : وبِتُّ ليلة فيه، مع بعض الرؤساء على شرب ولعب، فقلتُ :

فلأشكُرَنّ لدير متّى ليلةً * مزّقتُ ظُلمتها ببدرٍ مُشرقِ!
حتى رأينا الليل قوسَ ظهره * هرمٌ وأثّر فيه شيبُ المَفرِقِ!

قال : وقرأتُ على باب دهليزه بيتين كُتبا، وهما :

يا دير متّى سَقَتْ أطلالَك الدِّيَمُ! * وانهلّ فيك على سُكّانك النِّعَمُ!
فما شفى غُلّتى ماءٌ على ظمإ * كما شفى حرّ قلبى ماؤك الشَّبِمُ!

(١) أنظر أيضا القزوينى (ص ٢٤٩)، وياقوت (ج ٢ ص ٦٩٤).
(٢) فى الأصل : سبع.

دير الخنافس

دير الخنافس(١) ـ وهو دير صغير بالموصل، بالجانب الشرقىّ، على قُلّة جبل شامخ، يُشرف على أنهار نِينَوى وضياعها .

وفيه طِلَّسْمٌ ظريف: يجتمع له فى وقتٍ من السنة الخنافس الصغار اللواتى كالنمل، حتّى تسودّ حيطانه وبيوته وسقوفه وأرضه، مدّة ثلاثة أيام. ثم لا توجد. ولهذا سُمّى دير الخنافس .

(٢١٨) قال الخالدىّ: وهذا معروف مشهور بالموصل . فإذا كانت تلك الأيام، أخرج الرهبان أمتعتهم منه، هربا منها .

قال: ولا أعرف فيه شعرا إلا ماقاله بعض بنى عُروة الشَّيبانى يرثى أخًا له، مات عنده، فدُفن إلى جانبه. ومنه:

بِقُربكَ يادَيْرَ الخَنافسِ حُفـرةٌ * بها ماجدٌ رَحْبُ الذِّراع كريمُ!
طَوَتْ منه همّامَ بنَ مُرّةَ فى الرُّبى * هِلالٌ يُنيرُ اللَّيْـلَ، وهو بَهِـيمُ!
سَقَاك وسَقّاه وسَـقّى ضريحَه * أَجَشُّ من الغُرّ العِذاب هَزِيمُ!
فيادَيْرُ أحسنْ ماآستطعتَ جِوارَه، * فإنّى غادٍ عنـكَ، وهْو مُقيـمُ!

قال: فنساء بنى عُروة جميعا تنوح عليه وعلى موتاهم بهذه الأبيات إلى اليوم، وإذا نزلت أحياؤهم به، نحروا عليه وأقاموا مأتم .

دير باعربا

دير باعربا ـ وهو بين الموصل والحَدِيثة، على شاطئ دجلة، من الجانب الغربىّ، بإزاء جزائر كثيرة الشجر، قلّما خلت من سَبُع . وهو جليل عند النصارى، وفيه قبور يعظمونها . وبناؤه عجيب . وآرتفاع حائط هيكله نحو المائة ذراع، ماحوله بناءٌ يسنده. وله مزارع . وفيه بيت ضيافة ينزله مَن يجتاز عليه.

(١) أنظر أيضا القزوينىّ (ص ٢٤٧)، وياقوت (ج ٢ ص ٦٥٨)، والشابشتىّ (ورقة ١٣٢).

قال الشيظمىّ: لما آنحدر سيف الدولة إلى العراق، نزل دير باعربا، وضرب مضربه على شاطئ دجلة، وتغدّى ونام. فلما كان وقت العصر دخل الدير، وصعد سطحه. فرأى منظرا حسنا، من بره وبحره وعلو مشترفه. فاستدعى شرابا، ودعا سقارة العوّاد، فغناه. وكان معه من الندماء أبو إسحاق اليسرىّ. ثم آستدعانى، وسقّارة يغنى بشعر غثّ فى وزن بارد. فأمرنى بأن أعمل فى عروضه، فقلت بعد تمنّعٍ، لكنه لايجىء فيه الحسن:

شَرَفًا يا ديرَ عـربآء ومَجْـدًا * بهما تُعنَى مَـدى الدّهر وتُعمَرْ!
سـتَرى ماءكَ هذا ماءَ وَرْدٍ، * وترى صَحْنَك ذا مسـكًا وعنبرْ.
إذ على سطحك سَيفُ الدولة القرْ * مُ الذى فاتَ الورى عزًّا ومفخرْ.
والذى إن سار فى العسكر فردًا * فهو فى إقدامه ألفُ عَسكَرْ! (٢١٩)

دير القيارة

دير القيّارة(١) ـ وهو فوق دير باعربا، على جانب دجلة الغربىّ. نُسب إلى عينٍ فيه ومعدنٍ، يستخرج منه القير. وتحته حَمّةٌ عظيمة . يقصده من به علّةٌ أعيت الأطباء، فيقيم به خمسة أيام، مستنقعا فى مائها، فيبرأ من علته . ويشفى من النقرس ويبسط التشنج، ويزيل الأورام الجاسية والرياح الغليظة، ويلحم الجراحات .

قال الخالدىّ: وسبيل مَن قصدها، أن يظلّ نهاره فى مائها، ويأوى ليله هيكل ديرها، ويدهنه رهبانه بالطيوث. فيشفى بإذن الله .

وفيه عيون يخرج منها النفط والقير. فتُتقبّل من السلطان بألوف دراهم فى كل سنة . ومرافق هذا الدير كثيرة .

قلتُ: وسنُلمّ بذلك فى موضعه .

(١) أنظر أيضا القزوينى (ص ٢٤٨)، وياقوت (ج ٢ ص ٦٨٩).

دير بارقانا

دير بارقانا ـ وهو فوق الحديثة، على جانب دجلة الشرقى . راكب للماء ، فى موضع نزه حسن . وبناؤه محكم . وقلاليه كثيرة الشجر والزهر . وله بساتين ومباقل . ويقال إنه ليس فى سمك دجلة أسمن من سمك يصاد من شاطئه .

قال الخباز البلدى : اجتزتُ به، فرأيت من حسنه ونضارة شجره، مادعانى إلى المُقام به والقصف فيه . وسألت رهبانه عن الشرب، فدلّونى على راهب منهم . فرأيته ظريفا، وقلّايته مليحة، وشرابه صافيا جدا . فابتعتُ منه، وأقمت عنده نهارى وليلتى . وقلتُ :

ألا سَقْيًا لرِقة بارقانا ✽ وهيكله المشيَّد والقلالى !
فكم من سُدْفَةٍ[1] باكرتُ فيها ✽ مُعصْفَرةً كمثل دمِ الغزال !
فكم عانقت غُصنًا فى اعتدال ✽ به، ولثمتُ بدرا فى كمال !
وجادَ بما أحاوِلُ منه سكرا ✽ وكان ممانِعى طيفَ الخيال !

دير أبى يوسف

دير أبى يوسف[2] ـ وهو قريب من بَلَدٍ[3] . بينه وبينها نحو فرسخ . على شاطئ دجلة . وموضعه حسن معمور بالزيتون والسرو والآس والرياحين ، مغروس الرُّبى بالنرجس . وهيكله حسن البناء . وفيه عجائبُ من بدائع التصوير . ولرهبانه جِدَة ونعم .



(١) المقصود هنا اختلاط الضوء والظلمة معا كوقت طلوع الفجر إلى أول الإسفار . ويقولون : أتيته بسدفة أى فى بقية من الليل . ولها معان أخرى ذكرها فى تاج العروس أيضا ، ولكن ما اخترته هو الذى يعينه المقام .

(٢) أنظر أيضا ياقوت (ج ٢ ص ٦٤١) .

(٣) اسم علم لمدينة مشهورة بالعراق . وتسمى بَلَط واسمها بالفارسية شهرا باذا (عن ياقوت) وسمى بلد الحطب (عن أبى الفدا) .

ولا يُعوزه كلَّ يوم قافلةٌ تحطّ عنده لتأخذ خمرا . والمُجّان تقصده للتنزه فيه بطنابيرهم وعيدانهم وسائر ملاهيهم .

قال الخالدى : خرجتُ فى بعض السنين إلى بلدٍ، مع كاتب لبعض أمرائنا . فأحببتُ الشرب فى دير أبى يوسف . فكتبتُ إليه :

بدير أبى يوسُفٍ خمرةٌ ✽ تزيد على لَهَبِ البارقِ !
ونَرجِسُه كنسيم الحبيـ ✽ ـبِ عند مُحِبٍّ له وامقِ !
فما ذا ترى فيه قبل استماع ✽ همَاهِم ناقوسه الناطقِ ؟
لِتَقنِص بِكرا خلوقيةً ✽ تُخبِّر عن حكمة الخالقِ !

ففعل . وأقمنا به ثلاثة أيام فى ألذّ عيش، وأصفى وقت . ثم انحدرنا منه .

دير الشياطين

دير الشياطين[1] ـ وهو بالقرب من أوسَل (بلد على قطعة من الجبل على دجلة) . فى موضع حسن . وهواؤه رقيق لطيف، وقلاليه عامرة كثيرة الأشجار . وأرضه كثيرة الرياض . وله سور يحيط به، ومشترف على سطح هيكله يُشرف على دجلة والجبل .

وفيه يقول السرى الرفاء :

عصى الرَّشادَ فقد ناداه من حينِ ✽ وراكَضَ الغيَّ فى تلك الميادين !
ماحَنَّ شيطانه العاتى إلى بلدٍ ✽ إلا ليَقرُب من دير الشياطين !
وفتيةٍ زهَرُ الآداب بينهُمُ ✽ أبهى وأنضر من زهر البساتين !
مشَوا إلى الرّاح مشْىَ الرُّخّ وانصرفوا ✽ والسُّكر يمشى بهم مشْىَ الفرازين !

(١) أنظر أيضا ياقوت (ج ٢ ص ٦٧٣ ، ج ٤ ص ٨٧٧) .

حتى إذا أنطق الناقوس بينهم * مزين الخصر رومى القراين ،
فخت أقداحها بيض السوالف فى * حمر الغلائل فى خضر الرياحين .
كأنها وبياض الماء يقرعها * ورد يصافحه أوراق نسرين .

(٢٢١) دير مر سرجس

دير مر سرجس(١) – وهو فوق بلد بثلاثة فراسخ ، على قلة جبل عال ، يبين للناظر من عدة فراسخ .

قال الخالدى : وعلى بابه شجرة لا يعرف أحد ماهى : لا يسقط ورقها عند سقوط ورق الشجر ، ولها ثمرة تشبه اللوز . وفى جبله من الزرازير شئ عظيم ، لا تفارقه صيفا ولا شتاء ، لا يقدر على صيد شئ منها . وفى شعاب جبله أفاع كثيرة ، تمنع من صيد طيره ليلا .

قال : وفى أوديته حصًى على شكل اللوز لا تغادره .

قلت : ولعل هذه الشجرة هى التى ذكرها ابن وحشية ، وقال إنها فى الدنيا واحدة لا ثانى لها .

وحكى الخالدى ، قال : حدثنا الخباز البلدى ، قال : تقلد بلدنا رجل من آل الفرات ، وكان أديبا شاعرا . فاستخصنى ، فما كنت أفارقه . فرأى يوما هذا الدير وسألنى عنه ، فوصفته له ، فأحب النظر إليه . فخرج وحملنى معه . وكان ذلك فى شتاء متصل المطر . فلما جئناه ، رأينا فى جبله من الغدران ما ملأ أفاويقه . فلما صعدنا سطح الهيكل ، فكر ساعة ثم أنشدنى لنفسه :

وهيكل تبرز الدنيا لمشرفه * حتى يعاين منها السهل والجبلا
كأن صبين باتا طول ليلهما * يستمطران على غدرانه المقلا

(١) هو خلاف الذى سماه ياقوت "دير ما سرجيس" (ج ٢ ص ٦٩٣) ، ومثله البكرى (ص ٣٧٤) .

دير صباعى

دير صباعى(١) – وهو على شاطئ دجلة الشرقى ، فوق تكريت بقليل . وهو كثير الرهبان . وله مزارع وجنينات . ولرهبانه يسار وغنى . وفيه يقول بعض لصوص بنى شيبان :

ألا يا رب سلم دير صباعا * وزد رهبان هيكله اجتماعا !
فكم جئناه أمواتا سغابا ، * ورحنا منه أحياء شباعا !
فيا للقصف ما أمرى نبيذا * ألذ طلا وأحسنه شعاعا !
لنعمته ومنته علينا ، * عمرناه وخربنا الضياعا !

(٢٢٢) عمر الزعفران

عمر الزعفران(٢) – وهو على رأس جبل مطل على نصيبين وديار ربيعة من جانب ، وعلى طور عبدين وقردى وبعض ديار بكر من جانب آخر ؛ وبه كثير من الزعفران . وهو عجيب البناء ، كثير الرهبان . وفيه جنات لهم حسنة نضرة مملوءة بشجر البندق والفستق واللوز الفرك والزيتون والبطم . وماؤه من صهاريج يجتمع فيها ماء السماء . والصهاريج منقورة فى صخور . والثلج به ممكن . ولما نزل المتقى نصيبين استعذب ماءه واختاره على مائها وماء دجلة .

قال الخالدى : ولهذا الدير بيوت للضيافة فى علو الهيكل . وللسور تسوير عجيب ، وعليه أبواب من حديد مصمت . قال : وشعر زعفرانه فائق . ومنه ومن العسل أكثر يسار رهبانه . قال : وكان الأمير أبو البركات يخرج إليه ، وأخرج معه . فيقيم به على شرب وسرور . وأمرنى أن أعمل فيه شعرا . فقلت :

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٧٣) .
(٢) أنظر الكلام على دير الزعفران فيما تقدم من الصفحات .

عطّلتُ دارسةَ المَغانى * وعَمرتُ عُمرَ الزَّعفران،
وأقمتُ فى غُرَفٍ لديـ * ـه كأنّها غُرفُ الجنان.
وترى قنانينا مُقدّ * مةً بآس خُسروانى.
ومُعانقى ظَبىٌ وبد * رُ دُجُنّةٍ وقضيبُ بان.
والراحُ أحصنُ جُنّةٍ * لك فى مُقارعة الزمان.
لا تأمنَنّ صُروفَه: * فالدهرُ ليس بذى أمان

قال: وأنشدنى الببّغا لنفسه فى هذا الدير:

صفحتُ لهذا الدهرِ عن سيّئاته * وعدّدتُ يومَ الدير من حسناته.
وصبّحتُ عُمرَ الزعفران بصبحةٍ * أعاشتْ سُرورَ القلبِ بعد مماته.
وأهيفَ فاخَرتُ الرياضَ بحُسْنه * فاذعنَّ صُغْرا وَصْفُها لصفاته.
فلما دجا الليلُ استعاد سنا الضُّحى * براحٍ نأتْ بالليل عن ظُلُماته.
ونمَّ إلينا دَنُّها بضيائها * فكان كقَلبٍ ضاق عن خَطَراته.
وخوّفنى منـه، نُحُلْتُ صَليبَه * لشدّة ماتخشاه بعضَ وُشاته!

وفيه يقول مُصْعَبٌ، الكاتب: (٢٣٣)

وقائلٍ قال لى: أَقصِر! فقلتُ له: * أما ترانى بحبّ المُرْدِ مشغولا؟
لا أعشقُ الأبيضَ المنفوخَ من سِمَنٍ؛ * لكنّنى أعشقُ السُّمرَ المَهازيلا!
فقال لى: أنت مجنونٌ؟ فقلت له: * لا تُكثِرنّ علىّ القالَ والقيلا!
إنى امرؤٌ أركبُ المُهرَ المُضمّرَ فى * يوم الرّهان، فدعنى واركبِ الفيلا!

وكذلك قال:

دبتُ أمشى على الكفّين ألمسه * كَمشى مُستَرقٍ للسمع أسرارا!

فمرّ يمشُق فى قرطاسـه قلمى * والليل مُلقٍ على الآفاق أستارا!
فقال لمّا انجلى عن عَينه وسنٌ * وقد رأى تِكّةً حُلّتْ وأزرارا:
ياراقدَ الليلِ مسرورًا بأوّله * إنّ الحوادثَ قد يطرُقن أسحارا!

دير باربيثا

دير باربيثا — وهو بنينوى، بأرض الموصل، على نهر الخازر،(1) وبه بيت ضيافة. وله عند النصارى قدرٌ جليل.

قال الخالدىّ: رأيتُه فى بعض السنين. وكان به راهب يقال له كوريال، من عُبّاد النصارى فأضافنا أحسن ضيافة وأكرمنا أتمّ إكرام، بالطعام الكثير، والشراب العتيق الواسع، وعلف الدوابّ. وأكثر، فعظم فى عينى، وعاتبته على الإسراف فى فعله. فقال: هذا والله رسمنا مع كلّ مَن ينزل بنا!

قال: وهذا الدير الذى قُتل عنده عبيدُ الله بن زياد. قتله إبراهيم بن الأشتر، على هذا النهر، وأنفذ برأسه إلى المختار فى خبر يطول، ليس هذا موضعه.

دير حنظلة

دير حنظلة(2) — وهو بالحيرة، على نحو فرسخ منها، إلى المشرق. وموضعه حسنٌ، لما فيه من جُنيّنات رهبانه وأشجارهم، وما يُلبسه الربيع من الرياض.

وأنشد الخالدىّ فيه لغيره شعرا، منه:

طَرَقتْكَ سُعدى بين شَطّى بارقٍ! * نفسى الفداءُ لطَيفها من طارقِ!
ياديرَ حنظلة المُهيِّجَ لى الهوى! * هل تستطيعُ صلاحَ قلبِ العاشقِ؟ (٢٣٤)

(1) نهر بين إربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل، يصب فى دجلة.
(2) أنظر "الأغانى" (ج ٩ ص ١٠٣ و ١٠٤)، والبكرىّ (ص ٣٦٠) وخصوصا ياقوت (ج ٢ ص ٦٥٥ وآخر فى ص ٦٥٦ أيضا).

وقد ذكره أبو الفرج الأصبهانىّ، وأنشد لبعض الشعراء فيه رجزا، منه :

بساحة الحيرة ديرُ حَنْظَلَهْ * عليه أذيالُ السرور مُسْبَلَهْ
أحييتُ فيه ليلةً مُقْتَبَلَهْ * وكأسُنا بين الندامى مُعْمَلَهْ
* والراحُ فيها مثل نار مُشْعَلَهْ *

دير الجاثليق

دير الجاثليق[1] — وهو قديم البناء، غربىّ دِجلة، فى عرض حَرْبَى، على الحدّ بين آخر السواد و بين أوّل أرض تكريت. وفيه كانت الحروب بين عبد الملك بن مَرْوان ومُصْعَب بن الزُّبير. فقال ابن قيس الرُّقَيَّات :

لقد أورثَ المِصْرَيْنِ حُزنا وذِلَّةً * قتيلٌ بدير الجاثَليق مُقيمُ!
فما قاتلتْ فى الله بَكْرُ بنُ وائلٍ * ولا صَدَقتْ عِنْدَ اللِّقاءِ تميمُ!

وحُكى أنه كان به غلام أمرد نصرانىّ من أهل الحيرة، يقال له عشير بن إليا الصَّيْرَفىّ. وكان يتعشقه بكر بن خارجة، وفيه يقول من شعر له :

أجِرْنى! مُتُّ قَبْلَكَ من هُمُومى! * وأرشِدْنى إلى وجه الطَّريقِ!
فقد ضاقَتْ علىّ جِهاتُ أمْرِى * وأنتَ المستجارُ من المَضِيقِ!

وفيه يقول بيتين يحضرنى منهما قوله :

زِنّارُه فى خَصْره مَعْقُـودُ * كأنّه من كَبِدى مَقْدودُ

قال أبو الفرج : وكان دِعبِل يستحسنه ويقول : ليت هذين البيتين لى بمائة بيت من شعرى!

(١) Catholicos . وانظر معلومات أخرى على هذا الدير فى الطبرىّ (سلسلة II ص ٨٠٦ و ٨١١ و ٨١٢) ؛ وابن الأثير (ج ٤ ص ٢٦٨) ؛ ومروج الذهب (ج ٥ ص ٢٤٦ و ٢٤٩ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٣) ؛ وتاريخ اليعقوبىّ (ج ٢ ص ٣١٧) ؛ والبكرىّ (ص ٣٦٧ و ٣٧١) ؛ وخصوصا ياقوت (ج ٢ ص ٦٥٠ ، ج ٤ ص ٥٢٩) ؛ والشابشتىّ (ورقة ٩) .



وفيه يقول محمد بن أبى أُميّة :

(٢٢٥)

رأيتُك حِلْيَتِى دِينى ودُنْيا : * حياةً للضَّجيع وللقَرينِ.
بدا لى بعد ما سبقتْ يمينى * بهَجْرِك أنْ[1] أُكفِّرَ عن يمينى.

دير مريحنا

دير مَرْيُحَنّا[2] — وهو إلى جانب تكريت، على دجلة، عامرٌ بالقلّايات والرهبان. مطروق مقصود. منزلٌ لكل مسافر. و به ضيافة قائمة على أقدار الناس. وله مزارع متسعة وغلات كثيرة. وهو للنَّسطورية. وعلى بابه صومعةُ عبدونَ الراهب، وكان من المَلَكيَّة. بناها فعُرفت به. وفى هذا الدير يقول عمرو بن عبد الملك الورّاق :

أرى قلبى قـد حنّا * إلى دير مَرى حَنّا!
إلى غيطانه الفيـح * إلى بِرْكته الغَنّا!
إلى أحسن خَلْق الله إن قدّس أو غنّى!
فلمّا أبلج الصُّبْحُ * نزَلْنا بيننا دَنّا!
فلمّا دارت الكأسُ * أدرْنا بيننا لَحْنا!
فلمّا هجع السُّمّا * رُ، نِمْنا فتعانَقْنا!

قال الشابشتىّ : وكان عمرو هذا من الخلعاء الظرفاء المنهمكين فى اللهو والتطرّح فى الديارات. وممّا أُنشد له فى المُجون قولُه :

أيُّها السائلُ عنّى * لستُ من أهل الصَّلاحْ.
أنا إنسانٌ مُريب * أشتهى نيْلَ المِلاحْ.

(١) فى الأصل : لا. [وصححت بما يقتضيه السياق ، لأن الشاعر يقول انه بدا له أن يكفر عن يمينه بعد أن أقسم بهجر صاحبه] .

(٢) انظر أيضا ياقوت (ج ٢ ص ٧٠١) .

عمر أخويشا

عُمْر أخويشا[1] — (وأخويشا بالسريانية الحَبِيس).

قال الشابشتى: وهذا العُمْر بإسْعَرْد، من ديار بكر. وهذا العُمْر مطلٌّ على أرْزَن. وهو كبير جليل. فيه أربعمائة راهب فى قلاليهم. وحوله بساتين وكروم. وهو فى نهاية العمارة والنزهة وحسن الموقع وكثرة الفواكه والخمر. ومنه يُحمل الخمر إلى البُلْدان. وبقربه عين عظيمة تدير ثلاثة أرحاء، وإلى جانبه نهر يعرف بنهر الروم. وبه أنواع المُطْربين. وأنشد فيه اللبّادى:

وفتيانٍ كهمِّك من أُناسٍ * خِفَافٍ فى الغَداة وفى الرَّواح.
(٢٣٦) نَهَضْتُ بهم، وستر الليل مُلْقٍ * وضَوْءُ الصبح مقصوصُ الجَناح.
نؤمُّ بدير أخويشا غَزالاً * غريبَ الحُسْن كالقمرِ اللّياح.
فساعَفَنا الزمانُ بما أردْنا * فأُبْنا بالفَلاحِ وبالنَّجاح!

عمر عسكر

عُمْر عسكر[2] — وهو أسفل من واسط، فى الجانب الشرقى، فى القرية المعروفة ببرخوى[3] وفيه كرسى المُطران. وهو عُمْرٌ كبير، كثير القلايات يُبَايَع عليها. ويحيط به بساتينُ كثيرة وغلات واسعة.

وفيه يقول محمد بن حازم الباهلى، وكان قد قصده أيام مُقام الحسن بن سهل بواسط:

(١) سماه الشابشتى وياقوت "أحويشا" بالحاء المهملة. وانظر أيضا كلام الثانى عليه فى (ج ٢ ص ٦٤١)، والأول فى (ورقة ٨٦).

(٢) فى ياقوت "كسكر" وقد ذكره أيضا فى أسماء البلاد وأشار إلى هذا العُمْر.

(٣) « « برجونية.

بعُمْرِ عسكرَ طاب اللَّهْوُ والطَّربُ * والباذكاراتُ والأدوارُ والنُّخَبُ!
وفتيةٌ بذلوا للكأسِ أنفُسَهم * وأوجبوا لرضيع الكأس مايجبُ.
فلم يزل فى رياض العُمْر يعمُرُها * قَصْفًا وتَعْمُرُها اللذّاتُ والطربُ،
والدهرُ قد طُرِفت عنّا نواظرُه * فما تُروِّعُنا الأحداثُ والنُّوَبُ.

قال الشابشتى: وأنشدنى من مليح شعره قولَه:

صِلْ خَمْرةً بخُمارٍ * وصِلْ خُمارا بخمرٍ!
وخُذْ بحظِّك منها * كأسًا إلى حيثُ تدرى!

قال: فقلتُ له: إلى أين؟ ويحك! فقال إلى النار، يا أحمق!

وأنشد له:

جَدِّدَا مجلسا لعَهْد الشباب * وارْعَيَا حُرْمةَ الصبا والتَّصابى!
بكُهولٍ إذا استقرت حُميّا الـ * ـكاس لم ينطقوا بغير الصواب.
مارَسُوا شِدَّةَ الزمانِ فلانوا * واستفادوا محاسنَ الآداب.
فاسقيانى إذا تجاوبت الأو * تارُ كأسا لإدْكار الشَّباب!

(٢٣٧) دير الأسكون

دير الأَسْكُون[1] — ذكر مُصنِّف ديارات الحيرة، أنه راكبٌ للنجف. قال: وهو أنزه دياراتها، وفيه قلالىّ وهياكل ورهبان يقيمون الضيافة لمن ورد عليهم. وهو حصن منيع. له سورٌ عالٍ، وبابٌ من حديد. ومنه يُهبط إلى غدير الحيرة. وأرضه رَضْراض ورمل أبيض. وله مشرعة تقابل الحيرة، لها درج إذا انقطع النهر كان منها شرب أهل الحيرة. قال: وإليه تجتمع النصارى فى أعيادهم وفى كل يوم جمعةٍ بعد

(١) سماه ياقوت "دير أسكون" وانظر كلامه عليه (ج ٢ ص ٦٤٣ و ٦٨٧).

صلاة الجمعة . فإذا كان يومُ الشعانين ، أتوه من كل ناحية ، مع شماميسهم بصُلُبهم وأعلامهم . فإذا آستتمّوا فيه وفى القصر الأبيض والعَلالىّ المدانية ، خرج أسقفهم بهم إلىٰ مكان يعرف بقُبيبات الشعانين (وهى قِباب علىٰ ميلٍ من ناحية طريق الشام) فأقام بهم فيها يومهم ذلك إلى آخره . ولكل منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه .

دير حنة

دير حَنَّة[1] ـ هو بالحِيرَة ، من بناء نوح . هكذا نقلتُه ولا أعرف مَن هو .

وإلىٰ جانبه قائم . حكىٰ أحمد بن عمر الكوفىّ ، قال : كان بالكوفة رجل أديب ضعيف الحال ، مهما وقع فى يده من شئ ، أتىٰ به دير حَنَّة فيشرب فيه حتّىٰ يسكر . ثم ينصرف إلىٰ أهله ، ويقول : يُعجبُنى من الغراب بُكُورُه فى طلب الرزق . وربما بات به ، ويقول :

تَطاولَ ليلُكَ بالزاوِيه ✽ وكان المَبِيتُ بهاعافيهْ .
ومن تحتِ رأسِك آجُرّةٌ ✽ وجَنْبُك مُلْقًى علىٰ باريهْ .
وذلك خيرٌ من الإنْصراف ✽ فتحْكُمُ فيك بَنُو الزانِيهْ .
وتُصْبِحُ إمّارهينَ السُّجُون ✽ وإمّا قَتِيلًا علىٰ ساقيهْ .

قال : فُوجِدَ والله بعد أيام قتيلا علىٰ ساقية ! وهو القائل :

مالذّةُ العيشِ عِنْدى غيرُ واحدةٍ ✽ هى البُكُورُ إلىٰ بعض المَوَاخيرِ .
لحامِلِ الذِّكْرِ مأمونٍ بوائقُه ✽ سَهْلِ القِيادِ من الفُرْهِ المَدَابيرِ .
حتّىٰ يَحُلَّ علىٰ دير آبن كافرةٍ ✽ من النصارىٰ بَبَيْعِ الخَمْرِ مشهورِ .
كأنما عَقْدُ الزُّنّار فوق نَقًا ✽ وآعْتَمّ فوق دُجىٰ الظَّلْماء بالنورِ .

(١) وآنظر أيضا ما رواه عنه ياقوت (ج ١ ص ٣٤٥ ؛ ج ٢ ص ٦٤٠ و ٦٥٦ و ٦٨١) ؛ والبكرىّ (ص ٣٧٣) .

وفيه قال الثروانىّ :

يومى بهَيْكلِ دير حَنَّةَ لم يَزَلْ ✽ غُرُّ السَّحاب تجود فيه وتمرَعُ .
متجَوْشِنٌ طورًا وطَوْرًا شاهرًا ✽ بِيضَ السُّيوف وتارةً يتدرّعُ .

وكذلك قال فيه بكر بن خارجة الكوفىّ[1] :

أَلَا سُقِيَ الخَوَرنَقَ من مَحَلٍّ ✽ ظريفِ الروض مَعْشوقٍ أنيقِ !
أقمتُ بديرِ حَنَّتِهِ زمانا ✽ بسُكْرٍ فى الصَّبوح وفى الغُبُوقِ .
ومنّا لابسٌ إكليلَ زهرٍ ✽ ومختضبُ السَّوالفِ بالخَلُوقِ .
كأنّ رياضَه حُسنا ونَوْرا ✽ سحائبُ ذُهِّبت بسَنَا البُروقِ .
كأنّ تقاطُرَ الأشجارِ فيه ، ✽ إذا غسق الظلامُ ، قِطارُ نُوق .
وماذا شِئتَ من دُرّ الأَقَاحِى ✽ هناك ومن يَوَاقِيتِ الشَّقِيقِ .

وقد ذكر دير حنة أبو الفرج الأصفهانىّ وقال : ذكره أبو نواس فى شعره ، يعنى فى قوله :

يادَيْرَ حَنَّةَ من ذات الأُكَيْراحِ ! ✽ من يَصْحُ عنكَ فإنى لستُ بالصاحى .
يعتادُه كُلُّ مجفُوٍّ بعارفة[2] ✽ من الدِهان عليه سَحْقُ أمساحِ .
فى فِتْيةٍ لم يَدَعْ منهم تخوُّفُهم ✽ وُقُوعَ ماحَذِرُوه غيرَ أشباحِ .
لا يَدْلِفُون إلىٰ ماء بآنيةٍ ✽ إلا آغترافا من الغُدْران بالراحِ .

(١) انظر أخباره وأشعاره فى الأغانى (ج ٢٠ ص ٨٧ و ٨٨) . وليست فيها الأبيات التى أوردها آبن فضل الله هنا .

(٢) ياقوت : مفارقه .

قال : والأُكيراح بلدٌ نَزِهٌ كثيرُ البساتين والرياض والمياه. قال : وبالحِيرَة أيضا موضعٌ يقال له الأُكَيْرَاح فيه دير. والأُكيراح قِبَاب صغار يسكنها الرهبان. يقال للواحد منها الكِرْحُ.

(٢٢٩) دير عبد المسيح

دير عبد المسيح[1] — وهو بالحِيرَة. بناه عبد المسيح بن عمرو بن بُقَيْلَة. ويقال إنه عمّر دهرا طويلا، ولحق خالد بن الوليد، حين فتح الحيرة. وله معه خبر طويل. وحكى بعض أهل الكلام، قال : قرأتُ على حائطه مكتوبا :

رأيتُ الدَّهر للإنسان ضِدًّا، * ولا يُنجِي من الدهر الخُلودُ!
ولا يُنْجِي من الآجال أرضٌ * يَحُلُّ بها ولا قصرٌ مَشِيدُ!

وحكى آخر قال : قرأت على حائطه أيضا :

هٰـذِى منازلُ أقـوامٍ عَهِدْتُهُم * فى خَفْضِ عَيْشٍ خَصِيبٍ ماله خَطَرُ!
دارتْ عليهم صُروفُ الدهر فانتقَلُوا * إلى القُبور، فـلا عَينٌ ولا أَثَرُ!

وقد ذكره الأصفهانىّ، فى أخبار لاحاجة فيها. وقال : وكان عبدالمسيح قد بنى ديرا فى بقعة بالحيرة يقال لها الجزعة. كان يترهب فيه حتّى مات. ثم خرب الدير، وظهر فيه أَزَجٌ معقود من حجارة. وظنوا فيه كنزا، ففتحوه، فاذا سرير رخام، عليه رجل ميت، وعند رأسه لوح فيه مكتوب :

حَلَبْتُ الدهرَ أشْطُرَهُ حَيَاتِى * ونِلْتُ من المُنَى فوق المَزِيدِ.
وكِدْتُ أنالُ فى الشَّرَف الثُّرَيّا، * ولكِنْ لاسَبِيلَ إلى الخُلود.

(١) أُنظر أيضا ياقوت (ج ٢ ص ٦٥١ و ٦٧٧).

دير الحريق

دير الحَرِيق[1] — هو بالحيرة. بناه النعمان بن المنذر على ولدٍ كان له، عُدِىَ عليه واحرِق فيه. وإلى جانبه قبة تعرف بقبة الشُّنَّيق[2]، و[قبة] تعرف بقبة غُصَيْن. وهما راهبان نسبا إليهما. وهما بديعتا البناء.

وفى الدير وفيهما يقول الثروانىّ :

ديرُ الحَرِيق وقُـبَّةُ الشُّنَّيقِ * مَغْنًى لِحِلف مُدامـةٍ وفُسُوقِ!
وطَنٌ لفرقتـه شَرِقْتُ بدَمْعَتى * ولرِحْلَتى عنه غَصِصْتُ بريقِ!

(٢٣٠) حكى حمزة بن أبى سلامة، قال : كان الثروانىّ جارى بالكوفة وكان كثير الإلمام بالدَّيْرَة، فباكرنى فى يوم شعانين وقال لى : آعزم بنا اليوم على الشرب فى دير الحريق، لأنه يوم سيقصده فيه خلقٌ. ولى به صديق من رهبانه ظريف، مليح القلاية، جيّد الشراب. فهلُمَّ! نتنزهْ أعيننا فيما نراه من الجوارى والغلمان، ثم نعدل إلى قلّاية صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض. فخرجنا فرأينا من النساء والوصائف والولدان فى الحُلَى والحُلَل مالم أر مثله قط. فلم يزل يعبث ويتعرّض، ويقبّل ويعانق — وكان معروفا بذلك — فما أحد ينكر عليه فعله، إلى بعد الظهر. ثم أتينا قلاية صديقه الراهب، فلقيه بالإكرام والترحيب. فدخلنا قلايته. فما رأينا أنظف من آلاتها، ولا أنضر من بستانها. ثم قدّم لنا شيئا من طعامه، فأصبنا منه. ثم صعدنا سطحها، وجلسنا ننظر إلى منظر يبهر حسـنا وجمالا : من رياض وغُدْران وطير يصفّر. ونحن نشرب حتّى ثملنا ونمنا هناك. وغدَوْنا على الكوفة. فقلت له : تترك

(١) أُنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٥٤).

(٢) فى الأصل بالمعجمة فى هـذا وفى الآتى بعده. والتصحيح من ياقوت فقد ذكره فى باب السين المهملة، وكذلك المجد (فى القاموس).

هذا اليوم مع حسنه، عاطلا من حُلِيّ شعرك؟ فقال: لا والله! ولقد عملتُ في ليلتي هذه، هذه الأبيات. ثم أنشدني:

خرجنا في شعانين النّصارى * وشيّعنا صليب الجاثليق.
فلم أر منظرا أحلى بعيني * من المتقيّنات على الطريق.
حملن[1] الخوص والزيتون حتّى * بلغن به إلى دير الحريق.
أكلناهنّ باللحظات عشقا * وأضمرنا لهنّ على الفسوق.

دير ابن مزعوق

دير ابن مزعوق[2] — وهو بالحيرة، قريب دير الحريق. في أنزه البقاع، زهرا ورقيق هواء وتدفّق ماء. وتشوّق إليه الثّرواني من بغداد، فقال:

دير الحريق وبيعة[3] المزعوق * بين الغدير وقبّة الشّقيق.
٣٣١
أشهى إليّ من الصّراة وطيبها * عند الصّباح ومن دجى البطريق.
يا صاح! فاجتنب الملام أما ترى * سمجا ملامك لي، وأنت صديقي؟

وقد ذكره أبو الفرج، وأنشد للثّرواني فيه وفي دير فاثيون قوله:

قلتُ له والنّجوم جانحة * في ليلة الفصح أوّل السّحر:
هل لك في مار فاثيون وفي * دير ابن مزعوق غير مقتصر؟
يفيض هذا النّسيم من طرف الـ * ـشام ودرّ النّدى[4] على الشّجر.
ونسأل الأرض عن بشاشتها * وعهدها بالرّبيع والمطر.

(١) في الأصل: حملنا.

(٢) سماه ياقوت "دير المزعوق" وانظر كلامه عليه في (ج ٢ ص ٧٠١).

(٣) في الأصل: ربيعة.

(٤) في ياقوت يقتص منه .... وربح الندى عن المدر.

دير فاثيون

قال: ودير فاثيون[1] أسفل النّجف. ودير ابن مزعوق[2] بحذاء قصر عبد المسيح، بأعلى النجف. وفيه يقول الثّرواني:

تقرّ بفضل عينك لي بوصل، * وفعلك لي مقرّ بالجحود؟
تشكّكني، وأعلم أنّ هذا * هوى بين التعطّف والصّدود!

وقال أيضا:

كرّ الشراب على نشوان مصطبح * قد هبّ يشربها والديك لم يصح.
والليل في عسكر جمّ بوارقه * من النّجوم وضوء الصبح لم يلح.
والعيش لا عيش الا أن تباكرها * صهباء تقتل همّ النفس بالفرح.
حتّى يظلّ الذي قد بات يشربها * ولا براح به يختال كالمرح.

دير مارت مريم

دير مارت مريم[3] — هو بالحيرة، من بناء المنذر. وهما ديران متقابلان. وبينهما مدرجة الحاجّ وطريق السابلة إلى القادسية. وهما مشرفان على النّجف. ومن أراد الخورنق عدل عن جادّتهما، ذات اليسار. ومن شعر الثّرواني فيهما:

٣٣٢
دع الأيّام تفعل ما أرادت، * إذا جادت بندمان وكاس!
ومارت مريم والصحن فيه * حديقتان من ورد وآس.
وظبي في لواحظ مقلتيه * نعاس من فتور لا نعاس.
وخلّ لا يحول عن التّصابي * ذكور للمودّة غير ناسي.

(١) سماه ياقوت والبكري "دير فثيون". وانظر كلام الأول عليه (ج ٢ ص ٦٨٣)، والثاني (ص ٣٨٠).

(٢) في الأصل: بني.

(٣) انظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٩٢)؛ والبكري (ص ٣٧١).

ومُحْتضِنٍ لطُنبورٍ فصيحٍ * يغنّينى بشعرِ أبى نُوَاسِ.
وما اللذّاتُ إلا أنْ تراني * صريعًا بينَ باطيةٍ وكاسِ!

وقد ذكره أبو الفرج وقال: كان قسٌّ يقال له يحيىٰ بن حِمار، ويقال له يوشع، تألفه الفتيان ويشربون علىٰ سطحه وفى قلايته، علىٰ قراءة النصارىٰ وضرب النواقيس.

وفيه قال بكر بن خارجة، أو غيره:

بِتْنا بمارَتِ مَرْيَمِ! * سَقْيًا لمارَتِ مريمِ!
ولقَسِّها يحيىٰ المُهَيْمِنِ بعد نوم النُّوَّمِ!
وليُوشَعٍ والخَمْرِه * حمراءَ مثلَ العَنْدَمِ!
ولفتيةٍ حَفُّوا به * يَعْصُون لَوْمَ اللُّوَّمِ!
يَسْقيهمُ ظَبْىٌ أغنُّ لَطيفُ غَلْقِ المِعْصَمِ!
يرمى بعينيهِ القُلُو * ب كمِثْلِ رَمْىِ الأسْهُمِ!

قلاية القس

قَلّايةُ القَسّ – وهى بالحِيرَة، فى موضع حسن. وكان القَسّ الذى تنسب إليه من مِلَاح النصارىٰ. وكان ناسكا، ثم صار فاتكا. وفيه قيل:

قَلّايةَ القَسِّ! مالى عنكِ مُصْطَبَرُ! * ومَن إلى مَن لحاهُ فيكِ يعتذرُ!
فكم لديكِ نسيمٌ ذيلُه عَبِقٌ * وكم لديك هواءٌ جَيْبُه عَطِرُ!
وتربةٌ وغناءٌ: ذى يَزُولُ بها * سُقْمُ السقيمِ، وذا يُجْلَى به البَصَرُ!
وماءُ مُزْنٍ بكفِّ الريحِ تصقُلُه * وكالمَرايا تلى الأوشالُ والغُدُرُ.

وقد ذكره أبو الفرج وقال:

خليلىَّ من تَيْمٍ وعِجْلٍ، هُدِيتُما! * أَضِيفا بحثَّ الكأسِ يومى إلىٰ أمسى!



٣٣٣

وإن أنتما حَيَّيتمانى تحيّةً، * فلا تعدُوا رَيْحانَ قلّاية القَسِّ!
إذا ما به حَيَّيتُمانى، فأخلُوا * حَمِيدَيْن دُونِى بالخَلُوق وبالوَرْسِ!
وإن قلتما: لابدَّ من شُرْبِ دائرٍ، * ولم تَعْذِرانى فى مِطالٍ ولاحبسِ،
فمن قهوةٍ حِيرِيَّةٍ راهبيّةٍ * عتيقةِ خَمْسٍ أو تزيدُ علىٰ خمسِ،
تجُرُّ علىٰ قَرْعِ المِزاج إزارَها * وتختالُ منه فى مُصَبَّغة العُرْسِ!

دير حنة الكبير

دير حَنّةَ الكبير[1] – قال الخالدىّ: هو بالحِيرَة فى الأُكَيْراح، غيرَ[2] دير حنّة الذى قدّمنا ذكره. يقال إنه بُنى حين بُنيت الحيرة: وكان من أنزه الديرة، لكثرة بساتينه وتدفق مياهه.

حكى جحظة عن بعض أهل الحيرة، قال: اجتاز بنا عمر بن فرج الرُّخَّجى[3]، منصرفا من الحجّ. فتلقيناه وأعظمناه، وسرنا معه. فلما اجتاز بدير حنة، سألنا عنه فعرّفناه به. فقال: مَن ذا الذى يقول:

يا دير حنة من ذات الأُكَيْراحِ!

فقال له الحسين بن هشام الحيرىّ: هذا لأبى نُوَاس. أفتحبُّ أن أُنشدك لشاعرنا الثَّرْوانىّ شيئا يقرب من هذا المعنىٰ، فى هذا الدير؟ قال: قل. فأنشده:

(١) أُنظر ياقوت (ج ١ ص ٣٤٥، ج ٢ ص ٦٤٠ و٦٥٦ و٦٨١). وقال ياقوت انه لايدرى ان كان الدير الذى بالأكيراح هو نفس الذى بالحيرة. ونص البكرىّ على أنهما اثنان (وانظر تفاصيله فى ص ٣٧٣).

(٢) فى الأصل: ذى

(٣) كان هو وأبوه من أعيان الكتاب فى أيام المأمون إلى أيام المتوكل، مثل الوزراء وذوى الدواوين الجليلة (أُنظر الأغانى ج ٩ ص ١١٤، ج ١٩ ص ١٤١. وانظر معجم البلدان ج ٢ ص ٧٧٠)

علىٰ الرَّيْحان والرَّاحِ * وأيَّامِ الأُكَيْراحِ
وإبريقٍ كطَيْرِ المـا * ء فى لَجَّةِ ضَحْضاحِ،
سلامٌ يُسْكِرُ الصاحِى * وما فيه فتًى صاحِ!
ومَنْ لى فيـه بالسَّلْوَ * ة عن وَجْه آبن وَضَّاحِ؟
غزالٌ صِيغَ من فِتْنَـ * ـةِ أبدانٍ وأرواحِ!
إذا راحَ إلىٰ البيعَـ * ـةِ فى أثواب أَمْساحِ،
ففى كَفَّيه إفسادى * وفى كَفَّيْه إصلاحى!

(٢٣٤) قال : فاستحسن الأبيات وأمر كاتبا معه بكتْبِها. وخلع علىٰ الحسين بن هشام، وأجازه .

وحكىٰ جحظة قال : زرتُ إبراهيم بن المدبر، وكان بالكوفة . فأكرمنى وأنس بى. وأقمت عنده ثلاثة أشهر. فجرىٰ يوما ذكر دير حنّة، فقال آبن المدبر: والله إنى لأُحِبُّ أن أراه وأشرب فيه، فقد ذُكر لى حُسنُه ! فأين هو من الحيرة ؟ فدلَّه إسحاق بن الحسين العلوىّ عليه وقال له : فى هذه الأيام ينبغى أن يُقصد. لأنها أيام ربيع ورياض معتمَّة بالزهر، والغدران. والبادية بقربه، فلن نعدم أعرابيا فصيحا يطير إلينا، ونحن فيه، فيُهدى إلينا بيض نعامٍ، ويجنى لنا الكمأة. فتقدّم آبن المدبر إلىٰ غلمانه بإعداد مايُحتاج إليه . وخرج وخرجتُ حتّٰى وافيناه . فاذا هو حسن البناء، والرياضُ محدقة به، ونهر الحيرة الذى يقال له الغدير بقربٍ منه. فضُربت لنا خِيمٌ عنده. وخرج إلينا رهبانه، وحملوا إلينا مما عندهم من التُّحَف واللَّطَف . فأكلنا وجلسنا نشرب. وغنيته بشعر ابى نُوَاس المتقدم. فبينا نحن كذلك، إذ آجتازبنا غلامٌ حَسَنٌ، عارضه كأنه بدر علىٰ

غصن، معه مصحف من مصاحف النصارىٰ، كامل العقل، ساحر اللحظ واللفظ . فشرب آبن المدبر علىٰ وجهه رطلا، وسقاه قَدَحا. وآستأذنه الغلام فى النهوض، وقال : معى مصحف لا تتمّ للرهبان صلاةٌ إلا بحضوره . وهذا وقت صلاتهم، وقد ضربوا الناقوس منذ ساعة. وأخذ عليه العهد فى الرجوع إليه وأمر له بمائة دينار. وعملتُ شعرا صنعت فيه صوتا. فما زال صوتَه طولَ مُقامه. وهو :

فَدَيْتُ مَن مَرّ بنا مُسْرِعاً * يَسْعىٰ إلىٰ الدير بأسفارِهِ!
خَدَمتُ ربَّ الدير من أجله * حتّٰى كأنّى بعض أحْبارِهِ.
حذّرنى النـارَ ولم يَدْرِ ما * فى القلب والأحشاءِ من نارِهِ.
حيّرنى تَفْتِيـرُ أجفـانه * وحلَّ عَقْدِى عَقْدُ زُنّارِه. (٢٣٥)

وأقمنا بمكاننا ثلاثة أيام، ثم عدنا إلىٰ الكوفة وقد عملتُ فى تلك الأيام وغنّيت فيه :

و بالحِيرَة لِى يَوْمٌ، * ويومٌ بالأُكَيْراحِ!
إذا عزّ بنا الماءُ * مَزَجْنا الراح بالراحِ!

وحكىٰ الربيع عن بعض أهل الحِيرة قال : كان فى دير حنّة خمار يقال له مرعبدا، موصوف بجَوْدة الخمر ونظافة الآنية وملاحة الحانة . فحكىٰ مر عبدا قال : ماشعَرتُ يوما وقد فتحتُ حانوتى وجلست إلىٰ جانب الهيكل، إلا بثلاثة فوارس قد أقبلوا من طريق السَّماوة فى البرّ، حتّٰى وقفوا علىّ، وهم متلثمون بعمائم الخزّ وعليهم حُلل القصب . فسلّموا علىّ وأسفر أحدهم وقال : أنت مرعبدا، وهذا دير حنّة؟ قلت : نعم . قال : قد وُصفتَ لنا بجَوْدة الشراب والنظافة، فآسقنى رِطْلا . فبادرتُ فغسلت يدى ثم نقرت الدِّنان ونظرتُ أصفاها فبزلتـه . فشرب، ومسح يده وفمه

بالمنديل . ثم قال : آسقنى آخر : فغسلتُ يدى وتركت ذلك الدَّنّ وذلك القدح والمنديل ونقرت دَنًّا آخر . فلما رضيت صفاءه ، بزلتُ منه رطلا فى قدح ، وأخذت منديلا جديدا . فناولته إياه فشرب كالأول . ثم قال : آسقنى رطلا آخر . فسقيته فى غير ذلك القدح وغير ذلك المنديل . فشرب ومسح فمه ويده . وقال لى : بارك الله فيك ! فما أطيبَ شرابَك وأنظفَك وأحسنَ أدبَك ! وما كان دأبى أن أشرب أكثر من ثلاثة أرطال . فلما رأيت نظافتك دعتنى نفسى إلى شرب رابع ، فهاته ! فناولته إياه على تلك السبيل . فشرب وقال : لولا أسبابٌ تمنع من بيتك لكان حبيبا إلىّ جلوسى يومى هذا فيه . وولّى منصرفا فى الطريق الذى بدا منه . ورمى إلىّ أحدُ الراكبَين اللذين كانا معه بكيس . فقلت وحق النصرانية ! لاقبلته حتّى أعرف الرجل . فقال : هذا الوليد بن يزيد بن عبد الملك ! وُصفتَ له ، فاقبل من دمشق حتّى شرب من شرابك ورأى ديرك والحيرة . ثم آنصرف . فحللتُ الكيس فاذا هو أربعمائة دينار . (٢٣٦)

ديرهند

دير هند[1] – (وهى بنت النعمان بن المنذر) بناه لها أبوها لتتعبّد فيه . فلما فرغ

(١) أُنظر البكرىّ (ص ٣٦٢) ؛ وياقوت (ج ٢ ص ٧٠٧) ؛ "والبلدان" للهمدانىّ (ص ١٨٣) ؛ وآبن العبرىّ (ص ١٧٢) ؛ "ونفح الطيب" (ج ١ ص ٣٢٩) . وهناك ديارات أخرى بآسم هند بعضها يسمى بهند الكبرى وبعضها بهند بنت النعمان وبعضها بهند الأقدم وبعضها ببنى هند . وآنظر التفاصيل عليها فى الأغانى (ج ٢ ص ٣٣ و ٣٤ ، ج ٨ ص ٦٤) ؛ والطبرىّ (سلسلة I ص ٢٤٩٤ ، سلسلة II ص ٦١٩ و ٦٢٠ و ١٨٨٢ و ١٩٠٣) ؛ وآبن الأثير (ج ٤ ص ١٨١ ، ج ٥ ص ٢٤٧) ؛ "والكامل" للمبرّد (ص ٢٦٦) ؛ وآبن الأثير (ج ١ ص ٣١٥) . وهناك دير آخر بآسم هند فى دمشق (ياقوت ج ٢ ص ٧١٠) . وقد تختلط هذه الاسماء ببعضها ، ولكن البيانات والمواطن التى أوردتها هنا تسمح بتمام التميز لمن يريد البحث عنها وآستقصاءها .

منه ، خرجَتْ من قصر أبيها تُريدُه . فأقامت فى الطريق سنة تنزل المضاربَ فى نُزَهٍ وصَيْدٍ . والمسافة بين قصر أبيها و بينه نحو الفرسخ . وشقّ له بشر بن مَرْوان نهرا من الفُرات . ولم يزل النهر يجرى حتّى خرب الدير .

وحكى أن النعمان كان يصلى به و يتقرب فيه ، وأنه علّق فى هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضة . وكانت أدهانها فى أعياده من زنبق وبانٍ وما شاكلهما من الأدهان ، و يوقد فيه من العود الهندىّ والعنبر شيئا يجلّ عن الوصف .

وفيما حكى[1] الكلبىّ أن النعمان دخله فى بعض أعياده ، فرأى آمرأة تأخذ قربانا ، أخذت بقلبه . فدعا الراهب الذى قرّبها وسأله عنها . فقال : هى آمرأة حكَم بن عمرو اللخمىّ . فلما آنصرف النعمان دعا عدِىّ بن زيد ، كاتبه . وأوقفه على الخبر وقال له : كيف الحيلة ؟ فقال له : إذا كان بكرةُ غدٍ وحضر الناس البابَ ، فابدأ به فى الإذن وأجلسه معك على سريرك . ففعل النعمان ذلك وأذن للناس بعده . فجعلوا يتعجبون وآنصرفوا . فقال النعمان لعدىّ بن زيد : قد فعلتُ ماأشرتَ به ، فَمَهْ ؟ قال : إذا أصبحتَ فاكسُه وآحمِلْهُ . ففعل . ثم قال : إجعل حوائج العرب إليه . ففعل . ثم قال النعمان لعدىّ بن زيد : قد طال هذا ! قال : إذا أصبحتَ ، فإن عندك عشر كسوة ، فطالق أبغضهن إليك . ثم قل له : قد طابت نفسى لك بما لم تَطِب به لولد ولا أخ . قد طلّقت لك فلانة ، فتزوّجها . ففعل ذلك . وخرج وهو لابسٌ من حُلَل النعمان ، ولديه ماحمله عليه . فجلس وحكم بين العرب ، وعدىّ بن زيد بالباب جالس .

(١) هذه الحكاية رواها أيضا فى كتاب المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ (ص ٣٠٩ طبع ليدن) . وهناك تغيير فى بعض الألفاظ .

فقال له اللخمى : ما أدرى ما أكافئ به الملك؟ فعل معى وفعل . فقال له عدى : (٢٣٧) ما أقدرك على مكافأته ! قال : وما هو؟ قال : طلق آمرأتك كما طلق لك آمرأته . قال : قد فعلتُ . فأنفذها إلى النعمان . وفى ذلك يقول الشاعر :

عُلِّقْتُها حُرَّةً حَوْراءَ ناعمـــةً * كأنها البدرُ فى داجٍ من الظُّلَمِ .

مافى البريَّة من أنثى تُعادِلها * إلا التى أخذ النُّعمانُ من حَكَمِ !

وقد ذكره أبو الفرج وقال : هند بنت النعمان صاحبة هـذا الدير، هى الحُرَقَة . وهى التى دخلت على خالد بن الوليد . وآخر أمرها معه أنه أمر لهـا بمـال ومعونة وكسوة . فقالت : مالى إليه حاجةٌ . لى عبدان يزرعان مزرعة لى، أتقوَّت بها ما يُمسِك رمق . وقد آعتددت بقولك فعلا و بعرضك نقدا . فآسمع منّى دعاءً أدعو به لك، كنا ندعو به لأملاكنا : شكرتْكَ يدٌ آفتقرت بعد غنًى، ولا ملكتْك يد آستغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه !

قال : وهذا الدير يقارب دير بنى عبد الله بن دارم بالكوفة، مما يلى الخندق .

وحكى الشابشتى أن الحجاج قدم الكوفة فبلغه أن بين الحيرة والكوفة دير هند بنت النعمان، وهى متمكنة من عقلها ورأيها، فانْظر إليها فإنها بقيـةٌ . فركب، والناسُ معه، حتّى أتى الدير، فقيل لهـا : هذا الأمير الحجاج بالباب : فآطّلعت من ناحية الدير . فقال لهـا : ياهنـدُ ! ما أعجبَ ما رأيتِ ؟ قالت : خروج مثلى إلى مثلك . لاتغترَّنَّ ياحجاج بالدنيا، فإنا أصبحنا ونحن كما قال النابغة لأبى :

رأيتُـــك من تَعْقِدْ له حبل ذمة * من الناس، يأْمَنْ سرجه حيثما آرتقى !

ولم نُمسِ إلا ونحن أذلّ الناس . وقلّ إناء امتـلأ إلا آنكفأ . فآنصرف الحجاج

مُغْضَبا . وأرسل إليها مَن يخرجها من الدير، ويستأديها الخراجَ . فأُخرجت، ومعها ثلاث جوارٍ من أهلها . فقالت إحداهنّ :

(٢٣٨) خارجاتٌ يُسَقْنَ من دير هندٍ * مُعلناتٌ بذِلّةٍ وهَوانِ !

لَيْتَ شِعْرى ! أأوّلُ الحَشْر هذا * أم محا الدَّهرُ غَيْرةَ الفِتْيانِ ؟

فشدّ فتًى من أهل الكوفة على فرسه . فاستنقذهنّ من رُسُل الحجاج . وتغيّب . فبلغ الحجاجَ شعرُها وفعلُ الفتى . فقـال : إن أتانا، فهو آمِنٌ ؛ و إن ظفرنا به، قتلناه ! فأتاه . فقال له : ما حملك على ماصنعت ؟ فقال : الغيرة . فوصله وخلّاه .

وكان سعد بن أبى وقّاص حين فتح العراق، أتى هندا، إلى ديرها . فخرجت إليه وعرض عليها نفســه فى حوائجها . فقالت : سأحييك بتحيـة كانت ملوكنا تُحيَّا بها « شكرتك يدٌ آفتقرت بعد غنًى، ولا مسّتك يدٌ آستغنت بعد فقر، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجةً، ولا نزع عن كريم نعـمةً إلا جعلك سببا لردّها عليه ! » قال : ثم جاءها المغيرة، لمـا ولّاه معاوية الكوفة . فاستأذن عليها . فقيل لها : الأمير على الباب ! فقالت : قولوا له : من أولاد جبلة بن الأيهم أنت؟ فقال : لا . قالت : أفمن أولاد المنذر بن ماء السماء ؟ قال : لا . قالت : فمن أنت ؟ فقال : المغيرة بن شُعبة الثقفى . قالت : فمـا حاجتك؟ قال : جئتُكِ خاطبا . قالت : والصليبِ ! ماجئتنى رغبةً فى مال، ولا شغفا بجمال . ولكن أردت أن تقول : نكحتُ آبنة النعمان . وإلاّ فأى فخر فى آجتماع شيخ أعور وعجوز عمياء؟ اِذهب ! فبعث إليها فقال : كيف كان أمركم؟ قالت : سأختصر لك الجواب . أمسينا وليس فى العرب أحدٌ إلاّ وهو يرغب إلينـا و يرهبنا، ثم أصبحنا وليس فى الأرض أحد إلا ونحن نرغب إليه ونرهبـه . قال :

فما كان أبوك يقول فى ثقيف؟ قالت : آختصم إليه رجلان، أحدهما ينميها إلىٰ إياد والآخر ينميها إلىٰ بكر بن هوازن . فقضى بها للإيادىّ، وقال :

إنّ ثَقِيفًا لم تكُنْ هَوَازِنا * ولم تُنَاسِبْ عامرا ومازِنا !

(٢٣٩) قال المغيرة : أمّا نحن فمن بكر بن هوازن، فليقل أبوك ماشاء!

دير اللج

دير اللُّجّ(١) – وهو بالحيرة . مما بناه النعمان بن المنذر . وهو من أنزه دياراتها وأحسنها بناءً : لما يُطيف به من البساتين . وكان النعمان يأتيه يتعبّد فيه، ويستشفى به فى مرضه . وفيه قيل :

ياليلتِي أطْيِبْ بها ليـلةً، * لولم يَكُنْ قصّرها الطِّيبُ !
بِتنـا بدير اللُّجِّ فى حانةٍ * شَرابُها فى الكاس مكْبوبُ .
يُدِيرها ظَبْىٌ هَضِيمُ الحَشَـا * يحبّـه الشُّبّان والشِّيبُ .
حتّىٰ إذا ما الخمر مالَتْ بِنَا * جرَتْ أمـورٌ وأعاجِيبُ .
فمـا ترىٰ ظنّك فى شادنٍ * باتَ إلىٰ جانبـه ذِيبُ .

وقد ذكره أبو الفرج، فقال : كان النعمان يركب فى كل أحد إليه، وفى كل عيد . معه أهل بيته خاصة من آل المنذر ومَن ينادمه من أهل دينه . عليهم حلل الديباج المذهبة، وعلىٰ رؤوسهم أكاليل الذهب، وفى أوساطهم الزنانير المحلاة بالذهب المفصصة بالجوهر . وبين أيديهـم أعلامٌ فوقها صُلبانُ الذهب . فإذا قَضَوْا صلاتَهم، آنصرف إلىٰ مُسْتَشْرفه علىٰ النُّجُب . فيشرب فيه بقيـة يومه إلىٰ أن يُمْسى، وخلع ووصـل وحمل . وكان ذلك أحسن منظر وأشرفه . وأنشد فيه قول الشاعر :

(١) أُنظر أيضا ياقوت (ج ٢ ص ٦٩١) ، والبكرىّ (ص ٣٦٦) .

سقىٰ اللهُ دير اللجّ خيرا فإنّهُ * علىٰ بُعْده مِنّى إلىّ حَبيبُ !
قريبٌ إلىٰ قلبِى بعيدٌ مكانُه، * وكم من بَعِيدِ الدارِ وهو قريبُ !

دير بنى علقمة

دير بنى علقمة(١) – وهو دير بناه علقمة بن عِدىّ اللخمىّ، بالحيرة . وفيه يقول عَدِىُّ بن زيد، وفيه غِناء :

نادمْتُ فى الدير بَنِى عَلْقَما * عاطَيْتُهُم مشمولةً عَنْدَمَا !
كأنَّ رِيحَ المِسْك فى كأسِها * إذا مَزَجْنـاها بمـاءِ السَّما !

(٢٤٠)
دير هند الأقدم

دير هند الأقدم(٢) – وهى هنـدُ الكبرىٰ بنت الحرث بن عمرو بن حجر، الملك، أم عمرو بن المنذر، الملك .

وحكىٰ محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعىّ عن أبيه قال : دخلت مع يحيىٰ آبن خالد، لما خرجنا مع الرشيد، إلى الحيرة . وقد قصدها ليتنزه بها ويرىٰ آثار آل المنـذر . فدخل دير هنـد الأكبر . وهو علىٰ طَرَف النَّجَف : فرأىٰ فى جانب حائطه شيئا مكتوبا . فدعا بسُلَّم فأُحضِر . وأمر بعض أصحابه بأن يصعد إليه ، فيقرأه . فاذا فيه مكتوبٌ :

إنّ بَنِى المُنْـذِر عامَ آنْقَضَوْا * بحيثُ شاد البِيعَةَ الراهبُ ،
تَنْفَح بالمِسْك ذَفارِيُّهـم * وعَنْبَرٌ يَقْطِبـه القاطبُ .
والقَزّ والكَتّان أثوابُهـم * لم يَجْلِب الصوفَ لهم جالبُ .

(١) سماه ياقوت والبكرىّ "دير علقمة" وآنظر كلام الأول عليه (ج ٢ ص ٦٨١) ، والثانى (ص ٣٦١) .

(٢) أُنظر البكرىّ (ص ٣٦٤) . وسماه ياقوت "دير هند الكبرىٰ" (ج ٢ ص ٧٠٩) .

والعزّ والمُلك لهم راهنٌ * وقهوةٌ ناجودُها ساكبُ.
أضحَوا وما يرجوهمُ طالبٌ * خيرا ولا يرهبُهم راهبُ.
كأنّهم كانوا بها لُعبةً * سار إلى بَيْنٍ بها راكبُ.
وأصبحُوا فى طبقات الثرى * بعد نعيمٍ لهمُ راتبُ.
شرُّ البقايا من ترى منهمُ: * قلٌّ وذلٌّ جدُّه خائبُ!

فبكى الرشيد، حتى جرت دموعه على لحيته. وقال: هذه سبيل الدنيا وأهلها! وانصرف عن وجهه ذلك.

قبة السنيق

قبة السُّنَيق(1) — وهى من الأبنية القديمة بالحيرة، على طريق الحاجّ. وبإزائها قباب يقال لها السُّكُورة، جميعها للنصارى. وعيد الشعانين بها نزِهٌ. يخرج فيه النصارى من السكورة إلى القبة فى أحسن زىّ، عليهم الصلبان وبأيديهم المجامر. والقسوس والشمامسة على نغم واحد، متفق فى الألحان، إلى أن يقضوا بغيتهم(2). ثم يعودون على هيئتهم.

دير إسحاق ٢٤١

دير إسحاق(3) — وهو بين حمص وسَلَمية، فى موضع حسن نزه، على نهرٍ جارٍ. وحوله كرومٌ ومزارعُ، إلى جانب ضيعة صغيرة، يقال لها جَدْر. وهى التى ذكرها الأخطل فى قوله:

* عتّقها حِمْصُ أو جَدْرُ *

(1) أورده فى الأصل بالشين المعجمة. (وانظر تصحيحنا عن ياقوت فى صفحة ٣١٥ المتقدمة أثناء الكلام على (دير الحريق).
(2) فى الأصل: نعتهم.
(3) أُنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٤٣).

وفيه قال أبو عبد الرحمن الهاشمىّ السَّلَمانىّ، من أهل سلمية:

وافِقْ أخاك تجده خيرَ رفيقٍ، * إن كنتَ لستَ عن الصِّبا بمُفيقِ!
وإذا مررتَ بدير إسحاقٍ فقل: * جادتك غيرُ سحائبٍ وبُروقِ!
ديرٌ يُشبِّهُ ماؤه بهوائه * وهواؤه بلطافةِ المعشوقِ.

وكتب أبو عبد الرحمن إلى أخيه من دير إسحاق:

أما طربتَ لهذا العارضِ الطرِبِ؟ * أما رأيتَ الصِّبا والجوَّ فى لعِبِ؟
تعانقا فكأنّ القَطْرَ بينهما * من فضةٍ، وكأنّ الزهرَ من ذهبِ.
ونحن فى دير إسحاقٍ ومجلسُنا * يشكو مغيبَك، فاحضُره ولا تغبِ.
لنجعلَ اليومَ عيدًا فى ملاحته * ونقلبَ الهمَّ بالأدوار فى القُلُبِ.

وقال فيه:

سلامٌ على ليلةٍ بالدُّوَيْرِ * تقضّتْ كزائرةٍ فى الحُلُمْ!
أتتنى فى طيلسانِ الضياءِ * ولم تتقنّعْ بنور الظُّلَمْ.
يعارضُ فيها ابتسامَ البروق * بُروقُ دِنانٍ بها تبتسِمْ.
وصفراءَ لم تُبْقِ إلا النحيـ * ـفَ منها الليالى وطولُ القِدَمْ.
تمزّزتُها فى ثياب الدجى * إلى أن تجلّى الدجى للهرمْ.
نزلنا بها وسْطَ مكسوّةٍ * مطارفَ من نسج أيدى الدِّيَمْ.
سقانى ابنُ قسّيسها كأسَها * على زورةٍ من حبيبٍ ألَمّْ.

(٢٤٢) وقال فيه :

أنظما رياضُ الدير من صَوْب ماطرٍ * ولم أقرِ ضيفَ الليل أجفانَ ساهرِ؟
وقلتُ: سقى الصحراءَ بين عواقصٍ * ذوائبها فى سَفْحه ونواشرِ!
رحيمٌ بأطفال العروس يضمُّها * إذا ما آنثنت ضمَّ الشفيق المحاذرِ.
فكم قلتُ للساقى، وقد فتح الندى * نواظرَها: قُمْ هاتها لا تُناظرِ!
يحنّ إلى الدير آشتياقى كأنما * يُرينى الصَّبا فيه بموقع ناظرى.

دير ميماس

دير ميماس (١) — وهو بين دمشق وحمص على نهر ميماس. وإليه نُسب. وهو فى رياض وبساتين، وعليه طواحين روميّة. ويزعم رهبانه أن به شاهدا من الحواريين.

وحكى العسقلانىّ أنه كان لديك الجن غلام يهواه، وكان شديد الوجد به. فخدعه قومٌ ومضَوْا به إلى دير ميماس، وسقوه نبيذا. فبلغ ذلك الديك، فقلق. وقال :

قُلْ لهضيم الكشح ميّاس: * إرتفَعَ العهدُ من الناسِ!
يا طاقةَ الآس التى لم تمِدْ * إلا أذلّتْ قُضُبَ الآسِ!
وثقتَ بالكاس وشُرّابها، * وحتفُ أمثالك فى الكاسِ!
فى دير ميماسٍ، ويا بُعْدَ ما * بين مُغيثيك وميماسِ!
لا بأسَ مولاىَ على أنها * نهايةُ المكروه والباسِ!
فالله ودعْ عنك أحاديثهم * سيُصبح الذاكرُ كالناسى!

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٧٠٢).

وحُكى ان أبا نُواس، لما دخل حمص مارًّا بها، دعاه فتى من أدبائها إلى دير ميماس. ودعا معه أشجعَ السُلمىّ. فجلسوا يشربون، وأبو نُواس يُنشدهم له ولغيره. فقال أشجعُ :

صَبَحتُ وجهَ الصَّباح بالكاس * ولم تَعُقنى مقالةُ الناسِ.
ونحن عند المُدام أربعةٌ * أكرمُ صَحْبٍ وخيرُ جُلّاسِ. (٢٤٣)
تُدير حِمْصيّةً مُعتّقةً * على نسيم النِّسرين والآسِ.
ولم يزل مُطرِبًا ومنشدنا (١) * أبو نُواسٍ فى دير ميماسِ.

دير محلّى

دير مُحلّى (٢) — وهو بساحل جيحان، قريب المَصِّيصة.

وحكى أبو نصر النحوىّ أن أبا خالد، الكاتب، آجتاز بهذا الدير، ومعه آبن أبى زرعة الدمشقىّ الشاعر. قال: فرأينا من حُسن رياضه، وتدفّق مائه، وطيب هوائه، ونَضْرة أشجاره، منظرا حسنا. فقال آبن أبى زرعة: لقد حُظِر علينا أن نتجاوز هذا الموضع ولا نشرب فيه حتّى نموت سكرا. فقلت له: ويحك! أنا مبادر فى مُهِمّ. فقال: ما قدامك أهمّ من هذا. وثنى رجله، ونزل عن دابته. فنزلنا. ثم أتانا الرهبان بتحايا الورد والياسمين والتُفّاح، وأخرجوا إلينا شرابا عتيقا، فى نهاية الصفاء والرقة، فآبتعناه منهم. وأقمنا يومنا هناك فى أنعم عيش وأحسنه. فلما أصبحنا، غَدَوْنا. فأنشدنى أبو زرعة لنفسه :

دير مُحلّى مَحِلّةُ الطربِ * وصحنه صحن روضةِ الأدبِ.
والماءُ والخمرُ فيه قد سُبِكا * للصفو من فضّةٍ ومن ذهبِ.

(١) فى الأصل : ولم نزد مطربا ومنشدنا.

(٢) سماه ياقوت "دير المحلى" وآنظر كلامه عليه (ج ٢ ص ٦٩٥).

لا ودموعُ الغمام روقذا * وتلك لم تُعتصر من العِنَبِ.
ووردُه فى الغصون تيمّنى * حُسْنًا وتفّاحُه يبرح بى.
فلا تلُمْنى إذا جعلتُ إلى * حاناته ما حييتُ مُنقلَبى.
رضيتُ أن أغتدى بلا نَشَبٍ * ويغتدى وهو قد حوى نَشَبى.

دير مار مروثا

دير مار مروثا[1] — وهو دير صغير، بظاهر حلب، فى سفح جبل جَوْشَن، على نهر العُرجان.

وكان سيف الدولة محسنا إلى أهله. وقلّما مرّ به إلا نزله، ووهب لأهله هبةً كبيرة. وكان يقول: رأيت أبى فى النوم يُوصينى به.

ولة بساتين قليلة ومباقل. وفيه نرجس وبنفسج وزعفران.

(٢٤٤)

ويعرف بالبيعتين، لأن فيه مسكنين: للرجال والنساء.

قال الخالدىّ وإياه عنى الصنوبرىّ بقوله:

ما بالُ أعلى قُوَيق يَنْشُرُ من * وشْى الربيع الجديد ما أدْرَج؟
كأنما آختيرت الفُصوصُ له * بين عَقيقٍ وبين فَيْروزَجْ.
أما ترى البِيعتَيْنِ أُفْرِدَتا * بمُفرد الأُقْحُوان والمُزْوَج؟
أثوابه المُزْنُ كيف ما آتصلَتْ * ونارُه البرق كيف ما أجّجْ.

دير الرصافة

دير الرُّصافة[2] — هو بالشام، قريب رُصافة هشام بن عبد الملك. وموضعه حَسَنٌ.

وفيه قيل:

(١) سماه ياقوت بالتأنيث "مارت مروثا" أى القديسة ماروثا. وآنظر كلامه عليه (ج ٢ ص ٦٩١).
(٢) أُنظر البكرىّ (ص ٣٧٩)؛ وآنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٦١).

نراك جزعتَ يا دير الرُّصافه * غداةَ تحوّلتْ عنك الخلافه!
فلا تجزعْ وتُذرى الدمعَ حُزنًا * فإنّ لكلّ مجتمعَيْن آفه!

وحُكى أن أبا نُوَاس مرّ به، فبات فيه. فلما رحل عنه، قال:

ليس إلا دَيْرَ الرُّصافة ديرٌ * فيه ما تشتهى النفوسُ وتَهْوَى.
بِتُّه ليلةً فقضَّيْتُ أوطا * رًا ويومًا ملأتُ قُطْرَيْه لَهْوًا.

وقد ذكره أبو الفرج وقال: إن آبن حمدون حكى أن المتوكل لما أتى دمشق، ركب يوما إلى رُصافة هشام، يزور دوره وقصوره. ثم خرج فأتى الدير، وهو من بناء الروم، حسن البناء، بين مزارع وأنهار. فبينا هو يدور، إذ بَصُر برقعة قد أُلصقت فى صدره. فأمر بها أن تقلع ويُؤْتَى[1] بها. فقُلعت وإذا فيها:

أيا مَنْزِلًا بالديرِ أصبح خاليًا! * تلاعَبَ فيه شَمْألٌ ودَبُورُ!
كأنك لم تسكُنْك بِيضٌ أوانِسٌ * ولم تَتبختر فى فِنائك حُورُ.
وأبناءُ أملاكٍ عَباشِمُ[2] سادةٌ * أصاغرُهم[3] عند الأنام كبيرُ.
إذا لَبِسوا أدراعهم فضراغمٌ * وإن لَبِسوا تيجانَهم فبُدورُ.

(٢٤٥)

ليالى هشام بالرُّصافة قاطنٌ * وفيك آبنُه يا ديرُ وهو أميرُ
إذِ العَيْشُ غضٌّ والخلافةُ لَدْنَةٌ * وأنت طَرِيرٌ والزمان غَرِيرُ.

(١) فى الأصل: سرك. (بدون نقط). وقد صححت بما يقتضيه المقام، بقدر الإمكان.
(٢) أى منسوبون إلى عَبْد شمس. وفى ياقوت. غياشم وهو تصحيف.
(٣) فى ياقوت صغيرهم. وهو أنسب

وروضُك قِنْبانٌ يذُوبُ نَضارةً * وعيشُ بنى مَرْوان فيك نَضيرُ.
رُوَيْدَكَ إنّ اليومَ يتْبعُــه غَدٌ * وإن صُرُوفَ الدائراتِ تدُورُ!

فلما قرأها المتوكل، ٱرتاع وتطيّر. وقال أعوذ بالله من شرّ أقداره! ثم دعا بالدّيرانيّ وقال: مَنْ كتب هــذا؟ قال: والله لاأدرى. لأنى منذ نزل أمير المؤمنين هنا، لا أملك من أمور هذا الدير شيئا. يدخله الجند والشاكرية. وغاية قدرتى أنى متوارٍ فى قلايتى. فهمّ بضرب عُنُقه وإخراب الدير. فلم يزل به الفتح بن خاقان حتّى كفّ. ثم ظهر أن الذى كتبها رجلٌ من ولد رَوْح بن زِنْباع، صاحب عبد الملك، وأمه مولاةٌ لهشام.

دير حطورا

دير حمطورا — هو فى شرقىّ طرابلس، فى جانب الوادى. الذى أسفل من طرزيه والحَدَث.

وهو بناء فى سَفح الجبل. من ذلك الجانب، قُبالةَ الطريق السالك إلى طرابلس. وهوحصين جدا. لايُسلَك إليه إلا من طريق واحد. وظهر الجبل الذى له ممتنع.

دير البنات

دير البنات(١) — وهو ديرٌ أبيضُ البناء، مشرفٌ على أرض طرابلس. له ذِكْرٌ.

حُكى أنّ الطّيبى أتاه فى يومٍ شُعشعت شموسُه، وأُترعت كؤوسُه. وكان الفصل ربيعا قد استطال فيه النبات، وطَلّ الحسن تلك البنات. وفيهنّ كلّ عذراء تدهش المتحبّر، وتحيّر المتخيّر. وكان قد صحبه غلامٌ ذو عذار أخصب به البلد الماحل،

(١) ذكر المقريزى ديرين للبنات بالقاهرة وهما غير هذا الذى ذكره ابن فضل الله هنا. (أنظر "الخطط" ج ٢ ص ٥٠٩ و ٥١٠).

وقذف موج الخدّ منه العنبر إلى الساحل. وطافت عليه قطائع المدام، وأمن شنائع الملام، وتقلّب بين غلامة وغلام. فقــال:

دَيرَ البناتِ الزُّهرِ أنتَ المُنَى! * وأنتَ منْ دُونِ الأمانِي المَرامْ!
لم أنسَ يوما فيكَ أذهبتُه، * تالله بل ذهَّبتُــه بالمُــدامْ!
ونحن فى غِرّةِ أيّامنا * والعيْشُ مثلُ الطّيفِ حُلْوُالمَنامْ.
والدّوحُ ماجفّتْ له زَهْرةٌ * والروضُ طِفلٌ ماجَفاه الغمامْ.
وبيننا خُودٌ كشمسِ الضُّحى * وأغيدٌ قد فاق بدرَ التّمامْ.
لولا نَباتُ الشَّعْرِ فى خدّه * لم تدرِ أىُّ الأغيَدينِ الغُلامْ.

دير كفتون

دير كَفْتُون — وهو ببلاد طرابلس، مبنىٌّ على جبل. وهو دير كبير. وبناؤه بالحجر والكلس، فى نهاية الجودة. وبه ماءٌ جارٍ. وله حوض كبير مملوء من شجر النارنج. يُحمل نارنجه إلى طرابلس، يباع بها. ويَرتفق بثمنه الرُّهبان. وله مُستَشرَفٌ مطلٌّ على البلاد والمزارع. ومنه مكانٌ يشرف، على بعدٍ، على البحر.

ولهذا الدير صيتٌ جائلٌ وسمعةٌ مذكورةٌ. وبه رهبان كثيرو العدد. والنصارى تقصده، وتحمل إليه النذورة. ويقصده كثير من أهل البطالة واللهو، للتفرج به والتنزه فيه.

وفيه يقول الطّيبى:

أدَيرَ كَفتُونَ تُكنِى كلَّ نائبــةٍ * من الهُمُــوم وتَلْقَى كــلَّ سَرّاءِ!
من كلِّ خضراءَ فى الأشجار مائسةٍ * وكلِّ صَهْباءَ فى الكاسات حمراءِ.
حلَلتُ فى دير كفتونٍ فلا عَجَبٌ * إذ مُتُّ سُكرا بحمراءٍ وخضراءِ!



دير القاروس

دير القاروس (١) — على جانب اللاذقية، من شمالها. وهو فى أرض مستوية. وبناؤه مربع. وهو حسن البقعة.

وفيه يقول أبو علىّ حسن بن علىّ الغزّى :

لم أنس فى القاروس يوماً أبيضا * مثل الجبين يزينه فرعُ الدُّجى!
فى ظل هيكله المشيد وقد بدا * للعين معقود السكينة أبلجا.
واللاذقية دونه فى شاطئ * بلّوره قد زيّن الفيروزجا.
ولدىّ من رُهبانه متنمسٌ * أضحى لفرط جماله متبرّجا.
أحوى أغنّ إذا تردد صوته * فى مسمَع ردّ احتجاج ذوى الحِجى.
لاشئ ألطف من شمائله إذا * حثّ الشمول ولفظُه قد لجلجا.
فله ولليوم الذى قضّيته * معه بكائى لا لربعٍ قد شجا.

دير فيق

دير فيق (٢) — وهو فى ظهر فيق، بينها وبين بحيرة طبرية. فى لحف جبل يتصل بالعقبة. منقور فى الحجر. وهو عامر بمن فيه وبمن يرد عليه. والنصارى تقصده وتعظمه.

قال الشابشتى : ويُزعم أنه أول دير عُمل وأن المسيح (عليه السلام) كان يأوى إلى ذلك الموضع الذى عمل به هذا الدير، ويجلس إلى ذلك الحجر. وكل من دخل من النصارى ذلك الموضع، كسر من ذلك الحجر : تبركا به. وعمل فى هذا الدير موضعٌ على اسم المسيح، (عليه السلام).

(١) أنظر "فتوح البلدان" للبلاذرى (ص ٣٥٧).

(٢) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٨٤).

قال : ولأبى نواس قصيدة، يذكر فيها هذا الدير ويخاطب فيها غلاما نصرانيا كان يهواه. منها :

بعمودية الدين العتيق، * بمرطبليطها، بالجاثليق!
تحجّل قاصداً ماسرجسان * فدير التوبهار فدير فيق!
وبالصُلُب اللُجين وقد تبدّت * وبالزنّار فى الخصر الدقيق!
وبالحُسن المركّب فيك إلا * رحمتَ تحيّرى وجُفوف ريق!
(٢٤٧) أما والقُرب من بعد التنائى، * يمينُ فتىً لقاتله عشيق!
لقد أصبحتَ زينة كل بكر * وعيداً مع جفائك والعقوق!

دير الطور

دير الطور (١) — والطور جبل مستدير، متسع الأسفل، لا يتعلق به شئ من الجبال، وليس له إلا طريق واحد، بين طبرية واللجون. مشرف على الغور والمرج وطبرية. نزه. وفيه عين تنبع بماء غزير. والدير فى القبلة، مبنىّ بالحجر. وحوله كروم كثيرة، يعتصرونها. ويعرف بدير التجلى. لأنهم بزعمهم أن عيسى تجلّى فيه لتلامذته، بعد أن رُفع حتى أراهم نفسه وعرفوه.

وللمهلهل بن يموت بن المزرّع فيه :

مضيتُ إلى الطور فى فتيةٍ * سِراع النهوض إلى ما أحِبّ.
كرام الجدود، حسان الوجوه، * كهول العقول، شباب اللعِب.

(١) ذكره ياقوت باسم دير طور سينا (ج ٢ ص ٦٧٥). وهو بالشام. وهو غير المشهور قديما وحديثا فى شبه جزيرة الطور باسم دير الطور (المعروف الآن باسم دير طور سينا) الذى سيأتى الكلام عليه باسم كنيسة [ودير] الطور فى ص ٣٧٢.

فأىُّ زمانٍ بهم لم يُسَرّ * وأىُّ مكانٍ بهم لم يَطِبْ؟
أنختُ الرِّكابَ على دَيْرِه * وقضَّيْتُ من حقِّه ما يجبْ.
وأنزلتُهم وَسْطَ أعتابِه * وأسقيتُهم من عَصيرِ العنبْ.
وأحضرتُهم قمرًا مُشْرِقًا * تَميلُ الغُصونُ به فى الكُثُبْ.
يَحُثُّ الكؤوسَ بأهْزاجِه * ومَرْسُومِ أرْمالِه بالعَجَبْ.
وما بين ذاك حديثٌ يَرُوق * وخوضٌ لهم فى فُنونِ الأدبْ.
فياطِيبَ ذا العيشِ لو لم يَزُل * ويا حُسنَ ذا السعدِ لو لم يَغِبْ!

وأنشد له الشابشتىّ فى نحو من مثل هذا الأرب، وقد دعا نوّار الربيع إلى شرب ابنة العنب:

قد أبانت لى الرياضُ من الزَّهـ * ـرِ غريبَ الصُّنوفِ والألوانِ.
وبدا النَّـرجِسُ المفتَّحُ يَرْنُو * من جُفُونِ الكافُورِ بالزَّعفرانِ.
وَقَفَ الطَّلُّ فى المحاجرِ منها * ثم ماستْ فانْهلَّ مثلَ الجُمانِ.
ياغلامُ اسقِنى فقدْ ضَحِكَ الوقـ * ـتُ وقد تمّ طيبُ هذا الزمانِ! (٢٤٨)
أدْنِ منّى الدِّنانَ! صُبَّ الأباريـ * ـقَ! استحثَّ الكؤوسَ! صُفَّ القَنانى!
بادِرِ الوقتَ واغتنمْ فُرَصَ العيـ * ـشِ ولا تكذِبنَّ فالعمرُ فانِ!

وكذلك أنشد له قوله:

زمانُ الرِّياضِ زمانٌ أنيقْ * وعَيْشُ الخلاعةِ عيشٌ رقيقْ!
بهارٌ بَهِيرٌ به غَيْرَةٌ * على نَرْجسٍ وشقيقٍ شَقيقْ.

مَداهِنُ يحمِلنَ طَلَّ النَّدى * فهاتيكَ تِبرٌ وهذى عقيقْ!
فبادِرْ بنا حادثاتِ الزمانِ * فوجهُ الحوادثِ وجهٌ صفيقْ!

وقوله فى مثله:

قد قَدِمَتْ للسرورِ أثقالُ * وحثَّ شهرَ الصِّيامِ شوّالُ.
وأقبلَ الليلُ لابسًا حُلَلًا * مِسْكيّةً مالهنّ أذيالُ.
واهتزَّ عودٌ وحَنَّ من طَرَبٍ * شوقٌ وغنّتْ بالراحِ أرطالُ.
فاغتنموا فُرصةَ الزمانِ ولا * تُفرِّطوا فالزمانُ مُغتالُ!

دير المصلبة

دير المُصَلَّبَة ـ وهو بظاهر مدينة القدس الشريف، فى شامها بغرب. وهو دير رومىّ قديم البناء، بالحجر والكلس، مُحكَمُ الصنعة، مُونِقُ البقعة. فى بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين، بإزاء قرية، تجرى على الدير بمرسوم السلطان.

زيارة المؤلف

وهذا الدير دخلتُ إليه ورأيته. وفيه صُوَرٌ يونانية فى غاية من محاسن التصوير، وتناسب المقادير. وصعدتُ إلى سطحه، فرأيتُ له حُسنَ مُشْتَرَفٍ وسَعَةَ فضاء. ورهبانه من الكُرْج.

صار مسجدا ثم ديرا

وقد كان أُخِذَ هذا الدير، وجُعِل مسجدا للمسلمين، وأُعلِن فيه بالأذان وأقيمت الصلاة. ثم أعيد ديرا للنصارى، وضُرب فيه بالناقوس وأُظهِرت فيه كلمةُ الكفر. وتُوُصِّل إلى هذا بكتاب أُحضِر من ملك الكرج، وأعانه عليه قوم آخرون. (٢٤٩)

ورأيت عند الحافظ العلّامة أبى سعيد العلائىّ وعند سائر العلماء والصلحاء ببلاد القدس، من إعادته إلى النصارى ماهو قذى عيونهم إلى أن يتخلّى، وشجى حلوقهم إلى أن يُستردّ.

نذر المؤلف

وعلىَّ لله نذرٌ إن وصلت يدى إلى هذا لأردَدْتُها حتى يُرَدّ! ولهذا القصد، شهد الله العظيم، قصدتُه.

أوقاف الدير

وحدثنى رهبانه بأن على ديرهم وُقوفا فى بلادهم، منها خيول سائمة تُحمل أثمانُ نتاجها إليهم، وأنه يجىء منها فى كل سنة قدرٌ جليل، وأنها تُنفق فى مصالح الدير وابن السبيل.

وفيه يقول أبو علىّ حسنٌ الغَزّىّ:

يا حُسنَ أيامٍ قطعتُ هنيئةً * بالدير حيثُ التينُ والزيتونُ!
ديرُ المُصَلَّبَة الرفيعُ بناؤه * تَفدى عبيرَ تُرابِه دارينُ!
فى ظلّ هيكلِه وأسرابُ الدُّمى * مجلوَّةٌ والمَرْمَرُ المسنونُ.
ومُزَنَّرين إذا تلَوا إنجيلهم * وتعطّفوا فحمائمٌ وغُصونُ.
غِزلانُ وجْرةَ هم وبين جفونِهم * لأُسودِ بِيشَةَ إن عَرَضْنَ عرينُ.
نزعُوا القلانِسَ والمُسوحَ فزُخرِفَتْ * منهن عن غُرَرِ الشموسِ وُجونُ.
وسعَوا بكاساتِ المُدامِ وما دروا * أنّ للكؤوسِ الدائراتِ جنونُ.
فقضيتُ بينهمُ زمانًا لم يزل * عندى إليه تشوّقٌ وحنينُ.
تلك المنازلُ قد سفَحْنَ مدامِعى * لا مصرُ قاطبةً ولا جيرونُ!

دير السيق

دير السِّيق(١) — قبلىّ البيت المقدس. على نَشْزٍ عالٍ، مُشرِفٍ على الغَوْر، غور أريحا. يُطلّ على تلك البسائط الخُضر ومجرى الشريعة. وبه رهبان ظِراف أكياس،

(١) ذكره ابن أبى أصيبعة فى "عيون الأنباء" (ج ٢ ص ٢١٥).

ولا يأتيهم إلا قاصدٌ لهم أو مارٌّ فى مزارع الغور. تحتهمُ وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر. وقبر موسى عليه السلام فى القبة التى بناها عليه الملك الظاهر بيبرس.

وفى هذا الدير ومُشْتَرَفه، وأطلال قلاليّه وغرفه، قلتُ:

قصيدة المؤلف

أرى حُسنَ دير السِّيق يزدادُ كلّما * نظرتُ إليه والفضاءُ به نَضْرُ!
بنَوهُ على نجدٍ على الغَورِ مُشرِفٍ * كتخْتِ مليكٍ تحته بُسُطٌ خُضْرُ.
وأشرقَ فى سُودِ الغمام كأنّما * تَشَقّق ليلًا عن جلابيبه الفجْرُ.
وقام على طَوْدٍ علىّ كأنّما * مصابيحُه تحت الدُّجى الأنجمُ الزُّهرُ.
وزُفّت إليه الشمسُ من جَنْبِ خِدْرِها * وناغاه جُنحُ الليلِ فى أُفْقِه البدرُ.
وألقت إليه الريحُ فضلَ عِنانِها * وأخْنى عليها لا تُبَلُّ له عُذْرُ.
ولو كان كالنَّسْرَيْنِ هانَ ارتقاؤه * ولكنّه قد حُطّ من دونه النَّسْرُ.
علا نهرَ ريحا والمَجرّةُ فوقه * فمن فوقه نهرٌ ومن تحته نهرُ.

دير الدواكيس

دير الدَّواكيس — شرقىّ القدس. وهو دير حسن البناء. له بين النصارى سمعة وذِكْرٌ. ولا أعرفُ بانيه، ولا وقفتُ له على اسم، ولا على السبب الذى سُمّى به بهذا الاسم. غير أن له وقفا يعود منه على الرهبانِ السكانِ جليلُ فائدةٍ ونفعٌ.

كثرة مرور المؤلف به

وقد مررتُ به غيرَ مرةٍ فى أسفارى، ونخرج إلى رهبانه بميسور ما عندهم.

وفيه قلت:

أشعاره فيه

أنخ بليلٍ على دير الدواكيس * وأنصت إلى قرع هاتيك النواقيس !
واحبس مع العيس وى الركب فى طرب * طول الزمان ولا ترحل مع العيس !
وانظر مع الصبح هاتيك الشموس ضحى * وخلّ عنك رباطات النواميس !
واسبأ من الدير خمراً كلها ذهب * كيلا تعدّك فى حزب المفاليس !
وخلّ كلّ شحيح كنت تتبعه ! * فكثّر ترى الكيس فى الإنفاق للكيس !
وانعم ولذّ بما قضيت من وطرٍ * وطر سروراً إلى تلك الطواويس !

وقلت :

دير الدواكيس أم ريش الطواويس ؟ * أم الشموس سنا تلك الشماميس ؟
مأوى المياسير لكن بعد أوبتهم * منه يعدّون فى حزب المفاليس !
فانزل به وأقم فيما تريد وقل * إملأ كؤوسى وفرّغ عندها كيسى !
واقدح زناد سرورٍ من مدامته * فهذه النار من تلك المقابيس !

(٢٥١) دير رمانين

دير رمّانين(١) — قال الخالدى : هو بالشام . ولا أدرى فى أىّ ناحية هو منها . ولكن قيل إنه كبير حسن عامر . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : خرجت فى بعض أسفارى إلى الشام ، فدخلت أنطاكية . فبينا أنا فى بعض أسواقها ، إذ قبض علىّ بطريق من بطارقتها . ولم يكلمنى حتى أتى داراً فيها تراب وجندل . وإذا مسحاة وزنبيل . فقال : انقل هذا من ههنا إلى ههنا . يشير فى ذلك بيده . وتركنى ومضى . فتقاصرت بى نفسى وخنقتنى العبرة وقعدت ،

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٦٢) .

فلم أعمل شيئا . وكان أغلق علىّ باب الدار حين مضى . ثم عاد إلىّ بعد ساعة . وكان يوما شديد الحر . وإذا هو عريان ، متشح بسبنية يبين منها جميع بدنه . فلما رأى التراب والجندل بحالهما ، قبض علىّ وجمع يده وضرب بها لغدى ، ضربة أقرح بها قلبى . فقلت : ثكلتك أمك ، يا عمر ! ما هذا الاستخذاء للعلج ؟ وأقبض عليه فأطرحه تحتى وآخذ المسحاة . فأضرب بها رأسه ، ضربة فلقت بها دماغه فمات . وبادرت هاربا من المدينة . وسرت من يومى وليلتى ، فأصبحت ديرا ، فدخلته . فلما رآنى راهبه قال : أضيف أنت ؟ قلت : نعم . وكنت قد أعييت ، فاضطجعت نائما ماشاء الله . ثم أيقظنى الراهب وقال : من أين أنت ؟ قلت : من مكة . فصعّد نظره وصوّبه . ثم قال : ما اسمك ؟ قلت : عمر . فأخرج كتابا عنده ونظر فيه ، وأعاد فى مرات . ثم وثب فقبّل رأسى . فقلت : ماحملك على هذا ؟ فقال : هل ظهر عندكم رجل يذكر أنه نبىّ ؟

وقد كان وقع لى شىء من خبر النبىّ ، صلى الله عليه وسلم . فقلت : قد سمعت بعض الناس يذكر ما سألت عنه . فقال : اعلم أنك وحقّ المسيح ستملك أكثر الأرض ، وتخرج هرقل من الشام ، وتغلب عليها . فاكتب لى أمانا ، ولديرى . فقلت : ياهذا ! ما أدرى ماتقول . فقال : هو ما أقوله لك ، وأنت هو لا محالة . فجعلت أعجب منه وأدفع قوله ، وهو يلحّ علىّ فى سؤاله ذلك . فلما أطال ، قلت : ماتريد ؟ فقال : كتابك . وأتانى بقطعة من أدم ، فكتبت له ما أملاه علىّ من ترك الخراج والوصاة به . ولفّه مع كتابه ذلك . وأكرم مثواى . وبكّرت غاديا من عنده . فأسرج لى حمارة وقال اركبها . فإنك ماتمرّ بدير ، فيراها راهبه إلا أكرمك . وإذا بلغت آخر دير يلى بلدك ، فخلّفها عند سكانه . وزوّدنى وانصرفت .

(٢٥٢)

فيقال إن عمر لما خرج إلىٰ بيت المقدس، لقيه الراهب، وهو شيخ كبير، بكتابه وذكّره الأمر. فقال عمر: هذا كتبتهُ فى الجاهلية، وقد أتىٰ الله بالإسلام. ولا يحلّ لى تضييع فَىْء المسلمين. ولكنّى أقاطعك علىٰ خراجك بما فيه مصلحةٌ لك ورفقٌ بك. فقال: قد رضيتُ. فقاطعه علىٰ ما فيه رفق به.

قال الخالدىّ: ويقال إن الرهبان يتوارثون الكتاب إلىٰ وقتنا هذا، وإن الوُلاة تُمضيه لهم.

دير هزقل

دير هِزقِل[1] – قال الخالدىّ: هو بالشأم. ولا أدرى فى قرب أىّ مدينة هو.

وقد ذكره دعبل بن علىّ حين هجا أبا عبّاد، كاتبَ المأمون، فقال:

فكأنّهُ من دير هزقل[1] مُفْلَتٌ * حَنِقٌ يجُرُّ سَلاسِـلَ الأقيادِ

وحَكىٰ المُبَرّدُ قال دخلت دير هزقل[1]. وسألت رهبانه: هل فيه مجنونٌ طيّبُ الكلام، نضحك أنا وصحبى منه؟ قالوا: هاهنا. وأومؤا[2] إلىٰ إيوان مرتفع فى الدير. وقالوا[3]: هم هناك. فإن أحببتَ النظر إليهم فامضِ ولا تَدْنُ من أحد. ففعلتُ. ورأيت مراتبهم علىٰ قدر بلاياهم. وكان معى وقت دنوّى منهم المتولى علىٰ أمورهم. فلما رأوه معى امتثلوا. فرأيت شيخا منهم علىٰ حصير نظيف، ووجههُ إلىٰ القبلة، كأنه يريد الصلاة.

(١) فى ياقوت هِزقل بالزاى المعجمة. قال وأصله حزقيل فنقل الى هِزْقل. والذى فى نسخة الأصل عندنا بالراء المهملة. واعتمدت رواية ياقوت لأن وزن الشعر التالى يقتضى السكون. (وآنظر كلامه عليه فى ج ٢ ص ٥٤٢ و ٧٠٦).

(٢) فى الأصل: وأومىٰ. فربما يكون أراد الراهب أو رئيس الرهبان].

(٣) فى الاصل: قال. [وآنظر الحاشية السابقة].

فجاوزته إلىٰ غيره. فقال: سبحان الله! أين السلام؟ مَن ترىٰ المجنون؟ أنا أم أنت؟ فاستحيَيْتُ منه وسلّمت. فقال: لو كنتَ بدأتنا، لأَوجبتَ علينا حسن الردّ. علىٰ أنا نعتذر لك أن للداخل علىٰ القوم دهشةً. اِجلس، أعزك الله عندنا! . وأومأ إلىٰ موضع من حصيره فنفضه، كأنه يُوسّع لى. وعزمتُ علىٰ الدنو منه، فمنعنى قيّمهم. فوقفتُ أستَجلبُ مخاطبته. فسألنى. فقال: مِن أين أنت؟ قلتُ: من البصرة. قال: أتعرف المازنىّ؟ قلت: نعم. قال: أتعرف الذى يقول فيه:

وفـتًى من مازنٍ * سادَ أهْـلَ البَصِره.
أُمُّـه معروفـةٌ * وأبـوه نَكِرَه!

قلت: لا أعرفه. قال: أفتعرف غلاما قد نبغ فى هذا العصر، معه دِينٌ. وله حفظٌ. وقد برّز فى النحو، وصار يخالف صاحبه فى مجلسه، يعرف بالمُبَرّد. قلتُ: أنا عينُ الخبير به. قال: فهل أنشدك من عَبَثات شعره؟ قلت: لا أعرفه قال شعرا. قال: بلىٰ، هو القائل: (٢٥٣)

حبّـذا ماء العَنـاقيـ * ـدِ بِرِيقِ الغـانيَاتِ!
بهـما يَنْبُتُ لَحْمِـى * ودَمِى أىَّ نبـاتِ!
أيُّهـا الطالبُ شـيئًا * من لَذِيذِ الشَّـهَواتِ:
كُلْ بماء الورد تُفّـا * حَ الخُدُودِ الناعمـاتِ!

قلتُ: أما تستحيِي من إنشاد مثل هذا الشعر فى الدير؟ فقال: سبحان الله. هل تستحيِي أن تُنشدَ مثل هذا، حولَ الكعبة، دَعْ عنك هذا. إنى سمعتُ الناس يقولون فى نَسَبِهِ. ثمّ لم يزلْ بى حتّى عرفنى. ثم قال: أحوجتنى إلى الاعتذار إليك. ثم قام إلىّ

ليصالحنى . فرأيت القيد فى رجله قد شُدّت إلى خشبة فى الأرض . فأمنتُ غائلته . ثم قال لى : يا أبا العباس ! صُنْ نفسك عن الدخول إلى هذه المواضع . فليس يتهيّأ لك كلّ وقت مصادفةُ مثلى على مثل هذه الحالة الجميلة ! أنت المبرّد ! أنت المبرّد ! وجعل يصفّق ، وقد انقلبت عيناه وتغيرت حليته ، فبادرتُ مُسرعا ، وخرجتُ .

دير يونس

دير يونس[١] — حكى رجل من أهل أنطاكية قال : حدثنى أبى قال : نزلتُ مع الفضل بن إسمعيل بن صالح بن عبد الله بن العباس فى دير يونس ، ونحن خارجون إلى ناحية الرملة . فرأى فيه جارية حسناء ، ابنةً لقَسٍّ كان فيه . فخدمته مدة مُقامه ثلاثة أيام ، وجاءته بشراب صافٍ عتيق . فلما أراد الانصراف أعطاها عشرة دنانير ورحل . وقال فى طريقه :

عليكَ سلامُ الله يا ديرُ من فتًى * بمُهجته شوقٌ إليكَ طويلُ !
ولا زال من نَوْءِ السِّماكَيْنِ وابلٌ * عليكَ بما يَروِى ثَراكَ هَطُولُ !
يُعِلُّكَ منها بُرهةً بعد بُرهةٍ * سَحابٌ بأخبار الرياض كفيلُ !
إذا بَلَّ أرضًا دمعُه بانَ منظرٌ * بها لعيونِ الناظرين جميلُ .
كأنّ البروقَ الوامضاتِ بجوّهِ * صَفائحُ تِبرٍ فى السماء تجولُ .
ألا رُبَّ ليلٍ حالكٍ قد صدعْتُه * وليس معى غيرَ الحسام خليلُ . (٢٥٤)
ومشمولةٍ أوقدتُ منها لصُحبتى * مَصابيحَ ما يخبُو لهنّ فتيلُ .
تُعلِّلُنى بالراح هيفاءُ غادةٌ * يُخال عليها للقلوب كفيلُ .

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٧١٠) .

تجولُ المَنايا بينهنّ إذا غدتْ * مَلاحظُها بين القلوب تجولُ .
أيا ابنةَ قَسِّ الدَّيرِ قلبى مُدَلَّهٌ * عليكِ وجسمى مذ بَعُدتِ عليلُ !

وفيه يقول أبو شاس :

يا ديرَ يونُسَ جادتْ سَرْحَكَ الدِّيَمُ * حتى تُرَى ناظرًا بالنَّوْرِ يبتسمُ !
لم يَشفِ فى ناجرٍ ماءٌ على ظَمَإٍ * كما شَفَى حَرَّ قلبى ماؤُكَ الشَّبِمُ .
ولم يُحلِّكَ محزونٌ به سَقَمٌ * إلا تَحلَّلَ عنه ذلك السَّقَمُ .
أستغفرُ اللهَ كم لى فيك ذُو غَنَجٍ * جَرَى علَىَّ به فى رَبْعِك القلمُ .

ويقول أيضا :

لا تَعذِلَنَّ عن ابنةِ الكَرْمِ * بأبى ففيها صِحّةُ الجسمِ !
لو لم يكُنْ فى شُربها فَرَجٌ * إلا التخلُّصَ من يَدِ الهمِّ !

ويقول أيضا أبو شاس :

أعاذلَ ما على مِثلى سَبيلُ * وعذلُكَ فى المُدامة مستحيلُ !
أليس مَطيّتى حَقَوَىْ غلامٍ * ورحلُ أناملى كأسٌ شمولُ ؟
إذا كانت بناتُ الكَرْمِ شُربى * وقِبلةُ وجهى الوجهُ الجميلُ ،
أمنتُ بِذَيْنِ عاقبةَ الليالى * وهانَ علىّ ما نقلَ العذولُ !

دير بصرى

دير بُصْرَى[١] — هو بالشأم . وقيل هو الذى كان فيه بَحيراء الراهب .
(٢٥٥) حكى المازنى ، قال : نزلت بدير بصرى . فرأيت فى رهبانه فصاحة ، وهم عرب متنصّرة من طيّئ ، من بنى الصادر ، أفصحُ من رأيت . فقلت لهم : مالى لا أرى فيكم

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٤٧) .

شاعرا، مع فصاحتكم؟ فقالوا: والله! مافينا رجل ينطق بالشعر، إلا أمةٌ لنا كبيرةُ السنّ. فقلت: جيئونى بها. فجاءت، فاستنشدتها. فأنشدتنى لنفسها:

أيا رُفقةً من آل بُصْرى تحمّلتْ * تؤمُّ الحِمى لُقِّيتِ مِن رُفْقةٍ رُشداً!
إذا مابلغتُم سالمين فبلِّغُوا * تحيةَ مَنْ قد ظنّ أنْ لا يرىٰ نجداً.
وقُولُوا: تركْنا الصادِرِىّ مكبّلا * بكَبْلِ هوًى من حُبّكم مُضْمرا وجْداً.
فياليتَ شِعْرِى هل أرىٰ جانبَ الحِمىٰ * وقد أنبتتْ أجراعُه بقَلاً جعْداً!
وهل أرِدَنَّ الدهرَ ماءَ وَقِيعةٍ * كأن الصَّبا تُسْدِى علىٰ متْنِه بُرداً؟

فوهبت لها دُرَيهماتٍ. وبتُّ فى ديرهم وأكرموا ضيافتى.

دير الحمان

دير الحَمَّان — وهو دير ببلاد أذرعات مبنىٌّ بالحجارة السُّود، علىٰ نَشَزٍ من الأرض. يُشرف علىٰ بركة الفوّار وهو من البناء الرومىّ القديم.

زيارة المؤلف له

أتيتُ عليه فى أسفارى غيرَ مرّةٍ. ورأيت مرّةً به غلاما قد خرج من كنيسته، كأنه الظبىُ الكانِس. فقلت:

أشعاره فيه

يادَيرَ عزّةَ فى رُبىٰ الحَمَّانِ * دَرَّتْ عليكَ السُّحْبُ بالهَمَلانِ!
وسقَتْكَ كلُّ غمامة هتّانةٍ * تحْنو مواطرُها علىٰ الكُثْبانِ!
لم أنسَ فى اللذّات ساعةَ منزِلٍ * بُرباكَ فوقَ صفائح الغُدرانِ!
والصبحُ تحت مُلاءةٍ مرْقُومةٍ * نَشَرتْ عليه غرائبَ الألوانِ.
وهُناكَ كلُّ كَحِيلِ طرفٍ فاترٍ * تُعْزىٰ لَوَاحظُه إلىٰ الغِزلانِ.
قمرٌ مَسيحىٌّ كأنَّ جبينَهُ * بدرُ الدُّجىٰ فى النصف من شعبانِ.
فى وجنتيه جَنِيُّ وَرْدٍ أحمرٍ * قد سيَّجوه بأخضر الرَّيحانِ.

(٢٥٦)



ماشدَّ زُنّارا له فى بِيعةٍ * إلّا وحلَّ عزائمَ الرُّهبانِ!
يَسْقِى الشَّمُولَ ولا كريقةِ ثغرِهِ * سَكْرىٰ بها وبطرفِهِ الفتّانِ!

دير صليبا

دير صليبا(١) — ويعرف بدير السائمة. وهو بدمشق، مطلٌّ علىٰ الغُوطة. ويليه من أبوابها، باب الفراديس.

نزل دونه خالد بن الوليد، أيامَ محاصرة دمشق.

وهو فى موضع نَزِهٍ، كثير البساتين. وبناؤه حسن عجيب.

وإلىٰ جانبه ديرٌ للنساء، فيه رهبان وراهب. وإيّاه أراد جريرٌ بقوله:

إذا تذكّرتُ بالديرَيْنِ أرّقَنى * صوتُ الدَّجاج وقَرْعٌ بالنواقيسِ.

قال الخالدىّ: ومما يدلّ علىٰ أنه يلى باب الفراديس، قول جرير فى هذا الشعر:

فقلتُ للرَّكْب إذ جدَّ النَّجاءُ بهم: * يابُعْدَ يَبْرِينَ من بابِ الفَرَادِيسِ!

وأنشد فيه قول الآخر، وهو:

يادَيرَ بابِ الفَرَادِيسِ المهيِّجَ لى * بَلابِلاً بقلاليهِ وأشجارِهْ!
لو عِشْتُ تسعين عاما فيك مصطبِحا * لما قضىٰ منك قلبى بعضَ أوطارِهْ!

وحُكى أن الوليد بن يزيد كان كثير المُقام فى هذا الدير. يخرج إليه، ومعه حُرَمُه، استحسانا له، وأنه كان يجلس فى أيام مُقامه فيه فى صحنه كلّ يوم ساعةً من النهار، ثم يأكل ويشرب فى مواضعَ منه: طيبةٍ حَسَنةٍ.

وحكىٰ الخالدىّ عن أحد مَن كان ينادمه، أنه دعا يوما بطعامه، وأمرنى بالغداء معه، وحضر ندماؤه، وكان فيهم حُنَيْنٌ المغنّى. فنحن علىٰ المائدة، إذ قال له:

(١) أُنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٧٤، ج ٥ ص ٢٠). وقد ذكر ديرا آخر اسمه "دير صلوبا" (ج ٢ ص ٦٧٤).

ياحُنَين! غنيتنى البارحةَ فى آخر المجلس ــ وقد أخذ الشرابُ منّى ــ بشعر صاحبكم، عيسى بن زيد، فلم أستكمل الطرب، لأجل سكرى . فأعده علىّ الساعةَ . قال: فأخذ حُنَين رِقاقه ووقع عليها وغنّى:

(٢٥٧)

يالُبَيْنَى أوقِــدى النارا! * إنّ مَنْ تَهْوَيْنَ قد جارا!
رُبَّ نارٍ بِتُّ أرمقُهــا * تَقْضَمُ الهِندىَّ والغارا![1]
عِنْــدها ظَبْىٌ يُؤَجِّجُها * عاقِدٌ فى الخَصْرِ زُنّارا!

قال: فطرب طربا عظيما، وأخذ رقاقه، وقام وترك الغداء، وجعل ينقُرُ عليها مع حُنَين . وأخذ كلّ مَن على المائدة رِقاقه، وجعلوا ينقرون عليها مثلَه . ومضى يطلب باب الدِهليز، وحُنَين والندماء حوله . والحاجب قد جلس ينتظر جلوسه . وقد حضر وجوه العرب . فلما رآه الحاجب على تلك الحال، صاح بالناس: الحُرَمَ! الحُرَمَ! آنصرِفوا! آنصرفوا! اخرجوا. فقال له: ياأمير المؤمنين! وفودُ العرب تنتظر جلوسك، وأنت تخرج إليهم على تلك الحال! فقال: ثكلتْكَ أُمُّك! أُدخُل. ودعا له برطلٍ . لحلف أنه ماذاقه قط . فقال: والله! لتشربَنَّ معى حتى أسكر. ولم يزل يسقيه، حتى مات سكرا وآنصرف محمولا.

قلتُ: وهــذا الدير اليومَ لاعينَ له ولا أثر، وإنّما صار دورا وأبنيــة ومساجد ومدافن . وهى بناحية محلّة حَمّام النُحاس . والله أعلم:

الدار التى بناها المؤلف بدمشق

وبهذه المحلة دارى التى بنيتُها ومساكنِى . وهنّئتُها !

(١) أى العود الهندىّ وقضبان شجر الغار .

دير بونّا

ديرُ بونّا[1] ــ وهو بجانب غوطة دمشق . ليس بكبير، ولا رهبانه بكثير . ولكنه فى رياض مُشرِقة، وأنهار متدفقة . ويقال إنه من أقدم دِيَرة النصارى . بُنِى بعد المسيح (عليه السلام) بقليل.

وآجتاز به الوليد بن يزيد، فرأى حسنه وطيبه . فأقام فيه أياما فى تخرّق ومجونٍ . وقال فيــه:

حبّــذا يومُنــا بدير بَوَنّا * حيثُ نُسقَى براحِه ونُغَنّى!
وآستهِنّا بالنــاس فيما يَقُولُو * ن إذا خُبّروا بما قد فَعَلْنا!

قلتُ: وهذا الديرُ اليومَ لا وجودَ له . قد أقفرتُ الأرض منه من رَسْم وطَلَلٍ، ومضى وحادثُ كل ديرٍ بعده جَلَل.

دير سمعان

(٢٥٨)

ديرُ سَمْعانَ[2] ــ قال الخالدىّ: هو بنواحى دمشــق، بالقرب من الغُوطة . على قطعة من الجبل، يُطِلُّ عليها . وحوله بساتين وأنهار . وموضعه حَسَنٌ جدا . وهو من كِبار الدِيَرَة . وعنده دُفِن عمر بن عبد العزيز، بظاهره.

قلتُ: وهذا غلطٌ من الخالدىّ . وهكذا ذكره أبو الفرج . وغلِط أيضا . فإنّ هذا

(١) أُنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٤٩).

(٢) أى Saint Siméon . وآنظر الطبرىّ (سلسلة II ص ١٣٦٠ و١٣٦٢ و١٣٧١)؛ و"العيون والحدائق" (ج ٣ ص ٦٣)، و"التنبيه والإشراف" للمسعودىّ (ص ٣١٩)؛ و"مروج الذهب" له (ج ٢ ص ٦٧١، ج ٣ ص ١٣٩)؛ والقزوينىّ (ص ١٣١)؛ واليعقوبىّ (ج ٢ ص ٣٦٨ و٣٧٠)؛ وآبن الأثير (ج ٥ ص ٤٢)؛ والبكرىّ (ص ٧٥٣)؛ وياقوت (ج ٢ ص ٦٧١، ج ٣ ص ١٣٩). وآنظر أيضا "مختصر الدول" لآبن العبرىّ (ص ١٩٨).

الدير فى قرية تعرف بالبقرة، من قبلىّ معرّة النعمان. وبه قبر عمر بن عبد العزيز، مشهورٌ لا يُنكر. وليس يُسمع بدمشق لهذا الدير نابسة، ولا يُعرف لمكانه فى غوطته خضراءُ ولا يابسة.

عُدنا إلى ما ذكره الخالدىّ. قال: ذكروا أنه دخله جريرٌ فى يوم عيدٍ. فرأى النساء والصبيان يقبّلون الصُلُبَ ويسجدون لها، فقال:

رأيتُ بدير سَمْعانٍ صَلِيباً * تُقبّله الشَّوادِنُ والظّباءُ.
تُعَظّمه القُسُوس وتحتَوِيه * فتَرْشُفه ويخنُقُها البكاءُ.
فقلتُ لهم: مهٍ! هل غيرُ عُودٍ * تملّكه آعْوِجاج وآستواءُ؟

وذُكر أن الوليد بن يزيد خرج متنزّها فيه. فأقام يصطبح ويغتبق معه ندماؤه ومغنّوه. فخرج يوما، غِبَّ سحاب. فنظر فى صحن الدير غدران ماء، فآستحسنها. فنزل على أكبرها وأكثرها ماء. وقال: والله! لا أبرح حتّى أشرب هذا كله، مِزاجا لكأسى. وشرب حتّى نام. فقال بعض أصحابه لبعض: لئن أقام حتى يُفنِىَ الغدير، طال علينا مُقامنا. فجعلوا يحملون ماءه بالليل ويصبّونه فى الرمال. فخرج بعد يومين أو ثلاثة، فنظر إليه وقد فَنِىَ ماؤه. فقال: أنا أبو العباس! وأمر بالرحيل إلى دمشق.

ومما سمعتُه من والدى، لأحمد بن هلال، فى صفة دير سمعان، مما مدح السيّد الرضىّ لعمر بن عبد العزيز:

يا آبنَ عبدِ العزيز لو بكت العيـ * ـنُ فَتًى من أُميّةٍ، لبكيتُكْ!
أنتَ نزّهتَنا عن السبّ والشتـ * ـم! فلو يُمكِنُ الجزا، لجزيتُكْ!
قبرَ سمعانَ، لاعَدَتْكَ الغَوادِى! * خيرُ ميْتٍ من آل مَرْوانَ ميْتُكْ!

وكان عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) تسبّب فى إبطال السب عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب (كرم الله وجهه) وأثبت فى الخطبة، موضعَ السبّ، "إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ".

وقد ذكر أبو الفرج أن صاحب دير سمعان دخل على عمر بن عبد العزيز بفاكهة يُطرِفُه بها فى مرضه. فقبِلها منه، وأمر له بدراهم. فأبى أن يأخذها. فما زال حتّى أخذها. وقال: يا أمير المؤمنين! إنّما هى من ثمر شجرنا. فقال عمر (رحمه الله) وإن كان من ثمر شجركم! ثم قال: يا صاحب دير سمعان! إنّى ميّتٌ من مرضى هذا. فحَزِنَ وبكى. ثم قال له عمر: بعنِى موضع قبرى من أرضك، سنةً، فإذا جاء الحَوْل، فآنتفع به. وهذا الذى حكاه أبو الفرج مؤكد لقولنا. (٢٥٩)

دير مُرّان[(١)] — وهو بالقرب من دمشق، على تلّ فى سَفح قاسْيُون وبناؤه بالجِصّ الأبيض. وأكثر فرشه بالبلاط الملوّن. وكان فى هيكله صورة عجيبةٌ دقيقةُ المعانى. وقلاليه دائرة به. وأشجاره متراكبة. وماؤه يتدفّق. دير مُرّان

وحُكى عن المبرّد أنه قال: وافيتُ الشام — وأنا حَدَثٌ فى جماعةٍ أحداث — لأكتُبَ الحديث وألقى أهل العلم. فآجترتُ بدير مُرّان. فأحببتُ النظر إليـه.

(١) أُنظر الطبرىّ (سلسلة II ص ١٢٧٠ و١٧٩٢)؛ و"الأغانى" (ج ٦ ص ١٩٥، ج ٧ ص ٥٥، ج ١٦ ص ٣٣)؛ و"العيون والحدائق" (ج ٣ ص ١٢ و١٣٧)؛ واليعقوبىّ (ج ٢ ص ٢٧٢ و٣٤٩)؛ والبكرىّ (ص ٣٦٢)؛ وآبن الأثير (ج ٣ ص ٣٨١، ج ٥ ص ٢١٥، ج ٦ ص ٣٧٦)؛ وخصوصا ياقوت (ج ٢ ص ٤٠٧ و٦٩٦، ج ٣ ص ٥٥٥ و٧٧٧، ج ٤ ص ٤٨٠ و٦٠٤).

فصعدناه، فرأيتَ منظَرا حسنا . وإذا فى بعض بيوتِهِ كهلٌ مشدودٌ حسن الوجه عليه أثر النعمة . فدنونا منه وسلَّمنا عليه فردّ السلام . وقال : مِن أين أنتم، يا فِتيان؟ قلنا : من أهل العراق . قال : بأبى ! ما الذى أقدمَكم هذا البلدَ الغليظَ هواؤُه، الثقيل ماؤُه ، الجُفاةَ أهلُه . قلنا : طلبُ الحديث والأدب . فقال : حبَّذا ! أتنشدونى أم أُنشدكم ؟ قلنا : بل أنشِدْنا . فقال :

أللهُ يعــلَمُ أنِّى كَمِــدُ * لاأستطيع أبُثُّ ماأجِدُ !
روحَانِ لى : رُوحٌ تقسَّمها * بلدٌ وأُخرىٰ حازها بَلَدُ !
وأرىٰ المُقِيمةَ ليس ينْفَعُها * صبرٌ وليس يَصُونُها جَلَدُ !
وأظنّ غائِبتِى كشاهِدَتِى * بمكانِهَا تجِدُ الذى أجِدُ !

ثم أُغْمِىَ عليه . فأفاق فصاح بنا فقال : أتنشدونى أم أُنشدكم؟ قلنا : بل أنشِدْنا. فقــال :

لمَّا أناخوا قُبَيْــل الصبح عِيرَهُمُ * ورحَّلوا، فتَنَادتْ بالهــوىٰ الإبِلُ .
وأبرزَتْ من خِلالِ السَّجْف ناظِرَها * يرْنُو إلىّ ودمعُ العين منهمِلُ .
فودَّعتْ ببنــانٍ حَمْلُهُ عَــنَمٌ ، * فقلتُ : لاحَمَلَتْ رِجلاكَ ! ياجَمَلُ :
وَيْلى من البَيْن ماذا حلَّ بِى وبها * من بارِح الوَجْد ! حلَّ البين فارتحلوا !
إنّى علىٰ العَهْد لم أنقُضْ مودّتَهُمُ ! * فليتَ شعرِى ، لطُول العهد مافعَلُوا !

فقال له فتًى من المُجَّان الذين كانوا معى : ماتوا . قال فأموت؟ فقال له : مُتْ . (٢٦٠)
فتمطّى وتمدّد . وما بَرِحْنا حتّٰى دفنّاه .

وللصنوبرىّ فيه، من شعر يقوله :

أمُرُّ بدير مُرَّانٍ فأَحْيَــا * وأجعَلُ بيتَ لَهْوِى بيتَ لَهْيا .
صَفَتْ دُنيا دِمشقَ لمصطفِيها . * فليس يُرِيد غير دِمشْقَ دُنيا !
مُظَلَّــلَةٌ فــوا كههنّ أبهىٰ * وأنْضَرُ فى نواظِــرِنَا وأهْيَــا !
فِمنْ تُفَّــاحة لم تَعْــدُ خدًّا ، * ومن رُمَّانة لم تَعْــدُ ثديا !

وقد ذكره أبوالفرج وقال : هو علىٰ تَلْعَةٍ مُشرِفة علىٰ زعفران ورياضٍ حسانٍ . نزله الرشيد وشرب فيه . ونزله المأمون بعدَه . وكان الحسين بن الضحّاك مع الرشيد، لمــا نزله ، فأمره أن يقول فيه شعرا، فقال :

يادير مُرَّانَ ، لاعُرِّيتَ من سكنٍ ! * قد هِجْتَ لى حَزَنا، يادير مُرَّانا !
حُثَّ المدام فإن الكاسَ مُتْرَعةً * ممايَهِيجُ دواعِى الشوقِ أحيانا !

وأَمَرَ عمرو بن بانة، فغنّٰى فيه لَحْنين .

وحُكى عن إبراهيم الموصلىّ أنه قال : مرّ الرشيد بدير مُرَّانَ فاستحسنه ونزله . وأمر أن يؤتىٰ بطعام خفيفٍ . فأُتِىَ به ، فأكل ، وأُتِىَ بالشراب والندماء والمغنّين . فخرج إليه صاحب الدير، وهو شيخٌ كبيرٌ هَرِمٌ . فوقف بين يديه ، ودعا له ، واستأْذنه فى أن يأْتيه بشئ من طعام الديارات . فأذن له فأتاه بأطعمة نظافٍ ، وإدامٍ فى نهاية الحسن والطِّيب . فأكل منها أكثر أكلٍ . وأمره بالجلوس ، فجلس معه يحدّثه ، وهو يشرب . إلىٰ أن جرىٰ ذكر بنى أُمَيَّة ، فقال له الرشيد : هل نزل بك أحدٌ منهم ؟ قال : نعم . نزل بى الوليد بن يزيد ، وأخوه الغَمْرُ . فجلسا فى هــذا الموضع ، فأكلا وشربا وغُنِّيَا . فلمادبّ فيهما السكر ، وثب الوليد إلىٰ ذلك الجُرْن فملأه وشربه ، وملأه

(٣٦١) وسقى أخاه، الغَمْر. فما زالا يتعاطيانه، حتى سكرا، وملآه لى دراهم. فنظر إليه الرشيد، فإذا هو عظيم لايقدر على أن يُقِلّه، ولا يقدر على أن يشرب مِلأه. فقال: أبى بنو أمية إلا أن يَسبِقوا إلى اللذات سبقا لايجاريهم أحدٌ فيه. ثم أمر برفع النبيذ، وركب من وقته.

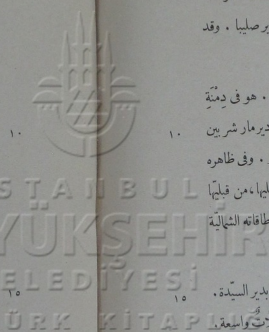
قلتُ: والناس فى اختلاف: أينَ كان دير مُرّان؟ فمن قائل إنه كان بمشارق السَّفح، نواحى برزة. والأكثر على أنه كان بمغاربه، وأن مكانه الآن المدرسة المعظمية، وأما الذى كان بمشارق السَّفح، فهو دير السائمة المسمّى دير صليبا. وقد ذكرناه.

دير صيدنايا

دير صيدنايا — وهما اثنان: أحدهما يقصده النصارى بالزيارة. هو فى دِمْنَة القرية. والآخر على بُعْدٍ منها، مشرفٌ على الجبل، شماليّها بشرق. وهو دير مار شربين ويُقصَد للتنزه. من بناء الروم بالحجر الجليل الأبيض. وهو دير كبير. وفى ظاهره عين ماء سارحة. وفيه كُوًى وطاقاتٌ تُشرف على غُوطة دمشق وما يليها، من قبليّها وشرقها. وفيها مايطلّ على بواطن ما وراء ثَنِيَّة العُقاب. ويمتد النظر من طاقاته الشماليّة إلى ماأخذ شمالا عن بعلبك.

وأما الذى فى القرية،(١) فمن بناء الروم بالحجر الأبيض أيضا. ويُعرف بدير السيّدة. وله بستان. وبه ماءٌ جارٍ، فى بِرْكة عُمِلت به. وعليه أوقافٌ كثيرة. وله مَغَلّاتٌ واسعة. وتأتيه نذورٌ وافرة. وطوائف النصارى، من الفرنج، تقصد هذا الدير وتأتيه للزيارة.

(١) فى الأصل: "وفى قرية صدنايا دير". وقد كتب المؤلف فوق الكلمتين الاولين كلمتى: "أما الذى" لتصحيح السياق المتقدم. ولكنه فاته أن يضرب على تلك الكلمات الاربع.



رواية المؤلف بشأنه

وكنتُ أراهم يسألون السلطان فى أن يُمكّنهم من زيارته. وإذا كتَب لهم زيارةَ قُمامةَ ولم يكتُبْ معها صيدنايا، يُعاودون السؤال فى كتابتها لهم. ولهم فيها مُعتقَد.

والنصارى تزعُم أنّ بها صدْعا يقطُرُ منه ماءٌ، يأخذونه للتبرك. ويدّعونه فى أوانٍ لِطافٍ من الزُّجاج، ويكسونها من فاخر الثياب. ولهم فيه أقوالٌ كثيرة. وسمعتُ نصرانية، كانت معروفة بينهم بالعلم، تقول: إن ذلك الماء إذا أُخِذ على اسم شخصٍ (٣٦٢) وعُلّق فى بيته ثم ازداد مقداره عنده عما أخذه، دلّ على زيادة ماله وجاهه، وإذا نقص، دلّ على نقص ماله وجاهه وقُرب أوان موته.

تحقيقه بشأنه

ورأيتُ هذا الماء، وله دُهنيّة تشبه الشَّيرَج أو الزيت الصافى، وليس بهما.

وجاءت مرّةً كُتُبُ ريدفرنس(١) وكتب الأذفونش(٢) على أيدى رسلهم. ومما سألوا فيها تمكينُ رُسُلِهم من التوجه إلى صيدنايا للتبرك بها. فأجاب السلطان سؤالهم وحمل الرسلَ على خيل البريد إليها.

شعره فيه

ومما قلته فيه.

فى جانبِ الدَّيرِ لنا مَنزِلُ * ومَنهَلٌ عَذْبٌ به نَنْهَلُ
وشادنٌ قد جاءنا أحْوَرٌ * فى كَفِّه كأسٌ له تُشعَلُ
وروضةٌ تُشرق أنهارُها * قدشقّها فى وَسْطها جَدْوَلُ
ومُطرِبٌ تُطرِبُ ألحانُه * كأنه إسحاقُ أو زَلْزَلُ
فَدُونكَ الراحَ ففى دَنِّها * شَهْدٌ وفى الطَّعْمِ بها فُلفُلُ
وافى بها فى الكأس لِكنّها * عَذراءُ من خُطَّابها تَخجَلُ

(١) أى ملك فرنسا: Re de France.

(٢) أى ملك إسبانيا Alphonse واسمه عند الاسبانيين Ildefonse.

ديرشق معلولا

ديرشَقّ مَعْلُولَا — وهو بباطن جُبّة عسّال. وهو بناء رومىّ بالحجر الأبيض. مُعلّق بِسُقَيف. وبها صَدْعٌ فيه ماء ينقُط، نحوَ الذى بصيدنايا. ويأخذه النصارىٰ للتبرك، معتقدين فيه نحوَ اعتقادهم فى الآخر. وإنما الاسم للذى بصيدنايا.

دير بلوذان

ديربُلُوذان — وبناؤه قديم بديع الحسن. وافر الغلة، كثير الكروم والفواكه والماء الجارى. بقرية بَلُوذان. وهى محاذيةٌ لكفر عامرٍ، تُطلّ من مُشْتَرفها علىٰ جبّة الزَّبَدانى، ببلاد دمشق. وبه رُهْبان نِظاف، وغلمان من أبناء النصارىٰ ظراف.

مرور المؤلف عليه

مررتُ عليه، ونزلتُ إليه. ورأيتُ به غلاما يفوق الظبىَ حُسنا، ويشبه البدر أو أسنىٰ. بخصر نحيل، وطَرْف كحيل. قد قطع الزنّار بين خصره وردفه، ونفث السحر بين جفنه وطرفه. ثُمّ ما كان بأعجلَ مما استتر بدره، ولاح ثم خَفِىَ فجره.

فقلت فيه :

شعره فيه

حبّـذا الديرُ من بَلُوذَانَ دارًا * أىّ ديرٍ به وأىُّ نصارىٰ !
فيهمُ كلُّ أحْوَرِ الطرْف أحْوىٰ * فائقِ الحسنِ فى حَياءِ العَذارىٰ !
وغـلامٍ رأيتُـه كهِـلالٍ * مابَدا للعُيون حتّى توارىٰ !
بقـوامٍ إذا تمـايـل نَشْوا * نًا فألحاظُ مقلتيـه سُكارىٰ !
ناحلِ الخَصْرِ حلّ عقدَ اصطبارى * عنـدما شَدَّ خَصْرَه الزُّنّارا !
قبـلَ رُؤْياه ما رأيتُ غزالًا * بات يُسْقىٰ من مَرْشَفَيْه العُقارا !

دير نجران ٢٦٣

ديرنجران(١) — وهو باليمن. وتسميه العرب كعبةَ نجران. وهو لبنى الحارث بن كعب. وسيأتى ذكره فى موضعه.

(١) أُنظر البكرىّ (ص ٣٧٦) ؛ وانظر ياقوت (ج ٢ ص ٧٠٣).

ويقال إن بناءه أعجبُ بناء وأحسنُه. علىٰ نحو عمارة غُمْدان، القصر المشهور. كان محجوجا. وبه الراهبان اللذان ذكرهما بعض شعراء العرب، فى قوله :

أياراهبَىْ نَجْرانَ، مافعلَتْ هنـدُ؟ * أقامتْ علىٰ عهدى؟ وأنّىٰ لها عَهْدُ؟
إذا بعُدَ المشتاقُ، رثّتْ حِبالُه. * وما كُلُّ مُشْـتاقٍ يُغيّرُه البُعْـدُ!

ولهذين البيتين غِناءٌ حَسَنٌ.

وقد ذكره أبو الفرج الاصبهانى وقال : إنه كان لآل عبد المَدَان، سادةِ بنى الحارث. قال : وكان أهلُ ثلاثة بيوتٍ من اليمن نصارىٰ، يتبارَوْن فى البِيَع وزِيّها وحسن بنائها : آل المنذر بالحيرة، وغسّان بالشام، وبنو الحارث بن كعب بنجران، فتكون دياراتهم فى المواضع الكثيرة الشجر والرياض والغُدْران، الشامخة البناء. ويجعلون آلاتها من الذهب والفضة، وستورَها من الديباج. ويجعلون فى حيطانها الفسافس، وفى سقوفها الذهب. وكان بنو الحارث علىٰ ذلك، إلىٰ أن جاء الإسلام وفى كعبتهم هذه قال الأعشىٰ :

وكعبـةُ نَجْرانَ حَتْمٌ عليـ * ـكِ حتّى تُنـاخى بأبوابها!
نَزُور يَزِيدَ وعبدَ المَسِـيح * وقيسًا، وهُمْ خَيْرُ أربابها!
إذا الحَبَراتُ تَلَوَّتْ(١) بهم * وجَرُّوا أسافِـلَ هُدّابها،
وشاهَدُنا الجُلُّ(٢) والياسَمِيـ * ـنُ والمُسْمِعات بقُصّابها(٣)،
وبَرْبَطُنا(٤) مُعْـمَلٌ دائبٌ، * فأىُّ الثلاثة أزرىٰ بها؟

(١) غلط طابع الأغانى فحرف هذا الشطر (ج ١٠ ص ١٤٢).
(٢) أى الورد.
(٣) فى الاصل : تقَصّى بها.
(٤) فى الأصل : سيربطنا.

قال: وفي هذا الشعر غناء حَسَنٌ أخذه جحظة عن بنان.

ولهذا الدير أخبارٌ كثيرةٌ، ليس هذا مكانها.

بيعة أبي هور

بيعة أبي هور(١) — وهي بسَرْياقُوس. عامرةٌ برهبانها، مُثْرِيَةٌ بفضة قناديلها وذهب صلبانها. كثيرةُ القلالي، مُذْهَبةٌ بالوقود جُنْحَ الليالي. ولها أعيادٌ مقصودةُ الأوقات، منتظَرة الميقات.

(٢٦٤) حكى الشابشتي أن به — على ما ذكره أهله — أعجوبةً. وهي أنه من كانت به خنازيرُ وقصد هذه البيعة للمعالجة، أخذه رئيسها وأضجعه. وجاءه بخنزير وأرسله على موضع العلّة. فيلحس الخنزير موضع الوجع جميعَه، ويأكل الخنازير التي فيه، لا يتعدّى ذلك إلى الموضع الصحيح. فإذا نظُف الموضع، ذَرّ عليه من رماد خنزير فَعَلَ مثلَ فعل الأوّل من قبلُ، ومن زيت قنديل البيعة فيبرأ. ثم يؤخذ ذلك الخنزير فيُذبح، ويُحرق، ويُعَدّ رماده لمثل هذه الحالة.

وقال: وهو إلى الآن كذلك، كما ذكروه. قال: ولهذه البيعة دَخْلٌ عظيم ممن يبرأ من هذه العلّة. وفيه خلقٌ من النصارى.

دير يحنس

دير يُحَنّس(٢) — وهو بسنهور، من أعمال مصر. وهو عامر برهبانه، ناضرٌ بسُكّانه.

قال الشابشتي: وقد ذكر بعض المتقدمين أنه إذا كان يومُ عيده، أخرج الرئيس

(١) وتسمى دير أبي هور، ودير سرياقوس. أنظر كلام ياقوت (ج ٢ ص ٦٤١)؛ والشابشتي (ورقة ١٣٤)؛ والقزويني (ص ١٣١).

(٢) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٧١٠).



الذي في الدير الشاهدَ في تابوته. ويسير التابوت على وجه الأرض، فلا يقدر أحدٌ يُمسكه ولا يَحبِسه، حتى يرِدَ البحر فيغطس فيه، ويرجعُ إلى مكانه.

وقال: كذلك قول المتقدمين على أنه على هذه الحالة.

تحقيق للمؤلف

قلتُ: وهذه حكاية مكذوبة، لا صحة لها.

وإنما الذي بلغني، وأنا بمصر تلك المُدَد الطويلة، أنه إذا كان أوانُ تحرّك النيل، يُخرَج تابوتٌ، يقال إن فيه إصبع الشهيد، ويُرمى في البحر. وذلك لوقتٍ معلومٍ، يسمونه عيد الشهيد. ويكون الذي يرميه بعضَ أعزّاء كبراء القِبط. عادةٌ كنتُ أسمعها، لا تتغير. ويظُنّ القِبط أن رمْيَ الإصبع سببُ الزيادة. وإنما هو بمشيئة الله وقدرته.

دير مريحنا

دير مُرْيُحَنّا(١) — وهو على شاطئ بركة الحَبَش. قريبَ البحر، إلى جانب بساتين الوزير. وهي التي أنشأ بعضها تميم بن المعزّ وأنشأ به مجلسا على عُمُد. وقريبَ هذا الدير عينٌ ذهبتْ بها الرمالُ.

قال الشابشتي: وهذا الموضع من معادن اللّعب والشُّرب والطرب، نَزِهٌ في أيام النيل، وزيادة البحر، وامتلاء البركة. وكذلك هو في أيام الزرع. لا يكاد يخلو من المتنزهين. وقد ذكرته الشعراء. وفيه قال ابن عاصم:

(٢٦٥)

يا طيبَ أيامٍ سَفَحْتُ مع الصِبا * طَوْعَ الهوى فيها بسَفْحِ المَنْظَرِ!
فالبِركةُ الغنّاءُ فالديرُ الذي * قد هاج فَرْطَ صَبابتي وتفكّري!
فاحثُثْ كؤوسَك يا غلامُ وأعفني * فلقد سَكِرتُ وخمرُ طَرْفِك مُسْكِري!

(١) أنظر ياقوت (ج ٢ ص ٧٠١).

وأرى الثريا فى السماء كأنها * تاجٌ تفصّل جانباه بجوهرِ!
فاشرب على حُسْن الرياض وغنّنى * وانظُرْ إلى الساقى الأغنّ الأحورِ!
فلعلَّ أيامَ الحياة قليلةٌ * ولعلّنى قدّرتُ مالم يُقْدَرِ!

دير نهيا

دير نَهْيا[1] — ونَهْيا بالجيزة، وديرها هذا من أطيبها موضعا، وأجلها موقعا. عامر برهبانه وسكّانه.

وله فى النيل منظرٌ عجبٌ، لأنّ الماء يحيط به من جميع جهاته، ويزيد فى حسن مُتنزهاته. فإذا تصرّف الماء أظهرت أرضُه غرائبَ النُّوّار، وعجائبَ الزهور المشرقة الأنوار. وله خليجٌ ينساب انسيابَ أرقم، وعليه شطوطٌ كأنّها بالديباج تُرقَم.

وقال الشابشتى: وهو متصيدٌ ممتنعٌ. وأنشد فيه لابن البصرى[2]:

أتنشطُ للشُّرب ياسيّدى، * فيومك هذا دقيقُ الدُّروزْ؟
فعِندى لك اليومَ مَشْويّتان * سرقتهُما من دَجاج العَجُوزْ!
أتنشطُ عِندى على نَبْقتين، * على لَوْزتين، على قَطْرَميز؟
ونقصِدُ نَهْيا وديرًا لها * به مَنْبِتُ الورد والمَرْمَحُوزْ؟
ونشرَبُ فيها برِطْلٍ وجامْ * وطاسٍ وكأسٍ وكُوبٍ وكُوزْ؟
فعندى خَشْفٌ رَخيمُ الدَّلال * نَشا فى النَّعيم ولُبْس الخُزُوزْ!

(١) انظر المقريزى (ج ٢ ص ٥٠٤) ؛ وياقوت (ج ٢ ص ٧٠٤) ؛ والشابشتى (ورقة ١٢٩). وانظر أيضا أبوصالح الأرمنى فى تاريخه "أخبار من نواحى مصر وإقطاعها" الذى طبعه المستشرق الانكليزى إفت Evetts وترجمه إلى الانكليزية، بمدينة اكسفورد سنة ١٨٩٥ (ص ٧٧ — ٨١).

(٢) وفى الشابشتى: لعباس بن البصرى. وانظر المقريزى (ج ٢ ص ٥٠٢) ؛ وابن أبى أصيبعة (ج ٢ ص ٨٩) ؛ وياقوت (ج ٢ ص ٦٨٥) ؛ والشابشتى (ورقة ١٢٤).

دير القصير

دَير القُصَير[1] — هو فى أعلى الجبل، على سطح قُنّة من بلاد الفَتح[2]. وهو حسن البناء، نَزِهُ البقعة. وله بئر منقورة فى الحَجَر.

وفى أعلاه غرفة بناها خُمارويه بن طُولُون، تُطلّ من كل جهة. وكان كثير الغِشْيان لهذا الدير.

[٢٦٦]

والطريق إليه من جهة مِصرَ صَعْبٌ، ومن قبليّه سهْلٌ.

وإلى جانبه صَوْمَعَةٌ، لاتخلو من حَبِيس.

وإلى جانبه قريةٌ تُعرف بشهران. يقال إن أمّ موسى (عليه السلام) منها ألقته فى التابوت، فى البحر.

وبها دير آخر يعرف بدير شهران. وهو المعروف الآن بشعران[3].

قال الشابشتى: ودير القصير أحد الديارات المقصودة، والمتنزهات المطروقة: لحسن موقعه وإشرافه على مِصرَ وأعمالها. وفيه يقول محمد بن عاصم المصرى:

إنّ دَيْر القُصَيْرِ هاج ادّكارى * لَهْوَ أيامِنا الحِسان القِصارِ!
وكأنّى إذ زُرتُه بعد هَجْرٍ * لم يكن من مَنازِلى ودِيارى.
إذ صُعُودِى على الجياد إليه * وانحدارِى فى المُنْشَآت الجَوارى.

(١) ضبطه هنا فى الأصل (بالفتح كأمير). وفى ياقوت القُصَير. (بالتصغير). وقد عاد المؤلف فيما سيجىء من الأبيات فضبطه بالتصغير. وعلى ذلك ضبطها الشابشتى، وانظر أيضا ما ذكره أبو صالح الأرمنى (ص ٦٢ و ٦٥).

(٢) الذى فى الشابشتى هو "فى أعلى الجبل على سطح فى قلته" أما قول ابن فضل الله "سطح قنية من بلاد الفتح" فهو من عنده. ولعل هناك تحريفا من الناسخ. فإننى لاأدرى مايريد بقوله "بلاد الفتح" هنا.

(٣) هذه البيانات نقلها ابن فضل الله عن الشابشتى باختصار.

منزلًا لستُ مُحصِيًا مابقلبي * ولنفسى فيـهِ من الأوْطَارِ!

مـنْزِلًا من عُلُوِّهِ كسَمَاءٍ * والمَصَابيحُ حـوْلَه كالدَّرارى!

كم شَرِبْنا علىٰ التَّصاويرِ فيـه * بِصِـغَارٍ محُشُـوثةٍ وكبارِ!

صُورةٌ من مُصَوِّرٍ فيه ظَلَّتْ * فِتْنـةً للقُـلُوب والأبصارِ!

لا وحُسْنِ العَيْنينِ والشَّفَةِ اللمـ * ـياءِ منهـا وخـدِّها الجُلَّنارِ!

لا تخلَّفْتُ عن مَزارِىَ ديرًا * هِى فيه، ولو نأى بى مَزارِى!

فسقَىَ الله أرض حُلوان فالنجـ * ـد فديرَ القُصَـيرِ صوبَ العُشار!

كم تنبّهتُ من لَذَاذة نوْمى * بنَعِـير الرُّهْبـان فى الأسحارِ!

والنواقيسِ صائحاتٍ تنادى: * حىَّ يانائمًا عـلىٰ الأبتكارِ[1]!

وقال ٱبن ظافر: مضيتُ أنا والشهابُ يعقوب ٱبن أخت نجم الدين (يعنى ٱبن مجاور) والقاضى الأعزّ المؤيد[2] فى جماعة من أصحابنا إلىٰ الدير المعروف بالقصير إيثـارًا لنظر تلك الآثار، فلما تنزهنا فى حسـن منظره[3] تعاطينا العمل[4] فيه علىٰ عادة الشعراء[5] الذين قطعوا طريق الأعمار، بطروق الأعمار، وضيَّعوا العيْنَ والعقَار، فى تحصيل العَيْنِ والعُقَار . فقال الشهاب :

(١) هذه القصيدة فى كتاب الشابشتى تتألف من ٢٧ بيتا . وقد ترك ٱبن فضل الله منها ١٥ بيتا .

(٢) فى بدائع البدائه صفحة ١٢١ : الأعزّ بن المؤيد رحمه الله .

(٣) فى بدائع البدائه زيادةُ . وقضينا الوطر من نظاره .

(٤) فى بدائع البدائه : القولَ .

(٥) فى بدائع البدائه : جريا على عادة خلعاء البلغاء، وظرفاء الادباء، ومُجّان الشعراء، الذين نبذوا الوقار بالعراء، فقطعوا طريق الأعمار بطروق الاعمار.

سقىٰ اللهُ يومِى بدَيْر القصـير * قَصِيرَ العَزَالِى طَويلَ الذُّيولْ!

مَحَـلٌّ[1] إذا لاح لى[2] لم أقِفْ * بصَحْبى علىٰ حَوْمَلٍ فالدَّخُولْ.

فقلتُ :

فـكَمْ فيـهِ من قَمَرٍ فى دُجًى * علىٰ غُصُنٍ فى كَثِيبٍ مَهِيلْ!

بِبِردٍ صحيحٍ وطَرْفٍ سَـقِيم[3] * ورُوحٍ خفيفٍ ورِدْف ثقيلْ!

فقال الأعزّ :

قطعتُ به العَيْشَ معْ فِتْيَةٍ * صِباحِ الوُجُوه كِرامِ الأُصُولْ!

بكلِّ كريمٍ قَصِـيرِ المِـرا * ءِحاز المَعَـالِى بباعٍ طَوِيـلْ!

فقال الشهاب :

إذا قَسُّه سلَّ سيفَ المُدامْ، * فكم من سَلِيبٍ وكَمْ من قَتِيلْ!

فقال الأعزّ :

وكم من خَلِيعٍ كريم الفِعالْ، * يُجَـدِّد بالجُود غَيْظَ البخِيلْ!

فقلتُ :

يوافيـه ذا ذَهَبٍ جامدٍ، * فيُفْنِيه فى ذائبٍ للشَّـمُولْ!

ثم صنع الشهاب[4] :

علىٰ عَمْرِ القُصير قطعتُ عُمْرى[5] * وصُنتُ خَلَاعتِى وأزلتُ وَفْرى!

(١) بالأصل صفحة ٢٦٦ : محلا . وقد اعتمدنا على البدائع .

(٢) لى ، غير موجودة بالاصل . وأخذ ناها عن البدائع .

(٣) فى البدائع : بلحظ صحيح وجفن سقيم .

(٤) زاد فى البدائع : علىٰ غير هذا الروى والوزن فقال .

(٥) فى البدائع : قصرت [وهى أحسن].

فقال الأعز :

ولم أسمع لعمرك(١) قول زيد * إذا ما لامني أو قول عمرو!

فقلت :

ظفرنا فيه من شفة وكأس * بمشروبين: من ريق وخمر!

فقال الشهاب :

ودافعنا يقين الرأي فيه(٢) * بمظنونين: من خمر وخصر!

فقال الأعز :

كسوت به الكؤوس البيض حمرا * من القمص(٣) اشتريناها بصفر!

فقلت :

وظلت بمأزق للهو أتلو * بهز البيض فيه عناق سمر!

دير شعران

دير شعران(٤) — هو فى حدود طرا، من ضواحى القاهرة القبلية، فى لحف الجبل الأحمر، المعروف بالمقطم. وبناؤه بالحجر واللبن. وعليه نخل. وبه جماعة من الرهبان. وهو من ديارات اليعاقبة.

(٣٦٧) حكى أن السراج الوراق مر عليه، فنزل به. فرأى به جماعة من أودائه على راح تقدح لهم أقداحها، وتهدى إليهم أفراحها. وكان السراج قد طفئت فتيلته من

(١) فى البدائع : لعمرى .

(٢) « « : الدين .

(٣) أى القمص .

(٤) أنظر أيضا فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ٥٠١) ، وانظر ما أورده أبو صالح الأرمنى (ص ٦٠ و ٦٣) .

شعلة ذلك اللهب، ونكرت قافيته صفرة ذلك الذهب. فأتاه بها الساقى فردها، وواصلته فى الكاس فصدها. هذا حين نكس الكبر صعدته، وأنفد العمر مدته، وذكر بجلسائها فقد إخوانه، وذهاب زمانه. فلامه من حضر إذ صد الكاس، وقال: أمالك أسوة بهؤلاء الجلاس؟ فقال :

عجب الساقي لردى القدحا * ولأمري في التصابي قدحا!

وأتانا بحيا كأسه * حيث جئنا دير شعران ضحى.

قلت: يا قرة عيني ربما * غض طرفي بعد ما قد طمحا!

لم أكن أول ولهان سلا * لا ولا أول نشوان صحا!

أشرب الراح أرجى فرحا * فيتيح الحظ منها ترحا!

سوء حظي لو رمى الصبح دجا * أو رمى ليل عذار وضحا!

وخمول منطق بالشتم لى، * من أرى دهري له ممتدحا؟

زاد فى سبي إلى أن خلته * شهد الله به قد سبحا!

أنا ما ذنبي لحا الله امرأ * لام في التوبة مثلي ولحا!

يا نديمي أنت للراح فدعني * أنزح الدمع إلى أن ينزحا!

هي أوقات وكل آخذ * من صفا أوقاته ما سمحا!

حكى أن السراج الوراق وأبا الحسين الجزار خرجا فى عهد صباهما، والشباب أعقد حباهما، يريدان النزهة. فوجدا غلاما زامرا، يتمنى منه اللقاء، ويجتمع فيه الغصن والورقاء. يتلفت بصفحة القمر المنير، ويطرب كأنما زمره مما أوتى آل (٣٦٨)

داودَ من المزامير . فلفتاه إليهمـا لأمر، وظنّا أنه ستُلينه لهما الخمر . فأتيـا به دير شعران ، وصَـعِدا إليه، فوجدا راهبا يصدَعُ حُبُّـهُ الفؤاد، ويطلعُ قمره ولا شئ احسن منه فى ذلك السواد . فزاد سرورُهما بحصول الزامر والراهب، وأيقنا ببلوغ المآرب . فلما حميت فيهما سَوْرَةُ الحُميّـا، وظن كلٌّ منهما أنه قد حُصّل له فراشُه وتهيّا، فَطِنَ الزامر والراهب لمرادهما فتركاهما ومضيا قبلَ التمام، وتركاهما وكلٌّ واحد منهما يشكو ضجيعا لاينام . فقال السراج :

فى فَخِّنا لم يَقَعِ الطـائرُ: * لا راهبُ الديرِ ولا الزامرُ!

فقال أبو الحسين الجزار:

فسَـعْدُنا ليس له أوّلٌ، * ونَحْسُـنا ليس له آخِرُ!

فقـال السراج:

فالقلبُ فى إثرهـا هـائمٌ،

فقـال الجزار:

والقلبُ من أجلهما حائرُ!

وحُكى أن السّراج الورّاق كان يغشى راهبا بدير شعران وافرَ العقل، كاملَ الفضل. فخرج إليه فى جماعة من أهل الأدب وشعبانُ قد بقِىَ علىٰ أقلّ من نصفه، وبدره قد أخذ يتقهقر إلىٰ خلفـه. وشهرُ رمضانَ قد آنَ له أن تُغَلَّ فيـه شياطينُ الأنام، ويُختَم فيه علىٰ الأفواه بالصيام. فألفَوْا الراهب وقد لبس مِسْحَه وساح، وعزل الدير فما هبّت فيـه رائحة راح. فلما رأوا أن دَيْنَ رمضان قد حان حلول أجله، وأنّ وجه الدير الوقاحَ مادبّتْ فيه من الخمر حُمرةُ تَخجـلِه، خافوا أن يأتى الصيام، وما

تشعشع سوىٰ قنديل بُخوره الذى بان. ولا مُلكَ مُدامٍ يأتى منه أوائل وِرْدٍ فى أواخر شعبان. فندب السّراج إليه راهبا من شَباب الدير ليتبعه، وكتب معه:

أبلغِ الفاضلَ الرئيسَ السّلاما، * شَقَّ عن زَهْرِه الصباحُ كِماما!
قُلْ له: أيُّها الحكيمُ الذى فى * دِينِ عيسىٰ قد بَرْهَنَ الأحكاما!
كم رقبْناك كالهلال إلىٰ أنْ * لُحْتَ للناظرين بدرًا تماما!
يا أبا المِلّةِ المَسيحيّة ارحمْ * مَعشرًا مُذْ ظَعَنْتَ عنهم يَتامىٰ!
فُطِموا من رَضاع كأسِ الحُميّا * وهى أنكىٰ للمرضَعين فِطاما!
وآستحلّوا وضعَ الصليب عن الرا * ووق من بعـد حَمْلِه أعواما!
عَدِموا راحةَ النُّفوس من الرا * ح، فداركْ بالأنفُسِ الأجساما!
وأطالوا حَبْسَ المُدامـة فى الدّ * نّ، ويكفى حبسُ المُدامة عاما!
ودعا الديكُ للصَّبوح فَهبّوا * كالمحبّين لايَعُون المَلاما!
فآسقِهم من سُلافةٍ تطردُ الهمّ * وعجِّلْ لهم بذاك آهتماما!
وعسىٰ قائلٍ يقـول لحَظّى * ونَصيبى: أطلتَ فى ذا الكلاما!
كذبَ المدَّعى وآخِرُ شعبا * نَ يُناديكَ الصيامَ الصِّياما

دير البغـل

دير البغلِ(1) . هو شمالىّ دير شعران. وبناؤه مثل بنائه فى لِحف جبل المقطّم. وعليه نخلٌ . وبه جماعة من الرهبان اليعاقبة.

قالوا: وسُمّى بدير البغل لأنه كان به بغلٌ لسَقْىِ المـاء، تعوّد هذا وألِفه. وكانوا إذا أطلقوه، أتىٰ مورد المـاء، وهناك مَن يملأ عليه . فإذا حمله أتىٰ الدير بالمـاء .

(1) انظر ما أورده أبو صالح الأرمنىّ (ص ٦٣) .

خرج إليه السّراج الورّاق مع أبى المُفَضَّل بن العسّال فى جماعة من أهله، وأقاموا به أياما فى لهو، يهزّون أعطاف الزّهو . وكان بالدير غلام لايتعدّاه أمَلُ المقترح، ولايحاكى ذوابلَ عيونه الا النرجس المتفتح . فألفه السراج الورّاق وهو إلىٰ وصل منه محتاج . فلما عادوا، قال السراج يذكر أيامه ويمدح أبا المفضَّل، ويذكر شيئا كان عليه به قد تفضَّل :

أَجْناكَ من عارضٍ فى خدّه لاحا * رَيحانةً جاورَتْ من رِيقهِ راحا.
وماكَفاه الشَّذَا المِسْكِىّ بينَهما * حتّى جَلا من خَضِيب الخدّ تُفّاحا.
عَيْنِى رأتْه بدير البَغْلِ فى مَلإٍ * قد قام فيهم مع الأَسْحار نَوّاحا. (٢٧٠)
مقرطَقٌ تَرَكَ النُّدْمانَ من يده * صَرْعَى وقد حَثّ أحداقا وأقداحا.
عاطَيْتُه كأسَها والشُّهْبُ ماجَنَحَتْ * إلىٰ مَغارِبِها والدِّيكُ ماصاحا.
والنّجم حيرانُ لولا ما رفَعتُ له * من كأسها تحتَ جُنْح الليل مِصْباحا.
حتّى إذا أدنَتِ الصَّهباءُ خُطْوَتَهُ * ورحَلَتْ يدُه عن راحهِ الراحا.
وباتَ طَوْعى فلم أَزْدَدْ علىٰ قُبَلٍ * إذ لا أُبِيتُ لبابِ العارِ فَتّاحا.
أُغالِبُ النفسَ عمّا تشتهِى كرَمًا * جِدًّا فلا تحسَبنّى ثَمّ مزّاحا.
وقد يَرُوقُك لفظى الحُلْوُ لاسِيَما * إذا لَقِيتُ بنى العسّال مُدّاحا.
القوم جادُوا ولم أسأل، وهم مَنَحُوا * وما غَشِيتُهمُ والله مُمْتاحا!
وشاد مجدُهُمُ بيتًا يبيت له * طَرْفُ المَجَرّة مما طال طَمّاحا!
من كلّ أزهَرَ لولا فى تطلُّعه * مَطالعُ الصُّبْحِ! زادَ الصبحَ إيضاحا،

صَحِبْتُهُمْ نحوَ دير البَغْلِ مطلبُنا * صهباءُ جرَتْ بطوقِ الليل فأنزاحا.
أبا المُفَضَّلِ، لم أبلُغْ مَداكَ ولو * طارحْتُ فى مَذْهَبِ الشعرِ الطِرِمّاحا!
إنْ رُمْتَ إخفاءَ ماتُعْطِى فقدنطَقَ الـ * ـمعروفُ عنك بما تُخفِى وقدباحا!
لا تَبْغِ للجُود كِتْمانا فتَطْلُبه * إنا رأينا نَسِيمَ الجُود فَيّاحا!

دير طَمُّويه[(١)] ـ ويُعرف المكانُ الآن بطمُّوه، وهو فى الجانب الغربىّ، بإزاء حُلْوان . والدير راكبٌ علىٰ البحر . تحفّ به الكروم والبساتين والأشجار . وهو عامر الأوطان . آهل بالرهبان . وحين تخضرّ الأرض يكون بين بِساطَيْن من البحر والزرع . دير طمويه

قال الشابشتى : وهو من المتنزهات المذكورة، والمواضع الموصوفة . وأنشد فيه لابن عاصم قولَه :

وٱشربْ بطَمُّويهِ من صَهْباءَ صافيةٍ * تُزْرِى[(٢)] بخمرِ قُرىٰ هِيتٍ وعاناتِ! (٢٧١)
علىٰ رياضٍ من النُّوّار زاهيةٍ * تجرى الجداولُ منها بين جَنّاتِ!
منازلًا كنتُ[(٣)] مشغوفا بها كَلِفا * وكنّ قِدْمًا مَواخِيرِى وحاناتِى.
إذ لاأزال مُلِحًّا بالصَّبُوح علىٰ * ضَرْبِ النواقيس صَبًّا بالدياراتِ.

---

(١) وٱنظر أيضا فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ٥٠٤) ، و ياقوت (ج ٢ ص ٦٧٤) ، الشابشتى (ورقة ١٣١) وٱنظر أيضا ما أورده أبو صالح الأرمنى (ص ٨٥) .

(٢) فى الأصل : تروى . وفى الشابشتى : زرى . هكذا بغير نقط .

(٣) هذه رواية الشابشتى . والذى فى ٱبن فضل الله "إنى وإن كنت" وقد فضلت الرجوع إلىٰ رواية الشابشتى لان ٱبن فضل الله ٱختزل من هذه القصيدة ثلاثة أبيات ، ولان خبر هذه الجملة الشرطية التى مال إليها لم يرد .

كنيسة الطور

كنيسة الطُّور[1] ـ قال الشابشتىّ : وهذا الطُّور هو طورسينا، الذى صَعِقَ عليه موسىٰ، عليه السلام . والكنيسة فى أعلىٰ الجبل . مبنيّةٌ بحجر أسود . عرض حصنه سبعة أذرع . وله ثلاثة أبواب من الحديد . وفى غربيّه باب لطيف . وقدّامه حجرٌ لَقيمٌ . إذا أرادوا رفعه رفعوه، و إذا قصدهم متغلّب أرسلوه، فأنطبق . فلا يعرف أحدٌ مكانَ الباب . وداخلها عينُ ماء، وخارجها عينٌ أخرىٰ.

قال : «زعم النصارىٰ أن بها من أنواع النار الحديدةَ التى كانت ببيت المقدس : يَقِدُون[2] منها فى كل عشيّة السراج . وهى بيضاء ضعيفة الحرّ، لاتُحرِق . ثم تقوىٰ إذا هم أرادوا أن يوقدوا منها .

وهو عامر بالرهبان . فلا يخلو من أحد من أهل البطالات للتفرّج فيه والتبرّك ـ علىٰ رأيهم ـ به .

وهو من الديارات الموصوفة والأماكن المقصودة . وممن وصفه آبن عاصم . قال فيه :

يا راهبَ الدَّيْرِ، ماذا الضوءُ والنُّورُ * فقد أضاء بما فى دَيْرِك الطُّورُ؟
هل حلّتِ الشمسُ فيه دُونَ أبرُجِها * أو غُيِّب البدرُ عنه فهو مستورُ؟
فقال : ما حلّه شمسٌ ولا قمرٌ، * لكن يُقرَّب فيه اليومَ قُوْرِير!

(١) وآنظر المقريزىّ (ج ٢ ص ٥١٠)، والشابشتىّ (ورقة ١٣٣)، و ياقوت (ج ٢ ص ٦٧٥ و ٦٧٦)، والقزوينىّ (ص ١٣١) . وكلهم يسمى هذه الكنيسة بآسم "دير الطور" وشعر آبن عاصم الوارد فى المتن يشهد بهذه التسمية . وهو غير دير طور سينا الذى سبق الكلام عليه بآسم دير الطور .

(٢) صوابه يوقدون لأن "وقد" لازم و يتعدّى بالهمزة . وقد جاء بعد سطر على الصحة .

دير طـرا

دير طُـرَا[1] ـ وموقعه قبلىّ القرافة ومصر، يلى بركة الحبش و بساتين الوزير. يقصده أهل مصر للفرجة والتنزه . و يُؤْتىٰ إليه علىٰ ظهر البرّ والنيل . وله إشرافٌ علىٰ النيل . ولا يخلو من قَصْف وشرب . ولأمراء الديار المصرية إليه إفضاء فى الفضاء ومنتهىٰ الركوب . وفيه أقولُ :

شعر المؤلف فيه



يومَ طُرَا وديرِها * وما أتىٰ من خَيْرِها!
وأبيضٍ من يومها * وأحمرٍ من مَيْرِها!
مُدامةٌ تَسْرِى بنا * مُجِدَّةٌ فى سَيْرِها؟
لم أنْسَ هِيفَ نخلها * ويومَنا فى حَيْرِها،
وأكْلَنا من حُوتِها * ووَحْشِها وطَيْرِها!
هـذا إلىٰ فاتنةٍ * مَليحةٍ فى دَيْرِها.
فلا تَقُلْ لِى : غيرُها . * ما أرَبِى فى غَيْرِها!

(١) وآنظر المقريزىّ (ج ٢ ص ٥٠١) .

الديارات السبع

الديارات السبع[1]

وهى فى الوجه البحرى، وهو سُفلىُّ ديار مصرَ. ممتدَّةٌ غربا على جانب البرِّيَّة القاطعة بين بلاد البُحيْرة والفيُّوم.

مرور المؤلف على بعضها فى أيام السلطان الناصر

مررْنا على بعضها فى الصحبة الشريفة الناصريّة. وهى فى رمال مُنْقَطعة، وسباخٍ مالحةٍ، وبَرارٍ مُعْطِشة، وقِفارٍ مُهْلِكة. وشِرب سكّانها من جفاراتٍ لهم. وهم فى غاية من قَشَف العيش وشَظَف القُوت.

ويحمِلُ النصارىٰ إليهم جلائل النذور والقرابين، وتخصهم بكرائم التُّحَف.

ويتخذ كتبةُ القِبْط وخَدَمُ السلطان منهم خاصةً، أياديَ معهم، ليكونوا لهم ملجأ من الدولة، إذا جارت عليهم صُرُوفُها.

ولم أعلم فيها[2] أخبارا فأذكرها ولا أشعارا فأُطرِفَ بها. وإنما ذكرتُها لشهرة آسمها وبُعْدِ صِيتِها.

الدير الابيض

الدير الأبيضُ[3] – وهو دير جليل البناء، أبيضُ كما سُمِّيَ. عليه رونقٌ. قد بُنِيَ

(١) هى المشهورة التى بوادى النطرون. وقد زرتها فى سنة ١٨٩٤ ميلادية.

(٢) فى الأصل: فيهم.

(٣) ويعرف بدير "بو شنوده". وآنظر ياقوت (ج ٢ ص ٦٤١)، وقد آقتصر على القول بأنه فى الصعيد وأنه يقال له "دير الأبيض". وقد ذكر أن بالرها ديرا آخر بهذا الآسم فى جبل مطل على تلك المدينة [المعروفة الآن بآسم أورفا] وأن ناقوسه متى ضرب يسمع بها، وآنظر أيضا ما أورده أبو صالح الأرمنىّ (ص ١٠٤ إلى ١٠٦)، وقد سماه "دير بو شنوده" وقال إنه بإخميم، على جبل يسمى أدريبة.



بالحجر الأبيض، وزُيِّنَ فى أبنيته، ووُسِّع فى قدر أفنيته. وهو غربىّ النيل، فى طَرَف الحاجر المُطِلّ على المزدرَع، فيما يقابل إخْميمَ. وله إشرافٌ على بسائط تلك الزروع، وسوارح تِلك المواشى. وبإزائه نخلٌ خاصٌّ به.

وصف المؤلف له

ويجرى من النيل خليج طويل المدىٰ، كأنه السيفُ النقىّ من الصدىٰ؛ ينتهى إلى مَلَقةٍ متسعة، وبركة فيها أمداد المياه مجتمعة، شرقىّ الدير. يفصل بينهما الطريق. ويطلّ على هذه المَلَقة رابيةٌ علية، قد تكونت من فَضَلات التُّرَع المحفورة والجسور المستجدّة.

لا يُرىٰ مثلُ نزاهته فى زمن الشتاء والربيع: يتضاحك فى جَنَباته النُّوّار، وتخضَرُّ فيه شِقاق الزروع، وتكثر فيه مصايد الطير، ويكون من الحُسْن فى غايةٍ تملأ البصر، وتزيد على الخَبَر. ومررنا به صحبةَ السلطان ونزلنا على تلك الرابية. وأشرفتُ على البركة وفيها قارِبٌ يصادُ فيه السمك، ومرّت الأطلابُ مُزَيَّنَةُ الترك[1] وجياد الخيل. فسُئِلتُ أن أعمَلَ فى مثل هذا شيئا، على رسم ما يقال فى الديارات. فقلتُ:

٢٧٣

أرجوزة طويلة للمؤلف فيه

١ يومٌ لنا بالدَّيْر، دير الأبيضِ * قد آنقضىٰ وطِيبُه لم ينقضِى.

٢ قد جِئْتُه فى العَسكر المنصُورِ * فغلّق الأبواب كالمحصُورِ.

٣ ونزل الرُّهبانُ بالدَّبُّوسِ * فيه إلى قرارة الدَّيْمُوسِ.

٤ وآطَّلَعَتْ نحوِى هُناك رابيهْ * تيّاهةً على الوِهاد آبيهْ.

٥ قد خضعتْ من جانِبَيْها الوُهُدُ * كأنّها فوقَ الصُّدُورِ نَهْدُ.

(١) يظهر أنه سقط كلام من الاصل. فان كلمة "مزينة" جاءت فى آخر الصفحة، وكلمة "الترك" جاءت فى أول الصفحة التالية. وربما كانت الجملة هكذا ومرت الأطلاب مزينة "بأبناء" الترك وجياد الخيل.

٦ كأنما تطلب منى المأتى * هذا وقد ولّى زمانُ المشتى.
٧ وللربيع مُذ أتى اعتدال * وللنسيم بينه اعتلال.
٨ والشمسُ قد دبّ بها السّقامُ * واليومُ لم يبقَ له مُقامُ.
٩ والليلُ قد هيّأ صفّ عسكره * وإنما معروفُه فى منكره.
١٠ والجوّ فى ردائه المُصندَلِ * والأرضُ تذكى باشتعال المَندَلِ.
١١ ومِجمَرُ الشقيقِ فيها مُوقَدُ * وشُعَلُ البهارِ فيها تُوقَدُ.
١٢ وزهرُ الفول ادّعى بالحقِّ * شبيهَ أذنابِ الدّجاج البُلْقِ.
١٣ وزهرُ الكتّان كالبنفسج * ومثله لولا ذكِيُّ الأرَجِ،
١٤ تبدو على أعطافه التّرافَهْ * ذو هَيَفٍ فى شكلِه ظَرافه.
١٥ كأنه فى مائه الممتزِجِ * زبرجدٌ رُصّعَ بالفيروزجِ.
١٦ وسائرُ الزرع شِقاقٌ خُضُر * وبعضُها لها طِرازٌ نَهْرُ.
١٧ والنخلُ حولَ الدير كالعرائسِ * مَجْلُوّةً فى فاخرِ الملابسِ.
١٨ كأنه مشمّراً فى همّه * صفٌّ وقوفٌ حوله فى الخدمه.
١٩ وثَمّ من باقى مُدودِ النيلِ * ماءٌ شبيهُ الصارمِ الصّقيلِ،
٢٠ وافتْ إليه خُلُجٌ مُفرّقه * واجتمعتْ جميعُها فى ملتقه:
٢١ دائرةٍ قوراءَ مثلِ الأُفُقِ * تأوى بها حيتانُها فى نفقِ.
٢٢ صافيةٍ كمثلِ عينِ الديكِ * فى غاية الصّقال والتفريكِ.
٢٣ قد ولعتْ فيها الرياحُ بالطُّرَرْ * فشوّشتها ثم سالتْ كالغُرَرْ.
٢٤ فسيحة الأرجاء كالميدانِ * تشقّها سوابحُ الحيتانِ.

٢٥ فيها من الأسماك أشتاتٌ ترى * تأخذُ من أنواعهنّ العنبرا.
٢٦ فيها من البُلْطِىّ والبُنِّىّ * مآكلٌ كالرُّطَبِ الجَنِىّ.
٢٧ والبركةُ الفيحاءُ فيها قارِبُ * وفيه صارٍ للشّباكِ ضارِبُ.
٢٨ يجرى به قاربُه على نَفَسْ * وهْوَ به فى الماءِ نارىُّ القَبَسْ.
٢٩ كأنما أجرى به جوادا * أسرعَ فى الرّكضِ وما تمادى.
٣٠ كأنه إذا أراد المَركَبا * صِلٌّ من الحيّات يرقى عقربا.
٣١ يُسيّرُ الحيتانَ وسْطَ الماءِ * كأنّها النجومُ فى السماءِ.
٣٢ يأتى إليها بأضاليل الخُدَعْ * لأجلِ ما يأخذُ منها ويدَعْ.
٣٣ ولم يزلْ بخفّةٍ فى الحركَهْ * حتّى أنّه يُلْقِى عليها الشبكه.
٣٤ وكُلّ ما يُريدُه يَصيدُ * يا زارعَها آنَ لكَ الحَصيدُ.
٣٥ وعَنّ لى سِربُ مَهًا جآذِرُ * أجفانُها تضُمُّ ما نُحاذِرُ.
٣٦ أقمارُ تُركٍ فوقَ شُهْبِ الخيلِ * وبينَها أدهمُ ضافِى الذّيلِ.
٣٧ فجئتُ حتّى صرتُ فوقَ الهضبَهْ * وعاينَتْ عيناىَ تلكَ الحَلْبَهْ.
٣٨ ويا لَها من حَلْبَةٍ لا تُلْحَقُ * تكبُو وراءَها الرياحُ السُّبَّقُ!
٣٩ كأنّها أُفُقٌ حوى أقمارا * قد طَلَعُوا فى أُفْقِها نَهارا.
٤٠ من نَسْلِ خاقانَ وجنسِ التُّرْكِ * قد عوّدوا ألحاظَهم بالفتْكِ.
٤١ كم فيهمُ من ساحرِ الأجفانِ * قَيْسِىّ خدٍّ طرفُهُ يمانى!
٤٢ للهِ إنْ جرّد أسيافَ الحدَقْ * وبدّد الدّماءَ فى الخدّ اليَقَقْ!
٤٣ فيها مِلاحٌ للعِناق خُلِقُوا * ما برزوا للعين حتّى عُشِقُوا.

٤٤ وميدُ الأغصانِ ثم تستبقْ * طورًا تخلّى ثم طورًا تعتنقْ.
٤٥ أغصانُ بانٍ أم هم غزلانُ * أو الشموسُ بل هم الولدانُ.
٤٦ قد ركبوا صوافنَ السوابقِ * وٱفترقوا لكن فؤادَ العاشقِ.
٤٧ منهم فتًى يهتزّ كالرديني * من لى منه لو قضيتُ ديني؟
٤٨ قد أسرجَ الغمامَ بالهلالِ * مُطهَّمًا فى صبغةِ الليالى.
٤٩ يفرقُ شطرَى وجهِه بغرّه: * كآبةٌ فى وسطها مسرّة.
٥٠ أدهمُ منه فى السباق قد بدرْ * ليلٌ ولكن فوق عطفيه قمرْ.
٥١ مُبلبلُ الصُّدغِ رخيمُ الدَّلّ * أُريدُ منه للهوى معلّى.
٥٢ له من العُجبِ جفونٌ مطبقه * وآفتى من العيون الضيّقه.
٥٣ لم أرَ مثلَ ثغرِه إذ ضحكا * لقد حكاه البرقُ لكن ما حكى.
٥٤ بدرٌ ولا تفصحُ لى أسماؤُهُ * ذو ترفٍ يكاد يجرى ماؤُه.
٥٥ مالِى وما للراحِ أو للأكؤسِ * إذ حلّ لى بندَ القباء الأطلسِ!
٥٦ وبانَ من ثيابه المجرّدُ * كأنّه من فضةٍ تنقّدُ.
٢٧٦ ٥٧ فيا أُخىّ إنْ قضيتُ نحبا * دعنى أموتُ فى هواه حُبّا!
٥٨ أهونْ بدمعِ مقلتَىّ الصّبّ * فقد تعشّقتُ صبيًا يُصبى!
٥٩ ما الموتُ فى هواه إلّا محيا * لو متُّ عشقًا فيه كنتُ أحيا!
٦٠ لمّا أتانى من بعيدٍ ووقفْ * قمتُ له للّثمِ أقدامٍ وكفّ.
٦١ وكان قد حانَ غروبُ الشمسِ * وطلعَ البدرُ كمثلِ الترسِ.
٦٢ وظلْتُ أُلهيه بأشغال السمرْ * لعلّ للذى فعلتُه ثمرْ.

٦٣ وقلتُ هذا منزلٌ نزيهُ * ليس له فيما هنا شبيهُ.
٦٤ يامرحبًا شرّفتَ هذا الموضعا * وجئتَنا والبدرَ فى وقتٍ معًا!
٦٥ فلو نزلتَه هناك أو هنا * عمّ بقُربك السرورُ والهنا.
٦٦ فٱنزلْ بنا وٱقعدْ قريبًا ساعهْ * ولا تخفْ من فاضحِ الشناعهْ.
٦٧ فلانَ لِى جانبُه ثم ٱبتسمْ * وفاح لى طيبُ رضاه ونسمْ.
٦٨ وقال لى أقِمْ حوالَينا الحرسْ * وٱنحطّ لى كالسهمِ عن ظهر الفرسْ.
٦٩ فقلتُ: ما تقول فى ذا إنْ مسكْ * هذا لنا وجابَ من هذا السمكْ؟
٧٠ ونوقدُ النارَ له ليُقلى * ومن أتى مزاحمًا فى المقلى.
٧١ ونأكلُ السلّورَ والشبّوطا * والفرخَ والمسلوخَ والمسموطا.
٧٢ هذا وما تضمُّ أكنافُ السُّفَرْ * وما تكون منه ألطافُ السفرْ.
٧٣ فقال لى: دونك ماتريدُ! * فكان عندى باللقاء عيدُ.
٧٤ هذا وكنّا قد أمرْنا الطاهى * بأخذِ تلك الجلّة الزواهى.
٧٥ فأتقنَ الجميعَ بالتنظيفِ * وزانها فى الوضع والتصفيفِ.
٢٧٧ ٧٦ وحطّ عن أجسامها الحواشنا * وأظهرَ الجمالَ والمحاسنا.
٧٧ وٱقتدحَ النارَ من الزنادِ * مثلَ ٱصطكاك البرقِ فى العهادِ.
٧٨ يطيرُ من جانبِها شرارُ * هل منه للرمّانة انتشارُ.
٧٩ يورّثُ الموقدَ جُلّ نارِ * كأنها شُبّتْ بجلّنارِ.
٨٠ وبعدَ هذا صفّف المقالى * وكلّنا نُحبُّ ذاك القالى.
٨١ وسكبَ الدهانَ فى الطّنجيرِ * كمثلِ بسطِ الظلّ فى الغديرِ.

٨٢ ثُمَّ قَلَى فى الطاجن الأسماكا * لولا قليلٌ، لقَلى السِّماكا.
٨٣ ونضَّدَ الصُّحُونَ ثُمَّ صَفَّفا * سبائكًا من النُّضار قد صَفا.
٨٤ أعادَها بعدَ النُّحيْنِ عَسْجَدا * صَفَّرَ ألوانًا لها ووَرَّدا.
٨٥ وجاء بالملحِ وبالأبزارِ * سكارجا تروق للأبصارِ.
٨٦ مصفوفةً لنا على مقدارِ * كدرهمٍ صُفَّ إلى دينارِ.
٨٧ وصَبَّ من أطايب الأصْلاصِ (١) * حقائبًا مسدودةَ العِفاصِ.
٨٨ من حامضٍ مُطَيَّبٍ ومُزٍّ * وغير ذا من كلِّ حمضٍ يجزى.
٨٩ ونَضَّدَ البُقولَ فى الأطباقِ * مثلَ الحرير لُفَّ فى الأوراقِ.
٩٠ ووَضَعَ الكماجَ والرُّقاقا * حتى استدار حولها نطاقا.
٩١ وجاءَ بالفُقَّاعِ والمشروبِ * يَهُمُّ فى الكيزان بالوُثوبِ.
٩٢ ومنهُ فى إنائه مسكوبُ * كأنه من ذهبٍ مصبوبُ.
٩٣ وقرَّبوا الحلواءَ مِلْءَ الجامِ * كمثلِ قُرص الشمس بالتمامِ.
٩٤ فقام لى وَزْنُ سُرورى وقسطْ * لأنَّ مَنْ أحببتُهُ قد انبسطْ.
٩٥ ومدَّ عندى يدَهُ ثُمَّ أكلْ * ثُمَّ تنقَّلنا بمنهوب القُبَلْ. ٢٧٨
٩٦ فكم أصبنا منه ما أردنا * ولو نشاء بعدَ هذا زدنا!
٩٧ ثم أدمْنا حمدنا والشكرا * وهْوَ بما جاد علينا أدرى.
٩٨ ثم أتانا الطَّستُ والغَسُولُ * كأنه بعنبرٍ مجبولُ.
٩٩ ثم تلاه الطِّيبُ والمنديلُ * ياحبَّذا ماحبَّه الرسولُ.

(١) جمع صلصة. (معربة عن اللاتينية والطليانية Salsa وعند الفرنسيين Sauce).

١٠٠ حتى إذا ما نزَلَ السلطانُ * واشتغل الغوغاءُ والغِلمانُ (١).
١٠١ ونام كلٌّ مستكنًّا فى الخيَمْ * ونكَّرَ الآفاقَ جلبابُ الظُّلَمْ.
١٠٢ وأمِنَ الراهبُ والقِسِّيسُ * وانشقَّ عن موتاهمُ الناووسُ.
١٠٣ وأوقدوا فى البِيعةِ القِنديلا * ورجَّعوا المزمارَ والإنجيلا.
١٠٤ وزيَّنوا الهيكلَ بالقُربانِ * وصَفَّفوا الشُّموعَ والقَنانى.
١٠٥ وسكبوا الصهباءَ فى الإبريقِ * صفراءَ أو حمراءَ كالعقيقِ.
١٠٦ وصبَّها فى الكاسِ مثلَ اللَّهَبِ * ممتدةً مثلَ شريطِ الذهبِ.
١٠٧ يسعى بها مُقَرْطَقٌ مُزَنَّرُ * شِبهُ الغزال الخُشْفِ أحوى أحورُ.
١٠٨ من فِتيةٍ داموا على الإنجيلِ * مَنْ لى بهم لو أنَّهم من جيلى.
١٠٩ وبعضُهم دبَّ له عِذارُ * كأنه من صدِّه اعتذارُ.
١١٠ وفيهم ذاك الغزالُ النافرُ * خليفةُ المِلاحِ وهْوَ الظافرُ.
١١١ لما بدا منه الصَّباحُ السافرُ * تستَّرَ الليلُ فقيل الكافرُ.
١١٢ أو بِنْتُ قِسِّيسٍ عليها مِسْحُ * كالليل قد أقبل فيه الصبحُ.
١١٣ بمعصمٍ فيه دلالٌ وترفْ * كأنه من ماء خدَّيها اغترفْ.
١١٤ فاتنةٌ من الظِّباء العِينِ * قد ناصبت بدينها لدينى. ٢٧٩
١١٥ ماذا أقول فى بديع صُنعِها * والبدرُ فى الظلماء حشوُ درعِها؟
١١٦ غصنٌ رطيبٌ دبَّ فيه الراحُ * ومِنْ جَنى خُدودها التفاحُ.
١١٧ آفةُ كلِّ مسلمٍ وكافرِ * وفتنةٌ فى أوَّلٍ وآخرِ.

(١) لم يرد جواب الشرط، إلا أن يكون مقرونا بالواو فى الأبيات التالية.

١١٨ ياما جرى منها و ياما يجرى * منّا ومنها من بكا وهجر!

١١٩ مُذْ هدَتْ عنّا عيونُ الناس * زُرْتُ به فى غفلة الحرّاس.

١٢٠ وقلتُ، قُمْ حتّى نروح فى الغلس * فى خُلْسة، فأطيبُ العيش الخُلَسْ!

١٢١ فالدّيرُ قد آن له أن يُفْتَحا * وكان قد أُغلق عمدًا من ضُحى.

١٢٢ قُمنا إليه تحت ستر الليل * نوازعًا نرمى على سُهَيْل.

١٢٣ وقد علا هيكلَه القنديلُ * كأنه لرأسه إكليلُ.

١٢٤ وثَمّ فى الدير لنا صديقُ * منهمكٌ فى السُّكْر لا يُفيقُ.

١٢٥ لكنّهُ لخوفه قد كانا * ماشرب الصّهباء حتّى الآنا.

١٢٦ وعنده جميعُ ما نطلبُهُ * وصوتُ أوتارٍ له تُطرِبُهُ.

١٢٧ وهْوَ إذا تبطّن السُّلافه * لم تستطعْ مليحةٌ خلافَهْ.

١٢٨ لأنه عرّف كلّ راهبه * بمكره أنّ الحياة ذاهبه.

١٢٩ وكلُّ ما تريد منه يحصُلُ * وَفْقَ المُنى مسارعًا يستعجلُ.

١٣٠ فأنهضْ وقُمْ وطِبْ ولا تُونَّى * وآقتُلْ بما شئتَ سِوى التجنّى!

١٣١ فقم بنا آنهض ودَعِ العَذالا! * كم ذا القُعودُ هكذا كُسالى!

١٣٢ لِنَغنم الصِّحّة والفَراغا * ونشربَ العُمْرَ لنا ما آنساغا!

١٣٣ ولم أزَلْ بِهِ بِهِ حتّى نَزَلْ * شاباش لى! صِدْتُ الغزالَ بالغزَلْ!

١٣٤ خدعتُه فآنطاع لى الغُلامُ * وكان ما قد كان ، والسلام!

١٣٥ وبِتُّ مسرورا بذاك الخِشْف * وفوق ما وصَفْتُ منه المَخْفِى.

١٣٦ وكان لى غُلَيِّمٌ ظريفُ * حُلْوُ الكلام فَكِهٌ خفيفُ.

(٢٨٠)

١٣٧ جميعُ ما يقوله مُجُونُ * ما كان مثلُه ولا يكونُ.

١٣٨ حديثُهُ ليس عليه من حَرَجْ * لنا به الفالُ وقد سُمّى فَرَجْ.

١٣٩ قلت له : كأنّنى ممن نَدِمْ * لأجل ذاك الظبْىِ لمّا أنْطَعِمْ.

١٤٠ ويْحكَ لِمْ أطعمتَ هذا السمكْ! * فقال : لولاه لما كان آنمسكْ!

١٤١ جعلتُه لصيده كالفخّ * لأجل ذا أبصرتَه مُسْتَرْخِى.

١٤٢ يا شاطرَ البلاد أنت القيِّمُ * فعلتَ ما لا تستطيع الأسهُمُ!

١٤٣ لاشكَّ قد أتقنتَ علم السِّحرِ * وصِدْتَ صيدْ البَرِّ بعد البحرِ!

ومما قلتُهُ فيه :

وبالديرِ يومٌ أبيضُ لِى كَأَسِيمِهِ * وقد طَلَعَتْ من جانب الدير أقمارُ.

وقد جُلِيَتْ فى الكأس صهباءُ مُزّةٌ * تَكَشَّفَ منها فى الدُّجُنّةِ أستارُ.

وبالدير ديرانيّةٌ بَرَزَتْ لنا * فتمّ لنا فيها حديثٌ وأسمارُ.

جَلَتْها كأنّ الطُّورَ جانبُ كأسِها * وإلّا رُبى دارينَ من دُونِها دارُ.

وقلتُ :

ولم أنس بالدير يومًا لنا * وعيشُ السُّرور به يُنْتَهَبْ!

فَفَضّضَ أبكارَه بالُّلجَيْنِ * ومَوّه آصالَهُ بالذهبْ!

وكأسُ المُدام علينا تَطُوف * بحمراءَ صافيةٍ كاللّهَبْ.

يطوفُ بها من بَنَاتِ القُسُو * س باخلةُ الكَفِّ ليستْ تَهَبْ.

مُبَتّلةٌ بين رُهْبانها * لألحاظِها فى حَشَانا رَهَبْ.

مسيحيّةٌ طَلَعَتْ فى المُسُوح * كصبحٍ أطَلَّ وليلٍ ذَهَبْ.

(٢٨١)

وقد غاب عَنّا عِيانُ الرقيبِ * وجاد الزمانُ بما قد وَهَبْ.
فرَشْفُ اللَّمىٰ خُلَسٌ بيننا * وعضُّ الخُدود لديْنا نُهَبْ.

دير ريفة

دير ريفة[1] — وهو بصعيد مصر، فوق سيوط، لا ببعيد، على الجبل الغربى المطلّ على ريفة.

وهناك عدّة دياراتٍ. المشهورُ أكبرها. والبقية كالقلالى.

وهو من الأبنية القديمة المحكمة. ولأهله رزق من أطيان تُزرع وتستغلّ. جارية بتواقيع السلاطين، ثابتة فى حساب الدواوين. وهو دير مذكور. وله أخبار، وفيه حكايات وأشعار.

يُحكى أن شاعرا مغرِبيا، يُعرف بابن الحدّاد، مرّ به وهو مُصعِد إلىٰ قُوص، ليُحجَّ من جهة عَيْذاب، فى البحر. فرأىٰ ديرانيّة آسمها نويرة. كأنما أذكاها فى قلبه نَظَرُها، وشَبَّها فى جوانحه من خدودها المُحَمَّرة نَضَرُها. فألقىٰ عندها عصا سفره، ولَقِىَ عندها منتهىٰ مايُؤَمِّل من ظَفَرِه. وترك الحجّ كأنّه ما تعنّى[2] له من أقصى بلاده، ولا نوىٰ[2] إليه السفر فى رحلته وزاده. وقال فيها:

ورأتْ جُفونى مِن نُوَيْرَةَ كآسمها * نارا تُضِلُّ، وكُلُّ نارٍ تُرْشِدُ!
والماءُ أنت، ولا يِصحُّ لقابِضٍ! * والنارُ أنتِ، وفى الحَشَا تتوقَّدُ!

(١) سماه أبو صالح الأرمنى "دير ريفة وأُدْرُنْكَة" وآنظر كلامه عليه (ص ٩٤ و ١١٣). وقد ذكر المقريزى ديارات كثيرة بآسم أُدْرُنْكَة (ج ٢ ص ٦٠٥).

(٢) أثبت فى الأصل لفظة "إلا" بين السطور فى الموضعين. [وعليه يكون الضمير عائدا على الدير الذى يدور عليه الكلام. أما على عدم الزيادة فعائد على الحج].

ولما طال مُقامه، وقفتْ عليه وسألتْ عن سبب إقامته فقصَّ عليها الخبر، ونصَّ العِبَر. وأعلمها أنه[1] إنّما أتىٰ ليحُجَّ، فلما رآها أقام، وتطلَّبَ مايعالج به السَّقام. فقامتْ غيرَ مُتباطيه، ووَثَبَتْ كالظبية العاطيه. وظنَّتْ أنّه لم يُصَبْ، وأنه مدّ لها شَرَكه ونَصَبْ. فلما رأىٰ ماراَبَ من شُفورها[2]، وإعراض ظبيتها الأدماء وسُرعة نُفورها، أسال عَبْرته، ووالىٰ حَسْرته. ثم قال: (٢٨٢)

حديثُكِ ما أحلىٰ! فزِيدِى وحدِّثِى * عن الرشإ الفَرْدِ الجمالِ المُثَلِّثِ[3]!
ولا تسأمِى ذِكْراه، فالذِّكْرُ مُؤْنِسى * وإنْ بَعَثَ الأشواقَ من كل مَبْعَثِ.
أحقًّا وقد صرَّحتُ مابِىَ أنه * تبسَّمَ كاللاهى بنا المُتَعَبِّثِ؟
وأَقْسَمَ بالإنجيل إنّى لَكاذِبٌ * وناهيك دمعى من مُحِقٍّ ومُحْنِثِ!

ورآها يوما بين صواحبها، كما أطلَعَتْ ليلةُ القَمَرِ بين كواكبها. فلما دنا منهنّ للحديث تنحّتْ، وبَخِلتْ عليه بكلامها وشَحَّتْ، فقال:

وبَيْنَ المَسيحيات لِى سامِرِيَّةٌ * بعيدٌ علىٰ الصَّبّ الحنيفىّ أنْ تدنُو!
مُثَلِّثَةٌ قد وحّد اللهُ حسنَها * فثُنِّىَ من قلبى بها الوجدُ والحُزنُ!
فطَىُّ الخِمارِ الجَوْنِ حُسْنٌ كأنَّما * تَجَمَّعَ فيه البدرُ والليلُ والدَّجْنُ!
وفى مَعْقِد الزُّنّار عَقدُ صَبابتى: * فمِن تحتِه دِعْصٌ ومِن فوقِه غُصنُ!

ثم إنه صارت لاتراه إلّا آحتجبت، وهيهات للشُّموس أن حُجِبَتْ. فزاد بها بِلْباله، وعظُمَ آختباله. فلما كان يوم عيد من أعياد النصارىٰ، طلعتْ تلك الدُّمىٰ،

(١) فى الأصل: وأعلمه.

(٢) فى الأصل "سفورها" بالسين المهملة. ولا معنى لها هنا على الاطلاق. لذلك صححت بالشين المعجمة ليكون المعنى انه رأى انها تنظر اليه شزرا.

(٣) ضبطها فى الأصل بفتح اللام. والصواب الكسر، لأنه يشير الى الديرانية التى تقول بالتثليث. يشهد بذلك البيت الثانى من القصيدة التالية. وقد وردت كلمة "مثلثة" فى الأصل مكسورة اللام.

فتلك التى لا يُذْهِبُ الدهرُ حُبَّها * ولا ذِكْرَها ما أرْزمتْ أُمُّ حائِلِ ! [(١)]
وإنّ حديثًا منكِ لو تبذُلِينَهُ * جَنى النَّحلِ فى ألبانِ عُوذٍ [(٢)] مَطافلِ ! [(٣)]
مَطافيلَ أبكارٍ حديثٍ نِتاجُها * يُشَابُ بماءٍ مثلِ ماءِ المَفَاصل ! [(٤)]
لعَمْرِى ! لأنتَ [(٥)] البيتُ أُكرِمُ أهلَهُ * وأجلِسُ فى أفيائِهِ بالأصائل ! [(٦)]

حانة بنى قريظة

(٢٨٤)

حانة بنى قُرَيْظَة – وكان خمّارها فى جِوارِ سَلَامِ [(٧)] بن مِشْكَم . وكان عزيزا منيعا . ولما آنصرف أبو سُفيان بن حَرْب من غزوة السَّوِيق ، نزل على آبن مِشْكَم . فأكرمه وآحتبسه عنده ثلاثة أيام . وبعث إلى جاره الخمّار ، فابتاع كلَّ ما فى حانوته ، وسقاه أبا سفيان ومَن معه من قريش . فقال أبو سفيان :

(١) وفى المثل : "لا أفعله ما أرزمت أم حائل" . والإرزام صوت تخرجه الناقة من حلقها لا تفتح به فاها . أورده اللسان فى مادة (رزم) . والحائل ولد الناقة ساعة تلقيه إذا كان أنثى ، وأمها أم حائل . كذا فسره صاحب اللسان فى مادة (ح و ل) وكذلك أورده الميدانى فى مجمع الأمثال .

(٢) جمع عائذ . وهى الناقة الحديثة النتاج .

(٣) « مُطفِل . وهى الناقة الصغيرة الأطفال [والمراد أن لبن الأبكار أطيب] .

(٤) « مِفصَل . وهو منقطع السيل فى الجبل . [والمراد طِيب هذا الماء لأنه يجرى فى رضراض] . [ومعنى البيتين أن حديث المحبوبة — لو سمحت به — هو الشهد ممزوجا بأطيب الألبان وأصفى المياه] .

(٥) وردت فى الأصل بكسر التاء اشارة الى المحبوبة . ولكنها بالفتح فى الديوان الذى بخط المرحوم الامام محمود الشنقيطى المحفوظ بدار الكتب المصرية (رقم ٦ ش . أدب) . وهو الصواب لأن الشاعر انتقل الى الكلام على بيت محبوبته . ومن البعيد على مثل أبى ذؤيب أن يجعل محبوبته بيتا يجلس فيه بالأصائل و يكرم أهله .

(٦) قد نقل ابن فضل الله هذه الأبيات عن أبى ذؤيب ، وقدّم فيها وأخر وحذف ما حذف . وهى واردة على ترتيبها المستقيم فى ديوان الشاعر (رقم ٦ ش . أدب) . فالأول والثانى هنا هما آخر القصيدة . و بين الرابع والخامس هنا بيتان أغفلهما ابن فضل الله .

(٧) نص جمهور العلماء على أنه بتشديد اللام . ولكن بعضهم قال فيه بالتشديد و بالتخفيف .

كأنجم السما ، و برزتْ تلك الدَّيْرانيَّة فى أترابها ، وخرجتْ كالصَّباح المسفر من وراء حجابها . فوقف عليهنّ وقال :

عَسَاكِ بحقِّ عِيسَاكِ * مُرِيحَةُ قلبىَ الشاكى !
فإنَّ الحسن قَد ولّا * كِ إحْيائِى وإهْلاكى !
وأوْلَعَنِى بصُلبانٍ * ورُهبانٍ ونُسَّاكِ !
(٢٨٣)
ولم آتِ الكَنائسَ عن * هوًى فيهنَّ ، لولاكِ !
فهل تدرِينَ ماتقضى [(١)] * علىٰ عَيْنَىَّ عيناكِ ؟
وما يُذكيهِ من نارٍ * بقلبى نورُكِ الذاكى ؟
حَجَبْتِ سَنَاكِ عن بَصَرِى * وفوق الشمس سِيماكِ ؟
وفى الغُصْن الرطيب وفى النَّـ * ـقا المرتجِّ عِطْفَاكِ !
وعند الروضِ خدَّاكِ * وفى رَيَّاهُ رَيَّاكِ !

الحانات

وكانت سوىٰ هذه الديارات حاناتٌ بمواضعَ شتّىٰ . لها أخبار ، وفيها أشعار . وأشهرها ما نذكره هنا ونلحقه من الديارة بأمثاله ، ونضيفه منها إلىٰ أشكاله . وهى :

حانة الطائف

حانة الطائف – كانت فى الجاهلية . وكان خمّارها يُسمّى آبن بُجْرَة . وكانت قُرَيْشٌ وسائرُ العرب تقصده ، فتشربُ فى حانته . وتمتارُ منه وتحمل إلىٰ أوطانها ، وتورد أحياءها مواقرَ إبله لتَضرِبَ بأعطانها . وفى آبن بُجْرة يقول أبو ذؤيب :

فلو أنّ ما عند آبنِ بُجْرَةَ عندها * من الخمر لم تَبْلُلْ لَهَاتِى بناطِلِ ! [(٢)]

(١) فى الأصل : تقضيه .   (٢) الجُرعة .

سـقانى ورَوانى كُمَيْتًا مُدامةً * علىٰ ظمإٍ[١] منّى، سَلَامُ بن مِشْكَمِ!
تخيرتُه[٢] أهل المدينـة واحدًا * لِخِلٍّ[٣] فـلم أغْبَنْ ولم أتَنَـدَّمِ[٤]!

حانة هَجَر ـ وتُعرف بحانة رَيْمان . وهى مذكورة . وقال فيها الراعى النُّمَيْرى : حانة هجر

وصَهْباءَ من حانوتِ رَيْمانَ قدغَدَا * علىّ ولم ينظُرْ بها الشَّرْقَ[٥] صابِحُ[٦]،
تُبَصِّرُ[٧] عنها اليـوم كأسٌ رَوِيّةٌ[٨] * وبَرْدُ العَشَايَا والقِيانُ الصَّوادحُ.
وبِتْنا علىٰ الأنماط ، والبِيضُ كالدُّمىٰ * تُضِىءُ لنا لَبّـاتِهِنَّ المصابحُ.
إذا نحنُ أنزفْنـا الحوابِىَ، عَلّنا * معَ الليـل ملثومٌ من القار طافحُ.

(١) رواية ابن هشام "على عجل" . وهى التى يعينها سياق الواقعة .

(٢) فى الأصل : بحربه أهل . ويمكن قراءتها "تخيّرتُه أهل" ويكون المعنى تخيرته من أهل المدينة الخ . أما الرواية القديمة الصحيحة التى أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية عن ابن اسحق . فهى : "إنى تخيرت المدينة" . وهذه الرواية يؤيد صحتها وصدقها أبو ذر الخشنى فى شرحه لها الذى طبعه صديق العلامة الدكتور برونل الألمانى فى مطبعة هندية بالقاهرة سنة ١٣٢٩ هـ (سنة ١٩١١ م) فقد قال الشارح ص ٢١٠ مانصه "قوله إنى تخيرت المدينة واحدا . أراد من المدينة فحذف حرف الجر وأوصل الفعل" .

(٣) فى الأصل : سـواه . وفى الأغانى : سواهم . وكلتا الروايتين لا يستقيم بهما المعنى بل يكون فى التركيب تعسف واضطراب وتفكك وارتباك . لذلك اخترت رواية ابن هشام وهى غاية فى الوضوح والبيان .

(٤) رواية ابن هشام : فلم أندم ولم أتلوم . وانظر الأبيات كاملة على اختلاف الروايات وتضاربها فى الأغانى (ج ٦ ص ٩٩ طبع بولاق) وفى سـيرة ابن هشام (ص ٥٤٤ طبع جوتنجن) . وقد أورد ابن فضل الله البيت الثانى فى مكان الأول وجعل الأول فى محل الثانى .

(٥) أى لم ينتظر شروق الشمس .

(٦) الصابح ساقى الصبوح . قال فى اللسان (ج ٣ ص ٣٣٤ س ١٩) واصطبح القوم شربوا الصبوح وصبحه يصبحه صبحا وصبّحه : سقاه الصبوح . وفى معجم البلدان "ضابح" (ج ٢ ص ٨٨٩ طبع ليبسك)، وهو غلط .

(٧) أهمـل وضع النقط فى الأصل . ولعل المعنى أن الكأس الروية وبرد العشايا والقيان كل هذه تبصر أى تنبئ عن تلك الصهباء .

(٨) فى الأصل : كاس رويه [بكسرتين تحت الحرف الأخير]

حانات الحِيرة ـ وهى أربع حانات :

حانة عَوْن ـ وكان عَوْنٌ ظريفا ، طيّب الشراب ، نظيف الثياب . وكان فتيان الكوفة يشربون فى حانوته ، ولا يختارون عليه أحدا . وشَرِب عنده ليلةً أبوالهـندى الشاعر ، حتّىٰ طلع الفجر وصاحت الديوك ، علىٰ أنه يصبح يومَ شكٍّ . فقيل إنه من رمضان . فقال : حانة عون

شربتُ الخمـرَ فى رَمَضانَ حتّى * رأيتُ البـدرَ للشّعرىٰ شَريكا!
فقال أخى : الدُيُوكُ مناديات! * فقلتُ له : وما يُدرى الدُّيُوكا؟

حانة دَوْمَة ـ وعن أبى عُبَيدة قال : مرّ الأُقَيْشِر بخَمّارة فى الحـيرة ، يقال لها دومة ، فنزل عندها ، واشترىٰ منها شرابا . ثم قال : لها جوّدِى لى الشراب حتّى أُجوّد لكِ المديح . ففعلتْ . فأنشأ يقول : حانة دومة

أَلَا يادَوْمَ، دام لكِ النعيمُ! * وأسمرُ ملءُ كفِّكِ مستقيمُ،
شديدُ الأسْرِ يَنْبِضُ جانباه * يُحَمُّ كأنه رجلٌ سـقيمُ،
يُرَوِّيه الشرابُ فيزدَهِيـه * وينفُخُ فيه شيطانٌ رَجيمُ!

قال : فظنّتْ الخمارة أن هذا مدحٌ ، فسُرّتْ به وزادته فى الشرب . وقالت : ماقال فىَّ أحدٌ أحسن من هذا . (٣٨٥)

حانة جابر ـ قال ابن الصَّلصال : كان أبو نُوَاس يأتى الكوفة ، يزورنى . وكان يأتى بيت خمّار بالحيرة ، يقال له جابر : لطيف الحلقة ، نظيف الثياب ، نظيف الآلة ، يُعتِق الشراب سنينَ . فقدم علينا مَرّةً ، وقد نهاه الأمين عن الشراب . فسأل عنى ، فقيل : هو بالحيرة . فوافانى ، وفى يدى شيء من شراب جابر ، عجيب الحسن والرائحة ، حانة جابر

فقال لى : ياأبا جعفر، لايجتمع هذا والهمّ فى صدرٍ واحدٍ! قال : وكان شديد العُجْب بضرب الطُّنبور[١]. وكان إذا جاءنى جمعتُ له ضُرَّاب الطنابير. وكانت الكوفة معدنهم. وكان يسكر فى الليلة الواحدة سَكَراتٍ . فوجهتُ فجمعت له منهم جماعة، وأحضرته شيئا من ذلك الشراب. فقال لى : ألم تعلم ماحدث علىّ؟ قلت : وما هو؟ قال : نهانى أمير المؤمنين عن الشراب وتوعّدنى عليه!

ثم أنشدنى قصيدته التى فيها :

أيُّها الرائحانِ باللَّوْمِ، لُومَا * لا أذُوقُ المُـــدامَ إلَّا شَمِيما!

إلىٰ أن آنتهىٰ إلىٰ قوله :

فَكَأَنِّى وما أُحَسِّـــنُ منها * قَعَـــدِىٌّ يُحَسِّـــنُ التَّحْكِيما.[٢]
كَلَّ عن حَملِهِ السِّلاحَ إلىٰ الحر * بِ فأوصى المُطِيقَ أنلا يقيما.

فقلتُ له : أقم معنا كما حكيتَ من نَقْل القَـعَدِيَّة[٣]. قال : أَفعلُ . وصرنا إلىٰ حانة جابر. فقلتُ شعرا ذكرتُ فيه ماقاله لى وأنشدتُه إياه، وهو قولى :

عَتَبَتْ عليك مَحَاسنُ الخمرِ، * أمْ غَيَّرَتْكَ نوائِبُ الدَّهْـــرِ؟

---

(١) الطُّنبور والطِّنبار من آلات الطرب، ذو عنق طويل وستة أوتار، معرّب تنبور (أصله دُنْبَه بَرَه أى ألية الحَمَل . سمى به على التشبيه). وقد انتقل هذا الاسم الى سائر اللغات على بعض تنوّع فى الآلة.

(٢) أورد هذا البيت فى "تاج العروس" فى مادة (ق ع د) ويستفاد من كلامه أن القَعَدة قوم من الخوارج قعدوا عن نصرة الامام علىّ بن أبى طالب ؛ وأن الذى يرى رأيهم يسمى "قَعَدِيًّا" . وهم يرون التحكيم حقا، لكنهم قعدوا عن الخروج علىٰ الناس . والبيت فيمن يأبىٰ أن يشرب الخمر، وهو يستحسن شربها لغيره

(٣) أى كما يفعل القعدية من الاقتصار علىٰ تحسين الشرب ومدح الخمر بأوصافها التى تلذذها للشاربين .

فَصَرَفْتَ وجهَكَ عن مُعَتَّقَةٍ * تفترُّ عن دُرٍّ وعن شَـذْرِ.
يسعىٰ بها ذو غُنَّـــةٍ غَنِجٌ * متكَحِّل اللَّحَظَات بالسِّـحْرِ. (٢٨٦)
ونَسِيتَ قولَكَ حينَ تمزُجُها * فتُرِيكَ مثلَ كوا كِبِ النَّسْرِ[١]:
"لا تَحْسَبَنَّ عُقَارَ خابِيــةٍ * والهمَّ يجتمعانِ فى صَدْرِ!"

فقال : هاتِها فى كذا وكذا من أُمّ الأمين! ومدّ يده، فأخذ القَدَح وشرب معنا . ثم شخَص إلى الأمين . فقال له : أين كنتَ؟ قال : عندصديقى الكُوفىّ . وحدّثه الحديث. قال : فما صنعت، حين أنشدك الشعر؟ قال : شربت، والله! ياأمير المؤمنين . قال : أحسنتَ وأجملتَ . فآشخَصْ حتّى تحمل إلىّ صديقَك هذا . فقدِم إلىّ فحملنى إليه . فلم أزل معه حتّى قُتل .

حانة شهلاء.

حانة شَهْلاء ـ وكانت يهودية من أهل الحيرة . وحُكى أنّ الأُقَيْشِرَ كان يألفها، وكان يشرب فى دارها . فجاءه شُرْطىّ فدقّ البابَ، فقال : آسقنى وأنت آمنٌ . فقال : والله! ما آمَنُك . وهذا النقب فى الباب، فأنا أَسْقيك منه . فوضع له أُنْبوب قَصَبٍ فى النقب، فصب فيه النبيذ من داخلٍ، والشُّرْطِىّ يشرب من خارجٍ . فقال الأُقيشِر:

سأل الشُّرْطىُّ أن نَسْقِيَهُ، * فسَـــقَيْناه بأنبُـوبِ القَصَبْ.
إنما لَقْـحَتُنـا خابيــةٌ، * فإذا ما مُزِجتْ كان العَجَبْ.
لبَنٌ أصـفرُ صافٍ طعمُهُ * يَنْزِعُ الباسُورَ من عَجْبِ الذَّنَبْ.
إنَّمـا نَشْرَبُ من أموالِنا، * فاسألوا الشُّرْطِىَّ: ماهذا الغَضَبْ؟

---

(١) فى الأصل البِشر مع كسر الباء . ولعله محرّف ؛

حانات العراق – وهنّ أربع حانات :

حانة طيزناباذ

حانة طِيزَنَابَاذَ[1] – وكان خمّارها سرجس . وحكىٰ سليمان بن نو بخت قال : حججت وٱستصحبت أبا نُوَاس ، بعد ٱمتناع منه ونِفار . وشرط علىّ أن أتقدّم معه الحاجّ إلىٰ القادسية ، فنقيم نشرب بطِيزَنَابَاذَ . فنزل علىٰ خمّار كان يألفه ، فشرب يومه وليلته . ثم ٱنتبه يقول :

وخمّارٍ أنختُ إليـه ليْـلاً ❊ قلائِصَ قد وَنِينَ من السِّفارِ
فترجَمَ ، والكَرىٰ فى مُقلتيْـهِ ❊ كمخمورٍ شكا ألمَ الخُمارِ :
"أبِنْ لى كيفَ صِرْتَ إلىٰ حَرِيمى ❊ ولونُ الليـلِ ملتبِسٌ بِقارِ؟"
فقـام إلىٰ العُقَار فسَـدَّ فاهَا ❊ فعادَ الليلُ مُسْوَدَّ الإزارِ .

(٢٨٧)

ثم جلس يشرب . فلم يزل كذلك حتّىٰ ورد علينا أوائلُ الحاجّ . وحجّوا . ثم عادوا . فرحلنا معهم إلىٰ بغداد ، علىٰ أننا كنا حُجّاجا معهم .

حانة قطربل

حانة قُطْرُبُّلَ – وكان خمّارها ابن أذين .

حكىٰ أبو الشبل البُرْجُمى قال : ٱجتمعت بأبى نُوَاس فى النوبختية . فسلّمتُ عليه ، وسألته عن خبره ، وتحدثنا طويلا . ثم قال : أتساعدُنى حتّىٰ نَمْضِىَ إلىٰ موضع طيّب ؟ قلت : أين هو ؟ قال : بقُطْرُبُّلَ . فقلت : ضاقت الدنيا حتّىٰ نسافر ؟ فقال لى : إن هناك خمّارا ظريفا ، لَبِقا ، مساعدا ، عنده شراب عتيق وغلْمان صِباحٌ . فٱمض

(١) طيزناباذ موضع بين الكوفة والقادسية علىٰ حافة الطريق علىٰ جادّة الحاجّ . كان من أنزه المواضع محفوفا بالكرم والشجر والحانات والمعاصر . وكان أحد المواضع المقصودة للّهو والبطالة . وهو الآن خراب ، ولم يبق به إلا أثر قباب يسمونها "قباب أبى نواس" . و يقال إن معنى اسمها عمارة الضيزن . (أُنظر ياقوت فى الجزء الثالث من معجم البلدان) .

بنا . فمضيتُ حتّىٰ أتىٰ حانة خمّار . فقال لى : أتعرفه ؟ قلت : لا . قال : هذا ابن أذين الذى أقول فيه :

اِسقِنِى يا ٱبنَ أُذَينٍ ❊ من شَرابِ الزَّرجُونِ![1]
اِسقِنِى حتّىٰ تَرىٰ بى ❊ جِنّةً غـيرَ جُنُونِ!
عُتِّقَتْ فى الدَّنِّ حتّىٰ ❊ هى فى رِقّـةِ دِينى!
ولنا ساقٍ عليه[2] ❊ جُبّةٌ من ياسَمِينِ[3]!

قال : فأقمنا عنده ثلاثة أيام ، فى أنزه موضع ومع أَكْيَس خادم . ثم ٱنصرفنا .

حانة الشط

حانة الشَّطِّ – قال حَمْدُ بن حَمْدون : كان الواثق يحبّ المَوَاخير ، وما قيل فيها ، وما غُنّىَ به فى ذكرها . فعقد حانتين : إحداهما فى دار الحُرَم ، والأخرىٰ علىٰ الشطّ . وأمر بأن يُختار له خمّار نظيف ، جميل المنظَر ، حاذق بأمر الشراب ، ولا يكون إلا نصرانيا من أهل قُطْرُبُّلَ . فأُتِىَ بنصرانىّ ، له ٱبنان نظيفان مليحان وٱبنتان بهذه الصفة . فجعلهم الواثق فى الحانتين ، وضمّ إليهم خَدَما وغلْمانا وجوارِىَ روميّة . وأخدم النّساء حانة الحُرَم ، والرجالَ حانةَ الشطّ . ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرشهما من فرش الخلافة ، وعلق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأوانى المُذْهَبَة والدنان المدهونة . فكانتا أحسن منظرٍ وأبهاه .

(٢٨٨)

فلما فرغ منهما ، أمر بإحضار المغنّين والجلساء . ولم يدَعْ أحدا يصلح من ضُرّابِ الطنابير إلا أحضره . وحضرنا ، وخرج الخمّار ، هو وأولاده معه ، عليهم الأقبية المُسَهَّمَة ، وفى أوساطهم الزنانير المحلّاة ، ومعهم غلْمان يحملون المكاييل والكيزان

(١) كلمة فارسية مركّبة من "زَرْ" أى الذهب ومن "گُون" أى اللوْن .
(٢) فى رواية : بيَدَىْ . والسياق يعيّن هذه .
(٣) هو المشموم المعروف . وأصل اللفظ مصرى قديم "أَسْمى" ثم انتقل الى الفارسية فالعربية فاليونانية فالآرامية فالتركية فالكردية فالرومية فالأرمنية فسائر اللغات الإفرنجية .

والمَبَازِل[1] فى الصَّوانِى . وأُخرِجَتْ تلك الدنان المُذْهَبَة ، وقد طُيِّنَت رؤوسها تطيينا نظيفا ، يعبَقُ منه الطيب . فأقيمت بإزاء المجلس الذى كان فيه جالسا ، فبُزِلَتْ ، كما يفعل فى الحانات وجعل يؤتىٰ بالأنموذجات ، فيذوقها و يعرض ذلك على الجلساء . فيختار كلٌّ منهم مايشتهيه . فيأخذ دَنًّا . ويجىء إلى الخمّار و يكتال منه بمكيال فى إنائه ، كما يُفعل فى المواخير ، و يعود إلىٰ موضعه فيجلس . و يوضع علىٰ رأس الحُضورأ كاليلُ الآس وما أشبهه من الرياحين . فكان أحسن يوم رأيتُه .

فشرب الواثق شربا كثيرا وأمر للخمار بألف دينار ، ولزوجته بألف دينار ، ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار . ولم يبرح أحدٌ منّا إلا بجائزة سنيّة .

وحكىٰ الحسين بن الضحاك فى حكاية له أن الواثق قال له : هل لك فى حانة الشَّطّ ؟ قال : فقلت إى والله ! ياأمير المؤمنين . فقام إليها فشرب هناك وطرب . وما ترك أحدا من الجلساء والمغنِّين والحَشَم ، إلا أمر له بِصلَةٍ . وكان من الأيّام التى سارت أخبارها ، وذُكرت فى الآفاق .

فلما كان من الغد ، غدوت عليه فقال : أنشِدنى ياحسين شيئا ، إن كنتَ قلته فى يومنا هذا الماضى . فأنشدته :

ياحانةَ الشَّطِّ قدأَكرمْتِ مَثْوانا ، * عُودِى بيومِ سُرورٍ كالذى كانَا !

(١) جمع مِبْزَل . وهو المِثْقَب أى الآلة التى تثقب بها الدنان والبراميل ليسيل ما فيها . و يسمون هذه الآلة أيضا : (١) أُنبوب ، (٢) بازِل ، (٣) صُنبور ، (٤) بثيون [تعريبا لكلمة يونانية] . والمبزل الذى نحن بصدده يُتّخذ عادةً من الخشب . وهو معروف عند أهل هذا الشأن . و يسمى عند الفرنسيين : Canelle و Canette و Canule . وهذه الأسماء الثلاثة الافرنكية هى أيضا مستعملة فى اللغة الفرنسية عند الجرّاحين بنفس معنى المبزل فى الاصطلاح الطبىّ العربىّ . و Canelle هى الأكثر استعمالا عند الكرّامين الفرنسيين .

وقد أورد المؤلف لفظة «المبزل» فى استخراج الخمر من الدنان (أنظر ص ٢٦٦ س ٩ ، وص ٣٠٩ س ١١ ، ص ٣٢١ س ١٩ ، وص ٣٢٢ س ٢) .

[لاتُفقِدينا دُعابات الإمام ولا * طِيبَ البطالة إسرارًا و إعلانا .][1]
ولا تَخَالُعَنا[2] فى غير فاحشةٍ * إذا تُطرِّبُنا الطُّنْبورُ أحيانا .
وسَلْسَلَ الرِّطلَ عمرٌو ثم عمَّ بنا السُّقْيَا فألحقَ أخرانا بأولانا .
سَقْيًا لعيشِكَ من عَيْشٍ خُصِصْتَ به * دُونَ الدَّسا كِرِ من لذّات دُنْيانا !

قال : فأمَرَ لى الواثقُ بِصلَةٍ سنيّة مجدّدة ، واستحسن الشعر ، وأمر أنْ يُغَنَّى فيه .

حانة خويث

حانة خُوَيث ـ وتُعرف بحانة بَزِيع ، وهو خادم المتوكل .

وكانت عزيزة لايعرِض لها أصحاب المعاون[3] . وكانت حسنة البناء ، مؤزَّرة مسقَّفة بالساج . و إلىٰ جانبها بستانٌ نَزِهٌ حَسَنٌ لبَزِيعٍ . وكان يتّخذ فيها آلة الشراب . وكان فيها خَمَّار يهودىّ ، لايبيع إلا شرابا مختارا سريًّا ، لايبيعه أحدا من العامة والوُضَعَاء . وكانت حانته لنُزَه الخاصّة والسَّراة من الناس . وكانت موصوفة بالحسن والنظافة . ٢٨٩

وفيها يقول عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن الزيّات (وكان قد دعاه بَزِيع إليها ، ومعهما جِنّىٌّ الخادم ، وكان نهاية فى الحسن ، وحَسَنَ الغِنَاء) :

سقانا بَزِيعٌ[4] والسِّمَاكُ مُشَرِّقُ * ونجمُ الثُّرَيَّا فى السماء مُحَلِّقُ ،
كُمَيْتًا كأنّ المِسْكَ حَشْوُ كؤوسها * بها الشَّمْلُ مجموعٌ فما يَتَفرّقُ .
سُلافَةَ كَرْمٍ أخلصَ الدَّهْرُ لونَها * يُضِىءُ لها الليلُ البهيمُ ويُشْرِقُ .

(١) نقلنا هذا البيت عن الأغانى (ج ٦ ص ١٩٧ طبع بولاق) ليتضح المعنى و يستقيم سياق البيت بعده .
(٢) فى الأصل : إذ لاتخالعنا (ولا معنى له مع هذا التحريف ولذلك صححنا عن الأغانى) .
(٣) أى الذين يطالبون المعونة ، أى الضرائب والخراج .
(٤) إسم الساقى المذكور قبلُ .

وقلت لِجَنِّيّ : هَـلُمَّ فغنّنى ! * "أرقتُ ، وماهذا السُّهادُ المُؤَرِّق ؟"
فغنّىَ غناءً حرّك القلبَ حُسْنُه * ولمّا يحرّكْهُ الشرابُ المُصَفَّقُ !

حانة سجستان

حانة سِجِسْتان — حُكى أن أبا الهندى ، لما ضُرب عليه البَعْثُ إلى سجستان ، كان يلزمُها ويشرب عندها مع نديم له . فشربا يوما حتّى سكرا وناما . فلمّا هبّ هواء السَّحَر ، آنتبه أبو الهندى ، والزق مطروحٌ ، قد بقِىَ فيه شَطْرُ الشراب . فأقامه وصبّ منه فى كأس . وجاء إلى نديمه فحرّكه وقال :

تَصَبَّحْ بوجْهِ الراحِ والطائرِ السَّعْدِ * كُمَيْتاً وبَعْدَ المَزْجِ فى صِفَةِ الوَرْدِ !
تَضَمَّنَها زِقٌّ أزبُّ كأنّه * صريعٌ من السُّودانِ ذُو شَعَرٍ جَعْدِ .
ولمّا حلَلْنا رأسَه من رِباطِه * وفاض دمًا كالمِسْكِ أو عَنْبَرِ الهِنْدِ ،
وَجَدْناه فى بعض الزَّوايا كأنّه * أخو قِرَّةٍ يهتزُّ من شِدّة البردِ ،
أخو قِرَّةٍ يُبدى لنا وجهَ صَفْحةٍ * كلونِ رقيقِ الجِلْدِ من وَلَدِ السِّنْدِ .

حانات الشام — وهى آثنتان :

حانة عزاز

حانة عَزاز — وكانت بتلّ عَزاز .

حكىَ إسحق ، قال : كنتُ مع الرشيد ، حين خرج إلى الرَّقّة . فدخل يوما يشرب مع النساء . فخرجتُ ومضيتُ إليه . فنزلتُ عند خمّارةٍ هناك ، لها زوجٌ قسّ ، ولها منه بنتٌ ، لم أر مثلها قطُّ جمالا ، ولا مثل بنتها . وأخرجتْ إلىّ شرابا لم أر مثل حُسنه وطيب ريحه وطعمه . فأجلستنى فى بيتٍ مرشوشٍ فيه رَيحانٌ غضٌّ . وأخرجت بنتها تخدُمنى كأنها خُوطُ بانٍ ، أو جدلُ عِنانٍ : لم أر أحسن منها قدًّا ، ولا أسهل

خدًّا ، ولا أشرق وجها ، ولا أبدع طَرْفا ، ولا أحسن كلاما ، ولا أتمّ تماما . فأقمت عندها ثلاثا ، والرشيد يطلبنى ، فلا يقدِر علىّ . ثم آنصرفتُ . فذهبَتْ بى رُسُله إليه . فدخلتُ عليه ، وهو غضبانُ . فلما رأيتُه ، خَطَرْتُ فى مِشيتى ورقصتُ (وكانت فى رأسى فَضْلةٌ قويّةٌ من السكر) وغنّيتُ فى شعرٍ قلتُه فى بيت الخمّارة صنعت فيه . وهو :

إنّ قلبى بالتَّلّ ، تلّ عَزازٍ ، * عند ظَبْيٍ من الظِّباءِ الجوازى
شادنٌ يسكُنُ الشّآمَ وفيه * مَعَ شكلِ العِراقِ ظَرْفُ الحجازِ .
يا لَقَومى (1) لبِنْتِ قَسٍّ أصابتْ * منك صَفْوَ الهوىَ ولستَ تجازى !
حَلَفَتْ بالمسيحِ أن تُنْجِزَ الوعْدَ ، وليستْ تَهُمُّ بالإنجازِ !

قال : واللحن فى هذا الشعر خفيفُ رَمَلٍ بالوُسْطَىٰ . قال إسحق : فسكن غضبه . ثم قال لى : ويحك ! أين كنتَ ؟ فأخبرتُه فضحك وقال : عُذْرٌ ، والله ! وإنّ مثل هذا لَطَيِّبٌ ، إذا آتّفق . أَعِدْ غناءَك ! فأعدتُه . فأُعْجِبَ به ، وأمرنى أن أغنّيه ليلتى كلها ، أُعيده أبدا ، ولا أغنّى أنا ولا غيرى سواه . وأمر المغنّين بأخذه . فما زلت أغنّيه ويشرب عليه إلى الغداة . ثم آنصرفنا . فصلّيتُ ونمتُ . فما آستقررتُ جنبا حتّى وافانى رسول الرشيد ، يأمرنى بالحضور . فركبتُ ومضيتُ . فلما دخلتُ إذا أنا بآبن جامع يتمرّغ على دكّان فى الدار ، لغلبة النبيذ والسكر عليه . فقال لى : أتدرى لِمَ دُعِينا ؟ قلت : لا . قال : نصرانيّتك الزانية ، عليك وعليها لعنة الله ! فضحكتُ . فلما خرج إلينا الرشيد ، أخبرته بالقصة .

(1) فى الأصل : بالقوم .

فضحك وقال : صدق . أعيدوه جميعا ، ولا تغنوا غيره . فإنى ٱشتقتُ إلى ما كنّا فيه لمّا فارقتمونى . فغنّيناه جميعا يومنا كلّه ، حتّى نام فى موضعه ، سُكْرًا . ثم ٱنصرفنا .

حانة هشيمة

حانة هُشَيْمَة — وكانت بدمشق . وكانت تخدُم الوليد بن يزيد فى شرابه وتتولّى ٱتّخاذه له . وكان يقال إنه لم يُرَ أعرف منها به ، ولا أنظف آلةً وصنعةً ، ولا ألبق فى الخدمة .

وقد ذكرها يزيد فى شعره إذ قال :

قَـد شَرِبْنا وحَنّت الزُّمّاره ، * فاسقِنِى يا بُدَيْحُ بالقَـرْقاره !
من شرابٍ كأنّه دمُ خِشْفٍ * عتّقَتْهُ هُشَيْمَةُ الخمّاره .
اِسْقِنى ! اِسْقِنى ! فإنّ ذُنُوبى * قد أحاطَتْ فما لها كفّاره !

وعُمِّرَتْ حتّى أدركت الرشيد وماتت فى أيامه . ماتت يومَ مات الكسائى [النحوى] والعبا[س بن الأحنف الشاعر . فصلى] المأمون عليهم (١) .

وها قد ذكرنا ما ٱتّصل بنا علمه ، ووقع إلينا خبره ، وبه تم الفصل السادس . ٢٩١
وهو آخر فصول الباب الأول من القسم الأول .

ولله الحمد وبه التوفيق !

---

(١) هنا سطا المجلد أو المصور الفوتوغرافى على كلمات وحروف فأعدناها بمراجعة البواقى من حروفها على رواية الأغانى (ج ٥ ص ٤٦) . وٱنظر فيه طريف الرواية بمناسبة صلاة المأمون عليهم .

تصويبات لما وقع فى نسخة الأم و تصحيحات لما وقع أثناء الطبع

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٣٩	٢	أورد الناسخ "العجاجة" من أسماء الغبار . والصواب "العجاج" . أما العجاجة فهى الإبل الكثيرة العظيمة . وهذا وذاك عن كتب اللغة .
٥٤	٩	فى الاصل "حاقولى" . ولعله يريد "خافونى" . وانظر "نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر" للدمشقى المعروف بشيخ الربوة .
٥٨	٦	"باش بالق" . معناه عند الترك "المدائن الخمس" . وعلى ذلك جرى اليونان فى قولهم Pentapole (أى المدائن الخمس) فى تسمية احدى المدائن الشهيرة بناحية . قة ، وهى التى اختزل العرب اسمها فجعلوه "أنطابلس" .
		أل بالق . معناه بالتركية "المدينة الحمراء" لأن أل معناه الأحمر . وهى باكين عاصمة الصين .
٦٢	٦	جبل "قُعَيْقِعان" يسمى الآن "الجبل الهندى" . وبه مدرسة عربية فى موضع مستشفى صغير ، كان للترك قبل الحرب العظمى .
٦٦	١٣	القرينة وسياق الكلام يوجبان تغيير كلمة "البحر" بكلمة "الجبل" . ذلك لأن المؤلف لم يذكر قط بحرا مشبها بتفصيل « السراويل » . وانما ذكر (فى ص ٤٨ س ٥ و ٦) جبلا بهذه الصفة ، وهو الذى يرجع اليه الكلام .
٦٨	٥	الكلام على البحيرتين يقتضى التثنية . ولذلك يجب إصلاح "منها" الواردة فى الأم بـ "منهما" .
٧١	٩ ، ١٩	Trismégiste [ومعناه عند العرب "المثلث بالنبوة والحكمة والملك" . واللفظ اليونانى يدل على المثلث بالكبرياء] .

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٧٧	١٠	الأَثَر . (بضم ففتح) .
٧٨	٢١	Pont-Euxin
٨٢	١	الأُرْدُنّ (بضم أوله وثالثه وسكون ثانيه وتشديد رابعه) .
٨٣	٨	الدهاك (بالكاف فى آخره لا باللام) . كما فى س ٦ ص ٢٢٩
٨٤	٢	البُتَّم (بضم فتشديد) جبال مشهور بتركستان .
٨٥	٥	أشار المؤلف الى مدينة « اوقر » فى الصين . هكذا كتبها الناسخ بهـذا الرسم فى نسخة الأم ، وفى نسخة آياصوفيا . وأكبر ظنى انه يشـير الى مدينة « لوقين » التى وصفها ابن فضل الله نفسه هذه المدينـة فى الجزء الثانى من "مسالك الأبصار" (ص ٣٣٦ فتوغرافية) فقال : "ومدينة لوقين ، وهى مدينة حسنة على ضفة خور عذب ، تدخله المراكب . وهذه آخر حدّ بحر الهند من جهة الشرق" . وقال ابن خرداذبه : "لوقين وهى أول مراقى الصين ..." وكثيرا من العرب استعملوا "مراق" (بالقاف) مثل البلاذرى والبكرى والادريسى وابن جبير وابن خلدون ، كما أشار اليـه دوزى فى "تكملة المعجمات العربية" وأنا أضيف عليه المقريزى (ج ٢ ص ١٤٠) وان كان هو أيضا استعملها بالفاء فى صيغة المفرد (مرفأ) عنـد إيراده الجملة بنصها فى مكان آخر (ج ١ ص ١٤٠) ولا شـك أنهم استعملوا "مراق" فى مقابلة قولنا الآن "إيسكله" عن (Scala) أى "سُلّم" و "مرقاة" . وقد نبـه المطرزى الى تصحيف الفاء قافا كما أشار اليـه دوجويه فى "فتوح البلدان" للبلاذرى .
٩٣	١٩	المرة . [وردت فى الأصـل براء مهملة . ويكون معنى المَثَل انه شرب المُرّ . وإذا أعجمنا الحرف فيكون أنه شرب المزة أى الخمر فيها حموضة . و إنى آسف لعـدم تمكنى من مراجعة نسخة صحيحة من كتاب ابن عساكر] .
٩٨	١٥	"الأساطيم" الواردة فى نسـخة الأم ، هى بلا شك من أوهام الناسخ . وربما صح لنا منها الاستشهاد بالمثل العربى "أساء سمعا فأساء جابة" ونزيد عليه "وأساء كتابة" . فربما كان بعضهم يملى عليه « الأساطين » فسمعها بميم فى آخرها ، فكتبها كذلك . والمقام يعين



صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		« الأساطين » جمع أسطوانة . وانظر "الإعلام بأعلام بلد الله الحرام" (ص ٥٣ و ٨٦) و "أخبار مكة للازرقى" (ص ١٦٤) ، كلاهما طبع العلامة وستنفلد الألمانى . ولما كان الكلام يدور على السوارى والعمدان ، فلا معنى مطلقا فى هـذا المقام للاسطام الذى يدل فقط على المسعار للحديدة المفطوحة يُحَرَّك بها النار ، أو الحديدة التى تكون فى طرف السهم حيث يُعلَّق الحجر الذى يرمى به المنجنيق (انظر عن الاسطام القاموس وشرحه ، ومفاتيح العلوم) .
١٠٢	٢	وكَسَوْنا ... الذّى ...
١٠٧	٣	أُسطوانة (بضم أوله) .
١٣٦	١٢	أُبَىّ (بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد آخره) .
١٤١	٥	الصخرةِ والأعمدةِ . والحائطُ [أى أن الحائط هو أول كلام جديد] .
١٤١	١٩	التخريج الظنى الذى فى هذا السطر غير صواب منى . فلذلك يجب حذفه . وكلمة "انبذارية" وربما تكون ابنذارية — وان كنت سعيت كثيرا و بحثت طويلا لمعرفة أصلها على غير طائل — تدل على نطاق من الرخام البارز ، و بعضه متصل بالبعض الآخر على دائر الجدران الاربعة ، كما شاهدته بنفسى حينما زرت الحرم المقدسى لأجل تحقيق بعض البيانات الواردة فى هـذا الكتاب ، وأخصها الانبذارية هذه . وما قضيت الوطر فيما يتعلق بهـذه الكلمة ، بشىء سوى امتاع النظر بتركيبها وجمالها . وكانت رحلتى الى فلسطين لهذا الغرض فى شهر يونيو سنة ١٩٢٣
١٥٧	١١ و ١٧	قال ابن فضل فى نسخة الأم أثناء كلامه على السور الشمالى للمسجد الأقصى ان المدرسة الكريمية « جارت ما أمامها من الاروقة بحائطين غربية وشرقية » . وقد صححتُ « جارت » بـ « جاورت » لأنه محال أن تكون المجاراة من الشرق الى الغرب معا . وقـد نبهت على لفظ الأصل فى الحاشية . لكننى راجعت فيما بعـد نسخة آياصوفيا ، فرأيت فيها "حازت" . بالحاء

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		المهملة والزاى . ولعل هذا هو الاقرب للصواب ، اذا جعلنا « الذال » بدلا من « الزاى » . فتكون المدرسة « محاذية » لما أمامها من الأروقة ، شرقا وغربا .
١٥٨	٧	و بخذه (بالخاء المعجمة) .
١٦١	١٧	يُنْزَلُ (بضم فسكون ففتح).
١٧٥	١٤	سكان بن أرتبك (هكذا بالباء المفردة التحتية فى الأصل) . صوابه سكان [أوسقمان] بن أرتق بن إيلغازى . ولعل اسم أبيه كان فى أول الأمر ”أرتيك“ ثم عربوه فقالوا ”أرتق“ . فيجب التصحيح .
١٨٤	٩	جران الكروم . هكذا ورد فى نسخة الأم عند الكلام على بناء قبة مسجد دمشق . فقد أشار المؤلف الى أنهم حفروا لأركانها حتى بلغوا الماء ثم ألقوا على الماء جران الكروم . ولكن جران لا معنى لها . وقد وردت ”جراز“ فى كتاب « مطالع البدور » أثناء كلامه على هذا الموضوع ، فى النسخة المطبوعة وفى أخرى مخطوطة « بخزانتى الزكية » . ولا يتجه المعنى مطلقا مع كل هذه التصحيفات والتحريفات . فرجعت الى ”المخصص“ فرأيت فيه ”دجران“ و”جفان“ فى باب الكلام على الكرم . ولكن ”دجران“ تدل على الخشب الذى يتخذ تعريشة للكروم ؛ وأما ”جفان“ فهى قضبان الكرم نفسه أى ”عقل العنب“ على ما يقول العامة الآن فى مصر . فارتضيت هذه الكلمة الأخيرة . لأن هذه القضبان من شأنها حبس الماء، وطمه ، فتكتمه وتمنع نفوذه الى آساس البناء الذى يقام فوقها . على أننى ، مع ذلك ، سعيت لتحقيق هذه الكلمة عن نسخة معتمدة لابن عساكر ، ولكن على غير طائل ، لعدم وجود أثر صحيح لها بخزائن مصر . فاضطررت لمراجعة الطبعة التى مسخها بعضهم وشوّهها وخلط كلامه بكلام مؤلفها و بتر منها ما بتر ، ووصلت به الجُرأة على العلم وعلى الأمانة ، بل عدمُ التهذيب الى إبرازها للناس بهذه المثابة مع نعتها بـ ”تهذيب تاريخ ابن عساكر“ . فوجدتُ الكلمة التى نحن بصددها ”جفان“ . فحمدت الله على عدم



صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		وصول التشويه والتحريف والتصحيف والمسخ والغلط الى هذه الكلمة كما وصل الى غيرها مما لا يعد ولا يحصى . وعلى ذلك يجب تصحيح كلمة ”جران“ بكلمة ”جفان“ .
١٨٩	٣	بينها (بدلا من) بينهما الموجودة بصيغة المثنى فى نسخة الأم [اللهم إلا أن يقال أن ”بينهما“ هى للفصل بين ”الاقباء المعقودة“ من جهة وبين ”العمد“ من جهة أخرى . وفيه تعسف] .
٢١٣	١٢	بصنعة القوط . [و بمثل ذلك يصحح الهامش]
٢١٦	٦	لم يَعْدُ [هذا الضبط أفضل]
٢١٧	١٣	المُعينى (بضم الميم ، لا فتحها . نسبة الى معين الدين ، من رجالات الدولتين النورية والصلاحية).
٢١٧	١٤	بقرية ”تُبْنَى“ بالساحل من أعمال الرملة . هكذا ورد اسمها فى الأصل بالتاء المثناة الفوقية وبصيغة المبنى للمجهول . والصحيح أنه بالياء آخر الحروف ”يُبْنَى“ . وهى فى عصرنا هذا من أعمال غزة . وقال ياقوت إنه بُلَيْدٌ قرب الرملة فيه قبر صحابى ، يقول بعضهم هو قبر أبى هُريرة ، وبعضهم يقول قبر عبد الله بن أبى سرح . أما تُبْنَى ، فهى على ما فى ياقوت بلدة بحوران من أعمال دمشق . قال النابغة : فلا زال قبرٌ بين تُبْنَى وجاسم ＊ عليه من الوسمىّ جُود ووابل فينبِت حُوذانا وعوفا منوّرا ＊ سأهدى له من خير ما قال قائل والبيت الأول وحده رواه المخصص (ج ١٥ ص ١٩٣ عما أنشده سيبويه ، ولكنه جعل ”طلّ“ بدل ”جود“ . وهو أفضل .
٢١٨	١	فى الأصل : ”وقيل إن مدينة دقيانوس ويقال إن مدينة دقيانوس هى طليطلة“ . تخيلت أن الكلام فيه تكرار . لذلك حذفت الجملة الأولى ، أثناء الطبع ، ونبهت على ذلك فى الحاشية . بيد أننا اذا وضعنا ”إنها“ بدل ”إن“ الأولى لأستقام الكلام تماما . اذ يكون على هذه الصورة : ”وقيل انها مدينة دقيانوس ، ويقال ان مدينة دقيانوس هى طليطلة“ ،

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		وذلك لأن بعض المؤرخين يقولون إن أبسس (أفسس) Ephèse هى مدينة دقيانوس، مضطهد أصحاب الكهف، وبعضهم يقول إنها طُليطلة بالأندلس . ولمحقق هـذا الكتاب بحث واسع باللغة الفرنسية عن "الكهف والرقيم" من الوجهتين التاريخية والجغرافية، وعن جميع الاماكن التى زعم أهلها انهما بها .
٢١٨	١١	قرية "إرْبِل" تعرف فى أيامنا هذه باسم "إرْبِد" بالدال المهملة فى آخره . وهى الآن من أعمال جبل عجلون التابع لحكومة شرق الأردن العربى . وكانت فى أيام الحكومة العثمانية عاصمة لقضاء عجلون . وبها مسجد وسراى (بنيت سنة ١٨٨٤) . ومناخها طيب، ولها مستشرف بديع على الصحراء، يمتد شرقا لغاية بادية الشام ويطلّ من الجنوب والجنوب الشرقى على جبل عجلون بغاباته التى يتكاثف فيها شجر البلوط العتيق . وفى ساحتها حوض يملأه المطر . فيستقى منه أهلها، على طول السنة . وهى قائمة على موقع المدينة القديمة "أربلا" (Arbela) . وسكانها قبل الحرب العامة زهاء ١٣٠٠ نسمة، وهم الآن أكثر عددا . وإنما جعلها الاتراك "إربد" بالدال المهملة للتمييز بينها وبين مدينة "إربل" الشهيرة (Erbil, Arbil, Arbelles.) بأرض الموصل . كما فعلوا فى حمص التى بطرابلس الغرب فسموها خُمْس، وكما فعلوا بمدينة نصيبين بولاية حلب فسموها نِزِّيب، تمييزا لها عن نصيبين التى بالعراق .
٢١٨	١٦	سيلون . تعرف الآن عند أهل فلسطين باسم "سيلة الظهر" .
٢١٩	١١	كفر بريك (بالباء الموحدة) . لا كما وردت فى نسخة الام بالتاء الفوقية : "كفر تريك" . وهى قرية بفلسطين .
٢٢٣	١١	سُوبَل [وهو أيضا "شُوبَل" الذى تسميه التوراة "توبال قاين"] .
٢٢٣	١٥	منوشهر [وهو "منوچهر" عند الفرس والترك] . وليس متوشهر (بالتاء) كما فى نسخة الأم .

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٢٢٤	٣، ٦	أورد الناسخ اسم ملك الفرس مرتين متواليتين هكذا : سوراسف [بسين مهملة فى أوله فوقها ضمة] . وصحته على مايسميه العرب "بيوراسب" وأما الفرس فيسمونه : لُهراسب .
٢٢٦	٢٠	روى المؤلف عن البكرى الاندلسى ان للصابئة بيتا بحرّان فى باب الرقة يعرف بمعلنيشا . فرأيت الرجوع الى علم صديق العلامة الفاضل الأب أنستاس الكرملى، المعروف بالتحقيق والتدقيق فى مثل هذه الموضوعات . فتكرم وأفادنى بما نصه : كلمة مصحفة من "معلنيثا" . وهذه منحوته من الإرَمية (*) ... وتقرأ (بيت عَلْوَاثا) أى هيكل الاصنام . وقد أكد لى بعض علماء الصابئة الحاليين ان هذا الهيكل وارد ذكره فى كتبهم باسم "بَعْلْنِيثَا" ويعنى أيضا محل الضحية أو المحرّقة وبيت الصنم الأعلى . اه .
٢٢٩	٥	فى الأصل : "السند" بنون . والواجب حذف هذا الحرف لتكون الإشارة الى "السد" أى سد يأجوج ومأجوج . وذلك مايحتمه الموقع الجغرافى . لأن بلاد الخطا فى شمالى الصين، وأما السند ففى شرقى الهند . وشتان ما بينهما ! فلا يمكن أن يكون صنم الخطا المحجوج اليه الذى فى نهاية الشرق المتشامل، قريبا من بلاد السند . يؤكد ذلك ما أورده المؤلف نفسه فى ص ٤٧ س ١٦
٢٢٩	٩	الغزّية [يشير إلى بلاد الغز] .
٢٢٩	١١	أرض الأزير . هكذا ورد فى نسخة الأم . وقد أكثرت من البحث عن هذا الأزير، فلم أهتد اليه . وعندى انه محرف عن الغدير، لنهر هنالك تكلم عليه المؤلف (ص ٢٨٥ س ١١ وص ٢٨٦ س ١) .
٢٣١	٧	مدينة جُرَش . هكذا ضبطها فى نسخة الأم بضم الميم . وهو غير صواب، اللهم إلا فيما يتعلق ببلد باليمن . أما الذى نحن بصدده وهو المدينة الأثرية التى يتكلم عنها المؤلف، والتى هى الآن تابعة لامارة الشرق العربى فيما وراء الأردُنّ، فهى جَرَش (بفتح أوله وثانيه) ولا يزال أهل تلك الجهات ينطقون بالاسم على هذا الوجه، لا فرق فى ذلك بين الخاصة والعامة .

(*) رسم الاب الفاضل حروف هذه الكلمة باللغة الإرَمية، وقد اضطررت لاهمالها، مع الاسف الشديد، لعدم وجود شىء منها فى دور الطباعة بمصر .

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٢٣٤	٧	فى الأصل : "وتثنى تثنى" . أهمل الناسخ التاء الثانية فى صدر الكلمة الأولى . فيجب التصحيح هكذا : "وتَتَثَنَّى تَثَنِّى" .
٢٤٤	٧	أسراب (بالسين المهملة) جمع "سرب" للقناة فى جوف الأرض . ووضع النقط فى نسخة الأم فوق الشين المعجمة غلط .
٢٤٥	١١	Ceuta
٢٤٥	١٣	Port-Vendres
٢٤٨	١١	رواية "النقائض" : وَشَا كُرَّجٍ وجلاجله . [والكُرَّج : الحلى . والوشى ، معروف] .
٢٥٤	١٧	وكانا . (لا : كاونا)
٢٥٨	١١	فى الأصـل : "فوجه اليهـا عشرين دنا شرابا ومائة دجاجة وعشرين حَمَلا وسابح فاكـهة" فأولا — كلمة "اليها" يجب جعلها "الينا" كما يحتمه السياق . لان الكلام عن رجلين ، أحدهما جحظة وهو الحاكى للقصة والمتمم للرواية عن نفسه وصاحبه . وثانيا — كلمة "سابح" عليها فى نسخة الأم نقطة من المداد جعلتنى أتخيل أن المؤلف ضرب عليها بالقلم . فلذلك أهملتها فى الطبع ، لا سيما وانى لم أفهم لها معنى وقتئذ . لكن الأمانة أوجبت على المراجعة عنها والتدقيق فيها . وقد وجدت أن صاحب القاموس أشار فى مادة (ن ب ج) الى أن "النُّبُج" هى "الغرائر السود" أى الجوالق والزكايب . فتكون الفاكهة حينئذ من النواشف أى من نوع النُّقل . ويكون ابن فضل الله قد أراد الرجوع عن جمع الجمع (نبابج) لعدم وروده ، فضرب على الكلمة ثم سها عن وضع الكلمة الواردة فى كتب اللغـة ؛ أو يكون أراد أن يضع بدلها كلمة "أطباق" وهى التى آستعملها هو فى ترجمة الآمر بأحكام الله ، إذ مر برجل من أهل مصر

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		واقف على بستان له فاستسقاه . فلما شرب ، قال الرجل : أطمعنى فى السؤال يا أمير المؤمنين . وطلب منه النزول عليه ، وقدم له ولجيشه أشياء كثيرة تجل عن الوصف ، منها مائة طبق فاكهة . هذا واستعمال الأطباق للفاكهة معهود أيضا فى بغداد . فقد روى المؤرخون وأهل الأدب أن عبد الملك بن صالح أهدى لهارون الرشيد فاكهة فى أطباق خيزران ، وسماها فى كتابه الى الخليفة "أطباق القضبان" آحتشاما من تسمية الشىء بآسمه . لأن أم الرشيد كان اسمها الخيزران (انظر مطالع البدور ج ٢ ص ٣٦) . على أن كتاب بغداد قد آستعملوا الكلمة التى نحن بصددها . فقد ورد فى كتاب الموشى (طبع ليدن ، ص ٩٤) مانصه "والنبانيج المنضدة بأنواع الرياحين" ووردت فى نسخة أخرى : البنانيج . وعندى أنها مصحفة عن نبابج و نبابيج
٢٦٦	١٤	العُمْر (بضم أوّله وسكون ثانيه ، بمعنى الدير الكبير) .
٢٦٧	٢	الزنانير . أوردها الناسخ بهذه الحروف فى قول الشاعر : "وبهار مثل الزنانير محفو * ف بزهر الخيرى والحوذان" وأنت تعلم أن البهار لا يُشبَّه بالزنانير بل بالدنانير . فقد روى المؤلف نفسه (فى صفحة ٢٠١ س ١٨) قول الصلاح الصفدى : وبالأرض من حبها صفرة * فما تنبت الأرض إلا بهارا كما روى قول الخالدى (ص ٢٩٥ س ٩) وقد نقّط الزهر خد الربى * بدرهمـه وبدينـاره ونضيف إلى ذلك قول أبى نواس : زهرة عند زهرة عند أخرى * كآقتران الدينار بالدينار

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		وعلى ذلك يجب تصحيح "الزنانير" بـ "الدنانير" .
		اللهم الا اذا قيل ان الشاعر أراد "الزنانير" لنوع من الذباب ، صغار ، تكون فى الحشوش ، أى المواضع التى يذهب الناس اليها فى البساتين و بين مجتمع النخيل ، لقضاء الحاجة ، وذلك بعيد وغير مقبول . ولقائل أن يذهب الى انه أراد "الزنابير" أى تلك الذبابات اللساعة المعروفة باسم الدبابير . ففى برقشتها ما قد يسوغ معه مثل ذلك الرأى . ولكننى أوثر "الدنانير"
٢٦٧	١٢	تُرانا ... نُنَغِّصُهُ .
٢٧٠	١٧	أورد الناسخ البيت هكذا : ونعيمِ بوصل من كنت أهوى ٭ قد تبدلتـه ببؤس العتـاب والذى أراه أنه أراد "الغياب" بالغين المعجمة والياء آخر الحروف . لأن الشاعر يقابل به ما كان له من نعيم الوصـل . لقد كان يصح أن نقترح كلمة "العذاب" ولكن الشاعر آستعملها فى البيت التالى لتاليه . فضلا عن أن "العتاب" لا "بؤس" فيه . وقد يجوز أن يكون اراد "العقاب" لما وقع عليه من الظلم .
٢٧١	٧	يُرْمَ بى الرَّجَوَانِ . (هذا هو الضبط الصحيح) .
٢٧٨	٤	بقُطْرَبُّلَ . (هذا هو الضبط الصحيح) .
٢٨٠	١٧	قُفْصِيَّة [بضم القاف ، نسبة لقرية بين بغداد وعكبرا ، مشهورة بحاناتها وخمورها الجيدة] .
٢٨٢	٣	أكثرت البحث والتسآل عن أصل لفظة "ماشوش" . فلم أظفر للآن بطائل . وقد أفادنى العلامة الاب أنستاس الكرملى ان ما رواه الشابشتى هو خرافة . ولا مانع عندى من الانضمام الى رأيه الرشيد ، ليس فيما يتعلق بليلة الماشوس ، فى دير الخُوَات فحسب ، بل فيما ينسبه عامة الناس أيضا مما يضارع هذه الأشنوعة الى الدروز بلبنان وحوران ، والى الانصارية والنصيرية (أتباع

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		الشيخ نصـير) بولاية حلب وخاصة بناحية انطاكية ، والى الاسماعيلية المتوطنين بناحية القدموس بقضاء قلعة المرقب من بلاد سورية .
٢٨٣	٣	الَصبوح (بفتح الصاد) .
٢٨٥	٦	جَناحا (بالنون) .
٢٨٦	٨	عندى أن الأصوب رواية البيت هكذا : بريـــة شـــتواتهـا ٭ بحرية فيها المصايف فان الناس يتطلبون الاصطياف بجوار البحار ، كما هو مألوف منذ قديم الزمان .
٢٨٧	١٦	ورد فى الأصل : "يجوز العيس أبو الهندى" مع وضع كسرة تحت العين المهملة . ولا معنى لذلك . بل لابد أن يكون الصواب "يجوز العيش أبو الهندى" . والرجل على ما عرفنا به صاحب الأغانى (ج ٢١) والنويرى (نهاية الأرب ج ٤ ص ٤٥ فتوغرافية) هو عبد المؤمن بن عبد القدوس ابن شبث بن ربعى اليربوعى . كان من المستهترين بشرب الخمر . حج مع نصر بن سيار فقال له نصر : إنك بفناء بيت الله الحرام ، ومحل حرمة ! فدع الشراب ! فما هو إلا أن زال عنه صاحبه ، حتى وضع الشراب وجعل يبكى ، و يقول : رضيع مدام فارق الراح روحه ٭ فظلّ عليها مستهلّ المـدامع أديرا علىّ الكأس ، إنى فقدتها ٭ كما فقد المفطوم درّ المراضع ! ومرّ به نصر بن سيار ، وهو يميل سكرا ، فقال له أفسدت شرفك ! فقال لولم أفسد شرفى ، لم تكن أنت اليوم والى خراسان . (وانظر ص ٣٩٦ من هذا الكتاب ، و ص ٢٢ من "حلبة الكميت" طبع بولاق)
٢٨٨	١١	وقَـــذِرٍ

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٢٨٨	١٩	ودارتْ نُجُبُ الأبطا * ل تَحُثّ بحُلى الشُّرب هكذا فى الأصل "الأبطال" . ولاشك أن ذلك باطل ، ومن هفوات الناسخ . لأن المقام يعنى الشرب بـ "الأرطال" التى دارت على الندمان دورا حثيثا يشابه سير النياق السريعة النجيبة . ويجوز أن يكون الشاعر أراد الأنطال أى أقداح الخمر . وذلك أقرب لرسم الحروف ، ولكننى أتمسك بـ "الأرطال" لا سيا وان المؤلف قد استعمل هذا اللفظ فقال "فشربنا بالأرطال" (ص ٢٧٨ س ٣) ؛ "فاسقنى رطلا" (ص ٣٢١ س ١٨ ، ص ٣٢٢ س ٣ – ٦)
٢٨٩	١	على أوجه أعمار * على قُضُب على كُثُب هكذا كتب الناسخ . ولا معنى للأعمار هنا . بل هى "أقمار" ياسيدى . وعلى ذلك يجب رواية البيت على "الوجه" الآتى : على أوْجُهِ أقْمارٍ * على قُضُبٍ على كُثُبِ
٢٩١	١٢	تُراك (بالراء المهملة بضم التاء ، بمعنى هل ترى نفسك ؟) .
٢٩١	١٣	أُلْقِى (بضم أوله وكسر ثالثه) .
٢٩٢	٣	فأَجْراها (بسكون الجيم) .
٢٩٢	١٠	غوارب (بالمعجمة) . لا (عوارب بالعين المهملة) .
٢٩٥	١٨	بُسْط البنفسج ...... تبَسّطَ فى * صحون آس وخيريات تفاح سقطت كلمة من الشعر لم يكتبها الناسخ ولعلها "النسرين" أو ما على هذا الوزان . فتكون رواية البيت على هذا المثال . بُسْط البنفسج والنِّسرين تُبَسّطُ فى * صحون آس وخيريات تفاح والله أعلم .

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٣٠١	١٦	الطيبوث . لفظة إرَمية ، وهى بلسانهم ... (*) (وتلفظ طيبوثا بثاء مثلثة فى الآخر) . وهى عند نصارى اليعاقبة أصحاب دير القيارة : " مادّة تسوى أو تؤخذ من زيت قد صلّى عليه مطرانهم وباركه ، وقد أضيف اليه شىء من الماء ، وقليل من تراب رفات أحد الأئمة فى القداسة . وكان الحق فى تعريبها الطيبوت بتاء مثناة فى الآخر . لكن العرب عربوا ما كان على وزن فَعَلُوت بفتح الأول والثانى بتاء مثناة . فقالوا : ملكوت وجبروت وعظموت وسلكوت . وعربوا ما كان على فَعْلُوت باسكان الثانى بثاء مثلثة فى الآخر فقالوا : باعوث وراعوث وطيبوث . وقد خالفوها ، لناسوت ولاهوت ، وحيوت ، و ياقوت . (للأب أنستاس الكرملى)
٣٠٤	٣	نِسرين (بكسر النون) .
٣٠٨	١٥	زُنّاره (بضم الزاى) .
٣١٠	٩	"عُمْر عسكر" . هذه رواية ابن فضل الله . وقد قلت فى الحاشية ان ياقوت سماه "عمر كسكر" باسم البلد . فلمعرفة الحقيقة فى عصرنا الحاضر ، استفهمت من المحقق المدقق الأب أنستاس الكرملى ، فكتب لى : لم يكن عُمْر من الاعمار باسم عُمْر عسكر وانما هو عُمْر كسكر (بكافين مفتوحتين يتوسطهما سين مهملة وفى الآخر راء مهملة) . والعُمْر كلمة إرَمية معناها الدير الواسع ، يكون للرهبان . اهـ
٣١١	١	النَّخَب (بفتح النون والخاء المعجمة) ، بمعنى معاطاة الشراب بين الندامى .

(*) أهملت رسم الحروف الإرمية التى كتبها لى الأب الفاضل ، لعدم وجود شىء منها بدور الطباعة فى مصر .

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٣١٨	١٦	كتب الناسخ : وتربة وغناء : ذى يزول بها * سقم السقيم، وذا يُجلىٰ به البصرُ وأنا أظن أن المعنى يستقيم تماما، إذا غيرنا الضمائر، وروينا البيت على الوجه الآتى : وتُربة وغناء : ذا يزول به * سقم السقيم، وذى يُجلىٰ بها البصر لأن الغناء مزيل للسقم، ولأن التربة جعلها الشاعر كالإثمد الذى يُجلىٰ به البصر .
٣٢٢	٥	أديِك (بكسر الباء) .
٣٢٢	٢٠	الأسماء بعضها ببعض (لا ببعضها) .
٣٢٦	١٧	روى المؤلف عن أبى الفرج الأصفهانى أن النعمان بن المنذر كان بعد قضاء الصلاة فى دير اللج، ينصرف الى مستشرفه على النجب . فيفهم من ذلك أنه كان يركب النوق السريعة أو الأفراس الكريمة الى ذلك المستشرف . وهو كلام قد يكون وجيها، لولا ما فيه من الابهام فيما يتعلق بتعيين المكان، ولولا أنه لا معنى لأن يكون مستشرف الملك من البعد عن قصره بحيث يحتاج الى النجب للوصول اليه . ومن الأسف . إنى لم أعثر على كتاب الديارات لأبى الفرج، لتثقيف هذه الكلمة (النجب) . والحكاية غير واردة فى الأغانى . وإنى أتخيل انها محرفة عن (النَّجَف) . وذلك لقرب النجف من الحيرة عاصمة النعمان، ولأنه أرض عالية، فيكون المستشرف فوقها . وهو ما يليق بالملك كما سيأتى بيانه .

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
		ذلك أن الحيرة صغيرة البقعة، وكل دياراتها حول النجف وبعضها راكبة عليه، وكل آثار بنى المنذر على طرفه (ص ٣٢٧ س ١٠، ١١ وص ٣١١ س ١٤ و ٣١٧ س ١١ من هذا الكتاب) . وفضلا عن ذلك، فقد ذكر المؤلف أن ديارات الأساقف تشرف على النجف وعلى الظهر كله، وأن الصعود إليها يكون من أسفله فى خمسين درجة الى سطح أفيحَ فيه الخورنق والسدير (أنظر ص ٢٨٥ — ٢٨٦ من هذا الكتاب وانظر ديارات الأساقف فى معجم ياقوت) .
٣٣٨	٣	أعنابه (بالنون فى وسطه) . هذا هو الصواب، وليس : أعتابه، كما فى نسخة الأم . كيف لا، والمصنف قد عرفنا عن كثرة الكروم حول ذلك الدير؟ أما جلوس الندمان بين الأعتاب، فلا محل له من الاعراب، فضلا عن أن هذا الجمع سقيم لا يستعمله إلا العامة . ومثل ابن فضل الله قد كان يقول "العتبات" .
٣٤٣	١٢	الثياب "السَّبَنِيّة" منسوبة لبلدة ببغداد . وهى أُزُرٌ سودٌ للنساء . وهى حرير فيها أمثال الاترج . وتجمع على "سبانى" .
٣٤٦	١	شُدّ (بصيغة المذكر المبنى للجهول اشارة الى القيد) . وليس : شُدّت، كما فى نسخة الأم
٣٤٦	١٢	يعلُّك منها بُرهةً بعد برهـةٍ * سحاب بأخبار الرياض كفيل على أن السحاب لا يتكفل إلا "بإحياء" الرياض، لا بأخبارها . والأخبار — إن صح التعبير بها — إنما تكون من شأن النسيم . لذلك يجب وضع "إحياء" بدلا من "أخبار" الواردة فى نسخة الأم .
٣٥٨	٥	جنة الزبدانى : وهى حديقة كبيرة جدا بالقرب من دمشق ولا تزال يانعة، ومنها تصدر الفواكه الكثيرة الى مصر وغيرها . وغلط الناسخ فى الأم إذ جعلها "جبة" بالباء المنقوطة بواحدة) . أما جبة عسال، فبالباء ثانى الحروف، كما فى الأصل .

صفحة	سطر	تصويبات وتصحيحات
٣٦٢	٩	ممتع (بغير نون بعد التاء) إشارة الى كثرة الصيد فيه .
٣٦٣	١	قال ابن فضل الله إن دير القُصير الكائن بين مصر القديمة وحلوان على "سطح قُنّة من بلاد الفتح". وقلت فى الحاشية إننى لا أدرى ما يريد بقوله "بلاد الفتح". وأنا الآن أظن أنه قد يكون مراده "الفج". فقد استعملها المؤرخون فى ذكر الطريق بين الفسطاط وبين عين شمس . قال الكندى فى كتاب الولاة والقضاة (طبع لوندرة ، ص ٢٨٣) : "واقبلوا إلى الفسطاط ، فعسكر محمد بن تكين من بركة المعافر إلى الفج". وهذه البركة هى التى عرفت ببركة الحبش ، على ما ذكره المقريزى فى الخطط ، فى كلامه على البرك . وذلك الدير يعرف الآن باسم دير العريان .
٣٦٣	١٦	هو أبو صلاح الارمنى (لا أبو صالح كما كتبته أنا غلطا) .
٣٦٥	١٦	عُمْر (بضم العين ، بمعنى الدير الكبير) .
٣٧٥	١١	"ومرت الاطلاب مزينة الترك". هكذا وردت هذه العبارة فى نسخة الأم . وقد عقبت عليها فى ذيل الصفحة بما يفيد احتمال سقوط كلمة «بأبناء» لتكون الجملة هكذا "مزينة بأبناء الترك وجياد الخيل". بيد أنى بعد إنعام النظر ، أتخيل أن الناسخ غير كلمة «البرك» (لأنه لم يفهمها) بكلمة «الترك» . و البرك كلمة تركية كانت فاشـية الاستعمال بمصر ، على عهد المماليك . ومعناها السلاح . وكثيرا ما يستعملها المؤرخون لذلك العهد . و يكون المعنى أن "الاطلاب مرت مزينة أسلحتها وخيلها الجيدة" . و الطُلْب (بضم الطاء) جماعة من الجنود يكونون فى خدمة الأمير .
٣٨٠	٩	الكُماج (بضم الكاف لا كسرها) . نوع من الخبز كان معروفا بمصر ، ولا يزال مستعملا بصعيدها وفى بلاد فلسطين ، ولا سيما بلد الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

